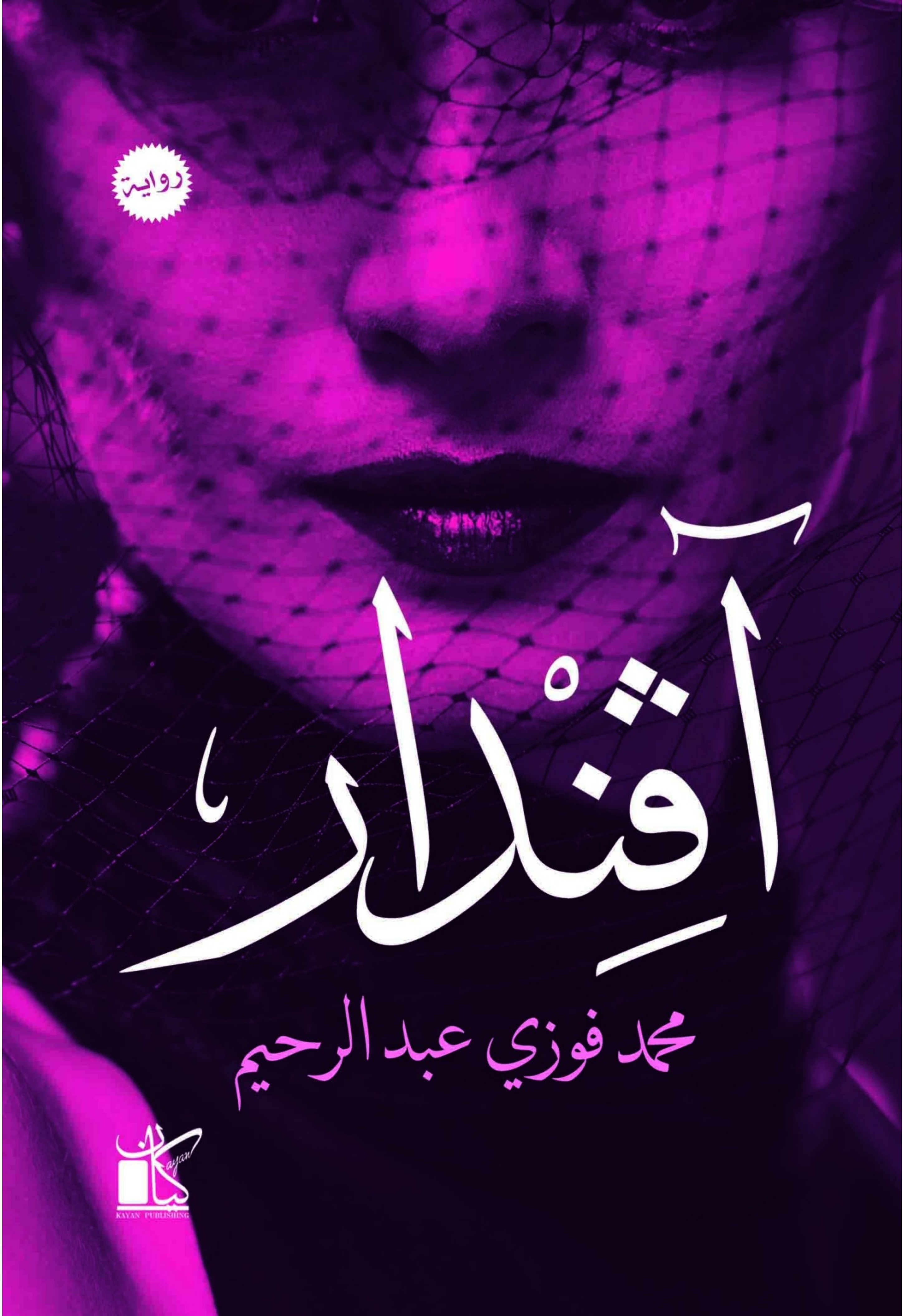
رواية
أقدار
محمد فوزي عبد الرحيم
كيان
Kayan
KAYAN PUBLISHING

أفندار

رواية

محمد فوزي عبد الرحيم

أفندار
رواية

تأليف :
محمد فوزي عبد الرحيم
تصميم الغلاف:
أحمد مراد
مراجعة لغوية:
أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2017/13599
الترقيم الدولي: 978-977-820-040-9

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

اهداء

إلى أبي..

من كنت غائبًا في حضوره، وصار حاضرًا في غيابه..

***

«إلى منبت أحلامي.. وقراري المكين..

إلى أمي»

«الأقدار.. ما هي إلا أفعال قمنا بها في زمن يسبق ظهورنا للوجود»

رالف والدو إمرسون

فيلسوف وشاعر أمريكي

-١-

عزيز بِك قاسم

١٩٤٩

- انظر إلى عينيها بثبات ولا تلتفت.. وبذلك فقط ستجدها تومئ لك بالطاعة!

قالتها وهي تبتسم نصف ابتسامة تلمع بطبقة من الدموع الهادئة ، مسحت بكفها الرقيق على وجهي الصغير ، وكأنها تزيد بتلك اللمسة الدافئة من جرعة طاعتي لمطلبها . أدارت جسدي بعيداً عنها بحركة هادئة .. وأشارت بإصبع يرتعش في بكاء مكتوم إلى تلك اللوحة الجدارية العتيقة ، وما عليها من رسم أنيق لإحدى أميرات أسرة محمد علي باشا .

وعندها كررت مطلبها مرة أخرى « انظر إلى عينيْ الأميرة .. ولا تلتفت مهما حدث !»، وأقسمت بحياة وليدها الغائب « صالح » بأن الحياة ستدب في جسد الأميرة إن أطلت التحديق بها .. ولسوف تومئ لي باسمةً .. فقط عليّ ألا ألتفت مهما حدث !

كانت الرؤية ضبابية بعض الشيء لإضاءة الغرفة الخافتة ، فلم أر من رسم تلك الأميرة الفاتنة سوى عينيها التي غزتها الأتربة ، وما أن بدأت في التحديق بهما حتى أسرت بنظرتها المهيبة روحي ، وتعلقت مشدوهاً بها ، ولم أتمكن من الالتفات حقاً .. رغم الألم الذي كان يعتصر أصابعي الصغيرة بين يدي أمي الباكية .

توقف الزمن لدقائق .. أو ربما لساعات .. لم أعد أذكر ، حتى تحررت من تلك النظرات الباردة ، وقد علمت أن الأميرة قد خانت العهد ولن تومئ لطفل ساذج مثلي لا بالطاعة ولا العصيان !

نكّ ست رأسي في حزن ، واستدرت بجسدي الضئيل تجاه جلسة أمي مرة أخرى ، التي لم ألحظ تراخي قبضتها الدافئة من على أصابعي ، شاكيً ا لها إخفاقي في جذب اهتمام الأميرة ، وما أن وقع بصري عليها حتى هاجم جسدي صقيع قاسٍ كاد أن يصيبني بالتجمد !

جرح غليظ توسّ ط عنق أمي السمراء .. نصل حديدي استقر بين يديها المدممتين .. صدر توقف عن حركته المعتادة بالأنفاس .. ودموع أوشكت أن تجف من على وجنتيها الهادئتين !

تجمدت حقًا لثوانٍ قبل أن تتهاوى قدماي أرضًا في صدمة، همست فيّ رعب مناديا «أمي».. فلم تجب..

كررت النداء واحتضنت بكفّي يديها الباردتين.. ولكنها لم تعد تشعر بلمساتي..

وحينها فقط .. آثرت أن أفعل معها ما أمرتني به تجاه الأميرة الرخامية .. « تعلقت بعينيها ولم ألتفت .. حتى تومئ !» ولكنها أيضً ا لم تفعل ..

مرت لحظات تعالت فيها طرقات الخدم على الباب ، بينما أنا كالأسير خلفه ، لم أنتبه ولم يطرف جفني ولو لطرقة واحدة ، حتى عندما كسروا الباب وانفلق إلى نصفين واندفعت حِ زم الضوء المتراقص ، التي ترسلها القناديل الفضية التي يحملونها تهاجم الظلام بأيدٍ مرتعشة ، لم أنتبه حتً ا .. ولم ألتفت كما تعهّ دت !

سقطت سحابة الضوء على ذلك المشهد القاسي ، الطفل الذي يحتضن يداً ميتة لجثة مدممة .. اعتاد أن يطلق عليها في يوم من الأيام « أمي !». تعالت صرخات الخادمات وتداخلت عبارات الاستغفار من الجنايني المسن عم سالم ، والسفرجي الشاب عم مصطفى .. بينما ألجمت الصدمة لسان أبي .. وتشاركوا جميعاً في مشاعر الهلع مما تراه عيونهم ..

عندها تحرك الكون بنصف سرعته ، فحملني عم سالم منطلقاً في ابتعاد وقد أطبق بكفّه الطينية على عينيّ ، ولمحت من بين أصابعه الخشنة انقضاض أبي على جسد زوجته الراحلة ، يضمها إلى صدره في بكاء محموم !

استغرق الأمر عشرين عاماً لأفهم حقاً ما الذي حدث في تلك الليلة المشئومة ، لماذا قررت أمي أن تنهي حياتها بتلك الطريقة البائسة؟ ولماذا وصمت ذاكرتي إلى الأبد بتلك الحادثة اللعينة .. لتطاردني بمطرقة الذنب حتى نهاية أيامي؟

وليتني ما فهمت!

شردت كثيراً في تلك الليلة ، ولكن .. لم يكن اليوم مناسباً لذلك الشرود المتكرر .. فاليوم هو الأهم في حياتي .. وفيه كنت قد تمكنت أخيراً من تحقيق حلمي المؤجل .

فقد انتهيت أخيراً من تجهيز مكتبي الفاخر الذي تنازلت عن ثمانية قراريط من ميراثي بأرض المزرعة لوالد زوجتي كامل باشا من أجل شراء أثاثه من إيطاليا ، واستغرقت أسبوعاً كاملاً بمساعدة عم سالم - سراً ودون علم والدي - في ترتيب محتوياته ، حيث المكتبة العاج التي برزت حروف اسمي الأولى على قائمها ، والتي امتلأت عن آخرها بكل ما قرأته يوماً أو اقتنيته من كتب تمنيت مطالعتها ، وذلك « الجرامافون » الذي أرسلته زوجتي ليلى هدية مكتبي الجديد في محاولة أخرى لاستقطاب مشاعري نحوها ، وكذلك المقعد القطني الفاخر الذي رقد أسفل النافذة المزخرفة . وتولى عم سالم تنظيف وتجهيز السجاد الإيراني الأسود .. بينما انهمكت أنا في

تنفيذ المهمة الأكثر ثقلاً على قلبي .. وهي تثبيت الصور الفوتوغرافية لمن اضطررت إلى نِفاقهم رغماً عني للاستمرار في عملي المحرّم ..

صورة ملك مصر والسودان وسيد النوبة فاروق الأول..

وصورة أبي قاسم باشا فريد..

وصورة حمّوي كامل باشا الحداد..

ومارست عادتي القديمة في محو أي أثر لذكرى أمي حتى ولو بصورة باهتة!

وأخيراً .. أزلت الأتربة عن اليافطة الرخامية التي زينت جبهة باب المكتب البني .. وقرأتها في أمل وتطلّع إلى مستقبل عاش أسيراً لماضٍ مكلوم ..

«عزيز بك قاسم.. طبيب نفسي»..

راقبت اليافطة وأنا أعيد تذكير نفسي بتلك المهمة المقدسة التي ارتضيت حمل أثقالها على كاهلي . « مساعدة كل من يلجأ إليك من مظلمي النفس يا عزيز مهما كلف الأمر ». وكأني اخترت تلك المهنة دوناً عن كل ما اعتاد الصغار على تصوّره بإجابة على أسئلة ذويهم « ماذا تتمنى أن

تكون عندما تكبر »، فقط لأكفّ ر عن فشلي في مهمة إنقاذ روح أمي بعد المأساة التي دفعتها للانتحار بتلك الطريقة القاسية .

جلست في هدوء تمرنت عليه كثيرً ا ، واضعً ا قدمً ا فوق الأخرى في أناقة وثقة ، متخذً ا من تلك الأرجل المتعانقة مجلسً ا لمفكرتي الورقية الصغيرة كما تعلمت من أستاذي « مسيو أدريان »، واستمعت في اهتمام إلى الفاتنة « آمبورسين » أو « سين هانم »، كما اعتاد زوجها « محمود بك فتح الله » أن يناديها لصعوبة نطق اسمها بالفرنسية ..

كانت « سين » هانم امرأة ذات جمال فطري ، بوجه به استطالة متصبغ بقطنية الثلج الأبيض ، وعينان واسعتان كبلور أخضر مزخرف .. وأنف صغير مدبب ينتصف وجنتين ملساءتين لا يعترض سطحهما سوى خصلة ذهبية من شعر اختفى معظمه تحت قبعتها الوردية الصغيرة ، التي صُ نعت خصيصً ا لتناسب رداءها القرمزي شديد الاتساع ..

اعتدلت في جلستي باحترام بالغ في حضرة ذلك الجمال الأسطوري، وهمست في ابتسامة هادئة:

- لقد اتخذت الخطوة الأصعب بقدومك إلى مجلسي.. وما عليكِ الآن إلا أن تحدثي دون خوف أو قلق.

رفعت خصلتها الذهبية في قلق وهي تنظر أرضًا في شرود ساحر:

- آخبرني يا عزيز بك.. هل تذكر أكثر اللحظات بؤسا في حياتك؟

ابتسمت في سخرية:

- لقد تبادلنا الأدوار مبكرًا.. فأنا من عليه أن يسأل.. وأنتِ من عليه أن يجيب..

رفعت عينيها بنظرة استعطاف تنهدت لها:

- تحمّ لني من فضلك .. فلست امرأة طليقة اللسان .. ولن أتمكن من البوح لك بمشاعري إلا إذا بادلتني مشاعرك ..

أغلقت مفكرتي الصغيرة، وأومأت في موافقة:

- حسنًا.. كما تريدين..

ابتسمَت في بؤس:

- هل عليّ أن أكرر السؤال؟

شردتُ مرة أخرى في تلك الليلة المظلمة وتعاقبت في ذهني ومضات قاسية من نظرات الأميرة الرخامية وقبضات يديّ أمي على أصابعي وهي تنحر عنقها في ألم وغفلة مني ، وكفّا عم سالم وهما تغطيان وجهي ، فطرقت تلك الومضات جفوني تجاه إغلاق قوي لاحظته « سين »..

نطقتُ بأعين مغلقة:

- أجل.. أذكر..

قالت في خجل وقد لاحظت حالتي الهادئة:

- من أين بدأَتْ؟

- من حيث ينتهي كل شيء.. بابتسامة..

- كيف لابتسامة أن تكون جزءًا من لحظة بائسة؟!

-عندما نعلم أنها ستكون الأخيرة..

-أكانت لحبيب؟!

فتحت عيني في ضيق من تذكر الأمر، وقد لمعت عيني بغلاف رقيق من دمعة محبوسة:

- تمنيت لو لم يكن..

افترس الحرج وجهها وتصبغ بلون قرمزي كردائها الطويل بمجرد أن لمحت دمعتي:

-«باردون» عزيز بك.. لم أقصد أن...

ابتسمْت مقاطعًا اعتذارها المضطرب:

- لا عليكِ.. ها وقد صارحتك ببعض مشاعري.. دورك الآن.. أخبريني بما يؤرقك.

استسلمتْ أخيرًا وتعلّقت بعيني:

-ربما يؤرقني ما يؤرقك.. تلك الابتسامة!

- ابتسامة أخيرة؟!

- لم تصبح ذلك بعد .. (تنهَّ دَ ت في انكسار) بالرغم من أنك لم تكمل شهرين في المحروسة فإنه من المؤكد أن الخبر قد وصل إلى مسامعك .. باستهجان البعض وتعاطف البعض الآخر .. سين زوجة محمود بك .. امرأة عاقر !

-أجل.. ولكن ما أعرفه أن محمود بك لا يبالي.

- إنه فقط يصطنع ذلك ! يجلدني في كل يوم وليلة بتلك الابتسامة الهادئة ، التي يظن أنها ستخفي حسرته .. ولكني .. ولكني أعلم أنها قد تكون الأخيرة في يوم ما .. مهما ظن أن عشقي بقلبه سوف يُ كفيه .. لكنه لن يتمكن في النهاية من التنازل عما يأمل ..

اعتدلت مرة أخرى وفتحت مفكرتي:

- هل ما يعتصرك .. هو الخوف من رحيله عنك؟ .. أم (وقد علمت أن هذا هو الاحتمال الصحيح) شعورك بالذنب والتقصير تجاه من تحبين؟ !

انفجرت في حزن:

- بل الكراهية يا عزيز بِ ك ! الكراهية تجاه نفسي وذاتي .. لم أعد أطيق النظر في المرآة .. لم أعد أرغب في رؤية تلك البلهاء التي تتسبب في كل لحظة بالألم لمن تحب ..

استقبلت انفجارها في ثبات ، بينما صمتت هي في خجل بعد خروجها عن آداب المرأة الراقية . قلّ بت عينيها أرضً ا في حركات دائرية .. ثم اعتدلت استعدادً ا للرحيل في شعور بالعار ..

- ربما كانت فكرة ساذجة.. اسمح لي بالانصراف..

نهضت في احترام لموقفها:

- على العكس .. بل كانت فكرة تستحق الإعجاب .. منذ أن جئت إلى المحروسة .. لم يجرؤ أحدهم على طرق باب طبيب نفسي كما فعلتِ .. فالجميع يعتبرها وصمة قد تلطخ ألقابهم بعار الجنون ..

أكملت نهوضها وتحركت خطوة:

- لن أوصيك بالحفاظ على سريّة لقائنا..

وأثنت ركبتها هبوطاً في تحية راقية وتحركت للرحيل ، فأومأت لها في احترام ونزولاً لرغبتها ، وما أن اختفت حتى ألقيت بجسدي في إرهاق على ذلك المقعد الفاخر ، الذي لم تنجح بطانته القطنية في تخفيف حدة التعب الذي أصاب نفسي قبل أعضائي .

كنت أعلم منذ أن اخترت دراسة الطب النفسي بفرنسا أنه لن يلقى رواجاً بين سكان المحروسة ، فهم يعتبرون الطبيب النفسي سفيراً للجنون ويفترقون عن لقائه - لو استطاعوا - فراق المشرق والمغرب .

ولولا أن « سين هانم » سيدة فرنسية لم تُمسخ معتقداتها بعد بمخاوف المصريين ، لظللت بلا عمل لشهرين آخرين ، ولواظب كامل باشا على عادته اليومية في تزيين مستهل أحاديثه معي أو عني بالسخرية مما أفعل !

وبالرغم من محاولات زوجتي الفاتنة « ليلى هانم » سليلة الحسب والنسب إرضائى بدعمها الزائف لعاهتي الوحيدة ، لكنها لم تنجح إلى الآن في الولوج إلى قلبي ولو خطوة واحدة ، وتختار – مثلي تمامً ا – أن تتجاهل الحقيقة المؤلمة بأني لم أتزوجها إلا بإجبار من أبي شريك أبيها بمصنع النسيج .

وكالعادة ، اخترقت خطواتي البوابة الفاخرة لقصر كامل باشا متجاهلً ا وجوده بالحديقة الخضراء يجلس متجرعً ا قهوته العصرية اليومية .. يتلقى ظهري كلماته الضاحكة في سخافة واضحة :

- قد أعيد لك القراريط الثمانية في مقابل ذلك المكتب المقفر .. فلا حاجة لك به دون عمل ! وقد أستفيد به في مقابلاتي القريبة من ميدان التحرير .

وصلت إلى غرفتي لحظيً ا ، وقد أسقطت زمن مروري ببهو وسلالم القصر الفاخر ، وارتميت على فراشي في إرهاق بالغ . أغمضت عيني مصطنعً ا نعاسً ا مفاجئً ا . مرت ثوانٍ رجوتها أن تمنحني نعاسً ا حقيقيً ا يقذف بي خارج أسوار ذلك الواقع المرهق . ولكن .. التقطت أذناي صرير أنفاس شيطانية كانت تقترب رويدً ا من مأمني .

كانت زوجتي البائسة . استمعت لصمتها فأدركت مراقبتها لاصطناعي التافه للنوم . بدت أنها لم ترد الاستسلام لتلك الخدعة الساذجة ، فارتمت خلف نومتي كصقر ينقض على سمكة صغيرة تربّ ت على أن الخروج من الماء ليس نجاة من الغرق ، وإنما موت بطيء . أخرجتني من الماء وقد ألصقت نهديها بظهري ، وكأنها تحاول أن تعالج في حنان – واستقطاب لشهوة – ما أصابه من كلمات أبيها من كدمات أليمة .

همست في أذني:

ء ء

- لن آواسيك اليوم يا عمري.. بل سأعطيك ما ستقطع به لسان ذلك الأحمق!

ارتعشت عيناي المغلقتان في تردد ، ما بين الاستجابة لغواية حديثها ، والاستمرار في نومي الكاذب . فمرت لحظات قصيرة من الصمت قطعها زفير لحظي انطلق من أنفها في إشارة إلى ابتسامة هادئة .. وكأنها اكتشفت فعلتي الطفولية ..

- عندما تستيقظ.. فقط تذكر ذلك الاسم.. «جلنار طوسون»!

اعتدلتُ في لحظتها مواجهً ا إياها في تعجب من ذلك الاسم ، وعندها أطلقت ضحكة أنثوية عالية لم تُ ثرفيَّ إلا الحنق :

- وما علاقتك بتلك المرأة اللعوب؟!

واصلتْ مزاحها المستفز:

- صُن لسانك يا عمري.. ألا تعرف عقوبة الخوض في عفة أميرات الأسرة الحاكمة؟

انتفضت في غضب وأمسكت بذراعيها بقوة:

- كفي عن ذلك المزاح!

اهتزت بين قبضتي الغليظتين التي لم تتناسب مع ما قالت ، ولكنها بدت متنفّ سً ا لشحنة الغضب الذي احتبسته بين ضلوعي لفترة طويلة .. ولم أتمكن من إطلاقه لضآلة قدري ..

بينما ضمت هي كتفيها إلى صدرها في ابتسامة حنين:

- آااه .. لو أعلم أن غضبتك ستقطع تلك الهدنة الطويلة بين أصابعك وجسدي لأغضبتك في كل يوم تشرق فيه الشمس على جبهتك يا عمري !

تسمرت نظراتي بغوايتها للحظات ، ولكن لم ألبث حتى اندفعت مبتعدً ا عنها زافرً ا في ضيق ، مشيحً ا بوجهي عنها .. فاتبعتني في تنهيدة أحرقت قلبها ، وكأنها تبتلع حزنها من انصرافي عن مشاعرها في يأس ..

- اطمئن يا عزيز.. فمجالسة الغواني وإن كن أميرات.. ليست من هوايات ليلى هانم الحداد..

-فما القصة إذًا؟

- كما أخبرتك .. ذلك الأحمق الذي أصر القدر على أن يكون والدي .. لا أطيق صبرً ا حتى أطيح به إلى الأبد .. من أجلك !

اصطنعت الرفض:

- ومن أخبركِ أني أتمنى الإطاحة به؟

تجاهلت كذبتي الباهتة وأكملت:

- ولا سبيل لنا في ذلك.. إلا جُلنار طوسون..

ران الصمت بيننا للحظات ، دون أن أعقّ ب بالرفض ، فابتسمت وقد اعتبرت صمتي بمثابة موافقة صريحة باستكمالها الحديث .. وأكملت ، ولكنها هذه المرة كانت تشتعل بحماس اللصوص :

- كنت أشك لفترة طويلة بعلاقة آثمة بينهما .. ولكن غاب عني الدليل .. حتى تمكنت عائشة من إيقاع إحدى وصيفات جلنار في حديث سرّ ي .. وأخبرتها أنهما يتلاقيان كل ثلاث ليالٍ ..

حصلت أخيرًا على ما أبرر به استنكاري لما قالت:

- عائشة؟ الخادمة؟ أترسلين الخادمة في أثر أبيكِ؟!

أجابت في ثقة حازمة:

- لم يكن دورك قد حان بعد!

انتبهت لها متعجباً:

- أي دور؟

ابتسمت في ثبات وشيطانية:

- الانتخابات على الأبواب يا عمري .. وكامل باشا الحداد يعتبر من أهم مرشحي الوفد هذه المرة .. ومن المستحيل أن نسمح بفوزه ..

- طالما تعجبت من حقيقة أن تكوني أول من يدعم السعديين ووالدكِ من رجال الوفد!

-لا ذنب لى في أنه اختار حصاناً خاسراً..

- لم تعد لي هواية منذ عودتي من باريس سوى مطالعة الصحف يا ليلى .. لا تخدعي نفسك .. فضائح وزارة السعديين السابقة .. تلطخ جبين الحزب بالعار .. فربما تمتطين أنتِ ذلك الحصان ولكن لا تشعرين ..

أطلقت ضحكة عالية وراقبتني في دهشة:

- عزيز يتحدث بالسياسة؟! أكاد لا أصدق..

تنهّدتُ من سخريتها:

- قررت فقط أن أطالع الصحف!

تجهمت في تعالٍ:

- تلك الصحف نحن من يكتبها يا عمري.. فلا تعتلي أذني بما لا تفهم من حديث تافه..

استشعرت حنقها من إهانة حزبها الحبيب فشعرت بنشوة دفعتني لاستفزازها:

- ذلك الحديث التافه استقر بقناعة الكثيرين من سكان المحروسة..

قرأت محاولتي الطفولية وابتسمت نصف ابتسامة:

- ها قد فهمت ما لم تفهمه .. أتستنكر الضغط على كامل باشا بفضيحة أخلاقية؟ ذلك هو الملعب الآن .. والوفد هو من بدأ برصفه .. بعدما شن تلك الحرب القذرة بالتأثير على أصوات الناخبين بالضرب في سمعتنا .. ومن غير صحيفتي النداء وصوت الأمة وغيرهما من حلفائه ليكونوا له خير معين في ذلك؟ البادئ بالقذارة هو الأظلم يا عمري ..

احتقرت مبدأها:

- تلك المقالات عن تعذيب السجناء واستغلال النفوذ لم تكن افتراءً وأنتِ تعلمين ذلك .. وإلا لم يكن لإبراهيم عبدالهادى رئيس وزرائكم أن يعترف بذلك ويبرره أيضً ا .

اقتربت مني في تحدٍ:

- حسناً.. وعلاقة كامل بجلنار ليست افتراءً هي الأخرى.. فما الفارق؟

سكتُّ للحظات . ولم أعلم حينها سببً ا لذلك السكوت . ربما ضقت ذرعً ا من التفافها حول دفاعي عمّ ا أؤمن به لتثبت صحة ما تؤمن به . وربما لرغبة خفية استقرت بقلبي . رغبة الهزيمة أمام حجتها فقط لأشارك في الإطاحة بكامل باشا الحداد . فبالرغم من استنكاري لأساليبها في الإطاحة بأعدائها ، لكن عدوها الآن هو عدوي .

تظاهرت بمواصلة رفضي لرغبتها واكتفائي من كلماتها، فتجهمت في ضيق:

- حسنا حسنا.. وما علاقتي آنا بذلك الهراء السياسي كله؟

ابتسمت في غواية مرة أخرى وأراحت كفها على وجهي في إغراء وثبات:

- لو علم زوج جلنار بالعلاقة بينها وبين الحداد.. لانتهى الأمر بكلمة واحدة..

راقبتها بعينين ضاق جفناها، وكأنما أطبّق عليها كل ما تعلمت من أساليب الفراسة:

- حسين قادين لن يصدق كلمة واحدة تسيء إلى جُ لنار .. وإن صدّ ق .. فلن يفعل شيئً ا .. فسيرتها العطرة تهاجم أذنيه منذ سنوات .. ولم يتخذ إلى الآن خطوة واحدة تجاه معاقبتها أو معاقبة عاشقيها ..

- لم يكن يملك الدليل.. و...

قاطعتها بخطوة للوراء وقد فهمت ما كانت تحاول أن تقول:

- أسيكون دوري هو إخبار قادين بالأمر؟

تنهدت من سذاجتي التي لا ترقى لمستوى فكرها الإبليسي:

- كلا بالطبع.. فلن يصدقك.. إلا إذا...

- إلا إذا ماذا؟!

-قدمت له الدليل.

-وكيف سأفعل ذلك؟!

ابتسمت في رضا من استسلامي للأمر ومجاراتي لها ، وقد فضحت رغبتي في الإطاحة بأبيها بالرغم من محاولاتي السابقة في اصطناع الشرف والمروءة :

- ما دامت كلفت نفسك عناء السؤال.. فلسوف توافق!

انتفضت في غضب:

- أوافق على ماذا؟ كفي عن تلك الألاعيب!

أجابت في حزم قاطع:

- لست أول طبيب نفسي بالمحروسة يا عمري .. بل سبقك أمين بك عبدالمنعم .. وهو الرجل الذي لا تتأخر جُ لنار في مقابلته سرًّا أملًا في القضاء على نوبات فزعها الليلية !

سألت في ريبة:

- وما علاقة الطب النفسي بالدليل الذي تريدينه؟

جلست في هدوء واضعة إحدى قدميها فوق الأخرى في ثقة كسياسية محُنكة:

- أوصيت وزير الداخلية بالإطاحة بأمين بك .. وسيتم اقتياده إلى السجن بتهمة انضمامه لجماعة الإخوان المسلمين .. لقد صدر قرار بحلّها بعد النقراشي إن كانت الأخبار لم تصل إلى باريس ..

قاطعتها:

- أجل، ولكن أمين بك ليس إخوانيًا!

زفرت في ملل من بطء فهمي:

- حتى ولو لم يكن.. لن يكون من الصعب تلفيق ذلك..

راقبتها في ضيق:

- أتلقين برجل مسن ضعيف إلى السجن بتهمة باطلة.. من أجل ماذا؟

اقتربت مني في شغف غير مفهوم:

- هذا هو السؤال حقًا.. لأخلي لكِ الطريق يا عمري.. سأقدمك إلى جلنار بديلًا عنه و...

قاطعتها في غضب:

- توقفي! لن أفعل ذلك!

قاطعتني في حزم مخيف : بل ستفعل ! ستحصل على ثقة جُ لنار .. وتُ فضي إليك بكامل اعترافاتها .. وستستخدم الجرامافون الذي وصل إلى مكتبك صباح اليوم لتسجيل اعترافاتها .. وتسوقها إلينا ..

وقبل أن أهاجمها بقول آخر ، نهضت في هدوء باسم ، وطبعت قبلة باردة على وجنتي الساخنة ، واتجهت للرحيل مذيلّ ة رحيلها بجملة ألجمت لساني :

- ولكن احذر يا عمري .. فـ « جلنار » امرأة ذات جرأة وثبات .. قد تتلاعب بك طويلً ا إن شعرت بخواء نفسك .. وسبيلك الوحيد هو أن تتبع نصيحتي ..

ثم أردفت كشيطان تناقل بين الأزمان.. وعلم من الحديث ما يطرق به على القلوب ليصمتها:

-انظر إلى عينيها بثبات ولا تلتفت.. وبذلك فقط ستجدها تومئ لك بالطاعة!

مرت الأيام دون أن أحسب لها عددً ا ، قضيتها في محاولة عَ جْ م ما حدث مع تلك « الليلة الحدّ ادية ».. وبعد تفكير مضنٍ بدأت الصورة تنجلي أمام عيني ، فأنا لم أتزوج حقً ا من فتاة جميلة هادئة تذوب عشقً ا في شخصي الساذج ، أجبرني أبي على الزواج منها بضغط من أبيها ، وإنما تزوجت من امرأة شيطانية تتلاعب بأقدار العباد وقلوبهم .. وربما هي من أجبرت أباها على إجباره لأبي ليجبرني على الزواج بها .. سلسلة بائسة من الإجبار فقط لأنها تحبني وترغب في امتلاكي !

خرجت عن شرودي كالعادة على صوت عم سالم الذي اقتحم جلستي بمكتبي الفاخر ، معلنً ا عن حضور آلهة الشهوة في مصر الحديثة « جُ لنار طوسون »..

انتصبت في ثبات بمنتصف الغرفة الواسعة مراقبً ا درفتي الباب ، اللتين زينتا دخول تلك الفاتنة بظهور درامي ، وما أن اقترب ظلها من عتبات الغرفة حتى أضاءت بوهج لم أعلم مصدره ، فقط ترامى ضياؤها على الجدران وزحف على قطع الأثاث زحفً ا .. حتى وقفت أمام عيني المنكسرة أرضً ا ..

رفعت بصري في بطء بالغ .. وتسلقت نظراتي كل إنشٍ من جسدها .. بداية من ذلك الحذاء الماسي عالي الكعبين ، مرورً ا بخصرها المخروطي العائم ونهديها الممتلئين ، وحتى عينيها الواسعتين المظللتين بأهداب منفرجة حالكة السواد .. وهي تنظر إليّ في جرأة وبريق يخطف الأبصار ..

ربما لن أتمكن من إنصاف هيئتها بحق الوصف ، فهي حقً ا تُ مثل أكثر خيالات الرجال تطرفً ا .. وأفتك ما قتل النساء غيظً ا !

وقفت أمامها مشدوهً ا وكأني عدت إلى شرودي مرة أخرى ، فتوارب فمها بنصف ابتسامة قاتمة وأثقلت جفنيها في يأس ، وكأنها تعجز عن إتمام تلك المهمة الباسمة حتى النهاية . وما إن فعلت حتى غادر عزيز الذكر الأهوج ، وأجلس محله عزيز بك قاسم الحكيم المحنك ، الذي علم أن ما وراء تلك الأنثى الكاملة بئرً ا سوداء غائرة من اليأس والحزن ..

عدَّ لتُ من وقفتي وأشرت لها بالجلوس ، وما أن فعلتْ حتى جلستُ أمامها في ثقة الحكماء ، وكالعادة .. أسندت مفكرتي الورقية على ساقيّ المتعانقتين في ثبات .. وشرعت في تعريف نفسي أمام حضرتها ..

لكنها قاطعتني في هدوء بالغ وصوت متقطع الأوصال:

- أعرف كل شيء عن زوجتك وأبيها وخطتها في استغلالي للإطاحة به!

أظلمت كلماتها الغرفة وشعرت بثقل يخيم على رأسي ، فانعقد لساني .. وهاجم الصقيع شعيرات ذراعي فانتصبت . راقبت حالتي في هدوء ، فأومأت بتأكيد الأمر ..

ء ء ء

كان تلك هي المرة الأولى التي أنظر فيها إلى عين امرأة ولا ألتفت.. لتومئ لي بتلك السرعة!

ودون مقدمات انهمرت دموعها كقطرات سيل عارم أطاح بالنوبة ، وجرّ د ملكنا العظيم من لقب سيدها ، وأطبقت على يدي في هلع :

- لم آتِ إليك من أجل ما خططت له مع زوجتك.. وإنما جئت لك في أمر أهم من ذلك بكثير..

تبادر إلى ذهني أن أنفي تهمتها ، لكني لم أفعل ، بل نهضت في مروءة لم أشعر بها من قبل ، واتجهت إلى الجرامافون وأطحت بأسطوانته التي كانت تسجّ ل لقاءنا .. وعدت إليها وقد وقّ عت مرة أخرى على ميثاق شرف المهنة ، واقتربت منها في صدق بالغ ..

همست إليّ بشفتين مرتعشتين:

- لـ.. لماذا عليّ أن أثق بك؟

ابتسمت لها في تقدير لاتهامها:

- لأني أقسمت على مساعدة من يحتاج..

راقبتني في دموع وريبة:

- ومن ساعدت قبلي؟

نظرت أرضًا في صمت وتذكرت أمي:

- لا أحد!

صرخت فجأة وكأن الوقت يضيق بها:

- لماذا إذًا؟! أخبرني بسبب واحد لتختارك أنت دونًا عن الجميع لترسلني إليك..

ظننت أنها تتحدث عن زوجتي:

- مَن.. ليلى؟!

امتعضت من خطأي الفادح:

- كلا بالطبعٍ!

- من إذا؟

-ألم تخبرك؟!

-بالله من تقصدين يا سمو الأميرة؟!

صرخت في هجوم:

- كف عن التلاعب بي أيها الأحمق!

تعجبت من صرختها وهيستيريتها الملحوظة:

- حسناً حسناً.. فقط اهدئي! هل اااا....

قاطعتني في جنون:

- إنها هنا!

اقتربت منها في ريبة وهدوء متحفزاً لانفجار آخر منها:

- حسنا.. أين؟!

تلفّتت يمينًا ويسارًا وتحدثت هامسة في رعب بالغ:

- تـ.. تلك الفتاة.. إنها.. إنها تطاردني! في كل مكان! تريد اااا..

جلست أرضًا أمام قدميها في محاولة للسيطرة على خوفها:

- أنا لا أرى أحدًا.. إن كانت بالخارج فسأرسل إليها عم سالم ويأتي بها.. اطمئني..

انتفضت ناهضة في قوة:

- إنها أمامك أيها الأبله.. كيف لا تراها؟!

اقتربت منها في حذر ، فانطلقت راكضة في هلع إلى المكتب وأطاحت بأوراقه ومحتوياته أرضً ا .. وقد علقت عينها على باب الدخول !

صرعتها غاضباً:

- اهدئي يا سيدتي! من هي تلك الفتاة؟! ما اسمها؟!

قبضت على يدي في قوة وخوف، وأشارت للباب:

- ف... فقط راقب الباب.. ولا تلتفت قبل أن تأتي!

أمسكت بها في قوة محاولً ا تهدئتها .. لكنها قبضت على يدي بقبضة غليظة .. وحدّ قت بعيني في لحظة توقف فيها الزمن كما لم يفعل من قبل .. وكأنها أرادت أن تخبرني أمرً ا ألجم الخوف لسانها عنه !

وما أن عاد الزمن إلى حركته الطبيعية حتى انحرفت حدقتها بعيدً ا عن عيني تجاه باب المكتب خلفي وجحظت عيناها ..

التفتُ تجاه مهبط بصرها ويدي تحت قبضتها .. فلم أجد شيئً ا .. ولم يقترب أحدهم من الباب حتً ا .. وعندها .. شعرت بقبضتها تعتصر أصابعي ، اتسعت حدقة عيني لذلك الشعور فقد شعرت به سابقً ا !

أدرت رقبتي تجاهها في قوة! وحينها فقط.. تجمدت طفلًا مرة أخرى..

فقد نحرت جُلنار عنقهاٍ بفاتحة الأظرف، وارتطم جسدها أرضًا دون حراك!

-٢-

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

«لا تنظري إلى عينها.. حتى تتجاهلَكِ تمامًا»..

قالها وهو يشير بسبابته إليّ في ثبات ، حاولت تنفيذ أوامره في صعوبة بالغة وقد اختفى وجهه خلف جسد تلك الكاميرا الرقمية التي اشتراها لتوّ ه بكل ما ادخر من أموال ، والتي بالرغم من صغر حجمها فإنها نجحت في إخفاء رأسه الصغير خلفها .. حتى شعرت وكأن عدسة الكاميرا التي استبدلت ملامحه هي التي تحدث وتنطق في برود .

«عين الكاميرا لا ترى من ينظر إليها.. فقط تعشق من يتجاهلها»..

أردف بتأكيد على تلك الملاحظة خلال جلسة التصوير الأولى لي وربما المائة له ، وبالرغم من جرأتي المعهودة ، فإني شعرت بالتوتر للمرة الأولى .. الذي لم يكن « عمرو » سببً ا فيه ، وإنما بسبب تحديق تلك العدسة الزجاجية بوجهي وبريق قوسها القزحي الذي لمع كلما انعكست عليها إضاءة الغرفة .

ضرب البرق اللحظي أرجاء الغرفة بمجرد أن ضغط على زر التصوير ، وحينها لم أتمكن من مقاومة النظر مباشرة إلى تلك العدسة « الندّ اهة » في نظرة خاطفة ، اعتدل عمرو في إرهاق وخيبة أمل متنهدً ا ، ناظرً ا إليّ في عتاب مازح .. بينما اكتفيت أنا بمد كتفي للأعلى في بلاهة .

«لم أتمكن من المقاومة»..

تحرك تجاه مصباح الإضاءة الوهّ اج وأغلقه أثناء حديثه : كنت مخطئً ا عندما قررت أن تنالي شرف الصورة الأولى لتلك الكاميرا المقدسة .. الآن سيظن الجميع أني أبعد ما يكون عن المصور الاحترافي ..

تحركت إليه وربت على كتفه في استهزاء مازح ناسب فرق السن بيني وبينه وكذلك فرق الطول : لا تتفاخر هكذا .. أهناك من يرى هراءك البصري غيري؟

ابتسم في دفاع طفولي وهو يسحب الملاءة السوداء التي حبست ضوء النهار خارج نافذته . فاندفعت أشعة الشمس تغزو القاعة الواسعة : هكذا الحال الآن ولكن انتظري حتى يصل « إيميل » المنظمة العالمية ..

تجرعت بعضًا من كوب العسل المغلي الذي طلبته خصيصا: ألا تعلم ما يقال في تلك المواقف؟

نظر إليّ في اهتمام لأردف قبل أن أطلق ضحكة عالية: موت يا حمار!

أومأ بعنقه وهو ينظر أرضًا في ابتسامة اختلطت بخوفه من أن يصيب مزاحي من الحق حقًا ، وعندها اقتربت منه في لطف : فقط أمزح معك أيها الأبله .. لا أحتاج أن أردد لك في كل مرة نتقابل فيها صدق إيماني بموهبتك الفريدة .. وآمالي الكبرى في رؤيتك كأفضل مصور فوتوغرافي عرفته البشرية ..

ابتسم في امتنان وهو يجلس على مكتبه الصغير ناقلًا محتويات كارت الذاكرة من الكاميرا إلى اللاب توب الخاص به استعدادًا لإدراجها داخل برنامج تعديل الصور لتنقيحها : ألا تشعرين في بعض الأحيان بذلك الـ ... ؟

تنهد واصطنع التحديق بشاشة اللاب توب في تجنب لمواجهتي خجلًا من شعوره : ذلك .. ذلك الشعور القاسي .. أنك ربما تكونين على خطأ .. متوهمة فيما تظنينه بنفسك .. أموهوبة أنا حقًا؟ هل أسعى في الطريق الصحيح؟ هل سأحقق يومًا ما يظن الجميع أني لست قادرة عليه؟

نطقت في لحظية وتنهيدة حزينة: في كل لحظة تتبع استيقاظي.. وحتى تلك التي تسبق نومي!

نظر إليّ في دعم وكأننا اتحدنا في تلك المشاعر المؤلمة من التشكك في أحلامنا التي ركضنا خلفها وحيدين ، فأدرت وجهي في تهرّب من تلك اللحظة ، وتأملت في تعجب زائف ذلك المخزن الواسع الذي اتخذه عمرو بمثابة بيت واستوديو له . راقبت فراشه المعدني الصغير الذي انتصف المكان ، وكذلك الطاولة الحديدية التي ازدحمت عن آخرها بالعديد من العدسات الرقمية وأدوات تنظيف الكاميرا وضبط إعداداتها ، وعلّقت في تغيير للموضوع على تلك الحياة البوهيمية التي يحياها بمشقة متعمدًا .. والتي حسدته عليها سرًّا ..

- عليك حقا آن تعثر على غرفة حتى ولو ببضع مئات من الجنيهات شهريا بدلا من......

- ولم أفعل؟ فلديّ كل ما أحتاج .. بالاستوديو أصور ما أشاء ومن أشاء ، وبتلك الطاولة أطبخ ما أريد ، وعلى ذلك الفراش أضاجع من أشتهي ..

ضربته على رأسه ضاحكة : تأدب أيها الأهوج .. (هممت بالرحيل) فقط لا تنسى ميعاد الديفيليه الليلة .. فأنت لا تعلم حقً ا كم حاربت تلك العجوز « إيمان » لتتولى أنت تصويره للشركة ..

وقبل أن يجيب في تأكيد على مجيئه ، قطع صوت طرق خفيف على أرضية الاستوديو الخشبية أولى كلماته ، كانت حبيبته الفاتنة .. واحدة من تلك الموديلز التي تشاركه ذلك الفراش اللعين الذي أشار إليه سابقً ا ..

راقبتها في مشاعر مختلطة من الحسد الأنثوي على جمالها الذي ينضح خلف ملابسها القصيرة والتي تظهر العديد من مفاتن المرأة المتفجرة بالحياة ، ومن اصطناع الضيق من نفس تلك الهيئة كامرأة محافظة خالطت الأوساط الارستقراطية رغمً ا عنها لست سنوات ..

نهض في لهفة إليها وقدمني لها: فيروز.. تلك هي سالي التي حدثتك عنها.

سلّ مت عليها بأطراف أصابعي في ترفّ ع وإهانة غير متعمدة : لا أذكر حقً ا .. فقد حدثتني عن الكثير (الآن أصبحت الإهانة متعمدة).. اعذريني يا حبيبتي .. فهو يبدل فتياته كما يبدّ ل أصابعه على زر التصوير ..

ابتلعت الأنثى الفاتنة إهانتي في ابتسامة بسيطة : اسمك جميل .. فيروز .. (ردت الإهانة في احترافية) ربما هو أجمل ما فيكِ !

ضحكت ضحكة متوترة بينما زحف الحرج على وجه عمرو وجذبني بعيدً ا عنها : ااا .. حسنً ا .. لقد تأخرتِ حقً ا .. أراكِ الليلة ..

جذبت حقيبتي في ثقة زائفة ، وتجاهلت نظرة الانتصار التي فرجت شفتيها في ابتسامة مستفزة ، وهممت بالرحيل هامسة له : فقط احذر أن يمضي بك العمر راكضً ا خلف شهوتك .. واتعظ مما حدث لأبيك !

واجهني في لطف وهو يعلم أن جملته القادمة ستثير حنقي: سألني عنكِ البارحة!

عبثت بحقيبتي واصطنعت تنظيمها في توتر نجحت في إخفائه: الآن تضيع وقتك في التحدث مع الأموات!

أراح كفه على معصمي في تأثر : فيروز .. (نظرت إليه في حنق وصاح الصمت بيننا بضجيج مزعج قبل أن ينطق في استعطاف) لقد ضاق صدري عن احتمال الفراق بين أعز من لديّ في تلك الحياة البائسة .. أبي .. وأختي ..

اتجهت للرحيل بجملة ختامية : فقط اعتنِ بنفسك .. ولا تتأخر الليلة .. فأنا لا أحابي أحدً ا في العمل حتى وإن كان أخي !

ورحلت في صمت ، بينما أحرقت ظهري تنهيدة ساخنة أطلقها في يأس وعجز عن إقناعي بإدخال البهجة إلى حياته ، باجتماعي أنا وأبي في لقاء حتى ولو كان قصيرً ا بعد انقطاع دام لخمسة عشر

عامً ا ..

انطلقت أطوي الطرقات أسفل عجلات سيارتي المرسيدس الفاخرة ، التي ربما تكون أحد السببين الوحيدين اللذين يُ جبران عاملي وموظفي شركة « هيلين أوف تروي » لتصميم الأزياء على احترامي ولاسيما صاحبتها « إيمان راغب »، وهما عمل زوجي « عاصم » مديرً ا بمكتب وزير الخارجية .. وتلك السيارة التي اشتراها لي بنفسه أملً ا في تحسين علاقتنا الفاترة منذ فترة .

اقتحمت الرواق الفاخر في ثقة وأناقة مصطنعتين ، وكأن شعوري بالدونية أمام جمال وأنوثة تلك اللعينة « سالي » لا زال يتردد صداه داخل نفسي لينضح على هيئتي بمحاولات الظهور بمظهر الأنثى الفاتنة ، ليحييني الجميع احترامً ا .. بداية من الفرّ اش وحتى أفضل مصممي الشركة .. لكن الظهور المفاجئ لصديقتي المقرّ بة « نورا » وانتصابها أمام خطواتي عرقل تلك الخطوات الواثقة ، فسقطت حتى أوشك وجهي على أن يلامس الأرض في ارتطام يثير السخرية ..

تجاهلت ضحكات المحيطين المكتومة وخلعت إحدى فردتي حذائي بعد أن انكسر كعبها ، واحتددت في همس على نورا : ما الخطب؟ !

همست إليّ في قلق : إيمان تنتظرك منذ ساعة ، وحاولت الاتصال بك مرارً ا ، ولكن محمولك كان مغلقً ا وكذلك الواتسآب و ...

قاطعتها بخلع الفردة الأخرى من حذائي في سرعة ورميته على مكتب زميلي البدين « صادق » ليقطع ارتطام الحذاء ضحكته المكتومة وألقيت له بمحمولي ليعهد بشحنه ، وعندها خلعت نورا حذاءها الأنيق وسلمتني إياه وقد فهمت مطلبي ، ارتديته سريعً ا رغم صغر حجمه وتحركت في خطوات متعرجة تجاه مكتب تلك العنقاء الأسطورية ، يتمايل جسدي ، ولم أعرف حقً ا أكان ذلك بسبب هلعي من تلك المقابلة المصيرية أم بسبب ذلك الألم الذي يعتصر أصابعي داخل ذلك الحذاء الصغير .

جلست في ألم وصمت في انتظار طويل لتلك المرأة ، شتت ذهني عن ألم أصابعي تأملي الدائم لمكتبها الفاخر الذي غطى جدرانه العديد من اللوحات الفنية لنساء أنيقات وارى التراب أجسادهن منذ قرون .. وكذلك طاولتها الهندسية التي تستخدمها أحيانً ا في رسم تصميماتها الخاصة كهواية قديمة لم تتمكن من التخلص منها حتى بعدما أصبحت توظف من المصممين من يريح ظهرها عن انحناءة ذلك العمل الشاق .

ثوانٍ مرت في صمت قطعه صوت اندفاع المياه بحمامها الخاص معلنً ا عن انتهائها من قضاء حاجتها المتكررة ، لتخرج في هيبة وهي تجفف يديها دون أن تنظر إليّ ، انتصبت في احترام أصاب قدميّ بألم كتمته لوقوفي المفاجئ .. وراقبت خطواتها البطيئة التي تناسب سنها التي تخطت العِ قد الخامس منذ أسابيع ، وتفحصت وجهها الذي أغرقته بمساحيق التجميل باهظة الثمن لتُ خفي علامات ذلك العِ قد الذي لا شك أنها تلعن إتمامها له كلما نظرت إلى انعكاسها في المرآة في صباح كل يوم ..

وبالرغم من ذلك .. فإنها بدت في رقيّ بملابسها الرجولية الهادئة ، حيث أعادت ارتداء سترتها السوداء وأحكمت غلقها على قميصها الحريري بلونه الوردي وجلست في إرهاق حاولت إخفاءه .. ومدت يدها إلى أحد أدراج المكتب العريض وأخرجت منه دواءها اليومي .

لم تتحدث حتى انتهت من تجرع كوب الماء تبعً ا لإحدى حبوب الدواء وكأنها كانت تحقنني بالمزيد من سائل التوتر اللزج .

تنحنحت لإصلاح بحة الخوف : عليّ أن أحذرك يا مدام من مخاطر الضغط المنخفض .. عليكِ أن تقاومي نوبات قضاء الحاجة حتى ينجح ذلك الدواء في إتمام مفعوله ..

أعادت الدواء إلى مكانه دون أن تنظر إليّ : بل عليكِ أن تدخري تحذيراتك الدائمة تجاه الجميع لنفسك .. فالوقت يمضي والخطر قارب أن ينال من مستقبلك .

نجحت كلماتها الغليظة في صرف اهتمامي عن آلام قدمي: آه.. لم ينل تصميمي إعجابك إذًا!

رفعت عينها في برود: لو لم ينل إعجابي لما نلتِ سخطي!

تنهدت في ضيق من غموضها: لا أفهم..

اعتدلت وقد أشعلت سيجارة رفيعة : فيروز .. قد يظن جميع المصممين بتلك الشركة أن السبب الوحيد خلف استمرار عملك بينهم .. هو وساطة زوجك .. وإلا لمَ لا تزالين بينهم وتشغلين مكانا قد يناسب من هم أكفأ منكِ دون أن يُ نفَّ ذ لكِ تصميم واحد؟

خلعت حذائى بطرقات صامتة من قدمي وقد تحررت من الألم الذي أحل الحنق مكانه في نفسي : أظن أني كنت شديدة الوضوح عندما أردت أن تفصل كفاءتي في قرار استمراري .. ولتذهب وساطة زوجي إلى جحيم الكفرة !

راقبت حنقي المفاجئ للحظات ثم ابتسمت نصف ابتسامة : ذلك هو السبب حقً ا ! (اعتدلت في صدق) لا أهتم حقً ا بوساطة زوجك .. وإنما ذلك الشغف المتعالي الذي يأكل روحك في كل لحظة تفصل بينك وبين تحقيق أحلامك ..

تنهدت في تعب: بالله.. كفى غموضًا..

- تصميمك أعجبني.. ولكن لن أنفذه هذه المرة أيضًا..

آشحت بوجهي في غضب الأطفال: لطالما كان التناقض هوايتك الثانية..

قاطعتني في حزم : استعمي إليّ.. لقد كنت مثلك في يوم من الأيام ، أشعر بالموهبة وهي تجري من جسدي مجرى الدم .. ولكن الموهبة وحدها لا تكفي .. كان عليّ.. والآن هو لزاما عليكِ أن تعثري على ما يميزك عن غيرك ..

كان الصمت هو أبلغ رد على ما قالت ، ليس في حنق ولكن في عجز حقيقي عن مواجهة حديثها بما أثارته من تساؤل .. ما الذي يميزني حقًا عن أية بلهاء تستطيع رسم امرأة بزي فاخر؟ !

أخرجَت التصميم الذي عكفت على رسمه ليالي طويلة أحرقت فيها صدر زوجي وملأته بالحنق الصامت لامتناعي عن إجابة حقه الزوجي في معاشرتى ، وبدأت في فحص كل خط فيه ..

- تميلين إلى الكلاسيكية في تصميماتك .. ولكن ليس بدرجة كافية .. فلا تزال روح العصر الحالي تشوبها بالعديد من المرجعيات الحديثة ..

- كلي آذان صاغية..

- عليكِ أن تتخطي ذلك الخط الفاصل بين الهواية والاحتراف .. تخلّصي من محاولات غيرك في مزج العصور المتراكمة حتى وإن علت أسماؤهم في سماء الموضة .. بل اصنعى لنفسك اتجاها خاصا .. وأنصحك بالمزيد من البحث خلف التصميمات الكلاسيكية فهي ما تبرعين فيه حقًا !

أومأت لها في غير اقتناع لاحظتْه متنهدة ، وحينها اعتدلَت في خيبة أمل من تمردي على نصيحتها ، لتغلق ملف الرسومات الصغير وتراقبني في ثبات وجمود : لم يكن النجاح يومًا في نشوة المديح .. وإنما في تقبل النقد ..

آردفت في مراهقة واضحة: اختلاف الآراء لا يعد نقدا..

ابتسمت في ختام لتلك المقابلة التي بدا أني أفسدتها عن غير عمد .. أو عمد ، فلم أعد أهتم : أمامك فرصة أخيرة ، وإلا سأضطر إلى تنفيذ مطلبك الأهوج رغمً ا عنى .. (سلمتني التصميمات في تأكيد) سأرسل وساطة زوجك إلى بحيم الكفرة حقً ا !

نهضت في حنق تاركة يدها معلقة بالملف الورقي في رفض لاستلامه ، وبحركة أثارت عنقها بإيماءة استنكار باسمة لعنادي الطفولي ، أمسكت بذلك الحذاء الصغير وأجلسته تحت إبطي وانطلقت إلى الرحيل في خطوات سريعة عارية القدمين !

وما لبثت أن صفعت باب مكتبها خلفي، حتى واجهني صادق بالمحمول أمام وجهي في لهفة آثارت غضبي..

- ما لكم تتناوبون اليوم على الظهور فجأة دون سابق إنذار أيها القوم؟! أتزوجت من نورا سرا؟!

-لقد ضج محمولك بالرنين و...

قاطعته في هلع: كم الساعة؟

- إنها الرابعة والنصف!

لم أجد إلا الحائط الغليظ حتى ألقي برأسي في مواجهته في تنهيدة طويلة وقد تذكرت ما نسيت . سلّ مني صادق المحمول وتحرّك مسرعًا إلى مكتبه مرة أخرى ، بينما انهمكت في طرق الحائط برأسي عدة مرات في هدوء واستسلام وقد توقعت الكارثة .

أضاءت أيقونة الواتسآب ببالونة حمراء تشير إلى رقم ١٢ ، أي اثنتى عشرة رسالة ، ضغطت عليها وأنا أعلم – للأسف – هوية ذلك الراسل ، أسندت المحمول على الحائط في تلك المسافة التي فرقت بينه وبين جسدي الذي يقترب ويبتعد عنه بطرقي المتكرر برأسي على سطحه .. وكأني تحولت إلى أحد أحبار اليهود .. يتلو صلاة بتمايل مخمور أملًا في ألا تقع الكارثة ..

وقد وقعت!

عاصم: فيروز! لا تنسي ميعاد الطبيب.. سأنتهي من عملي وألحق بك.. بل ربما أسبقك إليه..

عاصم: فيروز! لقد وصلت، أين أنتِ؟

عاصم: فيروز! قد أجّلنا ذلك الميعاد مرارًا.. أرجوكِ لابد أن نراجع الطبيب..

عاصم: لا عليك.. يبدو أن الأمر لا يحتاج إلى الأطباء، بل أنَتِ فقط من لا يريد الإنجاب..

عاصم: إنه لأمر مهين.. لماذا تفعلين ذلك؟!

عاصم: لا حاجة لى في امرأة عاقر.. حتى إن كان ذلك بإرادتها..

أغمضت عيني وشعرت بابتلال وجنتي بدمعة قاتلت كثيرًا لمنعها ، وشردت في أحقية ذلك الرجل في الابتعاد عن تلك المرأة الميتة ، فهو يعلم أني تزوجته فقط من أجل استغلال منصبه وثرائه في الانفصال عن حياتي التي ساءت بانفصالي عن الجميع .

ربما كان قبل ذلك اليوم ، مصدّقًا حقًا أن هناك سببًا طبيًا وراء تأخر إنجابنا لوليد تمناه طوال ست سنوات . ولكن بات الأمر واضحًا . لقد علم أني أتعمّد ذلك . فهل يرحل عني؟ أتمنى لو يفعل .

كانت كل طرقة من رأسي بذلك الحائط ، وضربة من أصابعي الحافية على تلك الأرض اللينة التي ذابت تحت وقفتي بعد رسالة عاصم الأخيرة ، تومض داخل عيني بلحظات سوداء من تلك السنوات السابقة وما كلفتني من متاعب أتحملها من أخطاء الآخرين ، ففساد أبي كان اختياره ، ورحيل أمي كان اختيارها ، وعشق عاصم لنسمات عطري رغم علمه بخواء قلبي من حبه ، كان اختياره .

إلا لحظة امتدت لأعوام لم أشعر بمرورها .. كانت حقًا من اختياري .. « حلمي الأثير بتحقيق ذاتي »، وعندها لعنت حلمي وقطعت آخر ما تبقى من احترامي لنفسي .. فقد دفعت بالرجل الذي تحمّل جنوني إلى حافة جنونه .. وفوق كل ذلك .. لم أصل إلى عتبات ذلك الحلم حقًا ..

كانت صفقة خاسرةً! اشتريت بحب زوجي وهنائي كغيري.. حلماً استيقظت منه متأخرة!

تزاحمت الأفكار في رأسي حتى تمنيت الموت ، لكن دقة موسيقية أخرى صدرت من محمولي تدافعت بين تلك الأفكار القاتمة وأضاءت وجهي .. ليس فقط بضوء الشاشة الوهاج .. وإنما بما ساقته إلى عيني من رسالة أخرى أرسلها عاصم ..

عاصم: أرجوكِ! تجاهلي تلك الرسالة السابقة.. فأنا لم أقصد.. كنت فقط غاضباً..

ثم أتبعها برسالة أخرى: أحبك!

تمنيت لو أجبته بـ « أحبك أيضً ا » امتنانً ا له ، لكنها كانت ستخرج كاذبة ، ولا يستحق ذلك الملاك أن ألوّ ث قلبه بمشاعر حب زائفة ، فامتنعت عن الرد في شرف وبطولة .. وقد وعيت أن صمتي سيزيد من ألمه باستجداء مشاعري في ذل دون رد !

جلست أرضًا بطريقة لاحظها الجميع وأنا أتقلب بين نارين، الكذب بحب مصطنع.. والصدق بصمت موجع!

لم أجد ملجأً لنفسي بين متاهات تلك المشاعر القاسية ، سوى مكاني المفضل الذي لجأت إليه ، وقد حكمت الظروف ألا أرى عاصم لبقية اليوم حتى لا أتألم بابتسامته التي تخرج دومً ا في ذل وإهانة . وصلت باكرً ا وجلست على مقعدي الذي أوشك مسئولو المسرح على أن يحفروا اسمي

على بطانته الحمراء من كثرة جلوسي عليه . راقبت وصول الحضور القليل وتناثرهم على المقاعد الفارغة في انتظار العرض المسرحي الجديد لتلك الفرقة المسرحية البائسة ، التي بالرغم من كبر سن أعضائها .. وغياب معجبيها ، لكنهم تمسكوا بحلمهم وعشقهم للتمثيل .. واستعدوا لعرض آخر أمام ما يقل عن عشرة أفراد .

انتهى العرض بعد أن نجح في رسم البسمة على وجهي عدة مرات ، من تعثر الممثلين في بعض الجُ مَ ل ، بل وقوع أحدهم أرضً ا من فرط الضحكات ، التي انتقلت بينهم لأخطاء في الحركة ، بسبب الإرهاق الجسدي الذي نال منهم جميعً ا بعد مشقة أعمالهم النهارية قبل العرض ، وكذلك تلقى أكبرهم مكالمة قطعت تمثيله لشخصية غليظة من زوجته المتسلطة تأمره فيها بشراء العيش والزبادي عند عودته .. تحت صرخات الضحك أمام انسحاقه أمامها كالطفل .

بدوا كمجموعة من الأصدقاء يستمتعون بوقتهم في تحقيق حلم شغفهم جميعً ا وضاقت عليهم الدنيا دون تحقيقه ، ودفعتهم الظروف إلى أعمال أخرى كموظفين بسطاء بعدد من الهيئات الحكومية نهارً ا والتي لم تمنعهم من الانطلاق في عفوية ليلً ا ..

أُ سدلت الستائر في فوضوية معتادة . لمحت من خلفها بروزً ا لحركة بطيئة لشخص مسن كنت أعلم هويته رغم اختفائه . بدا من طرقات يده على الستارة مستندً ا عليها أنه يحاول أن يصل إلى منتصفها خروجً ا منها بحثً ا عن شخص ما بين الحضور .

ورغم توقي السري لرؤيته لكني نهضت في سرعة ورحلت قبل أن يلمح خطواتي المتباعدة ، وشققت طريقي في لهفة حتى وصلت إلى الطريق المظلم .. وعندها فقط .. أغلقت عيني وتنهدت في شوق إلى حائط آخر أطرق عليه رأسي في حزن مما أفعل .

تحرّ كت في الطرقات المزدحمة وقد كنت بها وحيدة رغم ذلك . وصلت إلى ذلك السور الحديدي الذي يفصل مسجد السيدة زينب عن أسفلت الطريق المزدحم بالسيارات المتداخلة . خرج عم فرغلي من فجوة باب المسجد باحثً ا عن « بُ لغته » البسيطة وقد انتهى من صلاة

العشاء . تقدمت منه متخطية كفوف السيدات المسنات منهن والصغيرات اللاتي تطلبن حسنة مالية تناسب هيئتي الفاخرة .

وصلت إليه متعثرة في رجل أشاح بوجهه مستغفرً ا من أنوثتي التي بدت له طاغية لتلصق عينه رغمً ا عنه بمؤخرة ابنة إحدى سيدات الساحة ، وعباءتها المشدودة على خصرها المتفجر بالشهوة ، وهي تلح على المصلين بقاسم من رزقهم ، ليقابلني عم « فرغلي » بضحكة صافية اعتادت أن تجلو بعضً ا من أحزاني :

- أما والله.. لقد فسدت صلاته.. وتحمّلتِ ذنبه..

ابتسمت وأجلست ذراعه بتجويف ذراعي في مساعدة له على الحركة : الإيمان على المحك يا مولانا .. إن لم تُ خلق الجميلات من أمثالي .. فكيف سيُ ثاب على غض بصره؟ !

ضحك واستسلم لنظراته أرضً ا لفرق طول قامتي عن قامته القصيرة أثناء سيره المتعرج : وأي شيطان أرسل الجميلة إلى أحضان العابد هذه المرة ، رواية جديدة؟

خرجنا من الساحة وسلكنا الطريق إلى حارته الصغيرة: بل بحث لا يقدر عليه سواك..

أعطاني مفتاحه الصغير لأتولى عنه فتح قفل البدروم العميق من البيت القديم الذي يسكنه ، وقد نجل من رعشة يده التي أصابت حركته بالعجز الملحوظ ، ودخلنا القبو الضخم لتثير هيئته صدري بشهقة لم أعتد على التحكم بها في كل مرة أدلف فيها إليه ، فتلك الكتب والأوراق البنية القديمة تتناثر في فوضى بديعة بأرجاء المكان .. وكأنه لم يُ خلق كتاب إلا سقط بين جنبات ذلك البدروم العتيق ..

أسال من إبريقه الأزرق الصغير عموداً من سائل الشاي الأحمر في ضيافة لطالما امتعتني : ولم الحاجة إلى عجوز مثلي في هذا الأمر ، ألم يستغن جيلكم بذاك الـ ... الـ .. « الترتن نت » في أبحاثه؟ !

ابتسمت من إخفاقه في النطق وأنا أرشف من الكوب الدافئ : الإنترنت مليء بالعديد من التصميمات الكلاسيكية حقاً ، ولكنها جميعاً تختص بالموضة العالمية .. ما أريده هو تصميمات قديمة لنساء مصريات .. أرجوك .. مستقبلي يتوقف على ذلك البحث .

جلس في إرهاق وقد أغلق السبرتاية : حسناً .. لديّ أحد الأصدقاء يعمل بدار الهلال سأقصده صباحاً للبحث عن بعض المجلات القديمة ، فربما تجدين فيها ما تريدين .

تنهدت في خيبة أمل : راجعتها كلها ، وما وجدت إلا صوراً فوتوغرافية لبعض النساء الارستقراطيات من عهد ما قبل الثورة .. أريد تصميمات يا عم فرغلي ، تصميمات حقيقية ، رسومات تفصيلية ..

سكت للحظات في عجز عن إجابة مطلبي المستحيل ، لكنه قطع الصمت فجأة بالتواءة بعنقه وقد تذكر شيئاً ، وعندها استند على كتفي للنهوض مرة أخرى : أما والله إن رزقك في رجليْكِ .. لقد أصر الدكش البارحة فقط على أن يبيعني تلك الكتب القديمة ، وأظن أن بعضاً منها به عدد من الرسومات لسيدات !!! ...

- ألا يعمل عم الدكش في روبابيكيا الخردة؟!

-بلى.. ولكن زوجته مريضة، وأراد ثمن كشف المستوصف.. فباعني ما وجده أمامه..

-فلتقرضه المال أيها البخيل..

-حقا؟ الدكش يقبل مالًا لم يبتل بعرقه؟!

ابتسمت لعبث وجودي: إذًا هي الصدفة.. التي ساقت إليّ ما أريد قبل أن أريده بيوم واحد..

أخرج حقيبة الكتب القديمة: بل القدر يا ابنتي..

أحببت مناكفته في عقيدته : حسن ً ا إذ ً ا .. لعل القدر أمرض زوجة عم الدكش ، وأذهب ما تبقى من رزقه بالخردة ، فأخرج إليك ما يحفظ من أوراق تافهة لا يعمل بتجارتها .. فقط من أجل أن أنتهي من بحثي التافه .. أليس كذلك؟ !

ابتسم من عنادي الطفولي: لا يوجد بالأقدار ما هو تافه يا فيروز!

راقبته دون رد . طالت نظراتنا الصامتة حتى حل السكوت ضيف ً ا وأفسد حرارة ما تبقى من كوب الشاي الساخن . كان حديث ً ا ساذج ً ا ولكنه وقع مني ومنه موقع الحيرة . ولكن سرعان ما ابتسمت له ساخرة مما شعرنا .

ً

«تنجح دوما في إصباغ كل مزحة تافهة بصبغة الدراما الإغريقية يا عم فرغلي»..

ابتسم وعاد إلى تلال الأوراق البنية يفرغ تلك الحقيبة من محتوياتها ويبحث بين أوراقها عن تلك الرسومات ، هممت أن أساعده ، لولا أن انتفضت على دقة موسيقية أخرى لمحمولي ..

رسالة أخرى من نورا: أين أنت.. الدفيليه أوشك على أن يبدأ!

انتصبت كعادتي في عجالة صارخة: لماذا عليّ أن أكون دائمًا في عجلة؟!

تحرك إليّ مخترقً ا تلك الأنقاض الورقية متحدثً ا بحكمته المعهودة وهو يحمل مفكرة قديمة بيده : اليوم أقصر من أن يتسع لكل ما يشتهيه المرء يا ابنتي .

خطفت منه المفكرة وتحركت في عجالة: سأعود إليك قريبا يا حكيم زمانك..

صاح بي عندما اقتربت من الباب متعجبً ا : انتظري ! فلم أطّ لع على تلك المفكرة من الأساس ، انتظري لثوانٍ فقد أجد ما تريدين !

اندفعت قدماي رغمًا عني للخارج دون أن أتمكن حتى من أن ألمح كُنه ما كان في يدي واستقر بحقيبتي في اللاوقت : سأعود إليك لاحقًا !

وصلت إلى الدفيليه في سرعة مستحيلة ، اقتحمت الكواليس وكالعادة ظهرت نورا أمام وجهي في استكمال لمسلسل إفزاعي !

عليّ حقًا أن أقطع علاقتي بتلك الفتاة!

لهثَت في أنفاس متقطعة : لقد ضقت ذرعًا بالتعامل مع تلك المتعجرفة « مايا ».. لقد قاربت على الخروج .. وتصر على زيادة أجرها في مقابل الموافقة ..

أكملت طريقي في حزم: فلتتخلصي منها فورًا.. و...

قاطعتني مرة أخرى : مستحيل ! هي الوحيدة التي تناسب ذلك التصميم ، ولا يمكن تأجيله .. فهو من تصميم مدام إيمان نفسها !

وجدت نفسي دون تفكير مقتحمة غرفة الماكياج ، لمحتني مايا وهي تجلس في ثقة بملابسها الداخلية وإحدى قدميها فوق الأخرى تدخن تلك السيجارة بطعم الشيكولاتة ذات الدخان المنفّر ، بينما انزعجت بقية الفتيات وعاملات الغرفة من دخولي المفاجئ ..

اقتربت من مايا التي تجلس في هدوء مستفز وغرور طاغٍ: خمس دقائق فقط.. لن أنطق بكلمة أخرى!

طرقت بظافرها الملون بالأحمر الفاقع على رأس السيجارة لتنثر طافيتها أرضً ا : هكذا أفضل .. فرأسي ضج بالصداع من صوتك أنتِ وأمثالك !

بسطت عضلات وجهي في بلاهة وأومأت لها في موافقة باردة وأمسكت بمحمولي وفي سرعة هادئة اخترت اسمً ا غاب بين زحام دليل الهاتف الخاص بي : رامي ! من فضلك لا تسمح لتوفيق النردي بالدخول .. حتى وإن أظهر لك كارت الدعوة .. فقط افعل ما تؤمر وإلا ستلحق به !

وأغلقت المحمول في برود وتحركت للخروج ، لكن انسياب تيار هواء التكييف المركزي قد انقطع عن ظهري ، وعندها علمت أنها انتصبت من وقفتها والتصقت بحركتي للحاق بي : انتظري !

استدرت لها متنهدة بعين اغتربت في ملل: ارتدي ملابسك للرحيل!

قاومت كبرياءها فاختلط به رجاؤها ، بدت وكأنها في حالة مؤقتة من متلازمة داون : لا .. لا يمكنك فعل ذلك .. فأنا .. ااا ..

أجلست يدي على كتفها كأرملة فقدت زوجها واحتاجت إلى عزاء مصطنع : أنتِ تعتمدين على مراقبته لقسمات جسدك حتى تشتعل الشهوة داخل صدره .. ويعلم الله أين ستشتعل أيضً ا .. وعندها تصبحين رفيقته .

نظرت أرضً ا في خجل وحيرة من معرفتي بالأمر : حتى وإن وافقتِ على نصف الأجر .. فليست « هيلين أوف تروى » بيت قوادة تُ عرض فيها النساء من أجل المتعة .. (أشرت إلى الفتيات خلفي) انظري جيدً ا إلى زميلاتك ، كلهن مكافحات .. لا تصبو أي منهن إلا لعرض كموديل في إعلان تليفزيوني ، أو دور صامت بفيلم صيفي .. أما أنتِ ...

اقتربت من وجهها في إهانة : فساقطة لا ترغب إلا في عدة أصفار بجوار رقم خائب مقابل بضع دقائق بين أحضان رجل كهل ، فلا تترفعي على أسيادك ، وعودي إلى حيث تنتمين .. طرقات الحكومة وقماماتها !

وتحركت في اصطناع للحزم للرحيل دون أن ألتفت مرة أخرى وقد علمت خطوتها القادمة!

انطلقت كالعادة إلى الكواليس لأمارس مهنتي الأصلية في تنظيم الحدث الأضخم منذ شهور متناسية للحظات حلمي القديم والحالي والمستقبلي بالتصميم الذي طالما طاردني كلما تخيلت إحدى تلك العارضات وهي تمايل في ثقة أمام الحضور وتطرق بقدمها أذيال ردائها الفاخر الذي نجحت في تصميمه وأبهرت به الجميع .. وأولهم « إيمان راغب «.. قدوتي ، وعدوتي ، وشاغلة جميع الأدوار في مسرحية مشاعري المختلطة تجاهها ..

وعلى ذكر الشيطان .. تحترق الأجواء باقترابه ، حيث اقتربت إيمان في بطء من وقفتي ، فتحفزت استعداداً ا لنقد آخر سيطال سوء إدارتي للحدث .. ولكن ..

«أشكرك على مجهودك خلال الأيام السابقة.. فلولاكِ لما خرج ذلك الحدث إلى النور بتلك الصورة المشرفة».

تعجبت من شكرها وابتسمت في توتر وقد لاحظت إرهاقها : دعيني أستكمل إذاً ا الليلة حتى يحين خروجك إلى الحضور .. تبدين في إرهاق بالغ ..

تقدمت تجاه الستارة التي تفصل الكواليس عن المسرح وفرجت منها ثقبً ا صغيرً ا تراقب منه المدعوين ، وهي تتحدث دون أن تنظر إليّ : سقطت اليوم مغشيً ا عليّ بعد رحيلك !

تعجبت في قلق من تلك المعلومة التي قالتها وهي تراقب الشخصيات المهمة من خلف ثقبها الصغير ، وكأنها تحافظ على هيبتها التي لابد أن تسقط بعد ما قالته : ماذا؟ ! حـ .. حسنً ا .. أخبريني ماذا حدث؟ !

أكملت حديثها من نفس الوضعية: نوبة سكر.. (نظرت إليّ في ابتسامة هادئة) يبدو أن الأجل قد اقترب!

وقبل أن أجيبها في لهفة واستنكار لما قالت حتى فاجأتني بملاحظة أخرى راقت لها بين الحضور : ها قد جاء الهُمام ..

تنهدت في عجالة للرد لأعود إلى موضوع مرضها مرة أخرى : أجل .. لقد أكدت عليه أن يحضر في ميعاده .. ومارست عليه دور الأخت الكبرى كما أردتِ .. و ..

التفتت إليّ وزادت من فتحة الستارة في دعوة هادئة لمشاركتها النظر: لم أقصد أخاكِ عمرو.. بل زوجك عاصم!

لطمت تلك العبارة أذني ، وما أن رأيته جالسً ا في براءة تصبو إلى لقائي أملً ا في الاعتذار على ما أرسله إليّ اليوم ، حتى هرب الدم من وجهي وتلون بزرقة باردة من الصدمة ، ولكنه لم يلبث أن تصبغ باللون الأحمر مرة أخرى عندما اقتحم الدم شرايينه غضبً ا من نفسي .. فذلك الرجل يصنع من أجلي ما لا تستحقه قبيلة من النساء خُلقن على شاكلتي .

أومأت إليّ بالذهاب إليه ، ولكني نجحت في التهرب من تلك الرغبة وقاطعتها بتغيير موضوع النقاش بعيدً ا عن مرضها .. وجنحت بالحديث عن مرضي : لقد حصلت على مرجع مهم للتصميمات الكلاسيكية في مصر بأوائل القرن العشرين ، لعلي أنول بعض الرضا .

أدارت عنقها عدة مرات يمينً ا ويسارً ا في بطء ويأس من تهربي المتعمد من لقاء زوجي خارج البيت كما أتجنب لقاءه داخله ، وأشارت إليّ أن أريها إياه .. وعندها خرج ذلك المرجع من الحقيبة ليُ علن عن نفسه بهيئته العتيقة الساحرة ..

قرأت بصوتها الرقيق ما هو مكتوب بماء الذهب على غلافه المهتك: مفكرة.. عزيز بك قاسم!

نظرت إليّ في تعجب من علاقة ذلك العنوان الغريب بتصميمات احترافية لأزياء آمل أن أستقي منها ما يطور موهبتي ، لأتولى مهمة الدفاع عن اتهام لم تطلقه بعد : لقد أكد لي الرجل أنه سيكون عونً ا كبيرً ا حتى وإن بدا غير ذلك ..

أعطتني المرجع في غير اهتمام ورحلت في صمت وقد لوَّ ت شفتيها . وعندها انتفضت للخلف فجأة عندما فُ تِ ح الستار وتدفقت أحزمة الإضاءة الوهاجة تجاهي .. فتواريت بعيدً ا كالممسوسة .. ليس فقط خوفً ا من أن يرانى الحضور ، وإنما هربً ا من نظرة كان مقدرً ا لها أن تقتلني إن لمحني عاصم .. زوجي المعذب !

تدفقت الفتيات على مدار دقائق تجاه المسرح في عرض مثالي لتصميمات « هيلين أوف تروي »، بينما تسربت تلك الدقائق مني دون أن أشعر وأنا أقلّ ب في صفحات تلك المفكرة التي امتلأت عن آخرها بكلمات خطها ما يبدو أنه ذلك الرجل عزيز بك قاسم ..

لم أتعمق في القراءة حقًا .. حيث بدت تلك الكلمات للوهلة الأولى وكأنها حوار مكتوب بينه وبين شخصيات أخرى .. ظننتها في أول الأمر مسرحية أو قصة قصيرة ساقها إليّ عم فرغلي بالخطأ ، وعندها اشتعلت غضبًا من خواء تلك الصفحات من رسم واحد يخص الأزياء من قريب أو بعيد ..

رفعت رأسي على اقتراب انتهاء مايا اللعينة من آخر خروج لها ، وأومأت لنورا أن ترسل في طلب مدام إيمان لتشارك الفتيات دخولهن النهائي .. وما إن هممت بوضع تلك المفكرة داخل حقيبتي مرة أخرى حتى لمحت رسمًا بصفحاتها الأخيرة ، انشغلت في سذاجة عن تنظيم دخول مدام إيمان وتسارعت أصابعي تجاه تلك الأوراق الخلفية .. وعندها وقعت الكارثة !

تعمدت مايا دفعي أثناء دخولها الأخير حتى تعثرت خطواتي وطار جسدي اندفاعًا تجاه المسرح!

ارتميت على وجهي بصوت أثار ضجة التفتت إليها الرقاب ، وزحفت بجسدي لعدة أمتار أمام سيل نظراتهم . فتكومت بمنتصف المسرح المكتظ عن آخره . تسمرت مدام إيمان على مشهد رقودي أرضًا أمام جميع المدعوين وارتبك دخول الفتيات في صفيهما المخطط له .. وسادت حالة من الفوضى بين الجميع .. لم يقطعها سوى اندفاع عاصم من بين الحضور تجاه وقعتي !

لم أشعر بالدم وهو يسيل من فمي بعد اصطدام فكي بالمعدن الأرضي الحاد ، وما إن وصل عاصم إلى المسرح وشب بقدميه ليطال ارتفاعه ، حتى نظرت إليه في صمت وخجل ..

همس إليّ: انهضي معى!

تهربت من نظرته . فسقطت عيني على المفكرة المتناثرة تحت أصابعي .. وما أن حاول عاصم وعدد من رجال الأمن إنهاضي .. حتى تسمّرت على أغرب ما رأته عيني على الإطلاق !

رسم شديد الدقة لشخصي بل بملابسي الحديثة .. يرقد بإحدى صفحات تلك المفكرة العتيقة والتي ترجع إلى عام ١٩٤٩ !

وسهم صغير يخرج من ذلك الرسم مكتوب عليه: تلك هي الفتاة.. قاتلة جلنار طوسون!

-٣-

عزيز بك قاســم

١٩٤٩

«كان من الأفضل لك.. أن تلحق بها»

قالها والدي قاسم باشا في حنق هامس وهو يضرب الأرض بقدمه اليسرى في توتر ساد جلستنا ، التي استمرت لساعة ونصف دون حراك داخل الصالون الأبيض من قصر عابدين الملكي ، حيث ألصق عينيه أرضً ا دون أن يجرؤ على رفعهما ليس فقط في إجلال ورهبة لقدسية ذلك المكان المهيب .. وإنما في رعب ظاهر على قسمات وجهه من لقائنا المرتقب مع الملك فاروق الأول شخصيً ا بعد أن قُ تلت إحدى أميرات قصره بمكتبي المتواضع !

«نعم نعم.. كان من الأفضل لك حقًا أن تلحق بها»..

كررها مرة أخرى وهو يسند رأسه على كفيه المتعانقتين فوق عصاه الفاخرة ، التي انتصبت بين قدميه واحتملت انحناءة جسده الممتلئ عليها في شرود ، ربما كان تكرارها تسبيحً ا ظن أنه قد يُ ذهب عنه رعب اللحظة القادمة ، وربما رغب في لطم رأسي بها مرة أخرى حتى يستفزني لتعليق غاضب يبرر له انفجاره الذي كان يتوق إليه ..

وقد فعلت!

اعتدلت له في هدوء:

- حاولت حقً ا أن ألحق بها يا والدي .. ولكن .. كان ملك الموت أسرع إليها مني .. لم يكن ذنبي أنها اختارت محل عملي لتقدم على تلك الفعلة الجنونية .

التفت إليّ في غضب مكتوم وهو يضبط طربوشه في هيستيريا حاول التحكم بها وكأنه أوشك على ضربي:

- أتظن أني أقصد جلنار هانم أيها الأحمق؟

تنهدت من غضبته:

- ومن تقصد إذا؟!

أشاح بوجهه بعيدً ا في شرود وهو يدير عصاه على محور ثابت في دوائر لا نهاية لها وكأنها ملعقة تستدير في صحن خيالي ، اجتمع فيه الغضب والحسرة وخيبة الأمل في انتظار ذوبانهم لحساء واحد من القسوة غير المبررة :

- بل كان عليك أن تلحق بأمك!

انتفض جفني برعشة مؤلمة ونظرت إليه في صدمة وعندها عاد وحدق بوجهي الملتهب من الغضب وأكد في همس مستفز:

- كان عليك أن تلحق بها فور أن ماتت .. فما كان لابن امرأة مجنونة أن يحيا حياة تسوق العزة والشرف لأبيه .. (نطق في غلٍ غير مفهوم) كانت سببً ا في بؤسي لسنوات طويلة .. وها أنت تكمل عنها المسيرة .

انعقد لساني عن الرد ولكن لم ينقطع نظري إليه ، بل ظللت محدقً ا به حتى عندما عاد إلى شروده وكأنه أفرغ شحنة غضبه في تلك الكلمات وفرغ بؤسه مرة أخرى ، لكن المعركة لم تنته بعد كما ظن .

تأملت لحيته البيضاء الكثيفة لجانب وجهه، وخرجت كلماتي بصوت غليظ هادئ لم أعهده قبلًا:

- ربما كان عليك أنت التخلص مني كما فعلت مع صالح!

نفرت عروق عنقه لحظيً ا من هول ما قلت ، ولمع جبينه بغلاف من العرق أوشك أن يفسد أطراف طربوشه الفاخر بالبلل ، وبعد ثوانٍ من الصمت والشرود ، نطق دون أن يجرؤ على النظر إليّ :

- عمن تتحدث؟

ارتفعت وجنتي اليسرى سنتيمترات للأعلى في نصف ابتسامة ساخرة:

- أخي.. ألا تذكره؟!

أطال صمته متجاهلا ما أقول معلقً ا عينه على الجانب الآخر من جلستي فلم أر سوى خلف رأسه ، لكن طرقات خاتمه الغليظ على عصاه كانت تفضح الكثير من توتره ، اقتربت من أذنه كشيطان طرد لتوه من الجنة ووسوست له :

- أذكر تمامً ا تلك الليلة السوداء .. أذكر جرح ساعدك الأيمن عندما تعلقت به أظافر صالح توسلً ا إليك ألا تفعل .. أذكر بنطالك الذي غطاه التراب من جلوسك أرضً ا أمام حفرة أحرقت أنفاسك في زيادة عمقها .

لاحظت إغلاق عينيهِ في ألم ورعشة أعرف أنها تسبق انفجارا فأكملت في شر:

- وأذكر تلك النظرة الجامدة التي أجبت بها على سؤال أمي .. « ما الذي فعلته .. أين ولدى؟!».. (همست في قوة) لقد دفنته حيً ا !

التفت إليّ في بطء بالغ، فأكملت تحديقي بعينيه في ثبات:

- لم تنتحر أمي لجنون أصابها .. ولم أرث عنها عاهة قد جلبت لك العار .. بل قتلتها بدفن وليدها حيً ا .. وها أنا أجلس بجوار قاتل أمي محتملً ا أنفاسه الباردة .. فمن منا أحق بالتذمر الآن؟ !

ودون مقدمات ، هجم بقبضته الغليظة على رقبتي ودفعني بقوة تجاه الحائط حتى ظننت أني أفرغته بهوة تناسب حجم رأسي ، واهتز جسده حتى سقطت عصاه وأصدرت صوتً ا ترددت أصداؤه بجدران القاعة الضخمة ، ظننت حينها أنه سيتبع فعلته بسباب مهين ، إلا أنه اكتفى بجحوظ عينيه لملامح وجهي وكأنه لا يُ صدق أن تلك الكلمات القاسية قد خرجت من فم ابنه الوحيد ، ومتى؟ الآن .. بعد كل تلك السنوات ، علم أنه عارٍ تماما أمام ولده ، وأن محاولاته إخفاء جريمته لم تفلح قط ، وما إن قفزت دمعته إلى غلاف عينيه الملتهب حتى انتفض على صوت غليظ رج أرجاء الصالون :

- «قاسِم باشا!».

انتفض أبي في قوة مبتعدً ا عني محاولً ا الاعتدال للوقوف احترامً ا لذلك الشخص المبجل فتعثرت خطوته لامتلاء جسده وسقط طربوشه وانكشف رأسه ، وعندها لم أشعر إلا وذراعي تحمل إبطيه في لهفة في محاولة لإنقاذه من السقوط ، وعندها تلاقت عيوننا في نظرة صامتة قالت الكثير .. لا أدري حملت الاعتذار ممن وإلى من .. ولم أهتم أكانت نظرته إليّ عتابً ا على ما قلت؟ أم خجلً ا من ضعفه وكهولته التي ألجأته إلى مساعدة من طعن بشرفه منذ قليل .

لم أفهم قط كيف هاجمته بتلك الطريقة ، ولماذا الآن؟ فقد كنت طوال حياتي هادئً ا منسحقً ا تحت إرادته ، كاتمً ا ما علمت من قتله لأخي غير الشقيق رضيعً ا دون أن أنطق به ولو همسً ا بيني وبين نفسي ، ربما أعاد مشهد انتحار جلنار ذكرى ما حدث لأمي بسبب فعلته ، وسيطرت عليّ حالة من التمرد الذي تأخر كثيرً ا منذ الطفولة .

تساءلت في تعجب من ذلك الشخص الذي أصبحت عليه في يوم وليلة .. إلى أين سيأخذني انتحار جلنار طوسون أبعد من ذلك .. إلى أين؟

تقدم الرجل المبجل في خطوات بطيئة نجحت خلالها في إحكام طربوش والدي على رأسه حفاظً ا على هيبته ، وعندها تنهد تنهيدة قصيرة من فعلتي التي ناقضت قولي السابق ، وأتبعها بانحناءة مؤلمة أمام عمر فتحي باشا كبير الياوران بطلّ ته المهيبة ..

انحنيت كما انحنى أبي فخرج صوت معالي الباشا حازمًا يمر فوق ظهورنا الأفقية:

- قاسم باشا.. كفَّ عما تفعل يا رجل، فإن انحنيت لصديقك القديم، فكيف ستفعل أمام جلالة الملك ذاته؟

اعتدل أبي في ابتسامة هادئة وذل واضح:

- لازلت أتوق إلى ذلك الشرف يا صاحب السعادة.

نظر صاحب السعادة إليّ في جمود يناقض ترحيبه لأبي:

- وها قد ساقه إليك عزيز بك..

أدرت وجهي بعيدً ا في ضعف وخجل من تلميحه الحاد ، فتحرك أبي في تخلٍ عن الرسمية وجذب ذراع عمر باشا في هدوء إلى أحد أركان الصالون ، وكأنه يستغل حقً ا عبارة صديق قديم حتى يطمئن لتوقعات لقائه المرتقب مع جلالة الملك .

كنت بالطبع منبوذً ا عن تلك الجلسة الثنائية ، ولكن لم أقاوم مراقبتها حتى وإن كنت بعيدً ا ، فتوسلات أبي في سؤال صديقه عن الخطوة القادمة كانت واضحة تماما ، بينما كانت إيماءات عمر باشا الرزينة والتي أرفقها باشارات متكررة من كفه يمينً ا ويسارً ا لأبي في رفق أفادت بأنه يحمل إليه علامات الاطمئنان ، وما إن هدأ أبي واعتدل من انحناءته وتنهد في انفراجة نفسية .. حتى تحركا معً ا خروجً ا من القاعة ، وكما ظننت أنه عليّ أن أفعل .. تحركت خلفهما في خطوات سريعة للحاق بهما .

لكن نفس الكف الضخم اعترض حركتي، ولكن في حزم هذه المرة:

- ابق مكانك.. فمقابلة جلالته مقصورة على أبيك فقط..

سألته في حيرة طفولية كمن تركه أباه وحيدًا بميدان مزدحم:

- وأنا! أين سأذهب؟!

أجاب في حزم:

- فقط ابق مكانك!

دب الرعب في قلبي ، وتحرك أبي خلف عمر باشا في خنوع بعد أن رمقني بنظرة انكسار ، وكأنها نظرة وداع أخيرة زادت من صدق شعوري باقتراب الكارثة ، وما إن غابا عن ناظري خروجً ا من ذلك الصالون الأبيض اللعين حتى ارتميت على المقعد المُ ذهب في خوف من اللحظة القادمة .

مرت دقائق بدت كسنوات قضيتها غريقً ا بين أمواج اللون الأبيض ، الذي غزا جدران تلك الحجرة الواسعة ، وعلمت حينها سبب تسميته بالصالون الأبيض .. ولكن ، تبرأت السكينة حقً ا من ذلك اللون ، فكلما وقعت عيني على شيء تصبغ ببياضه .. حتى زاد توتري وانتفخ صدري بهواء متسارع .

لمحت ولّ اعة ذهبية على طاولة قصيرة انتصفت المكان ، وغليونً ا ضخمً ا استند في أناقة على حامل من العاج الأسود ، تذكرت محاولات صديقي دانيل جوستاف خلال دراستي بباريس في إقناعي بتدخين الغليون أسوة بإله علم النفس فرويد ، نعتّ ه كثيرً ا بالتافه الأبلة .. فما كان التدخين له إلا وسيلة لجذب الفتيات إلى هيبته عندما كان يقضي أوقات فراغه بالكازينوهات الليلة ، غير مصدق دفاعه الدائم عن ذلك بأنها وسيلة لإفراغ التوتر ، الذي يكاد أن يشيب شعره الأشقر القصير ، ولكن .. ما إن اجتمعت والتوتر والغليون في مكان واحد حتى آمنت بديانة دانيل وبدأت في تعلم أول طقوسها .

غاب أبي في لقاء جلالة الملك لمدة ليست بالقصيرة ، وغاب الهواء النقي عن رئتيّ لنفس تلك المدة ، فقد استنشقت من التبغ الملكي ما ظلل جلستي بغيمة رمادية من دخانه الكثيف ، وعندها شردت بين خطوط الدخان المتعرجة في حالة من الصفاء الذهني حاولت فيها جاهدً ا عجم غموض ما حدث من جلنار طوسون وفعلتها وتلك الفتاة التي ظنت أنها تحاول قتلها ، وشيئً ا فشيئً ا وتحت تأثير التبغ الذي اصطدم بوعيي للمرة الأولى بتلك الغزارة ، بدأت صورة جلنار

تُ نسج أمامي من حبات دقيقة متطايرة من التبغ المحترق ، حتى رأيتها تحدق بي في نظرة تعجب غاضبة !

ظننت حقًا أني فقدت عقلي ولكن..

انتصبت في نبضة لحظية واقفً ا عندما تبين لي أن ذلك الوجه هو حقً ا لامرأة حية ، لم تكن جلنار طوسون ، وإنما كانت لمن هي أكثر خطورة منها !

أشارت بإصبعها لشخص أخفى الدخان وجهه ، فطعنت ذراعه بأمواج الدخان لتفرقتها ، فرأيت وجه عمر باشا متصلبً ا في حنق من إجباري الأميرة على تنشق غبار توتري ، وما كان مني إلا أن ألقيت الغليون في مراهقة وتفرغت للاستحمام بماء عرقي من الخجل .

عبر عمر جسد الأميرة الضئيل وواجهني في حزم : لم نرسل إليك لمقابلة جلالة الملك .. بل كان ذلك بناءً على مطلب الأميرة إمتثال هانم !

اهتزت الأرض من تحت قدمي للحظة من هول الموقف ، فأنا أمام الأميرة إمتثال نفسها ، انحنيت لها احترامً ا وسلطت عيني أرضً ا خوفً ا من أن يُ فهم تحديقي الفضولي بوجهها أني أتجرأ على مفاتن ملكية لا حق لأمثالي في التمتع بها ، بينما لمحت ظلها أرضً ا وهي تشير بيدها لليسار ، ثم غابت قدما عمر باشا تمامً ا وما رفع رأسي إلا همسها الهادئ .

«اعتدل عزيز بك.. فليس لدينا الكثير من الوقت»..

اعتدلتُ في هدوء محاولا مقاومة سعلة أصابت حلقي بحكاك قاسٍ من فرط التدخين ، وما أن جلست حتى جلست إلى جوارها كما أشارت ، ولم تزل عيني معلقة بخيوط سجاد الصالون البديعة

..

تنهدت للحظة ثم نطقت أخيرً ا : قبل أن نبدأ حديثنا .. عليك أن تحذر .. فجلستنا اليوم سرية للغاية حتى جلالة الملك نفسه لا يعرف عنها مقدار حرف !

أومأت لها موافقًا في أدب بالغ: السمع والطاعة!

شعرت بتوتر حزين في صوتها ولم أنظر إليها بعد : في البداية أقدم خالص اعتذاري عن التجربة التي مررت بها مع الحبيبة جد ...

اختنق صوتها لبكاء عز على هيبتها أن تطلقه : جلنار هانم .. وعليك أن تعلم أن أحدً ا من القصر لا يتهمك بالتسبب فيما حدث .. فلقد كنت أتوقع ذلك !

وعندها فقط .. رفعت رأسي في حيرة ونظرت إلى عينيها في جمود بنظرة الحكيم المتمرس وليس الشاب البسيط الذي أهاب جلسة الأميرة ، ولم يكن صعبً ا التحديق بوجهها دون الالتفات إلى جمالها ، فلم تكن لجلنار امرأة مثيرة أو فاتنة الجمال بل كانت هادئة الملامح أقرب إلى ملامح الكثير من نساء المحروسة البسطاء .

مال عنقي يمينًا في تعجب مما قالت: ماذا تقصدين بأنك كنتِ تتوقعين ذلك؟

أومأت في موافقة وكأنها تجبر نفسها على الاعتراف : قبل أن أجيب سؤالك .. أرجو أن تصف لى تحديدً ا حالتها في تلك اللحظات الأخيرة .. وكذلك إن قالت شيئً ا قد أثار انتباهك؟

- كانت هادئة في أول الأمر وبدا عليها بعض علامات الحزن الغامض ، ولكن ما لبثت أن تحولت إلى هيستيريا غير مفهومة وصرخت بأن فتاة ما تطاردها وتحاول قتلها ..

-إذًا أنت تعرف؟

-أعرف ماذا؟

-أمر تلك الفتاة!

- كلا .. ولكنها كانت تظن أنها كانت تلاحقها .. وظنت كذلك أنها كانت على وشك اقتحام جلستنا لقتلها .. ولكن لم تظهر على الإطلاق ..

-ولن تفعل!

بالرغم من احترافي لفضيلة الصبر كمقوم أساسي لعملي فإن الغموض الذي أحاطت به الأميرة كلماتها أصابني بغضب لم أتمكن من إخفائه : ظننت أنه ليس لدينا الكثير من الوقت .. من فضلك أخبريني بوضوح ما طلبت رؤيتي من أجله ..

سكتت للحظات حاولت خلالها أن تتخير أفضل مدخل لما ظنته أغرب الأمور على الإطلاق : منذ عدة أسابيع أخبرتني جلنار أن بعض الرؤى الشيطانية تطاردها من حين لآخر لفتاة شابة ذات هيئة مريبة .. بدأ الأمر بومضات ضبابية تعبر من أمامها جيئةً وذهابً ا ، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى تجسد حقيقي يتكرر عشرات المرات في اليوم والليلة ..

ظننت أني عرفت تشخيص ذلك المرض ولكن: ربما كانت بعض الهلاوس و...

قاطعتني في سرعة : كلا ! ظننا ذلك في أول الأمر ، ولجأنا إلى أمين بك عبدالمنعم لتفسيره لكنه لم يتمكن وأقر بأن ما تصفه جلنار لم يره من قبل في أي من كتب التحليل النفسي ..

اعتدلت في جلستي مستنكرً ا : عظيم الاحترام لمقامه ، ولكن ما تقولينه يعتبر تعريفً ا كلاسيكيً ا للهلاوس البصرية حتى وإن كانت نادرة ..

تنهدت في يأس: ربما لم تفهم بعد..

اقتربت منها دون خجل في نهم طلاب العلم: إذًا أفهميني!

تحجرت ملامحها لثوان وكأنها تذاكر ما عليها قوله ، ثم اعتدلت في تراجع هادئ وقد حسمت أمرها : لقد كان قرارً ا خاطئً ا .. أتمنى أن تنسى ما قلته اليوم ..

اعتدلت في حنق: ماذا تقصدين؟ أنتِ من أرسل في طلبي!

زفرت في أسى: ظننت أنك مختلف، ولذلك لجأت إليك جلنار.. ولكنك تبدو كغيرك.. لا تعلم خطورة ما حدث حقًا..

حاولت السيطرة على غضبي : كانت جلنار هانم في حالة هيستيرية لتنطق بما هو مفهوم .. وأظن أنك لم تكوني أقل غموضً ا منها .. فكيف تتوقعين أن أبني تصورً ا على بضع كلمات غائمة؟ !

أكدت في مقاومة لرغبتها الواضحة في الإفصاح: كان حقًا قرارا خاطئا.. اسمح لي!

ودون مقدمات ارتفعت قامتها نهوضً ا وتسمرت في انتظار أن أقف أيضً ا في استعداد لانحناءة أخيرة لمقامها قبل أن ترحل .. لكني لم أفعل ، بل راقبتها في شرود ولا تزال الحيرة تحيط برأسي .

تعجبت في حنق بسيط من جلوسي أمام وقفتها ، وما أن علِ مَ ت أن تعاليم اللياقة قد غابت عن جليسها حتى استدارت للرحيل ، وعندها أقدمت على ما اعتبرته كأميرة من الأسرة العلوية من المحرمات .

أمسكت بذراعها في لهفة: أنتِ تخفين أمرًا!

التفتت إليّ في غضب من جرأتي فأكملت في تأكيد : بالله أخبريني بالحقيقة .. فلقد كنت طرفً ا فيما حدث .. وأصبحت شريكً ا فيه شئتِ أم أبيتِ !

غلظ صوتها في استنكار بالغ: كيف تجرؤ؟!

وقفت أمامها في مواجهة متوترة وأنا أعي هول ما أفعل : لم أر في حياتي خوفً ا كذلك الذي أحاط بقريبتك .. وأعلم جيدً ا أنها لم تكن مجرد هلاوس .. وإلا كان أمين بك قد أقر بها .. أخبريني بالحقيقة .. من هي تلك الفتاة؟

تعلقت عينها بعيني في أسى وكأن ما قلته عن جلنار وحالتها البائسة قد أصاب قلبها فانفطر ، وما أن انفرجت شفتاها لكلمة حاولت منعها ، حتى شعرتُ بحمل ثقيل على كتفي يجذبنى للخلف في عنف ، وما إن استدرت لاستبيانه حتى وجدت صادق باشا في مواجهتي بوجه غاضب :

«ما الذي تفعله أيها الأهوج؟!».

تراجعت صاغرً ا في حنق متجاهلا نظرة عمر باشا التي كادت أن تثقب وجهي ، وعندها استغلت الأميرة تدخل حارسها الأمين وتحركت في رحيل سريع ، راقبت رحيلها في حنق حتى قطع كبير الياوران نظراتي بوقوفه أمامي ..

- يبدو أن المشكلات تتعلق بأعقابك أيها الشاب.. أتعي خطورة ما فعلت؟

واجهته في ضيق : يا صاحب السعادة .. الأمر جد خطير .. الأميرة تخفي شيئً ا له علاقة بانتحار جلنار هانم و...

قاطعني في جمود هادئ: ومن قال إن جلنار هانم انتحرت؟

ً

ابتعدت عنه خطوة للوراء في تعجب: حقا؟!

أشار إلى بإصبع آمر : سمعة القصر لا يمكن أن تلطخ بخبر كهذا .. أنت لم تقابل جلنار هانم في حياتك ، ولم تنل شرف الدخول إلى الصالون الأبيض ، ولم تجالس الأميرة إمتثال ، حتى أنك لم تخن أمامي على الإطلاق .. وما تعلمه حقً ا كغيرك .. هو أن جلنار ماتت بالحمى ..

تقدمت منه مرة أخرى في غضب: من قال ذلك؟

احتد في حزم وعين بجحظت في تهديد: جلالة الملك فاروق الأول نفسه!

ألجمت نبرته لساني ، وغاصت قدماي بموضع وقفتي الباهتة ، التي افتقرت لأي محاولة من مقاومة نفوذه ونفوذ من تحدث باسمه ، فما كان مني إلا أن راقبته في استسلام ، وما أن تأكد أن نظراته الصامتة التي أعقبت جملته الأخيرة كانت كفيلة بإقناعي بالتزام الصمت .. حتى استعد للرحيل معلقً ا بجملة أخيرة :

« رحل أبوك إلى قصره منذ دقائق بعد أن أغدق عليه جلالة الملك بهدية صمته عما حدث .. فالحق به .. قولً ا وفعلً ا !»،

طويت الطريق الفاصل بين قصر عابدين وقصر اللعين كامل باشا الحداد سيرً ا بطيئً ا لساعات قضيتها في محاولة يائسة لفهم ما حدث حقً ا ، وما أن وصلت إلى غرفة النوم دون أن أتذكر حتى إن كنت قد قابلت حموّ ي وقهوته العصرية أم لا؟ أألقيت عليه التحية أم تجاهلته ، حتى وجدت ليلى في انتظاري !

وبحركة لا إرادية استدرت مجدداً للرحيل في ضيق نزولاً إلى بهو القصر دون تردد ، ولكن ما إن لمست قدمي أرضية البهو حتى صفع رأسي ضجيج ضربات قدميها على السلالم ، فتوقفت في استعداد لحوار عبثي آخر ..

دارت حول جسدي وانتصبت أمامي في تحفز: من بين الجميع.. لم أتصور قط أنك ستكون أول من يخذلني..

رددت في استسلام وارهاق: الحياة مليئة بالمفاجآت.. وها قد قابلتِ أولها..

مال عنقها في حنق : ألا تدري حقاً ما فعلت؟ ! لقد أفسدت الأمر كله .. أرسلنا المرأة إليك بعدة كوابيس ليلية .. وما إن خطت بقدميها داخل مكتبك حتى قتلت نفسها؟ أي طبيب أنت؟

- من فقد عقله.. وقبل أن يتزوج بكِ..

-لا ترهق نفسك في محاولاتك الطفولية لإهانتي.. فما ينتظرك من خطر أكبر بكثير..

-فلنعجل به إذًا!

ملأت صدرها بشهيق طويل زفرته في بطء ، وكأنها تحاول أن تهدأ رغمً ا عنها ، وبعد ثوان من الصمت أشاحت بوجهها بعيدً ا وأشارت بإصبعها تجاه باب القصر في نبرة هادئة : فقط غادر الآن .. حتى أصلح ما أفسدته .. وحتى لا يشوب حبي لك الكثير والكثير من الكراهية التي أكنها لك في تلك اللحظة ..

انحنيت لها في برود انحناءة أخيرة كنت قد أرجأتها منذ لقائي والأميرة إمتثال ، وكأن الآن هو وقتها المناسب ، وتحركت للرحيل في طاعة لأمرها دون أن ألتفت ولو حتى لنظرة خاطفة أتبين فيها ملامح وجهها الساخن ..

عدت إلى الطرقات مرة أخرى ، وهمت على وجهي دون هدى حتى أطبق الليل ، فما لي أن أعود إلى قصر أبي بعد ما جرى بيننا ، ولم يعد قصر كامل باشا يحتمل تبادل الأنفاس بيني وبين زوجتي الغاضبة ، وعندها .. لم أجد سوى مكتبي المتواضع لأفترش أثاثه استعدادً ا لنوم هادئ .

مرت ثوان أو ظننتها كذلك ، وضرب ضوء الشمس عيني في إجبار على استيقاظ مبكر ، وما إن فرجت جفني في صعوبة ، وتسرب الألم لظهري تدريجيً ا من نومتي الأرضية ، حتى رأيته واقفً ا فوق رأسي ناظرً ا إليّ في صمت .

نطقت في حيرة من وجوده في هذا المكان بالذات: كامل باشا؟!

كان الحزن باديً ا على وجهه ولم أغفل عن آثار بكاء حفرت تجويفً ا بسيطً ا على وجنته البيضاء ، اعتدلت في تعجب وحاولت أن أصلح من هندامي في عجالة : ما جاء بك إلى هنا؟ !
أحدث أمر لـ ...

أشار إليّ في هدوء ونَ فْ ىٍ لما جال بخاطري من قلق زائف على زوجتي ، وجلس على المقعد الذي أدفأته جلنار سابقً ا : أردت أن أحدثك في أمر هام .. فاستفق !

استفقت لحظيًا وشاركته جلسته: ما الذي يحدث؟!

تحدث في خجل محاولًا تجنب النظر إليّ: علمت كما علم الجميع بوفاة جلنار هانم بالحمى..

أومأت في كذب أُجبرت عليه: هذا صحيح!

قاطعني في حنق: كذبت! لقد أخبرتني بنفسها أنها قادمة إليك.. قبل ساعة من لقائكما.. وكانت بصحة جيدة!

تهربت في توتر ملحوظ: كامل باشا.. لا أظن أني أستطيع مساعدتك في هذا الأمر..

نهض في ثورة: كف عما تفعل! جلنار لم تنتحر.. جلنار قتلت!

أغمضت عيني في إرهاق وقد كرهت حقً ا ذلك الاسم : لقد شهدت انتحارها بنفسي بحق الله !! (نهضت في غضب) ها قد أخبرتك بما قد يودي بنا إلى الهلاك معً ا إن وصل إلى القصر ..

نطق بها في هدوء: بل قتلتها الفتاة!

رفعت عيني وقطبت جبهتي في جمود: ماذا قلت؟

تنهد في إرهاق: لقد سمعت جيدًا ماذا قلت!

اقتربت من وجهه: وما الذي تعرفه عن تلك الفتاة؟

هز عنقه في أسى: كل شيء!

وضعت يدي على كتفيه وأجلسته في هدوء كمن يهدهد طفلا صغيرا: أخبرني!

ترقرقت عيناه بالدمع: اسمها فيروز! وأستطيع حقًا أن أصفها لك..

جذبت مفكرتي الورقية من جيب سترتي الملقاة على مقعدي القطني في سرعة دون وعي مني ، وتجاوزت صفحاتها البيضاء التي لم أشغل منها سوى بضع وريقات .. واستعددت أن أرسم في صفحتها الأخيرة ما سينقله إليّ ذلك العجوز من أوصاف ..

لكنه ، وبمجرد أن لامس القلم صفحات المفكرة حتى انتبهت إلى شيء غريب غفلت عنه في خضم « لا إرادية » فعلتي ..

أسكتّه بإشارة من إصبعي في استنكار وغير تصديق : توقف توقف ! كـ .. كـ .. كيف ستصفها ليّ ؟ لقد كانت هلاوسها الشخصية أو كما قالت إمتثال هانم خيالات شيطانية ولا يمكن لأحد غير جلنار أن ...

التفت إليّ في برود ولطمني بعبارته الأخيرة: لقد رأيتها أيضا!

- ٤ -

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

«لم يرك أحد.. اطمئني»..

قالها زوجي المكلوم عاصم ، وأتبع كلمته بمسحة من كفه الهادئ على رأسي المضطرب في حنان يائس ، معلقً ا على عبوس وجهي من تلك المهانة التي لاقيتها بين الجميع بسقوطي الساذج بينهم ، وقد أفسدت حفل ختام عرض الأزياء الذي انتظرناه لشهور .. أشفقت على ملامحه البائسة التي تستجدي من ملامحي المتحجرة ابتسامة امتنان تثلج صدره على ما فعله الليلة من أجلي ، حيث أصر على اصطحابي لواحد من أكبر المستشفيات في القاهرة لتطبيب جرح فمي البسيط في مبالغة بالرعاية ، وما أن وصلنا إلى الفيلا حتى استنكر رغبتي في صعود الدرج إلى غرفة النوم ، وحملني بذراعيه حتى الفراش الذي تناسيت ترتيبه قبل أن أغادر في ذلك الصباح ..

فعل كل ذلك في مقابل ابتسامة ، إلا أننى كالعادة لم أقايض حنانه الزائد عليها .. فقط أومأت له في صمت ، واستدرت في نومتي على الجانب الآخر ، وعندها شعرت بتنهيدة متقطعة أطلقها وراء ظهري ، وأحسست بضغطته على قوائم الفراش استعدادً ا للنهوض في بطء من جلسته الأرضية .. في طريقه إلى الرحيل .

ارتجفت شفتي في تردد ، أردت أن أشكره في حرارة على ما فعله من أجلي ، حاولت حقًا أن أفعل .. لولا أن ساد الظلام الغرفة بضغطة من أصابعه وأغلق الباب وقد اختفت أنفاسه من حولي .

نهضت معتدلة في حنق مما فعلت ، أو بالأحرى مما لم أفعل ، ولكن بات ذلك الشعور القاسي بالذنب عاديًا من كثرة ما خالط قلبي حتى تحول إلى واحدة من نبضاته اليومية ، وعندها نجحت في تجاهله وتفرغت لذلك الشعور الآخر الذي غمرني منذ ساعات .. وأصاب رأسي بدوار ربما يبدو أكثر قسوة من ذاك الذي نتج عن اصطدامي بقائم المسرح الحاد .

لن أتمكن من وصف ذلك الشعور الغريب.. فما اختبرته قط إلا الليلة!

أخرجت تلك المفكرة العتيقة من حقيبتي في رجفة لم أفهم سببها ، وضغطت زر إضاءة الأباجورة ، وقلبت بين صفحاتها مرة أخرى لأتأكد من حقيقة ما رأيته بين وريقاتها ... فربما اختلط عليّ الأمر من أثر الصدمة .

ولكن ما إن وصلت إلى تلك الصفحة حتى هاجم الصقيع جسدي مرة أخرى ، كان حقًا رسمًا تفصيليًا لشخصي وبهيئتي الحالية ، دققت النظر أكثر واقتربت بوجهي من ذلك الرسم التفصيلي .. وعندها رأيت ما ضرب رأسي للخلف في عنف وكأنها سقطة أخرى مؤلمة .

الرسم يحتوي على ضمادة طبية حول شفتي المصابة!

كيف ذلك؟ وهل كان ذلك موجودًا عندما رأيت الرسم للمرة الأولى؟ هل قفز إلى الرسم بمجرد أن صمم زوجي على تطبيب جرحي البسيط بتلك الضمادة الملحوظة؟

سألت نفسي مراراً ا حتى أصابتني غرابة الأسئلة بحالة من الاستنكار لما أقول وكأني تقبلت سريعً ا حقيقة وجود رسم لشخصي بمفكرة مضى عليها سبعون عاما .. وما يقلقني فقط هو أحد تفاصيلها !

همست لنفسي: لقد جننت حقًا.. فما أرى ليس إلا جزءًا من خيال غير مقبول.. على الإطلاق!

لم أهتم لموضع العقارب من الساعة ، ولا من كتفيّ اللذين أعراهما رداء السهرة الذي ارتديته في عجالة بدورة مياه الشركة قبل الديفيله ، فقط انطلقت تجاه سلالم الفيلا ركضً ا للأسفل دون أن يشعر بي زوجي الغافل ، الذي ربما قضى ما تبقى من ليلته نائمً ا بغرفة مكتبه المظلمة . وما إن وصلت إلى الباب حتى فطنت إلى غياب ما يحمي قدمي من برودة الأسفلت ، ففتحت دولاب الأحذية في عجالة والتقطت دون أن أرى حذاء زوجي الرياضي ، وهرعت إلى الطريق وقد صرعني نداء أذان الفجر حتى كدت أن أسقط مرة أخرى .

أصدرت عجلات سيارتي المرسيدس صوتً ا غليظً ا عندما احتكت بالأسفلت في فرملة حمقاء أفسدت على رواد مسجد السيدة زينب استمتاعهم بهمساتهم التسبيحية التي أعقبت انتهاءهم من الصلاة ، وانطلقت ركضً ا تجاه الساحة وقد التقطت أعينهم في تعجب هيئتي الغريبة « رداء ليلي .. وحذاء رياضي أبيض ».

بحثت بعيني بين الأعداد القليلة التي تخرج من المسجد عن عم فرغلي . خرج أخيرً ا فاندفعت نحوه دون أن أترك له مجالً ا لارتداء فردة حذائه الأخرى ..

انتفض في فزع من رؤيتي: فيروز؟!

وضعت فردة حذائه الأخرى آمام قدمه كطفلة بارة ترعى انحناءة ظهر أبيها: أريدك في أمر بالغ الخطورة..

خلع عباءته البالية وغطى بها ما ظهر من مفاتني في لهفة متلفتً ا تجاه نظرات المصلين إلى جسدي : أيًّ ا كان ذلك الأمر .. فلا يجوز يا ابنتي أن تقتحمي بيت الله بتلك الهيئة !

جذبته دون اهتمام: فلنستغفره في طريقنا إلى بيتك!

التقطت أذنا عامل المسجد تلك العبارة فاستنكرها في تنهيدة غاضبة ، وقد ظن أن بيت عم فرغلي على وشك أن يشهد علاقة جنسية بين العجوز والمنحرفة بدلً ا من ركعتي الضحى ، إلا أن انطلاقي بذراع عم فرغلي في سرعة منع الأخير من محاولة تبرئة نفسه من ذلك الذنب المستقبلي ..

قطعت المسافة القصيرة من المسجد وحتى بيته القديم في إزحام رأسه بعبارات هيستيرية تشرح له ما حدث ، لكنه لم يفهم ..

أعطاني مفتاح مزلاج باب البيت كالعادة : فقط دعينا ندخل ونحتسي كوبً ا من الشاي الدافئ .. وعندها ستهدأين وربما تنطقين بما هو مفهوم ..

ضرب المفتاح استدارة القفل عدة مرات دون فائدة من فتحه ، فبدت يدي مرتعشة مثل يده تماما : فقط أخبرني من أين لك بتلك المفكرة الشيطانية؟

أخذ المفتاح وفتح عني الباب ودخل في هدوء بينما تبعته في غضب: انطق بالله عليك.

التفت إليّ في عجز عن تهدئتي : أخبرتك أنها من الدكش .. لا إله إلا الله .. الآن اجلسي لتقصي عليّ الأمر في كلمات مفهومة ..

فتحت المفكرة على الصفحة الملعونة ودفعتها أمام وجهه: وماذا لو كانت الصورة بألف كلمة!

سحب نظارته الضخمة من على الطاولة التي امتلأت بالعديد من الأطباق المتسخة ، وارتداها وقد ألصق الصفحة بوجهه محاولاً تأملها في تركيز ، ومرت ثوانٍ دون أن ينطق بكلمة واحدة .

رفع عينه ونظر إليّ من أعلى نظارته التي تدلت على أنفه في صمت فبدا مرعبا للحظة: كيف ذلك؟

تقدمت منه في لهفة وقد أصبحنا أخيراً على طريق واحد : ليس هذا فقط .. بل إن تلك الضمادة الطبية مرسومة بالتفصيل .. ولم أصب بفكي سوى الليلة فقط ..

امتعض وقد عقد حاجبيه في نفور وكأنه فطن إلى حقيقة الأمر حقًا: هـ... هذا لا يحدث!

قاطعته في غضب: ماذا الذي يحدث؟ تكلم.. ما الذي تعرفه؟

تنهد في ضيق: لا.. ليس ثانية! لقد.. لقد فعلت كل ما.. كل ما..

وغاب في عالم آخر مسبحاً بـ « كل ما .. كل ما » تسبيحاً لا نهائياً ، وعندها تنهدت بدوري ، وقد فهمت الحالة التي طالت كامل جوارحه .. قلباً وعقلاً .

كان عليّ أن أتوقع ذلك ، لولا أن غرابة ما مررت به استحوذت على كامل تفكيري ، وأسقطت من ذاكرتي كيف بدأت علاقتي بذلك الرجل ، الذي عاش أكثر من نصف سنوات عمره ملازماً للكثير من الظواهر الغريبة .

كان العام ٢٠٠٥ ، وكنت لا أزال حينها في السنة الثانية من كلية الآداب ، وبالرغم من اشتراكي وزملائي في سلوك جامعي معتاد من الامتناع عن حضور تلك المحاضرات المملة ، التي تمتلئ بالكثير من الهراء التاريخي ، لكني كنت أول من يخترق عتبات الباب الرئيسي لجامعة القاهرة صباحاً ، وآخر من ينفلت من محيطها ليلاً ..

ظن الجميع في أول الأمر أن السبب هو انخراطي بفرقة كلية التجارة المسرحية كـ « ستايلست » مبتدئة لشباب وفتيات الفرقة ، وتعلقي حينها بأحد مؤلفيها « راجي عمر » في علاقة عاطفية لم يُكتب لها الاستمرار ، لكن الأمر كان حقاً أكبر من ذلك .

فالحياة بين جدران تجمع كلاً من محمود الصيرفي وزوجته سعاد خليل كانت أقرب إلى المستحيل الخامس الذي لم يذكره مكتشفو المستحيلات الأربعة الأخرى ، وعانيت منه وحدي طوال عشرين عاماً . فما كان إلا أن أصبحت سنوات الجامعة هي المخرج الوحيد من هذا الجحيم الأسرى .

ولكن.. كيف تمضي الأيام دون عناء يذكر؟ وكان الجواب المنطقي أنها أبدا لن تفعل.

فما أن عُ دت في أحد الأيام وقد ظننت أن تقاطع خطوات وصولي إلى أعتاب ذلك البيت المقفر مع خطوات عقارب الساعة التي طرقت علامة العاشرة مساءً قد يُ ذهب بعضً ا من حطب جحيم اللقاء بسكانه ، حتى خاب ظني كالعادة .. وقد وصلت تقريبً ا في اللحظة المناسبة من عراك آخر .. بدأ - على ما بدا - باستنكار معتاد من أمي تجاه تصرفات أبي ، واستمر بمحاولاته لتبريره .. وأوشك أن ينتهي بمحاولات ابن عمها للفصل بينهما .

دخلت في بطء تحت عباءة من الصمت لكيلا يشعر أي منهم بوجودي المحبط ، إلا أن تحية مسائية أثقبت وجهي قذف بها ابن عم أمي في محاولة بائسة منه لصرف انتباههما عن قلاعهما الحربية وهدمها . قبضت على قدمي وتسمّ رت في عدة سنتيمترات ضيقة في حالة مختلطة من السخط لتحيته ، والقلق من انتباههم ، والأهم الكراهية المسننة تجاه ذلك اللعين .. وكأنما أردت خدش وجهه المبتسم بأسنانها الحادة .

بدأت أمي حلقة جديدة من مسلسل استعطافي: ها قد عدتِ أخيرا.. فلتشهدي على أبيكِ ا..

قاطعتها في ابتسامة قصيرة : شهدت .. وأقسمت بيد يمنى على قلبي بفساده .. فلتعجلي بإنزال كلمة النهاية على هذا المسلسل الممل يا أمي .. (اصطنعت براءة لا تناسب ما قلته قبلً ا).. من فضلك .

أسقطت كلمة «فساده» رأس أبي أرضا ونطق في خجل وعار: اتجهي إلى غرفتك يا ابنتي..

اندفعت تجاه الغرفة وقد تنفست الصعداء في مبالغة مسرحية قصدت بها سخرية واضحة : ااه .. ظننت أن أحدً ا منكم لن ينطق بها !

ركضت لعدة سنتيمترات قصيرة قد لا ترقى حقً ا لربطها بلفظ « ركضت »، وتعثرت مرة أخرى لطرق غريب على باب شقتنا البائسة ، وكأن ضجيج الماكينات ينقصه نقرة دبوس على أرض صلبة .

تجاهلت الطرق العنيف ، وانطلق ابن عم أمي تجاه الباب لخلع درفته فتحً ا من القلق ، وما أن أعلن الزائر عن هويته بسؤاله عن وجودى ، حتى أصمت الجميع ، وألقى بحباله الخطافية لتخدش أذني قبل أن ألتفت إليه .

«راجي؟!»..

نطقت بها في قلق لم أشعر به قبلً ا ، ليس فقط لاقتحامه عالمي المخجل للمرة الأولى منذ بداية علاقتنا السرية عن أبويّ ، وإنما لانغماس وجهه أسفل محيط من العرق حتى أوشكت أنفاسه المضطربة على أن تطلق من بينها فقاعات هوائية مهترئة .

اتجهت إليه وعيني تتراقص بنظراتها بينه وبين نظرات والدي التي تثقب مؤخرة رأسي : مـ .. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ودون أن أشعر التفت لهما قبل أن أسمح له بإتمام محاولة الإجابة عن سؤالى: إنه راجي.. زميلي في الكلية..

نطق دون تردد: تعالي معي الآن لأمر هام!

شعرت بتحركات دائرية وأخرى مستقيمة لأجساد والديّ اندفعت تجاهي ، وكأنهما أرادا استنكار عبارته باقتراب أبوي ، فلم أشعر إلا وقد انطلقت معه للخارج وقد أغلقت الباب خلفي .

فلتت من فتحة الباب قبل إغلاقه كلمات صائحة احتوت على اسمي وعدة أحرف من عبارات تمنعني من فعلتي المفاجئة ، حتى التحم لسان كالون الباب برفيقه من الحائط فكتم أصواتهما .. ودفعته متعجلة إلى الخارج حتى أوشك أن ينشغل عما أصابه بما أصابني .

مد ذراعه ليوقف حركتي بمجرد أن وصلنا للطريق: فيروز توقفي.. ماذا أصابك؟

تلفتت حولى عدة مرات وأنا أدفع بيدي في جيوب سترتي الشتوية المفتوحة وقد رفعت كتفي في اصطناع للبراءة الطفولية : لا شيء ! ألم تقل إن هناك أمرً ا مهمً ا أردتني بشأنه؟

وكأنه تذكر بعد غفلة، فاتسعت عيناه: وجدته يا فيروز! ولم أطق صبرا حتى تشاركيني تلك التجربة.

جذبني في آلية ودفعني إلى جواره قفزً ا داخل سيارة أجرة كانت في انتظاره ، حتى كاد السائق الغاضب أن ينقل إليّ ما استعصى على والدي نقله من لعنات لتسببي في تأخره ، ودون أن أفهم كلمة مما قالها .. تسابقنا وحبيبات الأسفلت الصفراء حتى وصلنا إلى أحد الطرق المتعرجة من طرقات حي السيدة زينب .

وصلنا إلى بيت قديم واقتحمنا بناءه شبه المتهدم حتى زادت جدران ممره الضيق من الليل ليلً ا آخر ، وبخطوات بدت مضطربة ساقني عمقً ا حتى وصلنا إلى باب خشبي أضاءت قوائمه بإطار من الضوء الأصفر وكأنه يُ خبئ حريقً ا شمسيً ا داخله .

طرق راجي عدة طرقات خفيفة على حبيبات الباب الخشبية ، ثوانٍ وانتفضنا لسعلة غليظة تعالى صوتها تدريجيً ا باقتراب صاحبها من الباب ، وبصوت حاد دفع ما بدا أنه ترباس عكس حركة جسده الخفية وفتح الباب في قوة انتفضت لها للمرة الثانية وكأن انتفاضة شعيرات ذراعي القصيرة والتي لم أهتم بإزالتها منذ فترة قد تحولت إلى صلاة فرضها إله ذلك المحراب المرعب .

دلفنا إلى الداخل وباغت عيني تدريجيً ا ما حجبه جسد الرجل المسن صاحب السعلة المخاطية بعودته إلى العمق ، فكلما اقتربنا خطوة زادت حدقتي اتساعً ا ، فزحف بصري على تلك الجدران القاتمة والتي كان طلاؤها العديد من الأرفف الورقية لكتب اهترأت أغلفتها . جذب سترتي الشتوية في تعاقب أوشك أن يعزف سيمفونية من الخدوش .. أسنان مدببة لطاولة نحاسية متسخة تارة .. ومقعد خشبي بمسامير صدئة على جوانبه تارة أخرى ، وما أن نجحت في جذب سترتي ضمً ا إلى جسدي حتى أتممت الركعة الثالثة من صلوات الانتفاضة .. بأنين مرعب رج أرجاء الغرفة .

وعندها فقط رأيته للمرة الأولى ، همس راجي في أذني بصوت كان مناسبً ا لجو الرعب الغالب على الحالة المزاجية لشخصي الضعيف : عم فرغلي .. مفتاح اللغز !

كان اللغز بالطبع يخص إحدى مسرحياته الجديدة ، التي كانت تقص أحداث فتاة خطفها جني سفلي إلى عالمه الناري تحت الأرض ، بدت فكرة سخيفة حقاً ، حتى علمت منه بهمس مخيف آخر أن ذاك المدعو فرغلي يدّعي أن الجن خطف زوجته إلى تحت الأرض .

كان يكفيني مجنون واحد حتى أجبرني القدر على مشاركة اثنين منهم الغرفة ، ولاسيما ثلاثة رجال آخرون يظن اثنان منهم في ملابس أزهرية أنهما قادران على تسخير الجن ، بينما اكتفى الثالث بمواصلة سعلاته المقززة ومراقبة الأمر في قلق .

اقتربت منا إحدى العمم الأزهرية وخاطبت راجي بنظرة وجهتها إليّ بنفس صوت الهمس المستفز : لابد أنك الأستاذ راجي .. أوصاني عم جلال أن تحضر بنفسك تلك الجلسة .. ولكن (رفع إصبعه المتسخ محذرا) إن كنت أنت أو تلك الأبلة (أوشكت أن أصفعه بسبب ذلك اللفظ) تخشيان ما وراء ذلك العالم المادي .. فربما يكون وقت الرحيل قد حان مبكراً .

أومأ له راجي بالموافقة بعدة طرقات من كفيه للهواء في بطء وإيماءات صاحبت إغلاق عينه موافقاً بأن يطمئن ، وجذبني بنظرة أراد بها اطمئناناً غاب عن جوارحي منذ أن رأيته الليلة ، وتحركنا لإكمال تلك الجلسة الدائرية حول التعيس فرغلي .

صرخ فرغلي بأنين آخر أوشك أن يرفع جسدي عن المقعد الخشبي القذر بمجرد أن جلست عليه ، وانهمرت دموعه في نداء : سـ .. ع .. ا د .. سعاد !

علمت أن اسم زوجته هو سعاد ، وابتسمت لتطابق ذلك الاسم مع اسم أمى .. فربما تتطابق المصائر حقاً إن صح ادعاء العمة الأزهرية بأنها اختفت تحت الأرض .. فليتها تختفي هي الأخرى بقبيلة من الجن السفلي .

جذبت العمامة الأخرى أعمدة الشمع الغليظة التي صبغت وجوهنا باللون الاصفر ، ووضعها أمامه وأمرنا بخلع إحدى فردتي أحذيتنا ، فتعجب وتعجب راجي ولكن لم يكن لنا أن نعترض .. ففعلنا ، وبدأ الشيخ المعمم في تلاوة بعض الآيات القرآنية التي جاورت في غرابة عددا من

الألفاظ الغامضة من لغة بدت مبهمة ، وحينها ارتفع أنين فرغلي مرة أخرى ، ليرتفع صوت العمامة في حزم .. وقد فهمت أخيراً أن الجن الخاطف قد حضر وأن تلك العمامة تجلد جسده الناري بعبارات لاذعة .

لم أصدق بالطبع ، وبدأ ضوء الشمع المتراقص على وجهي في عمله الفاضح بكشف تعبيرات السخرية التي رفعت وجنتي للأعلى قليلاً ورسمت ابتسامة استنكار على شفتيّ الباردتين .

لاحظ صاحب السعلة الغليظة لوحة السخرية الباهتة وألوانها على وجهي ، فطلب مني الانصراف في غضب ، حاول راجي منعه حقاً في رجاء يناسب اسمه ، لكن رغبتي التي اتحدت مع غضبه دفعتني للنهوض ، وما أن فعلت ، وما أن أوشكت على التقدم خطوة تجاه الباب الذي بدا بعيداً ، حتى انتفضت لركعة رابعة من صلاة الانتفاض على صوت شهقة غائرة صاح بها فرغلي قبل أن يسقط أرضاً على قدمي ليعتصرها بجسده الثقيل !

كان جسده يرتجف وكأن ضمه الصقيع ، وصرخت العمامتان بما يعني أنهما وجدا ما يبحثان عنه ، بينما راقب راجي ما يحدث في شغف الرضع لصدر أمومي رطب ، وكأن الجميع أراد لذلك أن يحدث .. إلا أنا .. فما لاحظته كان مغايراً لظنونهم بحضور الجني المزعوم ، حيث بدت كحالة أخرى من الصرع الذي يباغت أخي الأصغر عمرو بين الحين والآخر .. وعندها لم أشعر إلا وقد ارتميت على جسده في لهفة صرعتهم ومددت يدي داخل فمه بقوة وأسندت بيدي الأخرى رأسه في محاولة بائسة لإخراج ما لم يرونه .

كان لسانه معقودًا للداخل.. وإن كانت قد مرت ثوانٍ أخرى.. لابتلعه دون عناء يُذكر!

حاول صاحب السعلة رفع جسدي الهزيل من عليه ، لكني سبقته بضربة من حذائي الثمين على أصابعه فسمعت تفقع عظامها مختلطاً بتأوه طفولي لا يناسب غلظة سعلته ، وأنهمكت تحت

صيحاتهم في محاولة لإخراج لسان المسكين .. وما أن توقف جسده عن الحركة وأوشكت على الظن بفشل مهمتي .. حتى باغتني القدر بنجاح غير متوقع .. فجذبت لسانه وخرت مقاومة أقداره لقبضتي الرقيقة فاعتدل ، بينما دفعتني تلك المحاولة الأخيرة للخلف في عنف أسقطني أرضً ا بين رجليه المفرودتين .

تنفس فرغلي الصعداء وفتح عينه في تعجب مما حدث وكأن وعيه كان منقطعً ا بين أحداث تلك المباراة الجسدية التي دارت بيني وبينه ، وشاركه التعجب حبيبي الساذج وعماماته التافهتان وصاحب السعلة القذرة .

استغللت لحظات الصمت التي أحاطت بهم جميعً ا وجذبت حذائي الرخيص واتجهت للخروج في سرعة أبطأتها قليلً ا عبارة شكر من فرغلي ربتت على رأسي في حنان نادر وصوت عذب أثناء رحيلي « حفظك الله يا ابنتي ».

خاصمت وقتها راجي لعدة أيام ، ليس لأذى عاطفي أصابني من تلك الليلة اللعينة وإنما في محاولة لإجباره على مراجعة أفكاره التي اختلط بها الكثير من الخرف وقد سمح لخيال وحيه الكتابي بمضاجعة واقعه البائس ، ولكن .. لم يمنعني ذلك من فعلة لم أفهم حتى يومنا هذا السبب الحقيقي وراء إقدامي عليها .

اخترق جسدي كالعادة بوابات الجامعة خروجً ا ، ولكن في وقت أبكر قليلً ا من المعتاد بعدما أجبرتني تظاهرات الطلبة لدعم أحد مرشحي الانتخابات الرئاسية الأولى في العهد الحديث للدولة المصرية الطائشة على الرحيل باكرً ا ، وما بين مخاصمتي لراجي وانقطاعه عن القدوم إلى الجامعة مستغرقً ا في كتابته التافهة ، وبين رفضي الفطري للعودة إلى البيت قبل أن يسدل الظلام أستاره على أعتاب بيتنا الملتهب .. ساقتني قدماي إلى بيت عم فرغلي مرة أخرى ، ولكن هذه المرة كنت وحيدة .. فأثاب بصلاة الانتفاض بست وعشرين درجة أقل من سابقتها .

نقرت بأظافرى المطلية باللون الوردي بابه الخشبي الرقيق وانتظرت ردً ا ، وما أن طال الرد ، وتعاقد حاجباي لتعجب حل مكان الخوف بقلبي ، حتى انتبهت لقفل حديث أصاب أحد جانبي الباب بإغلاق بدا حديثً ا .

التفت للرحيل ، فضربني أذان صلاة الرعب مرة أخرى ، ولكنه كان بصريً ا هذه المرة وقد فزعت لوجه فرغلي وهو ملتصق بوجهي ، ابتسم ومال بعنقه وكأنه يحاول أن يتذكر صاحبة تلك التعبيرات المنقبضة وهمس : أنتِ من ...

أومأت له بتنهيدة زفرت الخوف من داخلي في عتاب على إفزاعه لي : أجل أجل .. جئت فقط للاطمئنان عليك .. كيف حالك؟

راقبني في صمت وابتسامة صافية ظللت عينيه بغلاف رقيق من عبرات لامعة ، وكأنه لم يظن أن أحدً ا قد يكلف نفسه عناء التحرك إلى كهفه المقفر للاطمئنان عليه ، ثم أسقط رأسه برفق للأسفل وأداره يمينً ا ويسارً ا في بطء وكأنه يتعجب من فعلتي في إعجاب .. ثم أومأ في موافقة حتى ظننت أن هناك من يحدثه بصوت يسمعه وحده ، بأن الخير لا يزال يختبئ بين أروقة تلك الدنيا المزدحمة .

مد يده بمفتاح قصير ناسب قصر قامة صاحبه وفتح القفل الجديد : فلتسمح إذً ا سليلة الأصل الطيب لذلك العجوز أن يرد لها بعضً ا من فضلها !

ابتسمت ولم أعلم سر الابتسامة ، أكانت بسخرية لوصفه إياي بسليلة الأصل الطيب وهو لا يعلم كيف اجتمع الصيرفي بزوجته؟ أم كانت في خجل من ضيافته الكريمة .. على كل حال لم أهتم .. فقط شعرت بارتياح لم أرغب في تفسيره وتبعته للداخل .

أبعد بيده عدة مجلدات قديمة من على مقعد متسخ ، ومد كمه الواسع على سطحه لتنظيفه في همة لا تتوافق مع بطء حركته وأجلسني كأميرة إنجليزية قفزت من صفحات تلك الكتب التي أحاطت به .

أشعل سبرتاية بضوء أصفر لعود كبريت صغير استحال إلى الأزرق بمجرد ملامسته لفتيل السبرتو النحاسي : لقد أنقذت حياتي في ذلك اليوم .. على الرغم من ...

سكت وقد أشاح بوجهه بعيدًا في حزن: على الرغم من عدم رغبتي في ذلك..

أجلست قدمًا فوق الأخرى في استمتاع بإتيكيت الأميرات الذي أصبغني به رغمًا عني: ولماذا ترغب في الموت؟

قلّب القليل من الشاي داخل إبريق أزرق صغير دون أن ينظر إليّ: لابد أنك سمعتِ بما حدث لزوجتي..

زفرت هواءً قصيرًا في استنكار: بلى.. ولكن.. لم أصدقه.

التفت إليّ في ابتسامة بسيطة كمن يعلّق بها البالغ على سذاجة الأطفال : لا بأس .. فأنا لم أصدق حتى رأيت بعيني ..

صار الحديث مشوقًا بعض الشيء: كيف ذلك؟!

أعطاني كوب الشاي ذا اللون الأحمر الصافي فأدفأت به أصابعي المتجمدة وجلس في إرهاق واضح : لا أعلم حقًا لماذا أقص عليكِ ذلك الأمر .. فليس بيننا من ماض يسمح بذلك ..

ولكن أعجز عن كتمان ما جرى فأقصه على الجميع ، حتى علمت الحارة بأكملها قصة سعاد وفرغلي ، وضاقت بأذنهم سيرتي وقد أصبحت مصدر إزعاج مبرر لهم ..

دعمته في لطف لم أعتده : اطمئن .. لديّ ما يكفى من قصص الأزواج لأسخر منه حتى آخر الدهر .. فأنا أعيش أحداث واحدة منها ، صدقني .. فلن تكون قصتك أكثر تعقيدً ا منها ..

ابتسم نصف ابتسامة تراجع عنها بمجرد اقتراب كلماته من لسانه : قابلتها بإحدى حضرات الخميس الثاني من الشهر .. كانت تعد طعام الحضرة لمريدي سيدي عبدالصبور .. وكنت أقود المديح النبوي ..

ابتسم في حنين : عدة مرات لمحت فيها ظلً ا يختبئ في حياء خلف الحد الفاصل بين المسجد ومصلى السيدات .. كنت أحترق شوقً ا لمعرفة صاحبة ذلك الظل الغامض .. (ضحك في حزن) حتى أني كنت أتعثر عدة مرات في إنشادي بميلي لاستطلاع هيئتها .. وما أن خطفت نظرة أطلقتها في خجل الملائكة .. حتى وقعت في قلبي .. واندفعت للتغزل في محراب حضرتها ..

كان ينتقي عباراته في سحر غامض أصاب ظهري بانحناءة دفعت يدي للتربع أسفل ذقني في مراقبة له وهو يقص تلك القصة العاطفية النادرة : علمت أن اسمها سعاد ، وأخبرتني خالتها أنها لا تجيد الطهي ، وأنها تداوم على الحضور فقط من أجل الاستمتاع بصوتي العذب (احمر خجلً ا من وصفه لصوته بالعذب) في مدح سيد الخلق ..

بسطت حاجبي في ابتسامة صادقة ، حتى أكمل في حزن : وبالرغم من عشقي لها فإن قرابتها لتلك الخالة كانت تثير حفيظتي .. فأنا بالذات أعلم دونً ا عن الجميع ، ولاسيما سيدي عبدالصبور باشتراك تلك المرأة مع أحد وكلاء الطريقة في أعمال فك السحر .. الأمر الذي استنكرته على الدوام ..

رددت في مراهقة فتاة مندفعة لمشهد تقليدي بفيلم رومانسي : وما علاقتك أنت بخالتها .. إن كنت تحبها يا رجل فلتتزوجها .. وإن أردت فلتقطع علاقتها بتلك الخالة الغريبة ..

ابتسم من سذاجتي ، فقد تناسيت نهاية القصة التي أعلمها بأنهما تزوجا حقً ا ، ولكن بدوت كمن تخلصت من أحبال الزمن الحالي وانساقت خلف كلماته في معايشة لأحداث ما جرى ، فتراجعت في ابتسامة سخرية من حالي أنا الأخرى وقد فطنت إلى الحقيقة ، وبحزن بالغ أكمل :

- فعلت ! ولكن لم تتخلص سعاد من بقايا معاشرتها لخالتها .. فكانت تمارس بعض الأعمال السرية التي ما أن أخبرت سيدي بها .. حتى وصفها بالكفر البواح .. وأمرني بتطليقها فورً ا ..

-أمرك؟! وكيف تسمح لرجل آخر بالتدخل في حياتك و...

-إنه سيدي.. وكانت طاعته فرضًا دينيًا..

تغيرت نظرتي له في حسرة وسألته في نبرة غليظة في تحقير مستتر لضعفه: وهل طلقتها؟

تنهد في حزن : كلا ! وكانت المرة الأولى التي أخون فيها عهدي مع سيدي .. فقد .. فقد كنت أعشقها عشق ابن آدم لجنة الخلد .. حتى استنكر زملائي ضعفي ووصفوا عشقي لها باحتمالات الشرك وقد جاور عشقها .. عشق الخالق بقلبي ..

همست دون أن يسمع: جهلة!

ربما سمع حقًا : بل كان لديهم من الحق الكثير .. فلقد كنت أسيرًا لها ، عجزت عن تركها ، وعجزت كذلك عن ردها عما تفعل من أمور شيطانية .. حتى ..

وسكت وقد كاد البكاء أن يخنق صوته فجأة : حتى أيقظتني في ليلة قريبة بعين امتلأت عن آخرها بالسواد .. واختفت ملامحها الملائكية .. وابتسمت إليّ ابتسامة إبليسية وصاحت « هي لي الآن !».. وفى غمضة عيْن تساوت بثنيات الفراش واختفت !

زحفت على رقبتي رعشة باردة وقد خلب الرعب جسدي حقًا ، ربما كان اندماجي في حكايته سببًا في استسلام مشاعري لما قال ، ولعنت قراري البائس بالقدوم إلى هذا المكان الذي ضاق بجدرانه على رأسي حتى كاد أن يسحقها من الخوف ..

تجاهل علامات الخوف وندوبها على وجهي وأكمل في بكاء : لجأت إلى سيدي .. وقبل أن أقص عليه ما حدث .. أخبرني بالحقيقة .. لقد خطفها اللعين إلى عالمه السفلي مستأثرًا بها .. حتى أنه أخبرني باسمه « ميطرون »!

نطق باسمه وراقبني منتظرًا مني ارتعادًا أو خوفًا فربما حضر اللعين على ذكر اسمه ، لكن ثباتي في مراقبته انتظارًا لإكمال قصته كان محفزًا له على الاطمئنان : وأوكل شيخين من أفضل تلاميذه لإعادتها إليّ بشرط تطليقها فور العودة .. فوافقت ، فلا أطيق عالمًا خلا من سعاد حتى وإن ابتعدت عن أحضاني الشرعية .. واستمر الحال لأكثر من سبعة أشهر حتى الآن .. وكان آخر ما رأيتِ .. هو ما وصلنا إليه .

بالرغم مما بدت عليه ملامحي من اندماج كامل ، فظن العجوز أن كلماته قد وقعت بموضع الصدق بين قلبي وعقلي ، لكني حقًا لم أقتنع بكلمة مما قال .. بل وصفتها في نفسي بإحدى قصص الرعب التافهة والتي لا تصل ميزانية إنتاجها لأفلام أمريكية لثمن وجبة صيفية من مطعم ماكدونالدز الذي فتح لتوه بحينا المظلم ، ولكن حرصًا على مشاعره وامتنانًا لاطمئنانه إلى

جلستي وأنا الغريبة التي اقتحمت عالمه الهادئ للهروب من عالمها الصخب .. ارتأيت أن أناقشه بالحكمة ..

اقتربت منه في لطف : ربما كان ما رأيته في تلك الليلة حُ لمً ا أو بالأحرى كابوسً ا استفقت منه على مغادرتها لبيتك بدفع من سيدك .. ربما أجبرها على ذلك لإرجاعك إلى عقلك ..

بدوت حقًا أكثر موهبة في نسج الحكاوي من راجي نفسه!

ابتسم في حسرة من تكذيبي له : أقدر حقً ا تهوينك الأمر على نفسي .. (اعتدل) أنا أيضً ا لم أكن أصدق في تلك الهراءات التي كانت تقصها عليّ مَ ن ضاعت وراءها .. ولكن ما كان لتلك الحادثة من مقدمات دفعني للاعتقاد بل للإيمان حقً ا .. بأن ما حدث كان حقيقيً ا ..

عاد الحديث إلى منعطفات التشويق مرة أخرى: أية مقدمات؟

لطمت عبارتي السابقة أذني وكانت آخر ما مر برأسي من ذكريات علاقتي بعم فرغلي ، ربما لم تستغرق كل تلك الأحداث سوى بضع ثوان عبرت أمام عيني وأنا أراقبه ممسكً ا بتلك المفكرة القديمة وهو لا يزال يردد تسبيحه « كل ما .. كل ما ».. وقد سافرت إلى خمسة عشر عاما سابقة .. وعدت في غمضة عين .

علمت حينها سر هلعه من ظهور رسمتي في مفكرة عزيز قاسم ، فالمقدمات التي سبقت اختفاء زوجته كانت شبيهة بذلك الموقف إلى حد كبير ، فقبيل اختفائها ، كانت صورتها تطارده في كل

كتاب قلّب بين صفحاته قبل أن يتركه أمام نصبة الكتب التي يقتات منها عيشه ، وكأن ذلك الجني الغاضب كان يتلاعب به لأيام طويلة قبل أن يخطف زوجته .

وبالرغم من توطد علاقتنا طوال العِقد الزمني السابق منذ تلك الليلة وحتى الآن ، وبالرغم من نجاحي في مهمتي الأثيرة بإخراجه من تلك الخرافات وقد علمت قدماه طريق المسجد مرة أخرى باستسلامه للأمر الواقع وقد طرد العشق الإلهي عشقه لامرأته ، لكن عزيز بك ومفكرته البالية أعادت في لحظة عم فرغلي العابد الهادئ إلى عم فرغلي الخائف اللاهث وراء طيف زوجته .

حاولت أن أشرح له في لطف أن ذاك الأمر ليس كسابقه ، فاقتربت منه كتمرجي احترف السيطرة على نزلاء الخانكة بحنان كاذب : ع .. عم فرغلي .. ليس الأمر كما تظن وإنما .. ااا ..

أنهضني في خوف مفاجئ قطع سيل حرف الألف السابق بترددي: عليكِ أن ترحلي ولسوف أحرقها بنفسي و...

ربتُّ على أصابعه التي كادت أن تصل إلى عروق ذراعي اختراقًا في غضب حاولت كتمه فظهر في هدوء مضطرب ألمع جبهتي بعرق بارد : اهدأ بالله عليك و ...

صرخ بوجهي فأطاح بخصلات شعري إلى الوراء في عاصفة من الأنفاس الكريهة : اصمتي ! لا تذكري اسم الخالق دون حذر وإلا أثرتي غضب ميطرون !

فاض الكيل حقًا فاندفعت في صيحة زادت محاولات كتمها من نبرتها غلظة : ميطرون؟ ! استفق يا عم فرغلي ! لقد رحلت عنك سعاد للأبد لسبب لا يعلمه أحد ولا تقوى بجبنك على تصديقه .. وليس لجني تافه اختطفها من بين أحضانك !

انتبهت لنطقي بالسر وشعرت بوطأته على رأسه وهو يسمعه للمرة الأولى ، ولكن فات أوان التراجع : أجل يا فرغلي .. لقد تحدثت مع شيخك .. وأخبرني أنه قابلها وطلب منها الرحيل بل

هددها من أجلك .. فرضخت له .. واستغل كوابيسك الليلة لكي تتقبل رحيلها .. تذكر جيداً .. هذا بالضبط ما ظننته عندما أخبرتني بالأمر لأول مرة ..

اتسعت عينه في حزن بالغ وانهمرت دموعه دون صوت وهو يقلب عينيه في صدمة بين حدقتي اللامعتين بما أصابها من دموع هي الأخرى وقد صرخت بوجهه بحقيقة محنته ، ولكن ما لبث أن عبس مرة أخرى وكأن عظمات وجهه انقبضت وتجمعت عند مركز جبهته في تصميم على تنفيذ أمر ما : لن أسمح له أن ينال من رأسك كما نال من جسدها .. سأحرق تلك المفكرة !

دق القدر طبول المعركة فتحررت من علامات الأدب وموجبات احترامي له : تحرق ماذا أيها الاحمق ! ما الذي حل بك؟ أتظن أن شيطاناً رسم صورتي بتلك المفكرة اللعينة؟ هواية امتهنها في أوقات فراغه من وظيفة الوساوس الفارغة لبني آدم؟ ! استفق أيها المخبول !

تغير صوته فبدا وكأن ميطرون تلبسه حقًا: قضي الأمر يا ابنتي!

ابتعدت عنه عدة خطوات وقد رأيته شخصاً آخر ، تحول في نظري ببضع كلمات من رجل لطالما أثار إعجابي بثقافته العالية ونبوغه رغم بساطة حاله ، إلى عجوز أبله خلبت الخرافات رأسه حتى فقد عقله ..

خلعت عباءته في ضيق هادئ تحت نظراته الجاحظة: لقد ظننتك أفضل من ذلك..

تنهد من عدم تصديقي له وقد برز وجهه المسكين مرة أخرى: أستمعي إليّ يا ابنتي..

قاطعته كعادة اكتسبتها طوال تلك الجلسة: لقد قلت ما يكفي! أعطني إياها..

مددت يدي في محاولة لأخذ المفكرة من يده حتى أنه قبض عليها كطفل صغير في رفض طفولى : لا ! بل ترحلين دونها .. حتى أنجيكِ منه ..

سيطر الغضب عليّ ونازعته إياها: ماذا تفعل.. أعطني إياها أيها الخرف!

دفعني بعيدًا حتى كدت أسقط: عليّ أن أحميكِ.. غادري قبل أن...

وقبل أن يكمل جملته التي قطعتها دفعته الغليظة ، ارتطمت بالحائط خلفي فصرخت في ألم . لمحت ندمه على فعلته في خجل وعجز مما عليه أن يفعل في الخطوة القادمة ، وعندها اندفعت نحوه في قوة والتحم جسدانا في نزاع حول تلك المفكرة التي قبض عليها بيده : كلا .. كلا !

ودون أن أشعر ضربت صدره في عنف .. فمال جسده الوهِن للخلف وسقط .. وقبل أن أنال وقتً ا للندم .. انشق رأسه بحافة الطاولة النحاسية !

انفجر الدم وغطى ملامح وجهه ، تسمرت في هلع .. وتجمد الزمن للحظات انهمرت فيها الأنهار الحمراء حتى وصلت إلى حذائي الرياضي ، اهتزت ركبتاي لرعشة بسيطة .. تعاظمت تدريجيً ا مع مرور اللحظات الثقيلة .. وكأنها تزحف على جلدي صعودً ا إلى رأسي .. وما إن وصلت حتى اهتز جسدي بأكمله في فزع ، فأطلقت صرخة عالية اهتزت لها جدران البيت العتيق .

عبر برأسي ما عبر من ذكريات بيني وبينه على مدار أيام وليالٍ زادت على محاولات العد ، فالدم يقطر من الرأس الذي لطالما امتلأ بأحاديثي الباكية إليه ، وأنا أقص عليه مأساتي مع أمي وخيانتها لأبي .. وغياب الاثنين عن حياتي ، وأغرقت الأنهار الحمراء كفه التي لطالما ربتت على كتفي بعدما رحل عني راجي ، وبدا أن صدره قد توقف عن الحركة تمامً ا كما كان يفعل عندما يأخذني بين أحضانه باكية ، خوفً ا أن تقلق نبضات شهيقه وزفيره رأسي ، وأنا أشكو إليه حالي وطريقي في الدنيا الذي ضللت ..

شعرت وكأن دفعة بسيطة من يديّ الخائرتين .. قد محته من سجلات فيروز الصيرفي وعادت بكل منا إلى حالة ما قبل لقائنا ..

عدت مراهقة ترتعد في خوف مرة أخرى.

ارتميت عليه في لهفة هيستيرية: عم فرغلي! عم فرغلي! اا.. انهض بالله عليك! لم.. لم أقصد.. اا..

فكرت أن أتصل بالإسعاف ، لولا أني نسيت محمولي بخروجي المتعجل من الفيلا ، عندها هرعت إلى الخارج بحثً ا عن المساعدة .. وكان حقً ا تصرفً ا غاية في الحماقة !

فما أن خرجت من الباب حتى ارتطمت بجسد امرأة بدينة تتحرك في صعوبة وتحمل « سبت » من الخضروات على رأسها ، بدت إحدى جاراته بجلبابها القديم المتهتك ، سقط الـ « سبت » من على رأسها ، وما أن استدارت في استعداد لإمطاري بإهانات شعبية اعتادت عليها حتى رأت هيئتي بذلك الرداء العاري ، فتقدمت مني في ريبة واتهام ..

بدت وكأنها رأت ساقطة فجذبتني بقوة شعري : الله الله ! من أي بيت خرجتِ أيتها الساقطة؟ أي رجل نجس أفقر عتبتنا بإحضارك إليها ! (صرخت بقوة) تكلمي !

دافعت في غضب غلب ألم قبضتها: ابتعدي يا امرأة! إن عم فرغلي ااااا...

رفعت يديها في الهواء وصاحت في نداء صارخ : استيقظوا يا أهل البيت ! تعالوا وانظروا ! فرغلي العجوز يأتى بالغانيات إلى بيته تحت أنوفكم !

أخذت بمجمع جلبابها في قوة وصرخت بها: اصمتي بالله عليكِ وساعديني! الرجل على وشك الموت!

دفعت يدي في استنكار: بالطبع.. لابد أنه قد أفرط في تناول الحبة الزرقاء ليجاري ااا...

قاطعتها بضربة على صدرها وقد جذبت ملابسها بقوة وسحبتها خلفي دخولا إلى غرفته كبهيمة تعس ّر على صاحبها ترويض غبائها لترى بعينيها ما أقصد ، وما أن رأت جسده المدمم حتى شهقت

في هلع واتجهت نحوه في لهفة ، وهبطت على قدميها وحاولت إفاقته : فرغلي ! فرغلي ! (نظرت إليّ في غضب) لقد قتلتِ الرجل !

تراجعت في انتباه لاتهامها: كلا.. بل.. لم أقصد.. دفعته فقط و...

سكتّ فجأة وقد انتبهت لحمق ما فعلت ، كان عليّ أن أهرب قبل أن يكتشف أحدهم ما حدث ، ولكن كيف كان لي أن أتركه دون مساعدة؟ وهو أبي وأمى وكل ما بخلت به الدنيا ، وما أن استدرت نصف دائرة في استعداد للهرب حتى انقضت عليّ في قوة صارخة لطلب النجدة .

وصلت إلى سيارتي بأعجوبة وألقيت المفكرة بجواري وأدرت المحرك للرحيل ، لكن عددً ا من أصحاب المحلات التي أوشكت على فتح أبوابها مع بداية الصباح اعترضوا طريقي ، وقد حفزتهم المرأة البدينة على اختطافي من الداخل !

«لقد قتلت فرغلي! لا تدعوا لها مجالًا للهرب!!».

أغلقت الأبواب وزجاج النوافذ ، فانهال أحدهم بعصا غليظة على الزجاج الأمامي للسيارة ، بينما حاول الآخرون كسر النافذة لإخراجي منها .. وحقً ا فعلوا !

انتهت مهمة الرجال بمجرد أن احتك جسدي بالأسفلت ، وعندها تدخلت النساء تشرف عليهن تلك البدينة ، وتناوبوا على ضربي وقد تكومت أرضً ا كجنين يبحث عن مخرج ضيق للحياة !

ء ء ء ء

صرخ بهن أحد الرجال بأنه قد أبلغ الحكومة وأمرهن بالتحفظ عليّ بحوش البيت القديم.

شعرت بجسدي وهو يُ حمل ويساق إلى الداخل مرة أخرى ، وتفرقت الآلام على كل جزء من جسدي ، وخالط الدم لعابي قبل أن ينهمر من جروح شفتي ووجنتي ، وبدت الرؤية ضبابية وقد أثقلت الضربات عيني فلم أعد قادرة على فتحهما .. وعندها استسلمت لإغماءة بدت حتمية .

***

استفقت وقد أصبح جسدي في وضعية الجلوس . ارتعش جفناي في ألم قايضني على فتحهما ، فرأيت شبحً ا ليد تتحرك يمينً ا ويسارً ا أمام ناظري ، لتغيب اليد للحظة عن عيني وأشعر بضرباتها الخفيفة على وجنتي .. ففطنت إلى أنها إجراءات شخص أحمق يحاول إفاقتي .

اعتدلت في بطء وإرهاق ونظرت إليه: أين أنا؟

كان رجلًا مسنًا من رجال الشرطة، بدا من هيئته أنه ذو رتبة بسيطة: قسم الشرطة!

لطمتني عبارته فزادت من استفاقتي ، وحاولت النهوض بقوة استكمالً ا لشعوري بصدمة الخبر ، لكن ألمً ا مفاجئً ا هاجم جسدي فارتميت على المقعد مرة أخرى ..

- يبدو أنك من طبقة راقية ، ولن تتحملي مشقة السجن .. إن كان لديك من أحد للاتصال به فافعلى قبل أن يصل المأمور .. فقضيتك ليست هينة ..

وكأن فقدً ا وقتيً ا للذاكرة قد أصابني ، لكن كلمات من بدا أنه شاويش أعادت إليّ جزءً ا منها ، وتذكرت عم فرغلي وما حدث له ، فسألته في لهفة : وعم فرغلي؟

زفر في ضيق من سؤالي: في المستشفى.. لم يمت بعد.. وإلا لتحولت التهمة إلى جريمة قتل وليس الشروع فيه..

هدأت قليلً ا وقد علمت أنه سيكون بخير ، وبالرغم من ثقتي أنه سينفي عني قريبا تلك الألفاظ الغريبة « تهمة » و « جريمة » وغيرهما عندما يعود إلى الحياة ، إلا أن السؤال الأهم قد باغتني ، وشردت في هوية ذلك الشخص الذي صرح لي الشرطي الاتصال به لنجدتي من ذلك الموقف .

عبرت صورة زوجي أمام عيني عدة مرات ، لكني حاولت مرارً ا تجاهلها ، فمن المستحيل أن أقحمه في أمر كهذا ، ليس خوفً ا على مشاعره وقد خيبت ظنه للمرة العاشرة بعد المائة فحسب ، وإنما تجنبً ا لنوبة غضب تمكن من حبسها لسنوات عجاف ، ويبدو أنها لن تجد لفورانها وقتً ا أنسب من تلك اللحظات .

وما أن نجحت في صرف تلك الفكرة عن رأسي ، حتى طرقت الأخيرة صورة أخرى لشخص آخر ، أملت أن أتمكن من صرف ملامح وجهه وحروف اسمه عن مخيلتي العبثية ..

ولكن.. سبق السيف العذل!

ضغطت عدة ضغطات لعينة على لوحة أرقام محمول ذاك الشاويش البسيط ، وقد بدا متعاطفً ا معي بكفة أرجح من كفة تأمله لمفاتن جسدي المصاب ، ورغبةً في تقاطع أحاديثه مع صاحبته لفترة أطول تُ ذهب عنه نجل ومعيبة التحديق .

قفز الصوت إلى أذني بعد اختراقه السماعة المهترئة للمحمول القديم ، كنت أعلم أن الوقت لن يكون باكرً ا لاتصال كهذا .. فاللعينة لا تنام تقريبً ا حتى تستيقظ !

همست في ترفع اعتادت عليه في الاجابة على أصحاب الارقام المجهولة: هالو؟

تنهدت تنهيدة طويلة ثم دفعت بالحروف رغمً ا عني لترج أذنيها دون تصاعد في درجات صوتي المتقطع : أنا في قسم الشرطة ..

بدت وكأنها علمت هويتي فتقطعت نبرتها كمن اعتدلت من جلسة مريحة: فيروز.. ماذا حدث؟

اهتزت وجنتي لابتسامة مقتضبة تعجبت لها، ربما كانت لشعوري بنشوة بسيطة لاهتمام أحدهم لأمري:

«أعتذر عن الإزعاج يا مدام إيمان.. ولكن عليكِ حقًا القدوم الآن وستفهمين كل شيء لاحقًا».

جلست قرابة نصف الساعة في انتظار من ظننت أن لهفتها قد تدفعها للوصول إلى أسرع من ذلك ، راقبت تصاعد أصوات خطوات سكان ذلك القسم المقفر بدخولهم التدريجي إلى ممراته ، ما بين عساكر ومخبرين ومن تساووا مع من أعطانى قبلة الحياة بصفعته في رتبته البسيطة ، وأخيرً ا من أطلقوا عليه المأمور .. وشردت تحت تأثير حالة السُ كر التي أصابت جزءً ا من رأسي في معنى ذلك الاسم « المأمور ».. وحللت واستنبطت كأستاذة في علوم اللغات ما ناسبني من اسمه .. كإهدار لوقت الانتظار .

مأمور .. هناك من يأمره .. فلا حاجة لرد أمره .. فهو لا يملك حقً ا أن يكون آمرً ا لِيُ عصى .. ومن منا ليس ذلك؟ !

كلمات غير مترابطة تراصّ ت بجوار بعضها داخل رأسي فلم أهتم بتنظيمها ولا حتى بمعاودة تحليلها ، حتى أثقلت جفني وهبطت بهما للأسفل ملليمترات في إرهاق بالغ ، فبدوت بعيني نصف المغلقة كحيوان مفترس يراقب فريسته في برود غامض قبل أن يطلق لشراسته العنان وينقض عليها ..

وهذا بالضبط ما ظنه ذاك المأمور، فصرعني في حزم: اضبطي نظراتك يا امرأة!

وكأنه علم من الشاويش ما دار بيني وبين فرغلي وكذلك باتصالي بمن هم أعلى منه شأنً ا وإلا لكان ترجم عبارته إلى لطمة من يده اعتاد منذ قدومه أن يحيي بها من افترشوا ممر القسم من مشتبه بهم بسطاء ..

اعتدلت في إرهاق: أفندم؟

ء ءً

تحجرت نظراته واستطرد: أيا كانت الواسطة التي تلجأين إليها.. اعدلي من جلستك وإلا...

استفقت نصف استفاقة في تعجب من غضبه ، ولم ألحظ جلستي التي كانت تثير احتقاره ، فقد كنت نصف راقدة نصف جالسة على ذلك المقعد القذر ، فبدوت كمن تسترخي في اطمئنان أمام هيبة من يرتعد الرجال منه .

اعتدلت في صعوبة: أعتذر سيادة المأمور ولكن...

قاطعني في حزم وقد فرد كفه أمام وجهي: بطاقتك!

تنهدت من تكرار السؤال: لقد سألني عنها الشاويش وأخبرته أني فقدتها..

صاح بقوة أفزعتني: يا شاويش!

دخل الشاويش مهرولً ا وضرب الأرض بقدمه احتراما ، فصرعه بسيل من الإهانات : من أمرك أن تبقي تلك الساقطة .. (حقً ا قالها !) خارج الحجز وهي متهمة في قضية جنائية ودون تحقيق شخصية؟

ربما استفزتني كلمة ساقطة فاعتدلت في حنق ، وأوشكت أن أطلق جم غضبي عليه حتى بتلك العظام المفتتة ، لكن صوتً ا جهوريً ا سد الهواء عن مؤخرة رأسي منعني من ذلك :

«الزم حدود الأدب سيادة المأمور!»..

خشيت أن يكون زوجي وقد تأثر جهاز إدراكي للأصوات قليلً ا فلم أعد أميز بينها ، فالتفتت بجهازي البصري للتعويض عن ذلك .. وعندها رأيته ، كان أحد المحامين المسنين من ذوي السيجار المنتفخ والسترات الرسمية الغالية والتي تبدو أكثر أناقة تحت عدسات كاميرات التلفزيون أثناء استضافته كل يومين للتعليق على الأحداث السياسية بالدولة .

وبجواره كانت تقف في شموخ لم ينقص شيئًا من أناقتها ورقيها..

اتجهت إليها في سرعة ندمت عليها لاحقًا كرضيع اشتاق إلى حضن أمه: مدام إيمان!

احتضنتني وغفلت عن عبوس وجهي على صدرها وقد شعرْ ت بالغضب من ضعفي أمامها ، وأحاطتني بذراعها في حنان محايد افتقد للهفة ، وتحدثت برسمية وهي توجه نظراتها الصلبة للمأمور : لا عليكِ .. فقد انتهى الأمر .

ودون الرجوع إلى المأمور الذي هرب الدم من وجهه أشار المحامى المسن إلى مدام إيمان : اصحبيها إلى البيت يا إيمان هانم وسأعتني بالأمر ..

التفتَ مكملًا جملته وهو يوجهها للمأمور: وأظن أن سيادة المأمور لن يمانع.. أليس كذلك؟

ساد الصمت فكان الرحيل بين أحضان إيمان أمرًا بديهيا..

همَسَت بين أصوات محرك السيارة: أي الطرق تؤدي إلى بيتك؟

همهمت في إرهاق: بل إلى الشركة من فضلك..

نظرت إليّ أخيرًا وأنا متكومة على المقعد المجاور لها: ربما عليكِ أن ترتاحي اليوم و...

قاطعتها دون أن أنظر إليها: من فضلك.

كنت أعلم أنها لن تكرر عباراتها ، فأومأت في موافقة وقد أسقطت جانبي شفتيها للأسفل حتى رسمت بهما مظلة ذات حدود حمراء من أحمر الشفاه الذي لم تنس وضعه حتى وهي في طريقها إلى قسم الشرطة ، وتحركت بالسيارة دون تردد إلى الشركة ، ربما بدت قاسية لعدم إلحاحها على ّ بالرحيل إلى البيت ، ولكني كنت أعلم جيدً ا طباعها التي ربما كانت سببً ا في انجذابي إلى شخصيتها .. فكل شخص مسؤول عن نفسه وما عليها إلا النصيحة فقط .

وحقً ا فعلت ، واخترقنا بوابات الشركة قبل وصول أول الموظفين إليها ، وبالرغم من جمودها السابق فإنها وبمجرد أن وصلنا إلى مكتبها حتى أراحت جسدي دون حديث على أريكتها المفضلة

وأخرجت من درفة مكتبها السفلية صندوق الإسعافات الأولية الذي كان مقدرً ا له أن يخرج من سباته فقط لإسعافها إن باغتتها نوبة أخرى من نوبات السكري .

وفى صمت بالغ بدأت في تضميد جروح وجهي في مهارة هادئة ، وكأنها أرادت أن أبدأ بالحديث بدلً ا منها ، ولكن استغراقي في التفكير فيما أصابني منذ ليلة البارحة وحتى صباح اليوم .. دفعها إلى استطالة صمتي والتخلى عن هيبتها للمرة الأولى ..

- لا بأس إن أردتِ إخباري بما حدث..

-مدام إيمان اا...

-ولا بأس أيضًا إن لم تفعلي..

اعتدلت في جلستي ببطء ونظرت إليها كطفل سكب كل ما كلفته بشرائه من لبن : تعاركت مع صديق قديم ولم أقصد إصابته حقً ا .. ولكن ..

أجلستني بيدها مرة أخرى حتى لامس رأسي إحدى وسائد الأريكة القطنية وتحدثت في صوت عذب : أي عراك هذا الذي يدفع **lady** راقية أن تتهم بالشروع في القتل؟

غلب الحرج عليّ فاستحال حنقً ا من حتمية اعترافي أمامها بما تظنه لا يناسب أفعال الـ **Ladies** كما وصفت أمثالي ، فأشحت بوجهي إلى الناحية الأخرى وأنا أجيب : أراد أن يستأثر بشيء خاص بي .. مفكرة و ..

انتبهت فجأة للمفكرة وقد غابت عن رأسي من كثرة ما انهال عليه من ضربات فانتصبت من نومتي بطريقة أفزعتها وأسقطت زجاجة المطهر من يدها : المفكرة ! إنها .. إنها .. في السيارة !

تعجبت تعجباً هادئًا لم ينجح في الإطاحة بوقارها ونهضت بهدوء: اهدئي.. أي مفكرة؟

حدثتها في هيستيريا: السيارة.. أين سيارتي؟ إنها إمام بيت فرغلي..

أشارت إليّ في لطف: اهدئي بالًا.. سأرسل أحد أتباعي للعثور عليها..

تحركت تجاه الباب في تمرد وعجالة، كما لو أني لم أسمع كلمة مما قالت: بل أذهب بنفسي.

اعترضت طريقي دون أن ألحظ حركتها، فقط ظهرت بيني وبين الباب ونطقت في جمود وحزم: فيروز!

تسمّ رت في مكاني وقد استفقت من غمرة جنوني ، فأخفضت من نبرتها ، ولكن في محافظة على حزمها السابق : قلت سأرسل أحدً ا من أتباعي .. اجلسي لاستكمال إسعافك .. اجلسي !

عدت إلى أريكتي التي باتت كمنزل مؤقت في طاعة تعجبت لها ، فبدوت وكأني أنفذ أوامرها دون تحكم مني ، وما أن فعلت حتى عادت إلى جلستها واستكملت مهمتها في صمت ..

نصف ساعة مرت ، انتهيت فيها من كوب الينسون الذي أعده الفراش لتسكين آلامى بناءً على طلبها ، وقد توافد الموظفون إلى الشركة ، ونصف ساعة هي كل ما احتاجه ذلك الـ « أحد أتباعي » من العودة بسيارتي المحطمة إلى جراج الشركة أيضً ا بناءً على طلبها .

خرجت إيمان بإصبع يحذرني من التحرك وغابت لدقائق ، اختلست خلالها نورا النظر إليّ من خلال فتحة صغيرة بباب المكتب ، أشرت إليها أن تدخل .. فدخلت في خطوات اللصوص ، وهي تحمل بين يديها بنطالً ا وقميصً ا راقيً ا .. -

- ما الذي حدث؟

-ما هذا؟!

- أمرتني مدام إيمان أن أسوق إليك تلك الملابس من البروفة .. فهي ما تناسب مقاسك .. ها .. أخبريني ما الذي حدث؟

شعرت بنشوة غريبة في إحراق أعصابها فضولً ا حول السبب الذي يجعل مديرة الشركة المهيبة تستضيف إحدى موظفاتها في مكتبها طوال تلك الفترة ، وبالطبع ستنتقل عدوى الفضول من نورا إلى الجميع في غضون ثوان ..

أطلت صمتي حتى بدا عليها الغضب الطفولي ، وقبل أن تكمل وصلة أخرى من حفلة إلحاحها عليّ لمعرفة ما دار ، تراجعت عدة خطوات إلى الوراء في قلق ، وقد لمحت بطرف عينها اقتراب إيمان من الدخول ، فأحنت رأسها أرضً ا وخرجت دون حتى أن تتنفس .

«السيارة بالجراج»..

وما أن نطقت بها إيمان ، حتى انتصبت مرة أخرى في عجالة تجاه الجراج ، لكنها عرقلت حركتي المضطربة بضربة من المفكرة على الهواء المقابل لوجهي فالتقطت الأخيرة عيني ..

- تلك هي المفكرة.. أليس كذلك؟

قبضت عليها بأصابعي العشرة وتنفست الصعداء ، شعرت حينها بعينها وهي تراقبني في تعجب من سر تعلقي بتلك المفكرة التي تبدو بالية ، فأومأت لها في احترام صادق لم أجاهد اليوم في إخفائه ..

- أشكرك.. على.. على.. على كل شيء.

- كلا.. لم يأن أوان الشكر بعد.. ربما يحين بعد دقائق!

وأشارت إلى الملابس الجديدة وكأنه أمر لارتدائها وخرجت دون مقدمات ، وأغلقت الباب خلفها تجسيداً لرغبات خصوصية لم أطلبها لتغيير ملابسي ..

خلعت الرداء في شرود حل محل ألم عضلاتي أثناء تلك الحركات الملتوية خروجاً من الرداء ، وتساءلت ما الذي عنته عبارتها بأن الشكر لن يحين إلا بعد دقائق؟ !

وما أن صرت نصف عارية تقريباً ، وقبل حتى أن أضبط ملابسي الداخلية استعداداً لتغطيتها بتلك الخارجية ، اندفع جسدي العاري في غير تحكم مني بفزع إلى أحد الأركان ، وقد

انفرج باب المكتب على مصراعيه فجأة !

اختبأت وراء ستارة النافذة العريضة ونظرت إلى مقتحم الجلسة في خوف وغضب لم أعلم أيًّ ا منهما غلب على الآخر ، وعندها علمت فقط ما الذي عنته عبارتها الغامضة .

كان عاصم! الذي اندفع بقوة من باب المكتب ملهوفًا وقد نقلت إليه إيمان الخبر.

وما أن رأي تجردي من ملابسي، حتى عاد وأغلق الباب في سرعة وتقدم مني في قلق: فيروز!

زاد اقترابه من اختبائي خلف تلك الستارة القاتمة فعقد حاجبيه في تعجب . كيف أخجل منه وهو زوجي؟ فزاد من تقدمه خطوة ، فزدت بدوري من ابتعادي وتغطية جسدي بمبالغة أخرى .. وعندها فقط تحول وجهه من الملهوف إلى الغاضب في لحظة واحدة .

جلس في ضيق على الأريكة وأخرج سيجارة أمريكية وأشعلها دون أن ينظر إليّ: أتخجلين من زوجك ولا تخجلين مما فعلتِ ؟

لم أجب بل انشغلت بالنظر إلى الملابس التي جاورت جلسته ولم أتمكن من الوصول إليها ، وما أن استبطأ وصول ردي حتى نظر إليّ مرة أخرى وقد ظن أني أنظر إليه ، لولا أن رأي لهفتي على تلك الملابس بعيدة المنال ، فتنهد في غضب وقبض عليها في قوة وألقاها بوجهي بصفعة بدت وكأنها تفريغ لشنحة غضبه ، وعاد ونظر أرضً ا مرة أخرى .

انهمكت في ارتداء ملابسي دون أن أحوِّ ل بصري عنه ، وكأنها مراقبة لنظراته كيلا يغفل ويلقي ببصره على جسدي العاري مرة أخرى ، لكنه تحدث من نفس الوضعية في هدوء حانق : ما

الذنب الذي اقترفته بحقك؟

لم أجب ، فاستطرد : تحملت من أجلك الكثير .. افترشت أقدامك ذلاً لسنوات .. فقط من أجل لحظة رضا .. (نظر إليّ) وما كان مقابل ذلك كله؟ حب ضائع .. وإهانة دائمة .. والآن عار لن يطال أياً من محبيكِ إلا أنا !

كنت قد انتهيت من ارتداء البنطال واصطنعت الانشغال عن الرد عليه بإحكام أزرار ذلك القميص الأبيض في تهرب من مواجهته بكلمات لن تزيد الأمر إلا سوءاً ، فامتص نفساً عميقاً من سيجارته القصيرة حتى توهجت مقدمتها كما توهج صدره بغبارها ، وكأنه كان يصارع نفسه من أجل قرار ما ..

أغلق عينه في ضيق ونطق في هدوء : سأتولى قضيتك بنفسي فلا تقلقي .. ولكن .. لقد .. لقد حاولت .. لقد حاولت حقاً أن .. (زفر هواءً ساخناً) سأرسل إليكِ ورقة طلاقك قبل أن تغرب الشمس ..

ونهض دون مقدمات في حزن أحنى ظهره ورسم بكتفيه قوسين خائرين في حسرة ، حاولت أن أحل عقدة لساني برد يهون عليه فعلتي .. وليتني ما فعلت !

«ستتراجع عن ذلك القرار والشمس لا تزال بكبد السماء!»..

توقف دون أن يلتفت ، بينما رفعت نظري للسماء في استنكار وغير تصديق لما قلته للتو ، ارتأيته وقد شعر بعبارتي وكأنها سهم اخترق ظهره حتى انغمس بقلبه لحال دون التفات المسكين لمواجهتي ، وعندها نقرت إيمان عدة نقرات مهذبة بأصابعها على الباب ودخلت في استحياء

هادئ ربما للاطمئنان ، وما أن رآها حتى تقدم تجاهها في استعداد لعبور وقفتها إلى الخارج .. لولا أن غلبه الحزن بعبارة أخيرة قالها قبل أن يرحل :

«فيروز.. أنتِ طالق!».

***

وكأن شيئً ا لم يحدث ، فما أن صفعني عاصم بعبارته المؤجلة حتى عدت إلى الفيلا التي أ كد أنها أصبحت ملكي الآن ، واستغرقت في نوم عميق دون أن أشعر بحزن يذكر على ما حدث ، بل على العكس شعرت بارتياح مفاجئ وقد تخلصت من شعوري بالذنب تجاهه .

أجل .. كانت فرحتي بتخلصه مني أكبر من حزني على فراقه ، فما اعتدت منذ الصغر على الشعور بالذنب تجاه أحدهم ، بل كان ذلك من نصيب من حولي .. من أتعسوا أيام حياتي وتعمدت تأنيبهم على ذلك ، إلا عاصم .. ذلك الشاب المضيء الذي انطفأ بمجرد أن علقت أحبار قلمه الثمين بخانة التوقيع من عقد قراني .

استيقظت فجرً ا وقد غلبني النوم لما يقرب من عشرين ساعة ، وكانت تلك المفكرة اللعينة هي أول ما انعكس عليه ضوء الغرفة أمام عيني ، وكقرص من الفوار اعتادت أمي على تناوله يوميً ا في الصباح ، اهتز قلبي وبدأ فورانه بهوس غير مفهوم تصاعد سريعً ا حتى غلب كامل جوارحي ، وعكفت على دراسة تلك المفكرة بكامل تفاصيلها .

قلّ بت في أوراقها الأولى وقرأت ما خطه ذلك الرجل عزيز بك من كلمات ، كانت معظمها تعبّ ر عن أحاديث ثنائية بينه وبين عدة نساء وأخرى لما بدا أنها ملاحظات جانبية عن ظاهرة لم يفهمها ..

كانت أولاها مع امرأة دعاها « سين هانم » وأخرى لـ « جلنار طوسون »، ولمع الاسم في عيني فعدت إلى الرسم مرة أخرى بنهاية المفكرة ، وتأكدت من أنه نفس الاسم المكتوب أعلى السهم الذي خرج من صورتي .. بأني قاتلتها ..

عدت مرة أخرى إلى ما كتبه عنها ، ولكن ما أن وصلت إلى أولى كلماته حتى صرعني رنين المحمول ، وقد غفلت أن النهار قد أشرق الغرفة ، أجبت الاتصال وعيني معلقة بصفحات تلك المفكرة .. دون حتى أن أنظر لهوية المتصل .

نطقت بعبارة مقتضبة: تأخرتِ على event مؤسسة الـ..

ضربت رأسي وقدٍ تذكرت ذلك الحفل النهاري اللعين: حسناً.. أنا في الطريق!

فأغلقت دون رد ، ولم أعاتبها على ذلك ، فبالرغم من أنها شهدت لحظة طلاقي بنفسها لكنها لم تكن تتخذ من الشفقة دينً ا يحرّ م على رئيس العمل التساهل مع موظفيه ، أو ربما رأت في عيني حينها أن عبارة عاصم القصيرة أطلقت أنفاسي فرحً ا بدلً ا من حبسها حزنً ا .

انطلقت بسيارة أجرة إلى تلك الأرض الزراعية الشاسعة التي اتخذتها المؤسسة لتصوير حملتها الدعائية الجديدة ، وما أن وصلت حتى اصطدمت بالزحام الفوضوي لمعدات وعمال التصوير وصيحات مساعدي الإخراج ومديري الانتاج ، وقبل أن أحتد على أحدهم لرفضه دخولي .. تدخلت يد مألوفة وجذبت كتفي إلى الخلف برفق . التفتت فوجدت أخي عمر الذي وقف بيني وبين ذلك الرجل البغيض .

«إنها بصحبتي يا آستاذ صلاح»..

تنهد المدعو صلاح وفتح الطريق أمامي للعبور ، ففعلت ولم أقاوم نظرة سخط فوقية وجهتها إليه ، بينما أكمل عمرو حديثه وهو يضبط كاميرته الملتفة حول عنقه : أينما ذهبتِ تتعلق المشكلات بأعقابك ..

زفرت في ضيق وهممت بإسراع خطواتي مبتعدة: سأتركك لعملك.. ولتتركني لعملي..

سابقني حتى وقف أمامي في ندم على مزحته السخيفة وتحدث في جدية أخوية : حسنًا حسنًا توقفي .. لم أقصد .. (تنهد وربت على ذراعي) كيف حالك اليوم؟

تجاهلت سؤاله في محاولة لإخفاء ما جرى البارحة: على خير ما يرام..

راقب ما تبقى من جروح بوجهي في استنكار هادئ: حقًا؟

فشلت في الكذب: آه تقصد تلك الندوب؟ لا شيء.. لقد سقطت من أعلى سلالم الفيلا..

ابتسم في سخرية : آاااه .. أقدم كذبة في تاريخ السينما المصرية بعد سوارس الست أمينة وسي السيد أحمد عبدالجواد .

واجهته: ولماذا تظن أني أكذب؟

واجهني بدوره: وهل عليّ أن أظن ذلك؟

تعجبت من مراوغته وكأنه كان يعلم الحقيقة ، ولكن فقط يحاول أن يسمعها على لساني ، ولم يكن ذلك بالأمر الهيّ ن فلم أخبر أحداً ا بما حدث ، لا بحادثة القسم وفرغلي .. ولا حتى بطلاقي من عاصم ، وما أن ذكرت اسمه برأسي حتى علمت من أين علم عمرو بما يحاول إخفاءه .

عبرت جسده في دخول: لم أعتد من عاصم الشكوى وخاصة لمن هم أصغر منه سناً..

مالت عنقه في حيرة: شكوى! منكِ؟ لماذا ما الذي حدث بينكما؟

علمت أن الخبر لم يصل إليه ، ولكن راودني شعور غريب بأنه يعرف أمراً ا ما ، فانطلقت مبتعدة دون رد وتركته غارقاً ا في حيرته ، وزادت خطواتي سرعة عندما رأيت إيمان وهي تتحاور مع من بدا أنه مخرج ذلك الإعلان الترويجي .

أشارت له بالرفض الهادئ : كلا .. لقد وفينا بأزياء الفتيات .. ولكن ما وصل إلينا من عدد الأطفال كان أقل مما تدعي الآن .. فلتتصرف !

وقبل أن يجيبها برد يعبر عن غضبه الذي رأيته على ملامح وجهه ، جذبتني من ذراعي وساقتني إلى طاولة صغيرة وشاركتني جلسة ثنائية لم أجد منها مفرً ا ..

جلست في قلق: ما الأمر؟ هل تطورت الأمور في القضية؟

أجابت في حزم : كلا ولكن .. تركتك منذ البارحة دون أن أسمح لنفسي بالتدخل في شؤونك .. لكن الأمر فاق التوقعات .. بدأت حياتك في الانيهار يا فيروز .. قضية معلقة واحتمال بالقبض عليكِ يلوح بالأفق .. وأخيرً ا .. انفصال مؤلم عن زوجك .. ما الذي يحدث لك؟

تنهدت في هجوم بارد: إن كان تركيزي في العمل هو ما يقلقك فلا تـ...

قاطعتني في نبرة آمرة : توقفي لمرة في حياتك عن ذلك التمرد الطفولي ، ولو على سبيل التغيير ليس أكثر .. وتحدثي في نضج يناسب سنك ! ما الذي يحدث حقً ا؟ !

راقبتها في جمود حاولت اصطناعه ، لكني عجزت عن الاستمرار فيه ، وبدأت دفاعاتي في التهاوي شيئً ا فشيئً ا ، وقد تطورت علاقتنا دون تصريح أي منا إلى علاقة صداقة من نوع غريب ، وعندها قررت أن أفضي عليها بما يؤرقني منذ يومين ، وكأني كنت أتوق إلى البوح به لأحدهم .

أخبرتها بقصة المفكرة ، وعم فرغلي ، ورسمتي التي ظهرت بها ، واتهامي بقتل امرأة منذ ما يقرب من سبعين عامً ا ، وكلما زادت كلماتى قصً ا عليها بما حدث تحجرت تعبيراتها في قلق من سلامتي العقلية ، فلم أجد بدً ا من إخراج مفكرة عزيز وإثبات الأمر لها بالدليل القاطع .

تابعت الرسم في برود: تشبهك حقًا ولكن..

عاد التمرد مرة أخرى: تشبهني فقط؟! إنها أنا!

هدّأتني في تراجع عن تكذيبي : حسنً ا حسنً ا ولكن .. (رفعت عينها في تردد) فيروز .. هناك الكثير من الأشخاص حول العالم يشبهون العديد من الشخصيات الأخرى من الزمن المنقضي .. لستِ أول من ...

قاطعتها في غضب : انظري إلى الرسمة جيدً ا بالله عليك .. انظري إلى تلك الضمادة اللعينة إنها بالمكان ذاته ..

وصفعت جرحي البسيط بقوة مطابقة إياه بما رسمه ذلك اللعين عزيز ، وما أن ظننت أني نلت من النقاش حتى راقبتني في شفقة كرهتها : وماذا لو كانت مجرد ضربة طائشة للقلم فحسب؟

ضاق صدري بالغضب فأوشك أن ينفجر: بالله كيف لا ترين ذلك؟ لقد صدق فرغلي بمجرد أن وقعت عينه على الـ...

قاطعتني في هدوء أخرسني:

- رجل الخرافات؟؟! ألم تصفيه من قبل بالخرف وقد ظن أن الجن خطفوا زوجته؟

لم أجد ردًا لما اعتبرتها مجرد حماقة تفوهت بها، فتنهدت وعادت إلى الرسم مرة أخرى:

- حسنً ا .. سأقارعك الحجة بالحجة ، ومن جنس ما قلتِ ، أجيبي عن هذا السؤال .. إن كانت تلك الضمادة تعبر عن إصابتك منذ يومين ، وأنها ربما قفزت إلى الرسم بمجرد إصابتك وفى اللاوقت كما تدعين ...

أومأت لها بالموافقة، فحدَّثت نفسها بصوت مسموع:

- يا الله لا أصدق أني أخوض ذلك النقاش .. (ثم اعتدلت) حسنً ا لماذا إذً ا لم تظهر الجروح التي أصبت بها البارحة؟ ! وهي أكبر وأكثر وضوحً ا وقد مضى عليها يوم كامل؟

أصمتتني كلماتها فِهرب الرد واختبأ بغصة أصابت حلقي، فابتسمت في انتصار بسيط وأكملت:

- إن الأمر مجرد صدفة تافهة.. لا يعدو عن كونه شبه قريب بينك وبين امرأة صارت ترابًا الآن.

اعتدلت لها:

- وإن كانت صدفة حقا .. لماذا لم يعثر عليها أحد قبلي؟ لماذا أنا بالذات؟ الفتاة التي تشبه المرأة هي من تعثر على تلك المفكرة؟

مال عنقها في تعجب:

- قلت لك من قبل ، مجرد صدفة قدرية .. وأنا مستعدة أن أعثر لكِ من خلال شبكة الإنترنت على الآلاف .. بل الملايين من البشر ممن صرّحوا بأنهم وجدوا صورًا لشخصيات قديمة تشبه ملامحهم في العصر الحالي ..

نطقت في تمرد طفولي كما وصفته من قبل: لا أصدق!

امتعضت في صمت، وأدارت المفكرة تجاهي في حزم:

- حسنًا.. للمرة الأخيرة.. أترين ذلك الرداء الذي ترتديه شبيهتك؟

التفت لها مسرعة وقد نسيت تلك الملاحظة:

- بالطبع! كيف نسيت ذلك.. نعم.. انظري... إنه تصميم لا يناسب عصره..

ابتسمت في سخرية من سذاجتي:

- آه .. ستندهشين من كم التصميمات التي نظنها حديثة بينما ترجع أصولها لقرون مضت .. أنت من دون البقية عليكِ أن تعلمي ذلك ، وكنت تحاولين استنباط تصميماتك من ذلك الزمن .. أتظنين أنكِ أول من حاول فعل ذلك؟

زفرت في حنق:

- فقط تحدثي بما يدور برأسك..

نطقت في تحدٍ بارد:

- إن كانت تلك الرسمة تصف أدق تفاصيل هيئتك حقً ا .. كيف انتبهتِ إلى ما ادعيتِ أنها ضمادة حديثة ولم تنتبهي لذلك الرداء؟ هل تملكين مثله؟ !

كان رداءً طويلً ا ذا تصميم دائري بخطوط تناسقت بين البيضاء والسوداء كحمار وحشي في أناقة بالغة ، وما أن تأملته حتى لطمت رأسي ملاحظتها ، فقد غفلت حقً ا عن ذلك الأمر .. فأنا لا أملك رداءً كهذا !

ء ء

نهضت في خيبة أمل، وقد دفعها صمتي إلى الاعتقاد بأنها فازت بالمناقشة:

- ما أن ينتهي الـ event.. فلتعودي إلى بيتك لقسط آخر من الراحة..

استوقفتها بكلمة ظنت أنها خرجت في كبرياء الإنكار:

- ولكن!

لم تكلف نفسها عناء الرد بل رحلت في خطوات سريعة ، وقد رأيت خلف رأسها وهو يهتز يمينً ا ويسارً ا في استنكار وكأنها تتحسر على عقل الفتاة اليافعة وما أصابها في أقل من يومين .

عدت سيرً ا على الأقدام إلى الفيلا دون أن أفكر حتى في استعمال سيارة أجرة ، فقد كان ما يدور برأسي كافيً ا لدفع قدميّ للحركة دون أن أشعر بالزمان أو تغير المكان ، فبدوت وكأني أتحرك في أتوماتيكية .

راجعت كلمات إيمان ، وكذلك حالتي النفسية في الأيام الأخيرة ، وعوّ لت عليها سبب هوسي المرضي بتلك المفكرة التافهة ، فربما شعرت في الفترة الأخيرة بشعور غامر بالفشل والخروج من دائرة الاهتمام .. فصنعت لنفسي دمية سحرية أركض خلفها لأعود إلى إحساسي السابق بذاتي وكأني محور الكون .. ولم يقتصر تأثيري فقط على زمني الحالي .. وإنما تحكمت أيضً ا في مصائر بشر في زمن سابق .. وبالقتل إن جاز التعبير !

وصلت إلى بوابات الفيلا وكنت بالكاد أشعر بأصابع قدمي ، فعبرت الحديقة في بطء وأنا أحتضن تلك المفكرة الملعونة ، ودون أن أهتم .. ألقيت بها داخل سلة القمامة المجاورة لباب الفيلا الداخلي ودنوت من الباب الداخلي أجر أذيال الخيبة .

وما أن طعنت المفتاح بالكالون الذهبي حتى تعثرت قدمي بشيء ما ، نظرت إلى موضع قدمي في ملل وعندها رأيته ..

صندوق مستطيل الشكل يرقد في لفافة ملونة بشريط قرمزي أحكم إغلاقها ، واستقرت على رأسها بطاقة ورقية تلمع في الظلام كعيون قط غاضب ..

انحنيت في توجس وسحبت تلك البطاقة وقرأت ما عليها:

« كنتِ على حق .. فلقد تراجعت حقًا عن قرار الطلاق وقبل حتى أن تصل الشمس إلى كبد السماء .. وسأردك في الصباح إلى عصمتي .. فلتقبلي هدية اعتذاري »..

تنهدت في ضيق من الخبر الذي اعتاد أن يكون مفرحًا لغيري من النسوة ، ومزقت الشريط القرمزي في غضب .. وما أن أزلت الستار عن هديته ، حتى أجبرت الصدمة عينيّ على الإغلاق الغائر ..

همست في ألم:

- آاااه يا عاصم.. لُعِنتَ في كل كتاب آمنت به أم كفرت!

كان ذلك الرداء اللعين! يبدو أن قتلك بات وشيكاً يا جلنار!

-٥-

جُلنار طوسون

١٩٤٨

لم يكن الأمر كما ظن الجميع ، ولم يكن لهم ذنب في اعتقادهم الخاطئ ، فتلك هي عادة الحقيقة ، لا يخفيها أحد متعمدً ا ، بل تُ خبئ جسدها أسفل عباءة قاتمة من الكذب والأساطير ، أملً ا في أن تجعل لعراها ثمنً ا .. وتكون لحظة كشف عورتها ، شهوة متبادلة بينها وبين فاضحها !

وهكذا كان أيضًا ظن الناس بي، غير أني لم أكن أتبادل الشهوة مع أحد.

اشتهرت قبل أن أعتاد على اسم الولادة بفاتنة المجالس ، حتى ولم أكن قد أكملت العاشرة من عمري ، لجمالي الطاغي كما سمّ اه جلالة الملك فؤاد الأول في المرة الأولى التي عرضني فيها أبي على بصر معاليه ، كان سرًّ ا من أسرار شعوري المبكر بأهمية لم أفهم سببها ، لم تكن أهمية بالمعنى الواضح وإنما نشوة غريبة تغزو روحي كلما خلَ بت عيون من حولي منحنيات جسدي أو التواءات شعري المنسدل .. أو حتى ابتسامة سقطت مني دون مبرر واضح .

جذبني أبي يومها بإصبع ضخم تعلق به كامل كفي في خطوات بطيئة تجاه جلالته ، كنت أحفظ تمامً ا تعليمات أمي التي استغرقت أسبوعً ا كاملً ا من التعنيف والتدريب قبل ذلك اللقاء

المنتظر ، فكانت تطبق بذراعها على رقبتي لدقائق متواصلة وهي تتحدث مع صديقاتها أو تطالع الصحف ، حتى أتعود على النظر أرضًا برأس منحنٍ في انكسار لم أعتد عليه ، وشاركتني بنفسها تدريبات السير بخطوات واسعة ولكن بطيئة .. فالواسعة تؤكد اهتمامي بلقاء الملك ، والبطيئة ترسم انطباعًا بانعدام اللهفة .. فهكذا يجب أن تظهر المرأة الارستقراطية .. أو المرأة بشكل عام إن أرادت أسر قلوب الرجال ، راغبة في اللقاء .. غير متلهفة عليه . لابد أن تحمل لقب الراغبة المتمنعة .

كانت أمي معلمة جيدة . ولكنها لم تكن تعلم أن تلك التعليمات لا تناسب الارستقراطيات فقط .. وإنما ترفع أيضًا من سعر الساقطات !

تحركت مع أبي وعيني تسابق الرسوم الخلابة لسجاد قاعة الحكم وهي تركض في سرعة أسفل خطواتي ، كانت لحيوانات مفترسة تفغر فاها لمن يخطو عليها ، وبتجاوزي أنيابها في كل خطوة ، كنت أشعر - بسذاجتي الطفولية - بشيء من الثقة .. فها أنا أخطو فوق وجوه الوحوش وأسحقهم بحذاء وردي دون أن يطرف لي جفن !

لمحت بعد ثوان ظلًا ضخمًا يقطع مجال رؤيتي الأرضية ويختفي ، كان أكثر شراسة من تلك الوحوش السفلية ، شعرت بانقباضة إصبع أبي بمجرد عبور ذلك الظل ، فعلمت أنه لجلالة الملك نفسه ، وتسارعت خطوات الإصبع في لهفة للأمام .. ونطق صوت أبي الأجش بالتحية .. ولكن ، كيف أغفل تعليمات أمي؟ فأطبقت بكفي الصغيرة على حركة أبي وأجبرته على إبطاء خطواته دون تردد ، فقطع تحيته في منتصفها ونظر إليّ في تعجب وارتباك ، فحافظت على سرعة خطواتي في ثقة ، وعندها استمعت لأصوات همهمة بسيطة كانت تتزايد لتتحول إلى ضحكة مكتومة لأحدهم :

- «عفارم.. عفارم.. لقد ولدت ابنتك أميرة يا باشا»..

قالها الملك قبل أن يأذن لي بالنظر إليه ، رفعت عيني في بطء وجذبتُ بتلامس إصبعين صغيرين طرف رداءي الوردي وفردته في الهواء كجناح يحلق في ترفع عن ملامسة الأرض ، وأثنيت ركبتي بانحناءة هادئة لم تستمر إلا لثانية وجزء منها .

رأيت في عيني الملك ابتسامة إعجاب لم تكن قط ابتسامة عجوز لطفلة ، بل كانت شيئً ا آخر لم أفهمه حينها ، واكتفيت بحفره في ذاكرتي ، أو بالأحرى حفره هو نفسه داخل ثنيات تلك الذاكرة الخصبة ، وظل يطاردني لسنوات تعبت من عدها ، وجوار تلك الذكرى البصرية ذكرى أخرى وقعت من قلبي موقع النشوة لأول مرة ، كلمة نطق بها قبل أن ينهض مجبرً ا جميع من بالمجلس على النهوض والانحناء له وهو يقترب مني .

- «ابنتك ذات جمال طاغٍ يا باشا.. ما اسم الأميرة؟»..

قاطعت رد أبي بصوت هادئ لم يُربكه الخوف:

- الأميرة كُلنار طوسون كلالة الملك.

كلما تذكرت تلك اللحظة لا أملك إلا أن أضحك وأنا أستمع لصوتي وهو يخطئ في نطق حروف تلك العبارة ، إلا أن ضحكة جلالته كانت دائمً ا تعلو على صوت ضحكاتي وهو ينقل بصره إلى المحيطين ، وكأنه يأمرهم مازحً ا أن ينظروا إلى تلك « العفريت الصغير »، كان ينطقها هكذا « العفريت » وليس « العفريتة »، فتتعالى الضحكات المحافظة من الجميع ، ويهاجم الدم وجه أبي نجلً ا تحت ضحكاته المصطنعة مجاملة لضحكات جلالة الملك الخشنة .

علمت بعدها بأيام وقد استرقت السمع إلى حديث هامس بين أمي وزوجة أختها الأميرة شهد أن صوته اعتاد أن يكون ناعمً ا لولا تلك الرصاصة التي أطلقها عليه أخو زوجته الأمير أحمد سيف

انتقاماً لشقيقته الأميرة شيوه كار في نهاية القرن الماضي وقبل أن يكون ملكاً على البلاد ، وما أن أصابت تلك الرصاصة حلقه حتى عطب صوته ، وفى كل مرة ينطق فيها بحرف .. يخرج غليظاً متكلفاً جهوراً حتى وإن كان يمزح .

وكعادة لاعقي البلاط الملكي ، استمرت الضحكات حتى ينتهي منها الملك أولاً ، إلا أن انقطاعها هذه المرة لم يكن لاكتفاء الملك بضحكة طويلة أرهقت أحبالهم الصوتية ، ولكنها انقطعت عندما انتفض أصحابها على فعل غريب أقدم عليه الملك .. فأسكت أنفاسهم .. وقذف بلمعة تصبغت بها عيني للمرة الأولى ولم تختف منذ حينها .

مال الملك بقامته أمام جسدي القصير وانحنى في احترام باسم:

- من مثلك.. ينحني لهم الملوك يا عزيزتي!

ارتعش إصبع أبي فخراً فاهتزت ذراعي ، فبدوت للملك كما تمنّى .. مرتبكة من فعلته في تواضع يناسب الأميرات ، ولكنه لم يعلم أن فعلته لم تحرك بي ساكناً .. لولا رعشة أبي المسكين .

ومنذ ذلك اليوم وأنا جُلنار طوسون ، الفاتنة ، من انحنى لها ملك البلاد دون غيرها وهي لا تزال في نهايات عقدها الأول ، وقبل أن يلتف لها خصر أو يبرز لها نهد ، فقط صاحبة الجمال الطاغي الذي شهد به لسان حاكم المحروسة .. وطمع به كل من دونه .

أتذكر ذلك اليوم وتغيب ضحكتي على ذكرى نطقي الخاطئ لاسمي أمام الملك ، ويغزو وجهي بدلاً منها شبح الحزن والانكسار ، وأنا أرقد عارية الجسد بين ذراعي مصطفى باشا الورداني ، أهتز

اهتزازات أخيرة لانتفاضة شهوته التي يفرغها متعرقً ا بأحشائي ، ثم يعتدل في إرهاق بالغ وصدره يصارع اندفاع الهواء إلى جسده في سرعة ، محدقً ا بسقف الغرفة ونجفتها الفضية المتلألئة بشبيهات أحجار الماس ، يظل محدقً ا بها وكأنه يراقب اقتراب ملك الموت منه مشدوهً ا .. وكم تمنيت أن يلقاه !

ولكنه لا يفعل .. بل في كل مرة يخرج من شروده ، وقد عاد صدره المتعرج فوق بروز بطنه الممتلئ والمشعر إلى سرعته الطبيعية ، ليبتسم وهو يقبل يدي ، آخذً ا إياها بيده اليمنى وفيها بذلك القفّ از الجلدي الذي يرتديه ، ويُ مسك بغليونه ويملأه بإصبع مرتعش بالتمباك التركي باهظ الثمن .

لطالما تعجّ بت من ذلك القفاز اللعين الذي يظل مرتديً ا إياه حتى وهو عاري الجسد تمامً ا ، وكأنه يخفي شيئً ا أسفله . لطالما تعجبت ، ولطالما فشلت في معرفة السر وراء ذلك . ولم يبق من الأمرين سوى انقباضي من تلك الهيئة التي تزيده قبحً ا في نظري ..

«رجل عارٍ كثيف شعر الجسد.. مقزز.. يعتصر نهديّ بقبضة خبيثة من قفّاز جلدي أسود».

ارتفعت بجسدي على قائم الفراش ، وقد اعتمدت بذراعي على مفرش الفراش ، الذي يثير في كل مرة اشمئزازي بما تلطخ من شهوة الباشا ، وكالعادة أبقى كما أنا عارية الصدر كما يريد ، كجارية يعود زمنها إلى الدولة العباسية وحريمها ، ممن يشاركن الخلفاء جلستهم في عراء حتى بعد انتهاء العلاقة ، وكأن شهوة النظر إليهن لا تنضب بشهوة الجسد .

أخبرني مرة بهوسه بهيئتي تلك من عدة لوحات رسمها صديق له - فرانسوا أليجيري - الذي كان نصف فرنسي ونصف إيطالي ، وقد اشتهر برسوماته الزيتية عن تاريخ مصر وخاصة حيوات الجواري وحرملك السلاطين ، ومنذ أن وقعت عين مصطفى باشا على لوحة منها ورأى تجمع

الجاريات العاريات حول ملكهن في خضوع ساعد جمال ريشة فرانسوا على إنضاجها بالحياة ، وهو يحلُ م بأن يجعل من تلك الخيالات الملونة ، واقعً ا يعيشه حتى وإن لم يكن ملكً ا ولا حتى أميرً ا خائبً ا .

التفت نحوي والغليون متعلق بين أسنانه وابتسم ، فتنهدت وجذبت أعواد الثقاب وأشعلته له كالعادة ، في استكمال لمسلسل عبودية ذلك المريض ، ولكن على غير العادة .. وما أن ألقيت العود المحترق بعيدً ا حتى جذبت الغطاء حتى رقبتي في صمت وشرود .

كان يفتل شاربه وتتلاعب على شفتيه ابتسامة يؤكد بها لنفسه أنه مازال حيً ا حتى بعد أن جاوز الستين من عمره ، ولم يلحظ فعلتي حتى غابت سحابة الدخان الأبيض التي سترتني من عينيه للحظات ، وحينها لمح اختفاء اللحم الأبيض تحت الخيوط القماشية الرمادية .

غابت بسمته وتحجرت نظرته في هدوء ورزانة:

- ماذا تفعلين؟

أجبته دون أن أنظر إليه ، فقط أسقطت رقبتي بين كتفيّ العاريتين حتى لامست ذقني حواف الغطاء : أشعر بقليل من البرد ..

جذب في لطف الغطاء ليعريني مرة أخرى:

- هيا يا سمو الأميرة.. فنيران عشقنا لم تنطفئ بعد.. فوالله.. لازال جسدي ينتفض منها جمرا..

جذبت الغطاء مرة أخرى في بطء ولامبالاة: حقا؟ تنطفئ إذا بسرعة أكبر بأجساد صغيري السن.

ابتسم مبتلعًا للإهانة:

- لن تنجحي هذه المرة في إفساد متعتي.. حتى ولو نطقتي بأكبر من هذا..

نهضت وأنا أحيط جسدي بالغطاء ، فظهرت منه رقبتي وشيء من صدري ولم ينجح اللعين في إخفاء سيقاني ، فهمس الورداني بصوت غلبته الشهوة مرة أخرى وهو يراقب تمايل جسدي بابتعادي عنه :

- تبدين كآلهة إغريقية..

أحكمت قبضتي على طرف الغطاء بأسفل ظهري وأنا أتباطأ بخطواتي إلى النافذة:

- توقف عن استعارة عبارات من كتب لم تقرأها.. فمستواك التعليمي لم يرق إليها بعد..

ما أجمل أن توافق الإهانة التي نقذف بها الآخرين حقيقتهم ، فقد أهنته وعيّ رته بجهله ، ولكني لم أكذب ، حيث لم يخطو ذلك العجوز لا في شبابه ولا كهولته أيًّ ا من أروقة التعليم الملكي التي اعتدت على تلقي العلم منها ، ففي الوقت الذي كان يتنقل فيه بين القرى كموظف للري كنت أدرس منذ الصغر الرسم والأدب واللغات ، حتى أني أتقنت اللغة التركية والفارسية والفرنسية وتربعت على عرش الأميرات .. ممن يقول عنهن العامة « ذوات مال وجمال وثقافة ..»

ضيعت الكثير من السنوات حقً ا في دراسة تلك المواد بالغة الصعوبة ، حتى أتحول إلى جارية لرجل لم يتعلم حتى منتصف عقده الرابع كيف يضبط طربوشه على القواعد الصحيحة ، تعجبت حين تعرفت عليه منذ عدة أشهر كيف أصبح بذلك النفوذ ، مختالً ا بلقب الباشا داخل الحكومة وهو لم يكن إلا ابن فلاح توسط له الإقطاعي الذي يعمل بأرضه ، بعمله مع الإنجليز بنظارة الزراعة ، حتى أن حظه وافق قرار الحكومة في ثاني يوم لتعيينه أن تصبح مكاتبات النظارة بالعربية بدلا من الانجليزية ، ليختفي جهله خلف قرار متأخر لحكومة هزيلة .

سألته في مرة قبل الإطاحة بملابسي وهو في غمرة شهوته ، كما اعتدت أن أعلم ما أريد من أسرار الرجال في تلك الحظة التي تخور فيها قواهم ، عن السر وراء تحوله من موظف بسيط بنظارة بسيطة إلى رجل يتحكم في العديد من الوزراء ويرسم لهم الخطوات السياسية بالأمر ودون نقاش ، ما السر وراء تلك الانتقالة الجذرية في مكانته؟ فاستفاق لحظيً ا على عكس الجميع وابتسم في شيطانية ، وقد فهم حيلتي :

- السر.. هو أني أُحسن حفظ الأسرار!

علمت حينها أن وراء تلك الأعين الصغيرة التي تبدو كثقبين غائرين بوجهه الممتلئ شيئً ا يستدعي الخوف من تقلباته ، فآثرت من وقتها إطاعة أوامره .. ليس فقط لأنال ما أطمع ، وما وعدني

إياه بلسانه ، وإنما خوفً ا من أن تخفت مهارته في حفظ الأسرار التي يتشدق بها ويكشف سرّ ي .. وحينها تنتهي جلنار طوسون إلى الأبد .

ندمت حقً ا وأنا أقترب من النافذة من تلك الإهانة التي ثقبت بها وجهه فأفرغ به مكانً ا لعين ثالثة ربما تزيدني رعبً ا من تهديداته ، إلا أنه ضحك بصوت خشن تخللته عدة سعلات مقززة ولم يغضب :

- معك حق.. ليس لجهل مني ولكن لغياب الكلمات عن ألسنة من يحاول.. فقط يحاول.. وصف ذلك الجمال الأسطوري.

ثم باغتني بأمر صارم بنبرته الهادئة كمن يأمر بهلوانًا أن يسلّيه:

- صفي نفسك إذًا.. (ثم أكد في فوقية) ومن الأفضل أن يكون وصفًا بليغًا يمتع أذني.

راقبت من خلف زجاج النافذة الذي استحال ضبابً ا بأنفاسي ، القمر الذي لم يكد يكتمل ضياؤه ، وكأنه يشاركني محاولة إخفاء فتنته أسفل عباءة من الظلام ، ونطقت في شرود :

- بل فاكهة محرمة!

ضحك في استمتاع من جملتي البهوانية بالنسبة إليه وقال في حماس:

- حقً ا .. حقً ا .. معك كل الحق ! تفاحة نضرة ، ولكني لا أخشى على نفسي من قضمها ، فلا يطرد من الجنة من كان مالكً ا لها ..

التفت إليه في تقزز من اقتناعه بألوهيته الزائفة:

- تلك هي المشكلة يا عزيزي .. تنصرف الأذهان دومً ا إلى صاحب القضمة ومصيره ، ولكن لم يلتفت أيٌّ منهم إلى الفاكهة وما يحدث لها حقً ا ..

اعتدل وقد سحب غليونه مرة أخرى كمفكر أبله وقد أثرت إعجابه:

- نقطة غاية في الأهمية .. لم يثرها أحد قبلك (وكأنه سيعلم إن كان قد أثارها أحد حقً ا ذلك الجاهل).. أخبريني إذا .. ما الذي يحدث لها؟

أعدت بصري إلى القمر مرة أخرى ، وقد اختفت سحابة الظلام التي سترت فتنته ، فعاد عاريً ا ولكن بشوائب مظلمة لصخور متعرجة تفرقت على سطحه ، بدا قبيحً ا :

- ما أن تُ قضم التفاحة حتى تذهب نضرتها .. وكأنها تعلم أنه لم يُ قدّ ر لها تؤكل .. بل خُ لقت للجمال فقط .. خُ لقت للخلود .. حتى يعتصرها الفانون بأسنانهم .. فتتحول إلى جزء منهم .. وقبل أن تشعر بالأسى على حالها .. تضمر .. وتموت ..

ء ً ء ء

أصدر صوتا من بين صدغيه كفلاح أبله يطلب انتباه أحد بهائمه، فالتفت إليه في غضب ليبتسم:

- لم أخطئ إذًا.. ما الفرق بين الآلهة والفاكهة النضرة؟ فكلاهما خلق للخلود..

ثم ربت عدة مرات على الفراش في ابتسامة شيطانية أخرى:

- وأنا لم أشبع بعد!

تمنيت لو أملك من الوقت ما يكفي حتى أفتح تلك النافذة وأقفز من على حافتها قبل أن يمنعني بخفة حركته المعهودة ، ولكنها دائمً ا ما استعصت عليّ ببرودة مقبضها على أصابعي الضعيفة ، فتسمّ رت في شرود وأنا أراجع تلك الفكرة ، وما إن استبطأ استجابتي لأمره حتى غلظت نبرته :

- «جلنار! تـ...»

قطع جملته انفجار درفتي الباب على مصراعيه ، انتفض من مكانه في لهفة ، والتفت بدوري إلى مقتحم خلوتنا المحرمة ، كان ابنه المراهق « فرج » الذي تجذر بخطوته في صدمة مما يرى !

غطى الباشا جسده الممتلئ وصاح فيه بعصبية:

- ما الذي تفعله أيها الأحمق؟!

شحب وجه فرج ونقل بصره إليّ ففغر فاه وجحظت عينه ، كنت كما وصفني أبوه ، آلهة إغريقية تنتصب تحت أشعة القمر الزرقاء التي تبرز بصفائها كتفين عاريتين وصدر ممتلئ اختبأ بين حافة غطاء داكن من الأسفل ، وخصلات شعر ذهبية من الأعلى .

توقف الزمن ، ولم أشعر إلا وقد أسقطت الغطاء من على جسدي في تعمّ د لم أفهمه حتى ظهرت عارية تمامً ا ! هاجم الدم وجه الفلاح الساذج فرج ، بينما صرخ الباشا باسمي في غلظة كانت كافية لقتلي بمجرد أن طالت أذني ، وعندها اندفعت امرأة مسنة في ملابس قروية من الباب وبدت وكأنها فهمت ما يحدث في اللاوقت ، فشهقت من الفاجعة وضربت بيدها القوية على عيني الشاب وارتمت تحت قدميّ كجارية ذلول ، ترفع الغطاء لتخفي مفاتني أسفله مرة أخرى .

كنت أعرف هويتها حتى قبل أن أراها ، كانت زوجته الأولى « نعمة » التي تزوجها وقتما كان موظفً ا بسيطً ا بقريته ، وما أن تحول تحوله الغامض إلى الباشوية ، حتى تركها ورضيعها واستقر بالقاهرة ، ومنذ سنة فقط وافق أخيرً ا على أن تأتي وولدها الذي عاد شابً ا ساذجً ا لمشاركته العيش ، كعبيد تحت إمرة زوجته حورية هانم ابنة بهجت باشا .

لم أفهم حقً ا سبب موافقتها على ذلك الظلم الذي دق به عنقها ، تعمل كخادمة لضرتها ، ولا تعترض على نزواته التي أصبحت أنا جزءً ا منها ، بل تساعده على إخفاء الأمر عن زوجته الهانم ، فقط من أجل أن يرضى ، حتى أنه أخبرني في مرة أنها تجهز له بنفسها ماءه الساخن الذي يغتسل به بعد كل علاقة جنسية تتم تحت سمعها ، قالها متفاخرً ا بسطوته عليها .. وسمعتها وكلّ ي حيرة من تلك المرأة جبلّ ية الأكتاف .

تساءلت من يومها ، كيف هو شعورها كأنثى تراقب زوجها وهو ينصرف عنها إلى نساء أخريات لم يقدمن إليه ولاءً وحبًا كما قدمت؟ كيف تتمكن من إجبار قلبها على انتظام ضرباته بمعدل طبيعي كلما انحنت أمام إحدى عشيقاته أو حتى زوجته المتعجرفة في احترام .. كيف؟

رفعت نعمة الغطاء في سرعة لتغطي مفاتني دون أن تجرؤ على النظر إلى عيني ، أحكمت الغطاء بقوة حتى انتفضت على لمسة باردة من سبابتها على ظهري وهي تدير القطعة القماشية ، نظرت إليّ نظرة خاطفة تعتذر فيها عن برودة أصابعها ، فتلاقت عينانا أخيرًا ، نظرت إليها في شفقة وكأني أحيطها بذراعي وأهتف لها كما تمنيت « لا تحزني »، وبدت وكأنها سمعت صوت تلك النظرة ، فعجزت عن تحويل بصرها عن عيني ، وعندها توقف الزمن مرة أخرى .. واحتملت الثانية من الزمن .. حوارًا دار بين نظراتينا لأيام .

لمعت عيناها بغلاف رقيق من عبرات نجحت في جعلها لا تنساب على وجنتيها ، وانتفضت مبتعدة عندما انتبهت على طرد الباشا لولدها إلى خارج الغرفة بعدة ضربات من قبضته الغليظة أتبعها بسباب متواصل لم يمنعه إلا عندما وقفت أمامه تلك المسكينة .

ركلها بقوة صائحًا:

- كيف تسمحين لذلك الأحمق باقتحام غرفتي أيتها الـ...

قاطعته في استعطاف بالغ وهي تغلق الباب لكيلا يدخل الساذج مرة أخرى ، وعادت إليه في لهفة ورجاء وهي تحتمي بالهواء في هيستيرية العبيد من ضرباته التي علمت أنه يستعد لها :

- غفلت قليلًا يا سي مصطفى.. العفو والسماح!

سحب كرباجه من خلف قائم الفراش وتقدم نحوها فأسرعتُ إليه ، ولكنه أوقفني بنظرة بالغة الشر صرعتني بمسمار غليظ دق خطوتي بمنتصف الطريق ، وصاح بها ملوحً ا بالكرباج :

- فالعذاب الأليم هو ما تستحقينه إذًا يا ابنة الكلاّف!

ضربها في قسوة فاستقامت انحناءة ظهرها للسعة الكرباج ، ولم تلبث أن تقوست مرة أخرى أرضً ا عند قدميه وهي تبكي :

- والختمة الشريفة يا سيدي.. حاولت منعه.. ولكنه.. ولكنه..

ضرب الكرباج أرضًا بجوار وجهها فارتعدت وأكملت في ارتعاش:

- كـ .. كان غاضبً ا من تأجيلك للمقابلة التي .. التي وعدته بها .. فـ .. فسيطر الشيطان .. أعوذ بالله منه .. على رأسه .. و ..

اشتعل غضبًا وكأنه حقًا الشيطان الذي ينتفض بالاستعاذة منه، وضربها بلسعة كرباج أخرى صائحًا:

- فيتجرأ على اقتحام خلوتي؟ ! ولماذا؟ من أجل أن يساوي رأسه برأس البهوات ويُ كمل تعليمه بالخارج؟ ابن نعمة يريد أن يسافر إلى باريس ! أي مهزلة هذه؟

مال بوجهه على جلوسها المنحني أرضً ا في شر فألصقت وجهها بإصبع قدميه وجسدها لا يتوقف عن الانتفاض ببكائها الذليل :

- لابد أنك أنتِ من تدخلين برأسه تلك الأفكار .. تريدين أن يصل مقامكِ إلى مقام حورية هانم .. ولكن .. إن كان رأسك مدفونً ا بالوحل .. فكيف تفعلين ذلك؟ (استدار حول جلستها كذئب يستعد لطعن فريسته بأنيابه).. توسوسين إليه بأن يصبح كابنها .. ويدرس بالخارج ويعود طبيبً ا .. أليس كذلك؟ .. ااااه .. لا .. ليس طبيبً ا .. وإنما رسّ امً ا .. يريد أن يصبح فنانً ا .. سليل البهائم !

رفعت كفيها في الهواء في حركات هيستيرية يمينًا ويسارًا يصحبها بكاء وإنكار لما يقول:

- لا والله! لا والله! يا سيدي.. لا تظلمني!

ضرب الكرباج مرة أخرى أرضًا فانتفضت وصرعها:

- اغربي عن وجهي .. وليلملم حاجياته وإيّ اكي .. ولا تشرق الشمس إلا وقد أذهبتِ عن السراي نجاستك أنتِ وهو !! تحركي !

أومأت عدة مرات في طاعة ولا تزال تحتمي بيدها من الهواء ، وانطلقت بجسدها المقوس وخطواتها المتعرجة إلى الخارج ، وما أن فعلت حتى صفع الباب خلفها واستند عليه في إرهاق

لاهثً ا وقد وهن جسده من فرط ما فعل !

همست له في خوف غطى على الغضب الذي نهش ملامحي فأدمى وجهي في نظره:

- تطردهم في تلك الساعة المتأخرة؟

التفت إليّ بنظرة غاضبة دون أن ينطق بكلمة وألقى بالكرباج أرضً ا وتقدم مني في خطوات بطيئة سبقَ تَ ها إلى جسدي رعشة الخوف :

- لـ.. لقد.. لقد سقط الغطاء رغمًا عني!

مال بعنقه مترقبً ا لعلامات الكذب على وجهي ونطق بصوت رخيم وعين ثابتة : كلا ! بل اشتهيتِ نظراته؟ رخص جسدك اشتاق لعين بِ كر تعيد إليه نضارته .. أيتها الساقطة !

لم أعلم حقً ا سببً ا لما فعلت ، ولكن ما قال كان أقرب إلى ما شعرت به رغم استنكاري له عندما نطق به ، ولكن كيف استطاع أن يفهم ذلك الشيطان ما اختلج في نفسي من مشاعر حتى قبل أن أفهمها أنا؟ نعم تعمدت أن أتعرّ ى أمام ذلك الساذج .. ولكنه كان أمرً ا عفويً ا .. لم أراجع نفسي لاستيضاح أسبابه .. فقط حدث !

وكان جواب السؤال عن الشيطان .. إنه حقً ا شيطان من شياطين الجن النافذة لأنفس الضعفاء .. أو ربما باع روحه لأحدهم !

وصلت أنفاسه الساخنة إلى وجهي ، فغلظت من نبرتي ودافعت في فوقية ، وقد عدت أميرة مرة أخرى : احفظ لسانك أيها الفلاح . فأنت تحدث أميرة علوية .. لا ساقطة في خمارة !!

وقبل أن أنتشي بانفجاري المتأخر في وجهه ، بادرني بصفعة قوية شعرت بعدها وكأن الأرض ترتفع إلى وجهي لتصفعني هي الأخرى ، وقد سقطت دون أن أشعر !

سال الدم من فمي ، فلطخ سجادته التركية ، التي كانت تشبه في تصميمها سجادة جلالة الملك برسوم الحيوانات البرية على سطحها ، وما أن نال دمي من أحد أنيابها حتى علمت حقيقة نفسي دون كذب هذه المرة ..

ماتت جلنار الطفلة التي كانت تخطو على تلك الأنياب في ثقة .. وخُلقت جلنار جديدة .. تجرعت الأنياب من دمائها حتى جفت عروقها .. وتحولت إلى وصف أكثر دقة من وصف الفلاح الباشا ..

لم أعد آلهة إغريقية.. وإنما تمثال حجري لها.. بلا حياة!

بدأ في إعادة ملابسه الفضفاضة إلى جسده المترهل وهو يتحدث دون أن ينظر إليّ: كامل باشا الحداد!

مسحت بإصبعي قطرة الدم ونطقت كجارية تجاوزت فترة التمرد بنجاح: ماذا به؟

فتح الباب وصرخ باسم نعمة بقوة ثم عاد مرة أخرى ليجلس منتظرًا وقد أزاح قدمي الممدة أرضًا من طريقه بضربة من قدمه : تقرّبي إليه .. أريده أن يضاجعك في أقل من أسبوع .

سكتّ في حنق ولم أجد ردً ا على تكليف ذلك القواد لي بمضاجعة غيره وكأنه امتلك جسدي ، وقبل أن أنطق بكلمة أخرى ، دخلت نعمة بملابسها الفلاحية وكأنها تستعد للسفر حقً ا ، غير أنها كانت تحمل بيدها صينية نحاسية وإبريق فضي انطلقت به إلى أسفل قدميه دون تعليق ، رفعت طرحتها المتدلية وبدأت في تلقائية في صب الماء على يده .

مد ذراعيه العاريتين أسفل عمود المياه وكأنه يتوضأ – ذلك الفاسق - وأكمل حديثه : سأسافر إلى لندن لأيام لعمل يخص إبراهيم باشا عبدالهادي .. فلتمارسي غوايتك على الرجل .. ومن الأفضل أن تترددي على منزله .. فهو رجل يخشى على سمعته .. ولن يستقبلك في مصنعه ..

اعتدلت في حنق ولمحت نظرة تشفٍ أطلقتها نعمة من جانب وجهها بعد عبارته التحقيرية : سمعته؟ .. أنا أميرة يا باشا و ...

قاطعني دون أن ينظر إليّ وهي يضرب وجهه بكفين من الماء : أميرة سيئة السمعة .. والكل يعرف هذا حتى وإن نجحت أنا في إخفاء أي دليل يؤكد تلك المعلومة ..

اصمتتني معايرته بحمايته ، وشعرت حقً ا بالارتياح بامتناعي عن الكذب على نفسي ، فلأواجهها في شجاعة .. جلنار ساقطة .. والباشا هو سيدها ، فلأتحدث إذً ا كساقطة .. وليستمع هو كقواد يخشى على أعماله .

نهضت أنا الأخرى وقد أغلقت الباب الذي تركته نعمة مفتوحً ا واختبأت خلف إحدى درفتي الدولاب أثناء ارتداء ملابسي ، سمعت زفيرً ا سريعً ا قصيرً ا خرج من أنفه كتعليق ساخر على خجلي من ظهوري عارية أمامه وخادمته مرة أخرى ، فتجاهلته وسألت : وكيف لي أن أدخل بيته .. وابنته وزوجها يشاركانه العيش به ، ألا تخش أن يُ فتن بي الزوج على سبيل الخطأ؟

جفف يده من الماء : عزيز بك لم يعد بعد من باريس .. ولن يفعل قبل عدة أشهر .. الخطر الوحيد هو من ليلى هانم .. فهي شيطان رجيم !

استعاذت نعمة من سيرة الشيطان وضربت يدها في الهواء وكأنها تبعد سيرته في جهل قروي ، بينما اتجهت إليه في حنق وقد ارتديت رداءي : وكيف أتصرف معها؟

أحكم إغلاق سترته الرسمية في لامبالاة: أصبحت مشكلتك الآن!

تحرك إلى الخارج وأشار إلى نعمة فهرولت بالصينية أمامه واختفت ، سحب طربوشه وقبل أن يسقطه على رأسه ، اعترضت طريقه : وما الغرض من غواية ذلك الرجل؟ أليس من حقي حتى أن أعرف؟

أحكم الطربوش وفتل شاربه بمرآة التسريحة واستعد للمغادرة ، وقبل أن يفعل وقف أمامي ومرر إصبعه على وجهي في استفزاز كتاجر يعاين بضاعته في استمتاع : فلتقدم الفاكهة نفسها إليه فحسب .. ولسوف تتكفل قضمته منها بالبقية !

***

«الملاية اللف»

كانت الملاءة اللف هي دومً ا الحل ، أتلحّ ف بها وأحكم لِ باس الحبرة واليشمك فتختفي الأميرة جلنار طوسون إلى غير رجعة ويختلط جمالها بفتنة وقبح غيرها من النساء بطرقات المحروسة ، فعلى عكس خلق بني آدم أجمعين ، لا أجد تحررً ا في التعري وإن كنت وحيدة ، كما أجده في الاختباء خلف طبقات وطبقات من الجلاليب الفضفاضة والملاءات السوداء التي تغطى

رأسي نزولاً حتى إخمص قدمي ، حتى أني لا أحتاج إلى ارتداء ذلك الخلخال الذي يرتدينه النساء للاعلان عن خطواتهن بين طُرقات الرجال ، فقط أتحرك كجثة كان كفنها أسود .

ربما هذا هو اللون الذي تستحق فاسقة مثلي أن تتكفن به قبل أن يرفسها أحدهم إلى حفرة بالقبر دون أن يقرأ عليها آية رحمة واحدة .

آه.. آية رحمة.. رحمك الله يا شيخ فاضل..

درست كغيري من الأميرات تعاليم الدين الاسلامي ، وكانت توفد إدارة القصر إلينا شيخاً من الأزهر الشريف في صبانا ، يجالسنا ويُلقي علينا مبادئ الدين ، ويترنح يميناً ويساراً وأحياناً للأمام والخلف وهو يتغنى بآيات عذبة من القرآن الكريم ، وكان من بين هؤلاء الشيوخ الشيخ فاضل القمعي ، والذي كلفته أمي بأن يعلمني وحدي .. بعد أن اشتكى الشيخ السابق من مقاطعتي الدائمة له خلال دروسي الجماعية مع زميلاتي الأخريات بالسؤال والجدال حول معاني الآيات .

كان الشيخ فاضل قصير القامة للغاية ، وبالرغم من ذلك ، فإنه كان صاحب وجه ضخم مستطيل ذي تعرج متداخل بين حاجبيه ، فيبدو لمن لا يعرفه رجلاً دائم العبوس ، نبتت لحيته حالكة السواد حتى وصلت إلى أسفل عينيه ، وانتصب أنفه بحافة مدببة طويلة رسمت وجنتيه على جانبيها ، كقوسين دائريين حول سهم مسموم كلما ابتسم ، وبالرغم من صوته الرقيق وعلمه الغزير ، لكن هيئته الغريبة كادت عدة مرات أن تلقي باسمه إلى آخر كشف المرشحين بتكليف القصر لتعليم أبنائهم وبناتهم ، لكن حظه ابتسم وقد طلبت أمي إرسال أي شيخ من الأزهر لتعليمي حتى ألحق بزميلاتي ، وقد امتنعت عن حضور الدروس لأسبوعين كاملين .

كان حديث العهد بالزواج ، فتوسل إلى شيخه لترشيحه إلى تلك المهمة أملاً في زيادة دخله ، فاستخار الشيخ الكبير – كما قص عليّ الشيخ فاضل – ربه لثلاثة أيام متعاقبة حتى بدت إشارة

بسيطة للموافقة ، ربما لا يعوّ ل عليها كغيرها من الإشارات الواضحة ، إلا أن إلحاحً ا من الشيخ فاضل كان كافيً ا لاستكمال النقص في الإشارة .. والموافقة المبدئية على حضوره .

وما أن رأته أمي حتى فزعت وطلبت طرده على الفور ، إلا أن ابتسامته الخجلة التي كان يخفي تحتها حزنه من إهانتها المتوالية التي ضربت بها وجهه دون أن تلقي بالً ا بمشاعره ، أسرت قلبي ، وركضت مسرعة إليه وتعلقت بما طالته قامتي القصيرة .. فاحتضنت خصره ودفعت برأسي داخل صدره وصحت بها : أريده يا أمي !

رفضت أمي رفضً ا قاطعً ا بالطبع ، ولكن إلحاحً ا كإلحاح فاضل على شيخه ، طاردت به مواطن الراحة لأمي ، مما دفعها إلى الموافقة أخيرً ا .

لا زالت أذكر حتى الآن جلساتنا القصيرة ، وهو يشرح لي معانى الآيات القرآنية في هدوء بالغ ووجه باسم لم أرهبه كما كانت تفعل الخادمات وهن يسُ قن إليه كوب الينسون لـ « تسليك » صوته قبل التلاوة ، وما أن وصل إلى أحد الأحاديث النبوية .. حتى استوقفته في جرأة ووقاحة ..

قال: قال صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال.

اعتدلت وتركت المقعد المرتفع وجلست إلى جواره أرضً ا في تربيعة كالتي اعتاد عليها ، وسألته : كيف يحب الله الجمال .. وخلقك قبيحً ا هكذا؟

لو كنت أدرك كما أدرك الآن وقع تلك الوقاحة على نفسه لما قلتها ، ولكنه ابتسم ابتسامته المخيفة مرة أخرى وأجاب في لطف : ومن قال أني قبيح؟ !

- الجميع!

ابتسم وأغلق المصحف واقترب من جلستي وتحدث بصوت ناعم : الجميع على خطأ .. فلتشيري بإصبعك على ما ترينه قبيحً ا بوجهي ..

أشرت إلى عقدة حاجبيه في بلاهة فابتسم: أتعلمين لم هي متعرجة كل هذا التعرج؟

هززت كتفي في جهل: لأنك قبيح؟

زاد من ابتسامته ، وخلع عمته وأخرج منها لفافة ورقية من مسحوق غريب ، فرده أمامي أرضً ا وقال : إنها من رمال جبل أُ حُ د جئت بها للتبرك .. ولكن لا عليكِ منها الآن .. فقط انظري ..

مرر إصبعه الغليظ على سطحها الناعم حتى خلّ ف وراء أصابعه تعرجً ا يشبه تعرج حاجبيه : أترين ما يحدث .. كلما مر شيء من هنا زاد ذلك التعرج .. وما كان ما بين حاجبي إلا أثر لما يمر أسفل جبهتي جيئةً وذهابً ا ..

سألته وأنا أحدق بجبهته: وما الذي يمر أسفلها؟

تنهد في حزن بسيط أتبعه بابتسامة : الخوف يا سمو الأميرة .. الخوف يركض جيئةً وذهابً ا داخل رأسي المسكين حتى شوه جبهته .

أشفقت عليه ، فاقتربت منه بحنان أم تخطت الخمسين وليس طفلة لم تقرب الثانية عشرة بعد : وما الذي يخيفك .. إن أبي باشا كبير .. وأمي أميرة .. والملك قد انحنى لي دون غيري كما تقول

أمي .. فربما أوصيه عليك و ...

ضحك حتى احمر وجهه وربت على رأسي : لا عليك يا صغيرتي .. فما أخاف .. لا ينفع فيه باشا ، ولا أميرة ، ولا يُ جليه سُ لطان ملك ..

تعجلته بالنطق بما يخاف بنظرة استعطاف، فسكت قليلًا وشرد في حزن بالغ: الخوف من الموت قبل الرضا!

آاه يا شيخ فاضل ، أذكرك كلما دلفت إلى تلك الحواري الضيقة ، بين طيات الملابس التي تخفي حقيقتي عن أعين الجميع وربما عن عيني أنا أيضًا ، قلتها منذ سنوات ولم أفهمك « الخوف من الموت قبل الرضا »، ولكن .. أي رضا؟ أقصدت رضانا نحن بأقدارنا ، أم رضا من قدّرها علينا؟

ألقيت لغزك وانصرفت إلى غير رجعة ، وها أنا أحاول فك طلاسمه في كل يوم يتأخر فيه الموت عني ، سواء رضيت أم لم أفعل .

ولكن لم العجلة، فربما أموت اليوم ويتلاشى الخوف وكأنه لم يكن.

وصلت إلى أعتاب الخالة « محبوبة » وطرقت بأصابعي عليها بعادة ربما تكون قد نسيتها لانقطاع زياراتي عنها لسنتين ، تساءلت إن كنت قد أدركتها حية؟ أم ماتت هي الأخرى لينقطع أملي في إخفاء فضيحتي كما أخفي فتنتي؟

ولكنها خرجت إليّ بعين ضاقت من قسوة أشعة الشمس التي أحاطت بوجهي فأخفته ، رفعت طرحتها السوداء التي تزعم أنها ولدت داخل خيوطها منذ سبعين عامً ا ، وقد أهدتها القابلة إلى أمها بعد الولادة ، وحجزت بها أشعة الشمس وما أن رأتني حتى ارتعشت تجاعيد وجهها فرحً ا واحتضنتني ، كانت الوحيدة التي تميز ملامحي أسفل كل تلك الأسوار السوداء .

نطقت في لهفة: فاطمة! لقد.. أين.. أين كنتِ طوال تلك الفترة يا ملعونة؟!

بالطبع قالتها مازحة، وبالطبع كانت تعرفني باسم فاطمة، وبالطبع كنت أستحق ما قالت..

دخلت إلى بيتها في ابتسامة حنين لجدرانها الدافئة حتى وإن كانت شبه متهدمة ، وقبل أن أخلع الحبرة ، لمحت حركة مريبة بإحدى غرف البيت المظلمة ، فانتفضت في امتناع ، لكنها ابتسمت وربتت على فخذي : لا تقلقي .. إنها عائشة حفيدتي ، ثم همست : الدار أمان .

خرجت عائشة بوجه محايد لم أتبين ما كان وراءه ، فكانت ابتسامتها جامدة وهي تتأمل ملامح وجهي المختبئة خلف الحبرة ، وأومأت إليّ في احترام مصطنع علمت حقيقته تمامً ا .. فلقد عاشرتُ شبيهه طوال حياتي ..

بدت من انحناءتها القصيرة ، ووجهها البارد ، وتعانق أصابع كفيها أمام رجلها أثناء سيرها بحكم العادة .. أنها خادمة لدى أحد الباشوات ، وعندها آثرت ألا أفضح نفسي أمامها ، فربما ضاجعته ولمحتني ، وربما سأضاجعه وتراني .

مالت على وجهي تلك العائشة بنظرة لم تغادر عيني ، ومدت يدها خلف جلستي وسحبت حقيبتها وهي تحدث جدتها في سخرية حانقة : الحزينة نامت يا جدة .. سأعود إلى السراي الآن .. وغداً آتيك بالخبر اليقين ..

لم أهتم بغموض حديثها ، وراقبتها حتى اختفت خلف الباب الخشبي القديم في رحيل ، وعندها خلعت الحبرة : أي حزينة تقصد يا خالة؟

تنهدت في أسى : آاااه .. مسكينة .. إنها غانية من بيت ضاحي .. كشفوا عليها بالحوض المرصود فتبينوا مرضاً يمنعها من معاشرة الرجال .. فأبطلوا رخصتها .. وطردها ضاحي لعنه الله إلى الطريق فلجأت إليّ .. وها هي على تلك الحال من يومها .. لا تستيقظ إلا لتبكي وتنام ..

شعرت بالأسى تجاه الغانية الفقيرة ، فلم تلق حظي .. أنا الغانية الأميرة ، أفعل ما أفعل ولا ألقى عقاباً لا بمرض يجبرني على التوقف ، ولا بقبض يخلصني من حياتي .

ثوان من الصمت قضيتها في شرود ، فاقتربت مني الخالة محبوبة في بطء وخوف من إجابة سؤالها القادم : أهو حمل آخر يا فاطمة؟

لم أجبها إلا بالصمت فكانت أبلغ إجابة ، فأحنت رأسها في حزن وقالت : ربما تموتين يا فاطمة .. الأمر خطير يا ابنتي .. حتى وإن نجح .. أخشى إن أسقطت الجنين هذه المرة أن يحرمك الله من نعمة الإنجاب ..

أجبتها وأنا أخلع ملابسي في لامبالاة وكأني أتعجلها : لقد حرمني الله من نعم أخرى .. فلتسرعي يا خالة من فضلك ..

ربتت على فخذي مرة أخرى فتوقفت عن خلع الجلباب الأسود وهو يعبر رأسي فلم أر إلا سواداً : الرضا يا ابنتي .. الرضا ..

همست لنفسي وعيني تسبح في السواد اللانهائي: بل الموت قبل الرضا!

كانت الخالة محبوبة كبيرة ممرضات الحوض المرصود قبل أن تلزم بيتها للشيخوخة ، واعتدت منذ سنوات على اللجوء إليها لإفراغ أحشائي من حمل مَ ن أضاجعهم ، ولاسيما ما يفتك بها اليوم من ماء مصطفى باشا القذر ..

أغلقت الخالة النوافذ لحبست ضوء النهار ، وأشعلت عدة مصابيح زيتية أدفأت الأجواء بضوئها الأصفر المتمايل ، وافترشت الأرض بغطاء قماشي شديد النعومة واعتذرت عن عدم استخدامنا الغرفة الداخلية لاستحواذ من وصفتها بالمسكينة - وكذلك عائشة بالحزينة - عليها ، وبدأت في هدوء عملها المعتاد ..

زفرت بخاراً ساخناً من فوّهة كوب زجاجي امتلأ عن آخره حتى أوشك أن يفيض بمشروب غريب أسمته « الحرمل »، وحاولت في حنان كان أقرب إلى الشفقة إطعامي أولى رشفاته . انتفضت من مرارة طعمه كالعادة في المرة الأولى ، ولكن ما لبثت أن أجبرت نفسي تحت نظراتها الحزينة على تجرّعه كاملاً دون أن أطرف . شعرت كما أشعر دائماً وأنا أشربه ، وكأني أستحق مرارته . كانت كل قطرة تشوّه لساني كجلدة زيتية من سياط أجلد به نفسي ، وكأني أكفر عن كل لحظة قضيتها منفرجة الساقين لشهوة الرجال . كانت رقبتي تنتفض لتدفقه داخلها ، تماماً كما كانت تنتفض صراخاً تحت ضربات ذكورتهم لزهرة أنوثتي .

انتهيت أخيراً ، فانفرج صدري لشهيق عنيف كان أقرب لصرخة خروج الروح ، وسقطت أرضاً وأنا أسعل في هيستيرية كمن اختنق حلقها بجنين غير مكتمل وآثر المسكين على الخروج من بين شفتيها بدلاً من تحتها . ضربت الخالة على ظهري عدة مرات ، ونفخت في وجهي المنتفخ بالاحمرار وهي تتمتم بآيات الرحمة .

هدأت انتفاضتي تدريجيً ا ، وعادت أنفاسي رويدً ا إلى سرعتها الطبيعية ولم أسلم من حشرجة أصابت صوتي لعدة أنفاس أخرى . وعندها ، مال جسدي أرضً ا في سكينة هادئة حتى تمددت تمامً ا وقد غابت عن عيني ملامح الغرفة ، فبدا السقف ناعمً ا بذلك الضوء الذي كان يخفت متراقصً ا بين فتحات الستارة المترنحة مع رياح شهر آذار اللطيفة ، واختفت تعرجات الجدران وتشققاتها ، فظهرت ملساء باسمة كلوحة رخامية لامعة . وتسرّ بت الأصوات المتداخلة من باعة الحارة الجائلين وصراخ أطفال الجيران وطرقات عمال النحاس ببطء حتى هانت على أذني واختفت . ولم يبق إلا صوت أنفاس الخالة .

«هيا يا خالة»..

همست لها في استسلام وقد اهتزت اللوحة الرخامية أمام عيني بموجة مرتعشة من الدموع حاصرت جفنيّ. لم تجب الخالة ، فأعدت عليها الأمر وقد بدأت حمّ ى البكاء في الفوران ، وقد انحرت دمعتان خرجتا من عيني على جانب وجهي حتى طالتا الأرض : « بالله يا خالة »..

تنهدت الخالة وهمست باستغفار أخير واقتربت من نومتي الأرضية ، ووضعت يُ مناها على جبهتي وهي تبتسم « والله ما امتلأ قلبي بحب أحد كما امتلأ بحبك يا ابنتي ». أغمضت عيني لها دون رد ، فشعرت بيسراها وهي تعتلي بطني ، وأصابتني رجفة خوف لا إرادية عندما أحسست بأصابعها وهي ترفع عباءتي حتى بات بطني عاريً ا . بدأت الخالة في تدليك بطني في حنان ناسب عبارتها السابقة ، بينما انهمكت في مقاومة تلك الرجفة التي أصابتني دون أمل في ردعها .

مرت دقائق ، فغفلت حتى عن عبور يدها من بطني إلى بين قدمي . أحسست باقتراب الأمر ، فغابت الرجفة وحلت محلها برودة الاستسلام ، فسكن جسدي حتى أصبح وكأنه بروز من تعرّ جات الأرض الجامدة ، لا حياة فيه . كنت لا أزال مغلقة العينين ، وظننت وكأن الخالة تمنّ

ت أن أكون قد غبت في نوم غريق ، فسمعت صوت اصطدام خفيف لشيء معدني لسعتني برودته بمجرد أن لامس فخذي . فعرفت أنها النهاية .

فتحت عيني وقد تمنيت أن تكون تلك هي النهاية الحقة ، وأن الموت سيختم تلك المسرحية الهزلية بقسوته الحنون ، تمنيت أن يخلّ صني مما أنا فيه ، وارتأيت أن يفعل وعيني معلقة على آخر مشهد من مشاهد الدنيا ، مجرد سقف شبه مظلم .. أرهقه الزمن .. حتى بات عجوزً ا ينتظر الموت مثلي .. فيسقط على رأسي متممً ا مهمة القدر المقدسة .

تخلت الخالة عن حنانها الحذر وبدأت تعتصر بتلك الآلة الحادة اللحم الميت لمهبط شقائي ، فبدأت متسلسلة الألم في التجسد ، فزحفت صعودً ا كحية آلمني ارتعاشها ، فعبرت بطني ودقت طريقها بين نهديّ حتى اعتلت صدري ، وما أن وصلت إلى رقبتي وقد ظننت أنها ستخنقني بضربة مؤلمة ، حتى توقفت .

غابت متسلسة الألم كهدوء مفاجئ لرياح اعتادت أن تكون طارحة لأعمدة الأشجار . وبين لحظة وثانيتها ، سكن كل شيء ، فكان حقً ا هدوءً ا يسبق العاصفة .

وضربت العاصفة . شعرت بطعنة القضيب المعدني وهي تخترق أحشائي ، فأطلقت رغمً ا عني صرخة اهتزت لها جدران البيت الفقير . ارتمت الخالة مبتعدة في هلع . واصلت الصرخة العالية حتى تقطعت أوتار حلقي وغاب الصوت عنها ولم يبق من آلامي سوى عنق أحمر مشدود العروق ، وفاه فغرته عن آخره في ألم أخرس .

«نااار يا خالة! نااار!».

رأيت الخالة تنتفض ابتعادً ا عن رجليّ المفتوحتين والدم يغرق كفيها ، فزاد ما رأيته منها من هلعي ، فارتفعت صرختي التي اختلطت بندائها المذعور :

«بركة! انجديني يا بركة!»..

انتفض جسدي انتفاضة بدت أخيرة حتى عصف التعب المفاجئ بأعضائي ، واستسلمت لإغماءة لم أحاول مقاومتها . وكان آخر ما رأيته وجهً ا ربما كان أجمل من وجهي للفتاة التي كانت تفترش الغرفة في حزن ، وهي ترتمي على جسدي في ذعر في محاولة لإفاقتي ..

تحولت الرؤية إلى ضبابية .. واختفت صورة بركة بين أمواج السواد قبل أن يختفي آخر ما صاح به صوتها الناعم « يارب ! ما للولايا من نصير إياك !»..

***

ظن الجميع أني سافرت كعادتي إلى أوروبا ، ولم يلحظ أيّ منهم غيابي ببيت الخالة محبوبة لأسبوعين . حتى زوجي السكّ ير ، لم يكلف نفسه عناء الرد عن سمعتي عندما تهامس المشككون عن حقيقة سفري من عدمه . بينما نجحت الخالة وصديقتها بركة في إسعافي ، وأصرّ ت على عدم مغادرتي بيتها قبل أن أسترد بعضً ا من عافيتي ، فاستجبت لها وكأن مطلبها وقع من قلبي موقع الرضا ، بل والرجاء أيضً ا . فما أردت دومً ا إلا الابتعاد عما آلفت من حياة ولو كان بموتي ، فبدا أن القدر قد استجاب لمطلبيّ بالابتعاد والموت ، فأماتني لدقائق وما لبث أن أحياني مرة أخرى بإجبار على ما تمنيت من حياة جديدة .

تحولت خلال تلك الأيام القليلة إلى امرأة بسيطة من نساء المحروسة ، فتعلمت من الخالة محبوبة طبخ الطعام ، وتنظيف الأثاث ، وإطعام البط أو كما تسمّ يه « تزغيط »، ودون وعي .. تصادقت أنا وبركة وقد وجدت كلٌ منا في الأخرى نسخة مختلفة المعالم من أصل واحد للمعاناة .

وكما تمر لحظات النشوة كطرفة عين اشتهيت سابقً ا طرق قلوب الرجال بها ، انتهى الأسبوعان ، واضطررت للرحيل ، وشعرت بالندم حقً ا فور أن غادرت البيت ، ليس فقط لرحيلي عنه ، وإنما أيضً ا على إفصاحي لبركة بحقيقتي العَ لَ ويّ ة . وبالرغم من قسَ مِ ها أنها لن تكشف السر حتى للخالة نفسها ، فإني لم أعد أثق بالأقدار كما يثق العجين بطرق خبّ ازه ، كما اعتادت محبوبة أن تقول .

لم أفهم حتى المقصود بهذا المثل الشعبي.. ولكني حفظته.

عدت إلى قصر الأميرة ألفت كعادة كل شهر للتجمع حول أحاديث النميمة التي اعتدت أن أكون جزءً ا منها ، لولا إصرار ألفت هانم على إقحامي بجلساتها لتجبر غيرها من الأميرات على التوقف عن الخوض في سيرتي وأنا بينهن ، وفي غمضة عين .. نسيت فاطمة ذات الملاءة اللف .. وتحولت إلى الأميرة جلنار .. قاتلة أميرات الأسرة الحاكمة من الغيظ .

تحركت في خيلاء اعتدت عليه بردائي الأبيض الطويل الذي لم يبخل زوجي بترصيع بعض من مقاطعه بالألماس ، واقتحمت جلستهن الدائرية في شموخ ، وكما توقعت ، أو بالأحرى أردت ، انتصبت أعينهن تجاهي كأنصال مسنونة ، وبدأت الابتسامة المصطنعة بالتحرك بين شفاههن رغم تأخر بعضها فإن واحدة منهن لم تنطق بكلمة ، فقطعت ألفت هانم الصمت واتجهت إليّ في ابتسامة صادقة هذه المرة .

- كيف كانت أوروبا يا جلنار هانم؟

جلست وأنا أرسم الغرور على كل جزء من قسمات وجهي: أفضل من بعض الأماكن سمو الأميرة..

نطقت إحداهن في خبث : وما الحاجة إلى السواريه يا جلنار هانم؟ لا زال الوقت باكرً ا على المساء .. وعلى .. (ابتسمت في سخف) أعين الرجال لتطال حُ سنك !

نظرت إليها بجانب عيني نظرة لن يطيقها حتى خادم ، وعلّ قت على ملابسها : لست مستخدمة في مصلحة السكة الحديد يا عزيزة هانم لأرتدي ملابس العامة ..

امتعضت عزيزة وهمّ ت بالرد عن نفسها وساعدها على ذلك اعتدال الأخريات في جلستهن باستنكار بالغ لنبرتي القاسية ، إلا أن صوتً ا صدر من خلفي أسكت الجميع وأعاد جلستهن إلى الاحترام مرة أخرى ، ورسم البسمة على وجه ألفت أو بالأحرى الارتياح ، جاءت متأخرة ولكنها جاءت في الوقت المناسب ..

«لن نبدأ المجلس بالعراك يا فتيات.. انضجن قليلًا»..

وما أن عبرت من خلفي واتجهت إلى مقعدها المواجه لمقعدي تماما حتى رأيتها ، كانت ترتدي الملابس البسيطة من الجونلات القصيرة والمعاطف الداكنة ، ولم تنس ارتداء قبعتها القصيرة أسفل إيشاربها السماوي ، لكنها بالرغم من ذلك بدت ذات هيبة طاغية ..

خلعت قفازها الحريري وهي تراقبني في هدوء باسمة : من مثلك لا تحتاج إلى السواريه لتبدو جميلة يا جلنار هانم .. فأنا أظن ، وظني دائمً ا ما يصيب من الحق حقً ا ، أنك لو ارتديت ملاءة سوداء بحبرة كـ « نساء الحواري » ستظلين أيضً ا فاتنة الجمال ..

لم أفهم إن كان حديثها إطراءً أم تلميحً ا لأمر قاتلت لصرفه عن ذهني ، فكان الصمت غالبً ا على ردي ، وعندها تدخلت ألفت مرة أخرى : إنها حورية هانم بهجت يا جلنار !

عاد ألم الحالة المحبوبة ، ولكنه ضرب رأسي هذه المرة ، فأنا أجلس أمام زوجة القواد الذي يعتليني في كل يوم وليلة على فراشها دون أن تدري !

ارتبكت وقد فرت الكلمات من الرد المناسب عليها ، فاستبطأته ، وعندها قررت استكمال حديثها : ومع ذلك لا ألومك .. فأنا أيضً ا كثيرة السفر إلى أوروبا ، وأرى من نسائهم ما يشعل غيرتي بالظهور فاتنة بمعظم الأوقات .. ألا تشعرين بذلك يا هانم؟

أومأت لها في هدوء وقد طعنت قلبي الشفقة عليها ، فهي جميلة للغاية وإن طالت منحنيات الزمن من جانب عينيها وقوسيْ ابتسامتها ببعض التجاعيد ، أعلم أن مصطفى باشا لا يضاجعها بل وأخبرني أنه دائم السخرية من أنوثتها كلما اقتربت منه ، فتلجأ إلى السفر معظم أيام السنة هربً ا من خزيها الشخص الوحيد الذي أحبت ..

مساكين نحن النسوة . نتوق إلى الذكور كتوق المؤنث إلى تاء التأنيث .. ولكن ما لهذا الجيل من الرجال لا يعرفون فن الإعراب؟

مضى ما مضى من الوقت ، وتسربت الأميرات الواحدة تلو الأخرى بعدما استبطأت كل منهن أخبار ألفت عن القصر وميعاد حصة كل منهن في الراتب الذي أمر به الملك لكل أميرة من الأسرة العلوية ، ولم يبق بعد عدة أباريق خزفية من الشاي سوى أنا وحورية هانم .

تجاذبنا أطراف الحديث وحوافه في كل الاتجاهات ، حتى تخلينا مع الوقت عن رسمية الكلمات الرنانة ، وارتاحت إلى كلماتي فأفضت إليّ بالكثير مما أعرفه مسبقً ا .. وأخيرً ا تطرقت إلى حكاية « فرج » وأمه القروية « نعمة »..

تنهدت في حزن : يعلم الله أني لم أرغب لهما بتلك الحياة خدمً ا تحت قدمينا أنا ومصطفى باشا ، ولكنه لا يعرف الرحمة ، وما أن عدت من السفر حتى فوجئت به وقد أرسلهما إلى البلد مرة أخرى وسافر بدوره ..

اصطنعت الجهل بالأمر: وهل علمتِ ظروف قراره بترحيلهما؟

تهربت من نظراتي فعلمت أنها سوف تكذب بما يحفظ ماء وجهها : اا .. لم .. لم أعرف بالضبط .. ولكن ما أعرفه أن المسكين فرج فنان حقيقي حتى في هذه السن الصغيرة .. بل أراه عبقري ً ا .. وأبوه يرفض أن يرسله إلى الخارج لدراسة فنون الرسم كولدي محمود .. (ثم أكدت مسرعة) اا‌ا .. ولدي محمود يدرس الطب بالطبع !

اعتدلت في يأس من أحوال الدنيا ، وتحولت دون أن أدري إلى الخالة محبوبة : إنها الأقدار يا هانم .. وليس لأي منا إلا أن يقبل بها .. لماذا في رأيك سم ّ يت بالأقدار؟ لأنها تقدر على من يصارع مشيئتها ..

راقبتني في حيرة بسيطة أزالتها سريعا من على وجهها وأومأت في موافقة : نعم .. معك حق .. ولكن بيدنا أن نعبث بها قليل ً ا .. أليس كذلك؟

راقبتها في تعجب وهي تنفعل في حماس طفولي بعد سؤالها الأخير ، فاقتربت مني في همس لا تسمعه ألفت التي غابت لمقابلة زوجها خارج غرفة الاستقبال التي احتلتها حورية وشاركتها ذلك الاحتلال : اا .. سأثق بك دون ً ا عن الجميع وأخبرك بسر ، إن خرج من بيننا .. ربما تكون نهايتي أسوأ من نهاية المسكينة نعمة ..

أشرت لها في طفولة موازية افتقدتها منذ سنوات بعيدة بأن سر ّ ها في أمان ، وأشرت إليها كما فعلت « بركة » عندما أخبرتها سر ّ ي ، قبضت الهواء وأسقطته داخل حمالة صدري في صمت وطرقت عليه في قوة ، ولكن لم أقل ما قالته « سر ّ ك الآن بعب ّ ي !».

أطلقت حورية ضحكة عالية ، فابتسمت وقد تناسينا ما بنا من هموم ، وزادت من قربها مني في حماس وقالت : لم يعلم مصطفى باشا أمر ً ا عن قصر أفندار والذي ورثته عن أمي .. وبالرغم من أنه قديم وشبه متهالك فإني قررت وهبه لفرج ليتخذه من دون أمه حتى .. مكان ً ا لفنه !

تحجرت رقبتي فلم ترتد للخلف من صدمة الخبر ، لم أعرف حينها ما الذي أدهشني حق ً ا ، سذاجتها البالغة لتوهب قصر ً ا إلى فلاح يظن أنه دافنشي الجديد؟ أم براءتها غير المفهومة التي

ضربت بكل قوانين المنطق عرض الحائط ..

كانت إجابة السؤالين واحدة .. وكانت تلك الإجابة هي السر الذي دفع بزوجها من مجرد موظف للري إلى باشا بالحكومة المصرية ، فربما عهدت إليه بإدارة أملاكها وقتما وقعت في حبه ، وبنفس هذه السذاجة وبشبيهة تلك البراءة .. امتطى أكتافها وصار إلى ما صار إليه من نفوذ ..

راقبت تعبيراتي في وجل وارتعش صوتها: مـ... ما بك؟

تخلصت من تحجري المؤقت واعتدلت في ابتعاد عنها وقد بسطت حاجبي في تعجب : لا أعرف إن كنتِ تعنين ما تقولين ..

عادت إلى حماسها مرة أخرى : أعرف أنك ربما تظنين أني خرفة طال العجز منها العقل .. قبل خصيلات شعرها .. ولكن .. لماذا نفكر مرتين قبل أن نهب من ليسوا منا ما يستحقون؟ أكنت سأتردد لو كان ابني محمود هو صاحب تلك الموهبة العبقرية؟ كلا بالطبع .. كنت سأهبه كل ما أملك عن طيب خاطر ..

حاولت نصحها : أجل ولكن ، ذاك الشاب الذي تصفين ليس ولدك .. إنه فلاح .. وما تفعلينه ربما يعتبره الجميع نوعً ا من السفه ..

اقتربت من وجهي في تعجب: ومن الذي سيخبر الجميع؟!

- نعم؟!

- كما سمعتِ .. أخبرتك أنه قصر مهجور .. طال عليه الأمد دون بيع أو سكن .. حيث ظنت أمي أن جدرانه مسكونة بأرواح الرومان منذ أن حكموا مصر .. فهو عديم القيمة .. فلمَ أذيع في الناس بأني سأهبه ذلك المسكين؟ فليستخدمه .. ويعتبرها هدية أعوضه بها عن الشقاء الذي نال من حياته بسببي وولدي .

سمعنا خطوات ألفت المترددة وهي تقترب من الغرفة التي أظلمتها عتمة الليل ، وعلمنا قبل أن تظهر أنها تشعر بالحرج من محاولة طردنا من بيتها وقد اغتصبنا هواءه طوال النهار ، فأومأت لحورية في موافقة على ما قالت ، واستعددت للنهوض وأنا أفكر في مصيبتي القريبة ..

مضى أسبوعان على الأسبوع الذي منحني إياه مصطفى باشا للإيقاع بكامل باشا الحداد .. ولم أكن قد اقتربت من الرجل بعد !

وبينما تحركت في شرود وخوف من عقاب الباشا ، على تقاعسي عن أداء وظيفتي المشينة ، وقد اقترب موعد عودته من الأستانة ، حتى انتبهت على لمسة من كفها الناعم مرة أخرى ، تمنعني فيه من الرحيل بمطلب أخير ..

«أرجو أن تقبلي رغبتي يا جلنار هانم!».

جلست مرة أخرى واستمعت لمطلبها الغريب، الذي لم أظن حين سمعته أنه سيجلب علي كل تلك المآسي..

ليت الموت قد نال مني وأنا أنازع تحت يديْ الخالة محبوبة ، أو حتى قتلني الباشا عندما علم بفشل مهمتي مع كامل الحداد .. فربما كان ذلك أكثر رحمة مما أصابني .. لمجرد أني نطقت بالموافقة على رغبة حورية اللعينة .

آي نهاية يا جلنار؟

-٦-

عزيز بِك قاسم

١٩٤٩

«اعترفت لي بالحقيقة كاملة.. قبل أن أنال منها قبلة واحدة»..

قالها كامل باشا وهو يرشف رشفة مرتعشة من كوب الشاي الأحمر الذي أعددته له في صعوبة ، حيث أصر على أن يشربه في كوب زجاجي كمقاهي المحروسة البسيطة بدلاً من أي فنجان أنيق امتلأت به خزائن مكتبي الفاخر ، سألته عن السبب .. فأطرق برأسه في ابتسامة حزينة وقال : كانت عادتها .. وها أنا أحييها ..

لم أظن يوماً أن علاقة سوية قد تنشأ بيني وبين كامل باشا ، فلطالما كنت بالنسبة له زوج الابنة التافه ، ولطالما كان في عيني الحمو الساخر من طموحات وأقدار زوج ابنته ، ولم يكن بيننا من رابط سوى ليلى .. الضلع الأعوج في مثلث الجحيم الأسري .

ولكن ما أن لجأ إليّ بعد انتحار جُلنار حتى نجحت قصتها في إزاحة ليلى من كونها رابطاً بيني وبين ذلك العجوز ، وأصبح شغفي وراء معرفة ما حدث لجلنار ، ورغبة الباشا في الثأر لها رابطٍ اً جديداً تمسك به كل منا ، وأعلى من شأنه فوق مشاعر السخط المتبادلة بيننا .

بالطبع لم أنتظر من كامل باشا أن يتحول في يوم وليلة هو الآخر إلى صديق حميم يثق باحتوائي لأسراره دون خيانة ، ولا يخجل من البوح بأدق تفاصيلها دون حُكم مُسبق أطلقه على أفعاله ، ولكنه وقد مر أسبوعان كاملان على جلساتنا السرية ، كان قد اعتاد على جلستي .. بل وأدمنها حقًا ، وهذا ما حاولنا إخفاءه عن ليلى .

ففي النهار وبين جدران قصر ليلى ، يحترف كامل باشا دور الحمو السخيف الذي يمطر زوج ابنته بالتعليقات الساخرة من أعماله ، وكذلك اتخذت من تزييفي السخط منه ، مهنة أمتهنها في مهارة عالية ، وفى الليل وبين جنبات مكتبي المظلم ، نتبادل الحكايات بل والمشاعر أيضًا ، فيفضي كل منا إلى الآخر بما يشعر ، تحت مظلة حكاوي جلنار طوسون .

وفي كل مرة كان ينطق فيها بأمر يخص جلنار ، حتى أندمج معه في عالمها الخاص ، وكيف كان ساحرًا مليئًا بالتناقضات ، وألعن الظروف التي أودت بحياة امرأة مثيرة كتلك الراحلة .

أخبرني الباشا سابقًا أنه رأى تلك الفتاة التي قتلت جُلنار ، وما أن قالها حتى انقلبت بوصلة التفكير العلمي داخل عقلي ، فلم تعد تلك الفتاة الغامضة مجرد هلاوس بصرية لأحدهم ، بل تحولت إلى خيال غير مفهوم يطارد عددًا من الأشخاص ، وهو ما رفضه المنطق ، وابتعدت نظريات العلم عن تصنيفه .

أدار كوب الشاي الساخن بين كفيه في تحركات متتالية وهو ينشد دفئًا لأطرافه : كنا نتقابل بقصر أفندار .. وجاءتني في مرة بملاءة لف وحبرة .. وما أن دخلنا مخبأها السري حتى أصرت على أن تكون ليلتنا شعبية .. بسيطة .. ليلة حب بين - كما أطلقت على نفسها - شابّة تدعى فاطمة .. وكما أطلقت عليّ .. جدع اسمه « عطوة »!

ضحك عدة ضحكات قصيرة في حنين لتلك الليالي ، أتبعها ببسمة حزينة فابتسمت ونظرت أرضًا دون مواجهته حتى يكمل بلا خجل : وأصرّت على أن أشرب الشاي في أكواب زجاجية

كالجدعان ، بينما تدلك هي قدميّ في طست من الماء المملح .. ااااه .. كانت أسعد ليالٍ في حياتي ..

شردت في تلك الحياة التي اختارتها جُ لنار سرً ا ، وعلمت على الفور تشخيص حالتها بالنفور من حياة القصور والحنين إلى عيشة البسطاء ، وقد نجحت في استدراج الباشا إلى تلك البيئة هو الآخر ، فتخلى عن باشويته ذات الهيبة الزائفة أمام من حوله ، والتي يمجده الناس من أجلها ، وشعر لأول مرة برجولته الحقة عندما تتخلى من يحب عن كبريائها وتجلس تحت قدميه في ذل الخادمات لتدلك قدمه طواعية ، كان يفتقد حقً ا إلى ذلك الشعور .. ونجحت جلنار في إهدائه إليه .

وبالرغم من استمتاعي بما كان يقصه عليّ من تفاصيل حميمية شعرت أنا أيضً ا بالحنين إليها وكأنها أسرتني ، وبالرغم من خوفي من مقاطعته ، لكن ذلك السؤال كان يُ لح في استفزاز بصوت رخيم داخل رأسي ، ولم يكن هناك بد من التخلص منه إلا بإطلاقه بوجه عطوة باشا : ولكن .. معذرة يا باشا .. أخبرني بالتحديد كيف بدأت تلك الخيالات في الورود إليها؟

أخرج سلسلته الفضية من جيب صدريته واصطنع امتعاضه من تأخر الوقت ، فابتسم كعادة اكتسبها خلال الفترة الأخيرة قبل أن يكذب بعذرٍ يجنّ به الإجابة عن سؤالي : لقد تأخر الوقت .. فلنكمل غدً ا ..

ونهض متجهً ا إلى غرفة الحمام الصغير الخاص بمكتبي ووضع كوب الشاي بالحوض في عفوية وتحرك للمغادرة ، بينما لم أحرك أنا ساكنً ا ، وانقسمت تعبيراتي الباسمة في دلالتها إلى طرفي نقيض : احترام كاذب لرغبته في الرحيل .. وسخرية حانقة من فشلي في استدراجه إلى ما أريد سماعه بدلً ا من أن أكون مجرد صفحات بيضاء يخط عليها كل ليلة بعضً ا من ذكرياته لينعم بنوم هادئ للصباح ليس أكثر ..

ء ً ء

علمت حينها أني لست ماهرا في عملي كما أظن..

رحل الباشا وهو يؤكد عليّ حضور جلسة الغداء مع ابنته ليلى حتى وإن لم أعد أبيت في فراشي ، فقط من أجل إجابة رغبتها ، فأومأت له بالطاعة ، وتحرك باسمً ا بلمحة من شفقة غامضة أحسست أنه يشعر بها تجاهي .. وكأنه كان يقرأ أفكاري ويسمع كم اللعنات التي أطرق بها رأسي لاعنً ا فشلي في الحصول على ما أريد .

وكعادتي في الليل منذ تركت قصر الباشا وفراش ابنته ، أغلقت باب المكتب في هدوء لا يُ زعج سكان العمارة التي لم يعد يسكنها منذ أن اشتراها كامل باشا ، سوى راقصة بأحد تياتروهات عماد الدين ، ومجموعة من الشباب الريفيين من طلبة الجامعة المصرية ، واتجهت إلى فراشي الجديد .. المقعد القطني الذي اعتادت قائمته على انحناءة خلفية أوشكت أن تبليه من كثرة تكومي داخله في نوم طويل للصباح .

ولكن في هذه الليلة ، كان النوم أشبه بحكاية غير مكتملة ، لا تكاد تبدأ حتى تنتهي بموضوع يثيرها تشويقً ا ، فأصابني الأرق بالتواءات متكررة على محور المقعد كادت هذه المرة أن تحيل انحناءته إلى تحطم لا إصلاح له ، وعندها علمت أن تلك الليلة لن تنتهي كما أتمنى منذ انتحار جُ لنار .

انتحار جُلنار..

حقً ا هو ما يؤرقني ، فلم لا أفعل كما يفعل كامل باشا؟ فقط أشكو إلى أوراق بيضاء ما يخلب النوم من رأسي ، نهضت وأمسكت بمفكرتي الورقية ، وبدأت في كتابة كل ما أعرفه عن تلك المرأة ، ما فعلته يوم تقابلنا للمرة الأولى والأخيرة ، وما قاله كامل باشا من حكايات غير مترابطة أراد أن يسلّ ي بها ليله .

فلم أكتب إلا سطرا واحدا.. بدا أنه كافٍ لتلخيص حالة جلنار المعقدة..

« جُلنار طوسون .. أميرة علوية .. تشتهي الرجال .. وتعيش حياة سرية كامرأة بسيطة .. فاطمة .. حبرة ويشمك .. للدرجة التي تدفعها لإجبار حبيبها على أن يتحول إلى رجل بسيط .. عطوة .. إسكافي كما رسمت شخصيته الجديدة .. جلنار تعاني من اغتراب تجاه بيئتها .. ربما أدى لرفض لكل ما ....».

توقفت عن الكتابة وقد أطرقت أذني لصوت ضربات أجنحة فكرة ، عبرت أمام رأسي في هدوء يناسب تلك الليلة الساكنة ، همست إليّ الفكرة بشيء بدا منطقيًا للغاية لحالة جُلنار ..

« من تنشد حياة البسطاء .. لابد أن تنجذب إلى البسطاء ممن حولها رغمًا عنها حتى وإن حاولت التظاهر بالعكس .. فمن ممن حولها ربما يكون الأقرب إلى هذا التصور؟ »..

رفرفت الفكرة في فزع بعيدًا عندما طرقت على المكتب في قوة وقد وجدتها ! تذكرت ما قالته ليلى في حوار تكليفها المخزي لي باستجواب جُلنار بما يخص علاقتها بالباشا ، وقد أخبرتني أن خادمتها أخبرت خادمتنا عائشة بتلك العلاقة .. فلا يعني ذلك إلا أن تلك الخادمة كانت على علاقة وثيقة بجلنار ، علاقة تختلف عن شكل العلاقات المعروف بين أميرة وخادمة .. حتى تعلم عنها ذلك السر !

ولكن كيف أصِل إلى تلك الخادمة.. دون أن أثير من الشبهات ما يعيدني إلى قبضة القصر مرة أخرى؟

عائشة!

مكالمة متأخرة بعد منتصف الليل أيقظت ليلى كانت كفيلة بإنهاء الأمر : أريد عائشة في الصباح لتنظيف المكتب .. عم سالم في البلد ..

عدة لعنات على إيقاظها ، وضربة عالية لسماعة الهاتف على مهبطها لم أسمع منها غير نصفها لانقطاع الخط .. أكدت لي موافقتها على ما طلبت !

رمح الليل واختفى ، فاستفقت في الصباح على منظر كان غريبً ا ، أقدام تسير على سقف الغرفة وتضرب بعصا سحرية على سطحها فيخرج منها صوت جميل يهمس في إيقاع هامس « زوروني (ثم تنهيدة حنين محترقة) كل سنة مرة .. حرام .. تنسوني .. بالمرة .. والله حرام »..

استغرقت عدة ثوان حتى فطنت إلى حقيقة ما يحدث ، كنت مقلوبً ا في نومتي على المقعد برأس اصطدم بالأرض وأقدام تدلت من أعلى مسند المقعد ، فرأيت عائشة وهي تكنس الأرض في هدوء يخشى إزعاجي ، فاعتدلت في إرهاق وسقطت من على مقعدي بطريقة أفزعتها بضربة على صدرها وركض ملهوف إلى وضع الجنين الذي اتخذته تحت المكتب متكومً ا ..

حاولت حل عقدة ترابط ذراعي مع قدمي في تلك الوضعية: ياللحِزن.. اعتدل يا بِك..

حاولت الاعتدال وأنا أشير لها بأن الأمور على ما يرام كمخمور لا يعلم حالته: حسناً.. حسناً.. أشكرك..

اعتدلت وجلست أرضً ا في إرهاق من ذلك التقوس الذي أصاب عظامي بآلام تفرقت على جميع مفاصله وعضلاته ، كنت أعلم أني أبدو مشردً ا كمجاذيب مساجد الأولياء ، رث الثياب ، أشعث الشعر ، أنظر في بلاهة إلى الفراغ محاولً ا تبيّ ن الخط الفاصل بين الواقع والحُ لم

الذي كنت غارقً ا بين أمواجه ، وعندما لاحظت عائشة ذلك ، انصرفت في خجل إلى عصا مقشتها التي سقطت بلهفتها السابقة وعادت إلى مباشرة عملها في صمت لفت انتباهي .

نطقت لها دون أن أنظر إليها كمحموم أصابه الحرف فأثقل حروف كلماته: لماذا توقفتِ؟

ردت في سرعة تزامنت مع سرعة ذراعيها في العملٍ: أو.. أوشكت على الانتهاء يا سيدي.. حالًا.. حـ.. حالًا..

أشرت إليها في ابتسامة: لا لا.. أقصد عن الغناء.. ألم يكن ذلك الصوت الذي أيقظني غناءً؟

مطت شفتيها في خجل: لا تؤاخذني يا سيدي.. فقط.. كنت.. لـ.. لم أقصد إزعاجك.. بل كنت ااا...

- فقط أكملي غناءك..

-ماذا؟!

راقبتني في تعجب ، فضممت ساقيّ كما يفعل عم سالم بعد الانتهاء من صلاته في « تربيعة » كما يسمّ يها ، وطرقت على الأرض بجواري بباطن كفي باسمً ا : اجلسي .. وأكملي غناءك .

رأيت في عينيها ضيقً ا من مطلبي ، وقد ظنت أني أتقرب منها رغبة في علاقة جنسية أو على الأقل معاكسة تطيل من يدي إلى جسدها ، فأومأت لها : أعرف الفرق بين الجارية والخادمة يا عائشة .. لا تخافي .. فقط اجلسي .. واعفيني من كلمات « لا يصح يا سيدي ».. « مقامك يا سيدي ».. وغيرها .. فقط اجلسي ..

اقتربت في وجل وجلست ببطء وهي تحتضن عصا مقشتها حتى بعد جلوسها: ط.. طوع أمرك يا سيدي..

نظرت إليها في صمت منتظرً ا غناءها في برود ، فتنهدت في خجل ونظرت أرضً ا ومرت دقائق على الصمت ، ساد فيها صوت هواء الصباح ..

قررت أن أبدأ بغناء قبيح الصوت : زوروني .. كل سنة .. مرة .. (ابتسمت من قبح صوتي وضمت كتفيها إلى عنقها في محاولة لكتمان الضحكات).. ها؟ أكملي .. بدلً ا من أهين الأغنية بذلك الصوت أكثر من ذلك ..

همست في غناء خجول ، وتصاعدت نبرتها في تحرر تدريجي مع تدفق الكلمات وبدأت في التجلّ ي وكذلك أنا ، حتى أجبرتني قشعريرة أصابت جسدي على إغلاق عيني في استمتاع بتلك الأغنية العذبة ، حتى وصلت إلى عبارة فتحت عليها عيني في بطء باسم ..

«يا خوفى.. والهوى نظرة.. تيجي.. وتروح بالمرة..».

كانت « الهاء » في كلمة « الهوى » تخرج منها بتنهيدة أشبه بصلاة خاشعة تطلب فيها ضمّ ا لروح فارقتها ، فراقبتها مشدوهً ا بذلك الإحساس الفطري الذي شب بأصابع جريئة فوق أسوار

الباكاوات والخدم ، فلمحت بطرف عينيها تعلق عنقي بوجهها وتحركاتها المائلة مع منعطفات اللحن الذي تشدو به ، فأسكتها الخجل بعد أن أفسد بضعة حروف من نهاية الأغنية ..

هربت ببصرها إلى أنحاء الغرفة فابتسمت: لديكِ صوت جميل يا عائشة..

أومأت سريعًا بطريقة متكررة في ذل: تِسلم يا سيدي..

اعتدلت ورسمت برجليّ زاوية قائمة وقد أقمت إحداها وفردت الأخرى أرضً ا مستندً ا على الحائط خلفي ، وبدأت ما خططت له من حيلة : تذكّ رينني بامرأة لم أسمع مثل صوتها في حياتي .. أظن أنك كنتِ تعرفينها .. الأميرة جُ لنار ط ...

وقبل أن أكمل الاسم الثاني ، لمحت انتفاضة خفية بيدها في فزع مستتر ، ودارت عيناها داخل جفنيها في حركات متوترة فأكملت : هل سمعتِ غناءها؟

نهضت لاستكمال عملها في تهرّ ب واضح : هه؟ .. لـ .. لا .. (ابتسمت في توتر وهي تزيل الأتربة في عصبية القلق) و .. وكيف لمن مثلي أن تسمع غناء الأميرات يا سيدي؟

أمسكت بغليوني من أعلى سطح المكتب في صعوبة وضبطت التمباك داخله في صمت أردت أن يزيد من توترها : على كلٍ .. كان صوتها جميلً ا كمحيّ اها .. أعطني عود كبريت ..

أسرعت إلى المكتب تبحث مسرعة عن أعواد الكبريت واتجهت إليّ فنظرت إليها منتظرً ا أن تشعله لي ، فمالت بقامتها على جلستي في توتر أرقَ ص شعلة النار الصغيرة ، خرجت الأدخنة تعيق اقتراب وجهينا فواجهتها : ربما لم تسمعي غناء الأميرات .. ولكن بالقطع .. سمعتي غناء فاطمة !

حدّ قت بوجهي في صدمة ، وزحفت شعلة النار حتى التهمت عود الكبريت الخشبي فلدغت يدها بحرقة موجعة أطلقت لها شهقة عالية . انتفضت مبتعدة وهي تُ لقي بالعود الأسود أرضً ا وعادت إلى عملها في صمت متوتر .. بينما أكملت في هدوء مستفز لم يتصاعد على الإطلاق ..

- لا داعي للكذب يا عائشة.. فجلنار أخبرتني بكل شيء..

-و.. ومالي وما أخبرتك به يا سيدي.. اا.. أنا لا أعرف شيئًا..

-بل تعرفين.. متى قابلتِ فاطمة تحديدًا؟

-سيدي ااا..

-الخادمة تطيع.. والجارية تُجبر يا عائشة.. أيهما تفضلين؟

توقفت عن العمل في تنهيدة متقطعة ، واهتز جسدها لبوادر بكاء حاولت كتمانه حتى عقدت يديها على رأس المقشة وأسندت جبهتها عليهما ، وعندها أطلقت العنان لبكائها . نهضت إليها محاولً ا الحفاظ على هدوئي ، بينما كانت ضربات قلبي تتصارع للخروج من فرط الحماس لما ظننت أنه أول الخيط ..

ربت على أعلى ذراعيها في لطف: لا تقلقي.. لن يعرف أحد أنكِ...

ارتمت في أحضاني في بكاء الأطفال فانتفضتِ من المفاجأة ولكني حافظت على هدوئي: يا.. يا مُرّك يا عائشة!

- تحدثي..

رفعت عينها معتدلة وهي تمسح بمنديل رأسها ما لطخ شفتيها من مخاط البكاء : كانت صدفة .. رأ .. كنت عند الخالة .. محبوبة و ... و ..

أكملت لها في مواساة على البكاء: تلك الخالة التي جاءت لـ «ليلى هانم» بالزاد الريفي؟

أومأت باكية : نعم .. كـ .. كانت .. قـ .. قضت معها الأميرة .. أسب .. أسبوعين .. و .. لم أظن أن .. أقسم لك يا باشا .. أن ليلى هانم هي من أجبرتني على ..

سقط قناع الهدوء الذي حاولت إلصاقه بوجهي طوال استجوابها ، بل عقدت حاجبي في حيرة لذلك الأمر الجديد : ما الذي أجبرتك عليه ليلى؟

لاحظت جهلي فابتعدت خطوة وهي تمسح دموعها في ريبة: إذا أنت لا تعرف!

ضرب الدم وجهي بقبضة مؤلمة فتسرب الغضب: تحدثي يا عائشة!

ابتعدت عني في لهفة ، فأحاطني غضب الفضول بهالة غير مرئية من السخونة ، فتحررت منها باندفاع غشيم تجاه عائشة ، فألصقها اندفاعي بالمكتبة وقد ارتطمت بها وتناثرت عدة كتب من عليها أرضً ا وأمسكت بكتفيها صائحً ا : ما الذي فعلته ليلى بجُ لنار تحدثي !

صرخت في بكاء: لا أعرف شيئا! ستقتلني إن أخبرتك! ابتعد!

التصقت بجسدها بعين جاحظة وشر لم آلفه قط: بل سأقتلك إن لم تفعلي!

حاولت الهرب ، فمنعتها بجسدي وقد ألصقت خصري بخصرها ورفعت ذراعيها فوق رأسها بقبضة قيدت تعاقد رسغيها فصرخت : ابتعد عني !

«عزيز!»..

أصابني النداء بطلقة استقرت بمؤخرة رأسي ، كان نطقً ا غليظً ا لصوت حاد أصابني بالشلل للحظات نخارت قبضتي من على رسغيْ عائشة ، فشهقت وضربت فمها في صدمة وهربت عابرة جسدي ، بينما وقفت أنا كتمثال حجري اعتاد أن يكون بشريً ا لولا أن لعنه النداء وحوّ له إلى حجر !

اقتربت ليلى من وقفتي بأنفاس ساخنة أحرقت بها رأسي ، فتنهدت واستدرت في مواجهة إليها ، وعندها رأيت نظرتها الغاضبة أسفل ستار قبعتها الشبكية الفاخرة : ترفض جسد الأميرات .. وتشتهي عجائن الخادمة؟

عبرت وقفتها في لامبالاة : توقفي يا ليلى .. لم تكوني قط من الأميرات لأرفض جسدك .. فلتنضجي قليلً ا .. لم يكن الأمر كما تظنين ..

جلست على المقعد الملتوي ، وأشعلت التمباك لغليوني فأقبلَ ت : لماذا تفعل بي ذلك .. وجرمي الوحيد هو حبي لـ ...

قاطعتها في ملل وعين مغتربة وأنا أضرب الهواء بعود الكبريت لإطفائه : عودي إلى القصر .. ولنؤجل عراكنا لوقت أتمكن فيه من اصطناع الخضوع أمامك درءً ا للمصائب !

أومأت بعنقها في رفض غاضب وصوت هامس: كلا! أنت ملكي.. ولو أردت أن نتعارك الآن.. فسنتعارك الآن..

ابتسمت في ضيق وهمست بما سمعَتَه: مختلة!

بسطت حاجبيها في دهشة : مختلة؟ ! عزيز ! (نظرت لها في لامبالاة).. أريدك أن تعلم أنك كنت الوحيد في المحروسة كلها .. من جنّ بته لقاء ليلى هانم الحداد على حقيقتها .. أترفق بك .. بل وأخضع إليك .. ولا تعلم حقً ا مقدار المجهود الذي أبذله لكي أحني رقبتي أمام تافه مثلك .. فقط لأني كنت أحبك ..

أصابتني نشوة التمرد ، فرفعت رجليّ على المكتب وعقدتهما في ارتياح حتى واجهت قدمي العارية وجهها وأنا أسحب أنفاس الغليون في استمتاع : كنتُ .. وكنتِ ؟ بدأت أعتاد على صيغة الماضي في حديثك ..

- ضيّعت الحاضر بحماقتك!

-على العكس.. بل تلك الصِيغة تضمن لي مستقبلًا عظيما..

-ألهذه الدرجة ترغب في التخلص مني؟!

-لهذه الدرجة لم أعد أرغب في أي شيء منك.. لا بقائك ولا رحيلك!

كنت أعني حديثي وأشعر بالفخر أني تمكنت من مواجهتها بتلك الكلمات القاسية ، ولكن .. لم أفهم لماذا شعرت بالندم وقد رأيت وجهها والزرقة تسلب منه الحياة ، حتى انتفخ جفناها لدمعة

استعصى على ليلى هانم الحداد إسقاطها ، فتبدل عزيز الزوج القاسي إلى عزيز الطبيب المرهف الذي شعر بهوة عاطفية محزنة تمدد بقلب جليسته ..

تنهدت في ندم بسيط ووضعت الغليون على المكتب: ليلى ااا...

قاطعتني في ضحكة عالية تعجبت لها : كلا كلا ! لا تعتذر .. إنها مشاعرك .. وحياتك .. بل وزوجتك .. ومن حقك أن تفعل بهم جميعً ا ما تشاء ..

أخفضت نبرتي في اعتذار لما وجدته منها من بوادر جنون وشيك: ليلى ليس الأمر كما تظنين و...

قاطعتني وهي تخلع قبعتها في قوة : وأنا أيضً ا ! لي الحق في الإفصاح عن مشاعري .. والمضي قدمً ا بحياتي .. والتمتع بزوجي أينما شئت !

اعتدلت في ريبة وأنا أراقبها ، حيث ألقت بقبعتها ، وفتحت أزرار سترتها الفاخرة في سرعة وخلعتها في لهفة : أنا أريدك الآن ..

انتفضت مانعًا إياها: ليلى!

حلّت كبسولة تنورتها القصيرة وأسقطتها وارتمت عليّ: لست أقل من الخادمة! هيا! فلنفعلها!

طحنت جسدها بجسدي وهي تخلع ملابسها فالتصقت بالحائط وصرخت: توقفي عن ذلك الجنون!

مزقت قميصها في عنف فبرز نهدها: أنا آمرك!

ارتمت عليّ فلم أشعر إلا وصفعتها بقوة: ملعون هو أمرك!

أصابتها نشوة مريضة فضحكت وزادت من ضربات جسدها بجسدي: أجل أجل! أنا أحبك!

- ليلى لقد فاض الكيل!

-فلتفرغه إذًا!

-اغربي عن وجهي!

-أنت زوجي!

-ولكني لست عبدك!

-يتمنى غيرك آن ينال ذلك الشرف!

ومدت يدها إلى بنطالي في شهوة مستعرة ، فأطبقت في غلظة على عنقها وألصقتها بالحائط في غضب وقوة ، فابتسمت وهي تلهث في إرهاق واستمتاع بضعفها تحت قبضتي وجسدها ملتصق بالحائط ، وتمايلت في شهوة موحية وهي تموء كالمخمورة المنحرفة بخصيلات شعرها المتعرقة على جبهتها ، فصرعتها : ولا شرف لي طالما كنت زوجك !

مسحت وجنتها بقبضتي أسفل عنقها في نشوة مريضة كقط يرجو لمسات سيده : فلتكن عشيقي إذً ا .. هذا أفضل ! المرأة لا تجد المتعة إلا مع من يجامعها سرً ا !

انتابتني صحوة غيرة رجولية وقد شككت في سلوكها: وكيف لك أن تعرفي عن ذلك؟!

أطلقت ضحكة العاهرات وقبضتي تهتز بعنقها : كل النساء تعرف ذلك .. فل .. فلتسأل .. (تنفست في نشوة غل) فلتسأل حتى والدتك !

عدت تمثالً ا حجريً ا مرة أخرى من إهانتها لذكرى والدتي ، بينما ارتعشت شفتاها لابتسامة تشفٍّ مريضة والعرق يغرق وجهها وأكملت : ألم تجامع رؤوف أفندي سرً ا؟ أم ظننت أن أخاك الراحل كان من صلب قاسم باشا فريد؟ ! فلتتمتع يا عمري كما تمتعت والدتك !

بدا عليها انتظار ثورتي فأطيح بوجهها بضربات تغذّ ي شهوتها ، إلا أن ذلك لم يحدث ، حيث غاب الغضب وحلت الحسرة بمكانه ، وأرخيت قبضتي عن عنقها وأنا أقلب عيني بعينيها غير مصدق لما قالت ، ليس فقط لتجرئها على ذكرى أمي ، بل لهوسها المرضي الذي سيطر على كامل جوارحها ، فتحولت أمام ناظري إلى امرأة مسكينة غلب الجنون على عقلها ..

ابتعدت خطوة في وجل ، بينما تجهمت في خوف من ردة فعلي الغامضة ، وعندها فعلت ما لم تظن أنه من الممكن أن يحدث لأميرة مدعية مثلها في يوم من الأيام ..

راقبتها وهي تقف أمامي نصف عارية ، ووجهها يلمع بطبقة من العرق ، ونظراتها تجول حولي في عبودية طلباً لشهوة امتنعت عنها . اجتمعت أركان الذل .. ولم ينقصها إلا كلمة واحدة تأخرت كثيراً ..

«كان الأمر منطقياً منذ البداية! ليلى.. أنتِ طالق! أقسم لك أنكِ طالق!»..

***

بنسيون التفاحة..

كان المكان الذي اضطر عم سالم إلى توفيره لإقامتي ، بعد أن رفضت العودة إلى قصر قاسم باشا ، وأعلن كامل باشا الحداد رغماً عنه موافقته على لعنات ابنته ليلى لمروري أمام قصرها ، حتى وإن أردت أن أجمع ثيابي ، وتطور الأمر إلى منعي ضمنياً من الاقتراب من أعتاب مكتبي !

علمت بالزيارات المتكررة لكامل باشا إلى ذلك البنسيون البسيط الذي لا يناسب هيئته طمعاً في مقابلتي ، وكذلك محاولات رمزي بك سكرتير والدي للاطمئنان له على مجريات أيامي ، وقد منعه الخصام القديم من الاطمئنان بنفسه ، ولكن كان العزوف عن العالم داخل تلك الغرفة الضيقة هو المطلب الذي لم أرغب فيه من قبل ، ولكني اكتشفت رغبتي الملحة تجاهه ، فهذا ما كان ينقصني حقاً حتى وإن لم أفهم ذلك قبل الليلة .

بضعة جنيهات اعتبرها « عوّ اد » موظف الاستقبال ثروة لا تضاهي طلبي له بألا يُ زعجني أحد ، كانت كل ما يحتاجه الأمر ، فتحررت بانعزالي داخل أربعة جدران ضيقة ، بعدما كنت سجينً ا في براح كبير من المشتهيات الزائفة لنفسي المنسحقة ، كنت أعيش كذبة انطلت عليّ قبل أن يصدقها الآخرون . عزيز بك قاسم .. الحكيم الشاب .. ذو الخُ لُ ق الرفيعة .. والنسب العَ طِ ر .. والزوجة النافذة .. والمستقبل المشرق .

كانت كذبة بالية تشبه الملاءة المهترئة - لذلك الفراش الصدئ - بفتحات قذرة تفرقت على جوانبها . تقلبت على طرفيه في أرق طوال الليلتين اللتين غبت خلالهما عن العالم الذي اعتدت على تناقضاته واعتاد هو على إذلالي ، ولم يكن الأرق لخوف من المستقبل بعد قراري الغليظ بتطليقي لأكثر نساء الأرض شرً ا في القرن الحالي ، وإنما كان شرودً ا ساكنً ا في أحداث حكاية أكثر نساء المحروسة غموضً ا هذه الأيام .. جلنار !

رفضت صينية الإفطار المتسخة التي ساقها عوّ اد إلى غرفتي ككل صباح ، وأعطيته بقشيشً ا رغم ذلك ، ظن في أول الأمر أن كرمي غير المبرر لا يعبر إلا عن سذاجة « بكِ » أجبرته الدنيا على مداهنة الصعاليك خوفً ا من بطشهم الطبقي بمن مثله ، ولكنه لم يدرِ أن السبب الحقيقي كان الحصول على لعابه اللاهث خلف المال لاستخدامه في رحلتي ..

دخل في حياء وهو يضبط طاقيته المشركزة بكلتا يديه على ما تبقى من شعره ، أشرت بطلب هادئ أن يجلس على الكرسي الخشبي القديم بمنتصف الغرفة ، فرفع يمناه في تحية مبالغة وانحنى أمامي مبتسمً ا ، وتقدم في خطوات متعرجة من مجلسه وهو يمسح كفيه بمؤخرته ذات البنطال مقطّ ع الجيوب .

جلس وأخرج من جيب قميصه سيجارة: عفّر معالي البِك..

ء ء ء

جلست أمامه في ترفع لم أقصده: أشكرك..

أجلسها على أذنه باسمًا فمازحته: ولكن.. لا ضير في أن «تعفر» أنت..

أجابني في مداهنة غير مسببة كعادة البسطاء ممن اعتادوا على النفاق حتى وإن لم يعلموا مبررً ا له : حفظً ا لمقام جنابك .. لا أجرؤ على التدخين طالما لم تفعل ..

تجاوزت تلك الإرهاصات الاجتماعية: أخبرني إذًا يا عواد.. ما حجم علاقاتك داخل الأحياء الشعبية؟

فرج فاه لابتسامة ثقة اشمئززت لها وقد برزت أسنانه السوداء : محسوب جنابك يا جناب البِك .. قرد أحل أولاد الحرام سلسلته .. المحروسة بأكملها داخل كف العبد لله .. منذ أن جئت إليها من شبين .. وأنا أمتطي طرقاتها ليل نهار .. حتى بات كل من فيها إخوتى .. ولم تسلم عتبة رزق أو مصطبة عيش لأحد فيها .. إلا وحيّ نتها بضربة من حذائى .. (رفع حذاءه فجأة) لا يغلى على جنابك .. مستورد .. سرقناه من متاع مدير مكتب سيادة الكونصول (القنصل) شخصيً ا ..

عبر على ضفّ تي وجهي شبح ابتسامة اختلط سببها بين السخرية من قوله والاستمتاع ببساطته : حسنً ا .. ماذا لو أعطيتك اسم امرأة وطلبت منك أن تتحرى لي عنها .. هل تفعل؟

امتعض في ضيق بالَ غ في اصطناعه : أجل جنابك ولكن .. العسس وراء الولايا يجلب الفقر .. يستر الله على ولايانا وولاياك ..

تحجرت نظراتي إليه واقتربت من جلسته وسحبت علبة السجائر من جيب قميصه وأجلست مكانها بضعة جنيهات ، راقبني في تردد وحيرة من فعلتي ، فأخرجت سيجارة رخيصة ووضعتها في فمي : لو كان الفقر هو المشكلة .. دعني أتكفل بذلك ..

أخرجِ النقود من جيبه وعدها ، فجحظت عينه وسال لعابه كما توقعت ، وأسقط سيجارة أذنه سريعً ا ومال ملهوفً ا وأشعل لي سيجارتي : أما والله لقد ظلمتك .. لقد ظننت أنك ب ِ ك متعالٍ (أشعل سيجارته هو الآخر).. ولكن يبدو أنك ابن بلد ..

نطقت دون مقدمات ودخان سيجارته العفنة يحرق صدري: الحالة محبوبة!

ضربٍ سطح الكرسي بكفه بين فخذيه وجذبه للأمام مسرعًا حتى التصق بجلستي في تركيز: من أي بيت؟

- لا أعرف.. ولذلك لجأت إليك.. كم عجوز تدعى محبوبة تعرف بالمحروسة..

-العلم عند الله.. ربما المئات.. ولكن.. إن استطعت أن تميزها بـ.. بأي شيء.. صنعة.. شهرة.. شخص..

اعتدلت في خيبة أمل ، فأكمل مسرعً ا في خوف من استغنائي عن خدماته : و .. ولكن لا تقلق .. سأعثر لك عليها .. فقط كنت أسأل لتسهيل الأمر والإسراع به .. اطمئن سأعثر لك على

كل محبوبة أوجدها الله فوق أرض المحروسة .. وربما تحتها ..

قاطعته وقد تذكرت شيئً ا ما : لها قريبة تدعى عائشة الفناجيلي .. خادمة بقصر كامل باشا الحداد .. هل يسهّ ل ذلك الأمر عليك؟ !

ابتسم في شيطانية وكأني أكملت له ما كان ينقصه ، وأشار بإصبعه إلى عينيه بالتوالي : الآن وقد قلتها .. قبل أن تغرب الشمس .. سآتيك بها حبوً ا !

غادر مسرعً ا في حماس اللصوص ، بينما قضيت النهار بأكمله أدخن سيجارة تلو الأخرى من تلك العلبة الرخيصة التي نسيها عواد ، ولم أهتم بإعادتها إليه وقد ظننت أني دفعت حقها أضعافً ا مضاعفة ، شعرت في أول الأمر بالاشمئزاز من أدخنتها كريهة الرائحة ، ولكن مع مرور الساعات وتبدل الشمس بلوحة القمر خارج نافذة غرفتي .. كنت قد اعتدت عليها .. وتحولت إلى ضرورة أضبط بها أنفاسي ..

كان الأمر شبيهً ا بكل شيء ، تشعر بالرفض في أول الأمر تجاه أي متغير يعصف بحياتك الآمنة ، ولكن .. ما إن تعتاد على المأساة حتى تصبح جزءً ا منك وقد ظننت أنك لم تولد بدونها ..

هكذا رأيتها الدنيا وقد اتضحت الرؤيا حقً ا .. علبة سجائر رخيصة .. لا طاقة لك بأول قبلة منها ، ولكن لا تلبث أن تتعلق بأطراف ثوبها .. شهوةً في فتنتها الزائفة ..

لم تفهم أمي تلك الحقيقة ولا لوم عليها ، فقد أدركتها أنا أيضً ا متأخرً ا . أذكر تمامً ا كما البارحة كيف كانت تتجاهل نصائح والدي لها برفع جسدي الصغير عن فخذيها في جلساتنا العصرية أمام النافذة . « لقد أصبح رجلً ا على ذلك ». كانت تتجاهله وتعبث بخصيلات شعري الناعمة دون أن تجيبه ، وكأنها لا تريد أن تعترف بمرور الزمن ، ولا بتحولي من طفل رضيع يتعلق بعنقها ، إلى صبي طالت قدماه الأرض بجلوسه على خصرها ، أو هكذا ظننت .

ظلت جلساتنا بالقرب من النافذة على عهدٍ يومي لم يخلفه أي منا ولو سرً ا ، فقط نجلس دون حديث ، تعبث بخصيلات شعري ، وأستدير بإصبعي في دوائر لانهائية على كفها المنبسط على صدري ، حتى إذا غابت الشمس ، انطلقنا إلى الغرفة العلوية ، أراقبها وهي ترسم لوحتها الجديدة على أنغام اسطوانة نقية لفنان كان شابً ا حينها ، وأيضً ا دون حديث ، فقط نستمع إلى صوت « محمد عبدالوهاب » الذي يغلف الأجواء ..

همست إليّ في مرة وهي تخلط الألوان بحاملها الخشبي : أخبرني يا عزيز .. وقد كبرت الآن وصرت رجلً ا كما قال أبوك .. ما الذي يُ سعدك؟ ما هو أكثر ما يدخل السرور إلى قلبك؟

كان سؤالً ا غريبً ا لم أفهمه في وقتها ، بل أجبتها دون تفكير وأنا أنظر إليها مبتسمً ا : النظر إليكِ يا أمي ..

ابتسمت في خجل وهي تضرب بفرشتها على وجه تلك المرأة التي تصوغ جمالها : يوما ما .. ستكبر .. ويصبح النظر إلى امرأة غيري أكثر إسعادً ا لك ..

كنت ساذجًا: وهل سيكون لي أم غيرك عندما أكبر؟

أطلقت ضحكة عالية أضاءت الغرفة وأسكتت صوت عبدالوهاب احترامً ا لها ، ومسحت بيدها الملطخة بالألوان جبهتي : يا حبيبي .. وهل يجب أن تحب أمك فقط؟ .. سوف تقابل ااا ...

قاطعتها مؤكدً ا : أحبك أنتِ فقط ! ولو كانت عمتي اعتماد هانم مثلً ا هي أمى .. لما أحببتها .. أنا أحبك أنتِ !

نظرت إليّ في ابتسامة هادئة وبرقت عينها بدمعة محبوسة وحدثت نفسها بما ظنت أني لم أسمعه : ااه .. ضاق بالحب صدر أمك يا ولدي .

لم أفهم عبارتها في وقتها، وانتبهت هي إلى ما قالت في حينه فاعتدلت باسمة: هه.. هل لعبت اليوم مع صالح؟

امتعضت في خزي: لم يوافق أبي على ذلك.. أخبرني أنه مريض اليوم أيضا.. وأن علي أن أبتعد عن طريقه..

زفرت في حزن ثم التفتت إليّ في تصميم : لا تطعه يا عزيز .. إنه أخوك .. ولا تسمح لأحدٍ حتى وإن كان أباك أن يفرّق بينكما ..

أومأت لها في بلاهة موافقاً دون أن ألقي بالاً لما تقصد ، بينما ارتعشت يدها في توتر منعها من استكمال الرسم ، وعندها أنهت جلستنا سريعاً ، ورحلت إلى مفتاح الإضاءة تغلقه دون تردد وكأنها تطلب مني صمتاً أن أذهب إلى النوم ..

فعلت ، وكالعادة .. استمعت إلى بعض من عراكها وأبي ، وفى تلك السن الصغيرة ، لم يكن ما يقولان ويتسرب إلى أذني من ثنيات الجدار الذي يفصل بين غرفتي وغرفتهما سوى حديث يمنعني عن النوم فقط ، ولكن .. في هذه الليلة كان صوت أمي أكثر بؤساً من ذي قبل ، حين صاحت به بنبرة اتهام لم أفهم معناها :

« إنه ابنك ! كيف تقول مثل هذا؟ ».. فأجابها في صوت مخيف أجبرني على الاختباء أسفل غطاء الفراش .. « ثلاثة أيام ونكتشف الحقيقة .. وعندها .. لن يعتب عليّ أحد »..

ثلاثة أيام وينتهي كل شيء .. هكذا رددت قبل أن يغيب صوتها بين ظلام غرفتها للنوم ، وهكذا مرت الأيام الثلاثة ، كدهر انتهى وعاد إلى بدايته ثلاث مرات قبل أن يعلن النهاية . نهاية كل شيء ، غرفة الرسم وصوت عبدالوهاب ، ولوحتها الزيتية غير المكتملة ، حتى جلساتنا

العصرية ، وأصابعها وهي تتخلل خصيلات شعري ، وكفها المنبسط لإصبعي الصغير الذي يدور بين منحنياته الناعمة .

حتى جاء اليوم وانتفضت في الصباح على صرختها ! أفزعتني كما أفزعني طرق عواد المتكرر على باب الغرفة المقفرة !

اعتدلت في غيبوبة ، ولم يساعد ضوء الشمس الذي غزا الغرفة على ارتحالي من عالم الأحلام والذكرى إلى عالم الواقع ومفرداته ، قاسية هي أحلام المساء عندما ترفض أن تكون مجرد أضغاث غير مترابطة ، وتستلهم من الذكريات ما يعيدنا إليها .. وكأنها جسر اضطراري يجبرنا على العودة إلى أفظع ما هربنا منه .

فتحت الباب دون أن أهتم بهندمة ملابسي ، فاحمر وجه عواد خجلً ا وقد علم مقدار الإزعاج الذي سببه ، بينما تركته وعدت إلى طاولة منتصف الغرفة أضرب بأصابع مترنحة على علبة السجائر الرخيصة طمعً ا في سيجارة أخرى أكمل بها عشائي بإفطار مدخن !

كانت العلبة الورقية فارغة ، فظهرت سيجارة أمام عيني من العدم ، كان إصبع عواد يعرضها علي ّ في ابتسامة ، أخذتها وأنا أجلس في إرهاق ولازال النوم غالبً ا على تحركاتي البسيطة ..

أشعلتها كالمخمور وأنا أفرك عيني بباطن كفي: ظننت أنك لن تعود..

جلس أمامي في حماس: ولماذا في ظنك سمّيت بعواد؟ لأنى دائمًا أعود!

ابتسمت في سخرية من بلاغته التافهة وأغلقت عيني رغمً ا عني وكأن نعاس الذكرى أصر على مطاردتي ، حتى شعرت بأنفاس عواد وهي تُ دفئ أذني باقترابه الشيطاني منها ، وعندها بدأ وسوسته التي فرجت جفنيّ الملتهبة في قوة : الخالة محبوبة في انتظارك !

سقطت عدة ساعات من ذاكرتي ، فلا أذكر كيف تركت الغرفة ومتى غيّ رت ملابسي ، ومتى وصلت إلى رأس الحارة التي وصفها لى عوّ اد ، وعاد الوعي وأنا أطرق عتبات الطريق في خطوات جاهلة أبحث بها عن البيت البسيط الذي يحمل بين جدرانه أحد خيوط السر الكبير لجلنار طوسون .

عبرت عدة دكاكين بسيطة تفرقت على جانبي الحارة رغم ضيقها ، لمحت بطرف عيني نظرات التعجب من أصحاب تلك الدكاكين من مرور بِ ك راقٍ مثلي مخترقً ا هواءهم الشعبي البسيط ، فمنهم من اعتدل احترامً ا وقد جذب مقعده إلى الوراء مفسحً ا لي المجال ، ومنهم من أصر على أن يسحب نفسً ا قويً ا من شيشته المغلفة برباط من القطيفة الحمراء ليطلقه في وجهي ، بينما انهمك الآخرون في متابعة زبائنهم من النساء والرجال ، واختفى جسدي مع استمرار السير بين لوحات مختلفة من الملايات اللف السوداء ، والطرابيش الحمراء المائلة .

حتى وصلت إلى دكان « النديم »، أخبرني عواد أن الخالة تسكن في البيت المواجه له ، فتقدمت في رقي البكوات إلى صاحبه الذي احترف بيع العطارة للنساء بيده اليسرى فقط ، بينما تواظب يده اليمنى على فتل شاربه الضخم في تكرار مَ رَ ضي كل عدة ثوانٍ .

عبرت امرأة مدفونة داخل ملاية لف سوداء في أدب بالغ: اسمحي لي يا هانم..

رمقتني المرآة بنظرة تعجب، بينما ضحكت صديقتها ضحكة عالية: والله وأصبحتِ هانم يا «بنت الحفافة»..

أسكتهم الشارب الضخم بنبرة غليظة: تحشّمي يا امرأة، واغربا عن وجهي.. تفضل يا أفندي..

أشرت له مصححًا في خجل: بِك.. أنا قاسم بِك.. وأريد أن...

سحب كرسيًّ ا خشبيًّ ا بدا كريشة بين أصابعه الغليظة وضرب به الأرض تحت قدمي في غضب : بـ ِ ك .. أفندى .. باشا .. حتى ولو كنت ولي النعم ذاته .. كلنا أولاد تسعة .. تفضل ! شاي؟ !

امتعضت من نبرته فرفضت الجلوس في أدب: أشكرك.. فقط أسأل عن الحالة محبوبة!

سحب الكرسي بعيدًا في غضب: لعنها الله.. ارحل يا أفندي قبل أن ينالك مني ما نالها قبلًا.. ارحل!

وفتل شاربه في عصبية وهو يعود إلى النصبة مرة أخرى ، فتراجعت خروجً ا من الدكّ ان خوفً ا من بطشه القادم إن لمح استمرار وقفتي . وما أن خرجت حتى تبعتني صاحبة الضحكة

العالية ، وهي تغطى رأسها بطرف الملاية اللف الذي سقط : أتريد الخالة محبوبة يا جناب البك؟

أومأت لها بالموافقة ، فمطت « بنت الحفافة » شفتيها في ضيق : كبدي عليها .. لقد طردوها من بيتها بعدما انفضح أمر تلك الفتاة الساقطة .. وهي تسكن الآن بالطرقات ..

- الطرقات؟

-سمحت لها الأبلة «ريفال» زوجة الخواجة «روني» أن تبيت أمام البار.. تعال معي.. سأسوقك إليها..

جذبت يدي كالطفل الصغير ، بينما فرّ قت صديقتها السير أمامنا صائحة « افسح يا ولد .. افسحي يا امرأة .. سكة لجناب البِ ك !»..

تحركنا لعدة دقائق ، حتى وصلنا إلى البار المذكور ، كان يبدو قديمً ا بيافطته المائلة التي تحطمت بها عدة مصابيح صغيرة من مصابيحها الحمراء . سألت في بلاهة عن مكان الخالة والأبواب الزجاجية للبار مغلقة ، فصاحت إحدى صاحبتيّ الجديدتين بصوت عال لم أفهم مصدره من بين حنجرتها « يا بـركة !»..

ومن العدم ، ارتفعت ملاءة ضخمة كانت تغطي جزءً ا من حائط أهملته بنظراتي ، وخرجت من ورائها تلك « البركة ».. فاهتزت الأرض تحت قدمي .

كانت جلبابً ا ملونً ا يتحرك على الأرض ، اختبأ جسدها الرفيع خلف قماشته الواسعة ، بينما شمّ رت إحدى ذراعيها دون الأخرى ، فظهر ساعدها البض الثلجي ، رفعت عيني وقد تجاوزت نهديها البارزين خارج جلبابها أدبً ا ، واصطدمت بملامح وجهها العجيب . كانت بيضاء كثمرة قُ طِ فت قبل ميعادها ، بعينين زرقاوين مستديرين ظللهما طابور محكم التنظيم

من أهداب سوداء طويلة ، بينما برز أنفها الصغير من منتصف وجهها كنبتة دقيقة نُ حتت بانحناءة هادئة للأمام . ولم تسلم شفتاها من إصبع النحات الماهر ، فارتسمت شفتها العلوية بخط مستقيم قرمزي لا يشوبه إعوجاج ، واختبأت شفتها السفلية بتجويف صغير داخل فمها .. وكأنها تتنازل لذقنها عما تبقى من الوجه الصغير لي ُ كمل استدارته الناعمة .

وختمت سيمفونيتها الجمالية ، بمنديل أخضر اللون أحاطت به رأسها لت ُ خفي خصلات شعرها الأسود ، ولكنه تهدج من بين أطراف المنديل الصغير ، فرسم بانحناءاته قوسين مرهفين حول وجهها .

بدت كقمر شديد البياض بين أجنحة ليل كحيل السواد.

كانت الملاءة الضخمة التي تغطي الجدار أشبه بخيمة مثبتة الدعائم خارج أعتاب البار ، فهمت منذ رأيتها أنها أصبحت بيت محبوبة بعد طردها السابق . أخرجت بركة دون مقدمات سبت ً ا من الخضروات ووضعته خارج الخيمة ، وجذبت قفص ً ا خشبي ً ا مقلوب ً ا ووضعته خلفها وجلست عليه وهي تحدث مرافقتي ..

«خيرًا يا أم نعيم».

قالتها وهي تُسدل إلخيمة على ما بداخلها مرة أخرى وكأنها تغلق باب شقة صغيرة.

تقدمت أم نعيم وجذبتني بيدها : جناب البِ ك يسأل عن الخالة .. (ثم التفتت إليّ) ها هي بركة جنابك .. كابنتها تمام ً ا .. فلتخبرها ما تريد وتسمح لي بالانصراف .. فالغسيل لا زال على

الحبل منذ الصباح .. وإن تركته أكثر من ذلك .. فسيغبره تراب الكارو .. غير أن رجلي أوشك على العودة إلى البيت ولم أطبخ بعد و ...

جذبتها بنت الحفافة في قوة للرحيل : وماله ومال غسيلك وطبيخك يا امرأة .. تحرّ كي .. لُ ع ِ نت النساء حقً ا .. ما أن تعلقت بطرف حديث .. ما تركته إلا وهو مربوط حول عنقها .. هيا .. بالإذن يا جناب البك ..

رحلت السيدتان وهما تتشاوران فيما طرحته بنت الحفافة من نظرية تخص التركيبة السيكولوجية للنساء ، فتابعتهما بعيني حتى انتفضت قدمي على بضع قطرات من المياه أصابتها . فعدلت وجهتي إلى بركة ، وعندها رأيتها مرة أخرى . كانت تقبض بكفها على صفيحة معدنية وتضرب به الهواء ليتناثر رذاذه المائي على أسطح خضرواتها ..

لم تنظر إليّ، فقط كانت تنفذ عملها في شرود حزين، وخرج صوتها هادئًا: تحت أمرك يا جناب البِك..

أصبح خروج الصوت من بين أوتار حلقي أشبه بمعجزة إلهية ، فلم أعثر على النبرة الصحيحة للتحدث ، فتنحنحت مصلحً ا من صوتي : ااا .. كـ .. كنت أريد مقابلة الخالة محبوبة لأمرٍ هام ..

رفعت بصرها إليّ بنظرة ملائكية ارتعشت لها : أدام الله عليك الصحة جنابك .. إنها ترقد بالمرض منذ أسابيع .. ولا تستيقظ إلا لتعود بعد لحظات إلى النوم ..

أصابني الإحباط: حسنًا.. هـ.. هل من الممكن أن أنتظرها حتى تستيقظ؟

ء ء ً ء ء

- أليس من الممكن أن تعود لاحقاً؟ فلا أعرف متى ستفعل..

-للأسف لن يصح أن أعود إلا بعد مقابلتها..

نهضت دون مقدمات في طاعة وانحناءة: تحت أمر جنابك..

وتحركت إلى أحد الدكاكين تطلب كرسيً ا ، إلا أن صاحب الدكان نهرها في غضب بالرحيل ، فتراجعت في خوف طفولي منه وهي تعقد كفيها حول بطنها في انكسار مضمومة الأكتاف ، وعادت إليّ تجر أذيال الخيبة متجنبة النظر إليّ : لا تؤاخذني يا ..

وقطعت حديثها فجأة وكأنها عرفت الحل . جذبت القفص الخشبي سريعً ا وأجلسته خلف وقفتي وخلعت منديلها الأخضر فسقطت أمواج الشعر الأسود على ظهرها الرفيع ، وفردت المنديل أعلى القفص : ليس بمقامك ولكن .. فلتسترح حتى أوقظها ..

جلست في بطء على مقعدي الجديد ، بينما ابتلعتها الخيمة لثوان قضيتها في مراقبة الطريق من حولي ، حتى أجبرتني نظرات السخط من أصحاب الدكاكين والمارة على النظر أرضً ا مرة أخرى . وما أن اعتصرت النظرات جوانب رأسي ، حتى خرجت بركة في خيبة مرة أخرى .

جلست أرضً ا وفرجت ساقيها لـ « تربيعة » واسعة فظهر بياض رجليها ، وألقت سريعً ا طرف جلبابها على انعقاد قدميها فأخفت ثمرة الفردوس الأبيض مرة أخرى : فلننتظر دقائق حتى تستفيق .. فالحمى شديدة ..

اَجلست يدها اَسفل وجنتها في حزن وهي تهمس: اكرمنا يارب.. يارب الولايا..

لم أتمكن من مقاومة التحدث إليها: هل تسكنين معها منذ فترة طويلة؟

تنهدت في أسى: بل من عدة شهور فقط.. آوتني بعد أن..

وتوقفت عن الحديث في خزي ثم قالت في تردد: بعد أن جار الزمن على الغلابة..

تجاوزت سؤالي المنطقي عما جرى لها احترامًا لما أرادت أن تخفيه وسألتها: إذًا التقيتِ بفاطمة؟

لمع جبينها بطبقة من عرق التوتر ، وعبثت بحِ زَ م الخضروات في تهرّ ب : لـ .. لقد قابلت الكثير من الفاطمات .. أيهن تقصد؟

ملت عليها في مواجهة باسمة: من قضت مع الخالة أسبوعين..

تحجرت ملامحها لثوانٍ في توتر بالغ يصعب على البريئات من أمثالها إخفاؤه ، فنهضت ضاحكة في توتر : يا مر ّ ك يا بركة .. جلست أرض ً ا قبل أن أكنس ..

وجذبت عدة أعواد من الخوص وأزاحت بها في قلق الأتربة من على الأرض في حركات متكررة وهي تحني ظهرها الرفيع ، وعندها علمت أنها تعرف أكثر من اللازم : لها اسم آخر .. جلنار طوسون .

دقت المفاجأة يدها أرض ً ا بمسمار وهمي ، فتعطلت عن الحركة وأخفى شعرها الأسود وجهها المائل للأسفل ، فنهضت واقتربت منها جلوس ً ا القرفصاء بطريقة لفتت انتباه المارة : يبدو أنك كنتِ تهتمين لأمرها .. ف ...

اعتدلت مسرعة واتجهتٍ إلى سبت الخضروات تحمله للداخل: فلترحل وتعد غدا.. فربما تحسن حالة خالتي..

دفعت بالسبت إلى الداخل وقبل أن تسدل ستارة الخيمة رميت الحجر بالبِ ركة الراكدة : لقد ق ُ تِ لَ ت ج ُ لنار يا بركة !

اهتزت ستارة الخيمة لثوان ، ثم ارتفعت في بطء وقد ظهر من خلفها وجه بركة . كان أبيض أكثر من اللازم لشحوب ناسب حزنها من الخبر ، وتقدمت مني في صدمة ونهر من الدمع يشق طريقه على وجنتها الناعمة : كـ .. كيف قلت؟

أومأت لها في موافقة آسفة ، نخرت قدماها في لحظة وسقطت باكية ، حتى بكاؤها كان صامت ً ا ، فقط يهتز جسدها في أنفاس لاهثة ، وكفاها الصغيران معقودان فوق صدرها في هدوء ، وكأنها تظلل على قلبها من أمطار البؤس : أوجعتي قلبي يا ست الناس .. يا حِ زني .. يا حزني على الولايا ..

تخليت عن أمارات الباكوية وجلست أمامها أرضً ا حتى تحول بنطالي إلى لون التراب الأبيض : أنا أبحث عن قاتلها .. ولن يساعدني في ذلك سوى أن تقصي عليّ أحداث الأسبوعين اللذين قضتهما بصحبتك .. هل ستهدين إليها ذلك المعروف في قبرها؟

لم تجب ، بل ألقت برأسها على صدري في بكاء محموم وهي تغطي بكفيها وجهها الصغير . تناسيت الزمن لحظة وتفرقت الجدران من حولي في تباعد غير مفهوم ، حتى بدا أني أجالسها ببقعة من صحراء خاوية إلا من نسمات هواء رطب ، يعبث بخيوط شعرها ويلفح وجهي بسكينة غابت عني لفترة طويلة . اقشعر بدني لتلامس جسدينا حتى وإن كان التلامس بين وجه أبيض صغير وصدر عريض مغطى بطبقات الملابس . ودق قلبي لشعور لم آلفه قبلً ا ، فرفعت يدي دون إرادة وأجلستها على شعرها في حنان ومواساة .. وعندها نطقت في همس :

«سأخبرك بكل ما جرى وما كان»..

كنت أعلم أن كلماتها القادمة ستغير كل شيء .. ولم أنتبه لتجمهر الرجال حولي في غضب ، وقد احتضنت فتاتهم في وقاحة فجة بوسط الحارة الضيقة !

***

عدت إلى مكتبي محطم العظام وقد فرغت جيوبي من جنيهات عوّ اد ليُ بقي عليّ بإحدى غرف تفاحته القذرة ، وبالرغم من تحريم ليلى أعتاب المكتب على قدمي وإن كنت مالكً ا له ، فإن تلك الساعة المتأخرة من الليل كانت كافية لإخفاء أمر مبيتي على أثاثه حتى الصباح على الأقل .

وصلت متأوهً ا من ضربات الرجال إلى باب المكتب . هممت بالبحث عن مفتاح القفل اللعين في صعوبة ، لولا أن تيار من الهواء ضرب ما تبقى من سترتي كان يصدر من قائم الباب ، رفعت يدي ولمسته .. فانفرج على مصراعيه !

كان الباب مفتوحً ا ، فدلفت في قلق من مواجهة لص عنيف يُ كمل ما بدأه « الجدعان » منذ الصباح ، لكن عدة خطوات للداخل كشفت الأمر ، كان يقف أمام النافذة في صمت ، تتطاير الستارة بهواء الشتاء البارد وهو يقرأ من ورقة بيضاء في عبوس شديد ..

« كامل باشا؟!»..

التفت إليّ في فزع وحنق ، ولمحت يده وهي تطوي الورقة سرًّ ا ، بينما تطوي اليد الأخرى ما بدا أنه « ظرف » ورقي ، وتسمر من الصدمة : ما الذي جاء بك إلى هنا؟ !

اتجهت للجلوس دون أن يسمح لي فلقد كان الألم شديدً ا : اعذرني يا حموّ ي السابق .. ولكن لم أعد أملك غير هذا المكان لـ ...

وتأوهت في إرهاق، فاتجه إليّ قلقًا وساعدني على الجلوس: ما الذي جرى لك؟

ابتسمت في سخرية من حالي : فقط عدت من فرنسا في الوقت الخطأ .. (رفعت رأسي له) ما الذي جاء بك أنت يا باشا؟

ً ً

اعتدل في ارتباك ورمحت مقلتاه يمينا ويسارا كمن يبحث عن كذبة مقنعة: هه؟.. كـ.. كنت...

اتجه إلى المقعد المجاور وجلس في هدوء وقد ظن أنه وجد الإجابة ، فاصطنع الابتسامة : شعرت بحنين إلى جلساتنا .. فلك أن تصدق أولا تفعل .. أضحى مكتبك أكثر سكينة من غيره من الأماكن .

جاريته في كذبته باسمًا: لازالت روح جلنار تسبح في هوائه.. (باغتّه) ما هذه الورقة؟

وضعها في جيبه مسرعً ا : لا عليك .. هيا الآن .. دعني أقلّ ك إلى قصر قاسم باشا حتى أصلح الأمور بينك وبين ليلى ..

تحررت من يده التي جذبت ذراعي في هدوء : بل لا أترك من أطلقت عليه أكثر الأماكن سكينة من أجل غيره .. فلتتركني في سلام حتى الصباح ..

زفر في ضيق: ليس الليلة! عليك أن ترحل عن مكتبك.

قاطعته في حيرة: ولماذا الليلة بالتحديد؟

ارتبك وأكمل: هه؟.. لـ.. لو علمت ليلى بمجيئك فلسوف...

فردت ظهري على الكرسي في نصف نومة: حتى وان علمت لن تأتي إلا في الصباح.. فلترحل أنت يا باشا..

نهض مبتعداً في حنق : لن أستطيع .. (تعجبت له فأكمل بكذبة أخرى أكملت الألف منذ لقائنا).. أشعر بالحنين إلى جلنار .. وضاق صدري بوجوه الجميع .. وما أردت إلا العزلة وتذكر ما كان بيننا ..

كانت كذبة ساذجة ، ولكن راودني شعور طاغٍ بأنه يُخفي شيئاً : فلتذكره بصوت مرتفع إذاً .. وأقصص عليّ بقية ما بدأته ..

التفت إليّ في تعجب فأشرت له بالجلوس: لن تتخلص مني يا باشا.. حتى تبدأ بالحكي..

جلس مستسلماً ، بينما تحركت في انحناءة سريعة لخطوة تقربني من المكتب وجذبت غليوني استعداداً لتدخين تمنيت أن يُنهي حياتي : فلنكمل .. كانت تناديك بعطوة .. وتناديها بفاطمة .. قصة حب خرافية .. كيف ساءت الأمور إذاً؟

تنهد في ضيق وعقد رجليه في جلسة مريحة واستسلم: لا أصدق أنك تجبرني على ذلك..

ابتسمت له: لن تصدق مدى إصراري على الاستماع إليك.. فربما أقتلك إن لم تفعل..

ابتسم في شفقة وتنهد في غير موافقة على ما يفعل : حسنً ا أيها المريض .. بدأ الأمر بطلب غريب من حورية هانم زوجة مصطفى الورداني .. أساءت به إلى جلنار دون أن تقصد ..

أشعلت التمباك في تركيز دون أن أنطق بكلمة ، ولكنه كان محفزً ا للباشا أن يُ كمل حديثه دون سؤال مني : كانت حورية هانم متعددة الأسفار .. وترددها على المعارض الفنية في أوروبا قد خلب عقلها .. وما أن أرادت أن توهب قصرها القديم إلى فرج الورداني ابن زوجها .. كانت تريد أن تكسر بعضً ا من الأعراف الشرقية بالعثور له على فاتنات يرتضين الرسم في عريّ ..

أطرق رأسه في ضيق: كانت جلنار كما تعلم ذات سُمعة مضطربة داخل القصر.. فظنت حورية أنها لن تمانع!

اعتدلت في جلستي في ريبة وخوف مما أظن أنه حدث: هل طلبت منها أن تتبرع بجسدها لذلك الشاب؟

أشعل سيجارة تشبه سجائر عواد وزفر دخانها الرمادي في حنق : لم أكن أعلم شيئً ا عن هذا .. فقد كنت أقابلها فقط بالقصر القديم درءً ا للفضائح .. ولكني لم أتصور أنها كانت تتخذ من ذلك القصر مكانا للتعري أمام ذلك الحقير ..

- وكيف علمت بالأمر؟

-انقطعت مقابلاتنا لشهر ونصف بناءً على رغبتها.. وعندما سمحت لي بالعودة.. عرضت عليّ اللوحة في فخر!

-ثم؟

- لم يكن هناك مجال لـ « ثم ».. رفضت الأمر بشدة خوفً ا على حياتها من رجال الملك إن وصل إلى علمهم ما فعلت .. وحاولت إحراق تلك اللوحة .. ولكنها ربطت استمرار علاقتنا بسلامة لوحتها المخجلة .. وعندها آثرت فقط إخفاءها بقبو القصر .. ومنذ تلك الليلة بدأت المأساة ..

أخرج سلسلة ساعته الفضية وراقب الوقت في توتر حاول إخفاءه ، ونهض متجهً ا إلى النافذة ووقف في صمت لدقائق ، حاولت حقً ا أن ألتزم بما ظننت أنه يُ فلح معه ، فلا أقاطع صمته بسؤال يشغلني حتى يختار هو أن يقصص ما يريد ، ولكن كان شروده بالنظر إلى الطرقات المظلمة مثيرً ا لحكاك الرأس : ولماذا ربطت بين تلك اللوحة وخيالاتها يا كامل باشا؟

أعاد ساعته في ضيق إلى جيب صدريته الصغير وتنهد ملتفتً ا إليّ : لم أربط شيئً ا .. فقط أخبرتك أن تلك الليلة كانت بداية المأساة .. أنت من يربط الأمرين الآن ..

- ولكن ألا تظن أن هناك رابطًا بينهما؟

-من قتل جلنار هي فتاة غامضة يا عزيز وليست لوحة تافهة..

-إذا فحدثني أكثر عن تلك الفتاة.. وكيف رأيتها أنت..

عاد وجلس في حيرة : لم أرها إلا مرة واحدة فقط ، كانت خلال نوبة من نوبات هلع جلنار .. كنت اعتدت على تهدئتها كلما ادعت أنها ترى شيئً ا خفيً ا يطاردها ، ولكنها هذه المرة أخبرتني أنها نطقت باسمي .. تجاهلت الأمر كالعادة .. ولكني ما إن نظرت إلى موضع إشارتها حتى ...

سكت للحظات وفتح صدره على عدة أنفاس طويلة ، وكأنه استرجع بتلك الكلمات خوفه أثناء تلك الليلة ، فارتعشت أصابع يده اليمنى ، ولمحت قبضته اليسرى وهي تعصر أصابعه المرتعشة في إجبار على الهدوء وقال : كـ .. كانت تنظر إليّ في غضب .. وتلوّ ح في هيستيرية .. ثـ .. ثم جذبت ما بدا أنه قضيب معدني ومررته على عنقها وكأنها تهدد بالذبح .. ثم اختفت !

نفخ بقوة هواءً قصيرً ا ونهض في سرعة مبتعدً ا وكأنه يهرب من خوفه ، بينما تعلقت نظراتي بجلسته وكأني لم ألاحظ نهوضه ، فقط شردت في تلك الفكرة التي ربما لم تخطر على باله ، فسألته دون أن ينظر أي منا للآخر : أكانت تنظر إليك عندما أشارت إلى عنقها بالذبح؟

استند بيده المرتعشة على قائم مكتبتي العاجية: أجل..

استثرت اهتمامه: غريبة!

التفت إليّ في فضول بدا حانقًا: ماذا تقصد؟

شردت لفكرة سيطرت على رأسي: متى كانت هذه المرة التي رأيت فيها فيروز؟

رفعت عيني إليه في جمودٍ وشاركته النطق بالإجابة نخرج صوتانا مضاعفا: عشية انتحار جلنار!

اصطبغ وجهه باللون الأحمر ، لم أعرف إن كان غضبً ا أم هلعً ا ، المؤكد أنه تفاجأ من معرفتي إجابة السؤال الذي سألته ، فاقترب في وجل : كيف عرفت ذلك؟

وصل أخيرً ا إلى وجهي وربما أوشك أن يلامسه وقد انحنى بجسده على جلستي ، فنظرت إليه مواجهً ا : لا أظن أنها كانت تهددك بالقتل .. بل كانت تصف انتحار جلنار !

وقبل أن ينطق بكلمة أخرى ، انتفض كل منا على صوت طلقات نارية تدوي في الفضاء ، انتصبت واقفً ا في هلع ضرب مواضع الألم في جسدي بضربات لحظية ، بينما رسم هو عدة تعبيرات مختلطة على وجهه لم أفهم أيًّ ا منها ، ركضت إلى النافذة فرأيت عددا من الشباب يركضون في عشوائية ، وخلفهم شاويش مسن يركض في صعوبة وهو يقبض بشفتيه على صافرة الإنذار ، يطلقها بأصوات متقطعة تزامنت مع أنفاسه اللاهثة من الركض .

همس كامل باشا في هدوء لا يناسب الموقف: لابد أنها عملية أغتيال أخرى.. فدائيين!

التفت إليه في تعجب: وما أدراك بذلك؟

جلس في أريكية : المحروسة تغيرت كثيرً ا منذ سفرك يا عزيز .. الآن نشهد عمليتي اغتيال أو أكثر خلال الشهر الواحد .. (ابتسم في يأس واستسلام) ربما أكون أنا القادم !

لم يشغلني ما قال عما كان يدور في رأسي وتوقف مؤقتً ا لأصوات الطلقات النارية ، فرؤية الباشا لفيروز وإن كانت لمرة واحدة ، ووصفها لانتحار جلنار قبل يوم من انتحارها ، وتطابق أوصافها مع خيالات الأخيرة ، لا يعني غير أن تلك الأميرة إمتثال كانت على حق .. فما رأته جلنار لم يكن هلاوس بصرية .. وإنما شيء آخر .. غريب .. يختار من يراه .. ومن يقتل .. ومن ..

توقفت عن التفكيرة مرة أخرى ، فأين المبادئ العلمية مما أقول لنفسي؟ أي كيان هذا الذي يظهر في الفراغ لشخصين مختلفين ويهددهما بالقتل وينفذ تهديده؟ أهو شيطان مارد كما اعتاد البسطاء أن يفسروا ظواهرهم الخارقة بتلك الاجابة؟ أم حالة أخرى جديدة ربما لم يكتشفها العلم وكان مقدرً ا لها أن يتم كشفها على يدي؟

جذب الباشا غطاء الأريكة القماشي وألقاه على جسدي الممدد في حنان هادئ : فلتنم الآن .. ولنكمل في الصباح .. ولا تقلق .. لن يكون إقناع ليلى بردها إلى عصمتك أمرً ا صعبً ا .. سأتولى الأمر بنفسي ..

أردت طرد تلك الفكرة من رأسه ، ولكن معاملته الطيبة التي تخطى بها حقيقة أني طلقت ابنته ولازال مستمرً ا في إحسانه إليّ ، أجبرتني على الصمت .

أغلق النافذة وهو يتحدث في توصية : ولتصرف جُ لنار عن رأسك الليلة .. فربما أصبحت مهووسً ا بها أكثر من اللازم ..

ورحل دون أن يزيد ، فشردت فيما حدث مع بركة ، وطردي من مجالها الملائكي بأمر من رجال الحارة ، وتساءلت عن الطريقة التي ستمكنني من الاتصال بها مرة أخرى لأحصل على جانبها من القصة ، دون أن يُ كمل جدعان المحروسة معزوفتهم العالمية من الضربات القاسية .

صرع رنين الهاتف فضاء الغرفة ، اعتدلت في ريبة ، فمن ذاك الذي علم بعودتي السرية في ذلك الوقت من الليل غير كامل باشا ، ولم يتسن للعجوز الخروج من الطريق بعد حتى يُ بلغ أحدهم

..

رفعت السمّاعة في وجل، فهمس الصوت الناعم: ااا.. عزيز بِك؟

لقد سمعت ذلك الصوت من قبل فأكملت: أنا الأميرة إمتثال!

اهتزت يدي من الصدمة ، لم أدرِ أكان احترامً ا لمقامها الصوتي أم خوفً ا من مجهول دفعها إلى مهاتفتي في ذلك الوقت المتأخر من الليل : اا .. أجل يا سمو الأميرة .

- حمدًا لله.. لم أظن أني سأجدك في ذلك الوقت المتأخر.. هل وصلتك رسالتي؟

-أية رسالة؟

زفرت في حنق وتوتر: لـ.. لقد أرسلت خطابًا إلى مكتبك صباح اليوم.. وانتظرت منك لقائي كما طلبت منك..

التفت حولي في حيرة ، وهممت أن أركض إلى باب الشقة للتأكد إن كان عامل البريد قد ترك شيئً ا غفلت عنه ، لولا أن لطمتنى فكرة كانت قد غابت عني للحظات .

كان كامل باشا يقرأ خطابا وأخفاه فور وصولي!

تلعثمت في تردد: كـ.. كلا سموّك.. لم يصل إليّ شيء.. و.. ولكن.. أنا.. أنا طوع أمرك.. فلنتقابل..

سمعت صوتً ا آخر يتردد حولها ، فارتبكت وغلظ صوتها كمن ألصقت فمها بالسمّ اعة : حسنً ا إذً ا .. فلتقابلني بجوار جامع بن طولون قبل صلاة الفجر .. تلك هي فرصتك الأخيرة !

هممت بالرد عليها ولكنها قاطعتني: ولكن احذر بشدة أن يتبعك أحد!

وأغلقت الهاتف دون مقدمات ، وتركتني في حالة أكثر غرابة وحيرة مما حدث لي على مدار ذلك اليوم التعس بأكمله .

بقيت وحيدً ا في الظلام ، مرت الساعات دون أن أشعر بخفقانها ، كنت هائمً ا في عالم آخر من الصمت الذي حفّ ز رأسي على بسْ ط عباءة الأحداث السابقة أمام عيني بالفراغ ، فأراقبها بذهن صافٍ ، وأربط بين تفاصيلها في موضوعية مجردة من المشاعر المختلطة .

بدأ الأمر بجلنار .. ثم الأميرة فوقية .. ثم كامل باشا وعلاقته السرية بها .. ثم بركة والخالة محبوبة ، كلها حكايات مُ رسلة لحياة امرأة كغيرها من النساء ، ولكن .. ما بها من علامات غامضة هو المثير حقً ا ..

فرج.. وقصر أفندار.. ولوحتها العارية!

جلس عزيز بك قاسم أمامي على مقعد وهمي ، عاد بعد انقطاع لسنوات عن ظهوره المستفز ليواجهني بالحقائق ، التي غابت عني ، والآن يراقبني في ضيق واشمئزاز : كان كامل باشا على حق .. أصبحت مهووسً ا بها أكثر من اللازم وغفلت عما يستحق الاهتمام بحياتك ..

حاولت تجاهله : أي حياة تلك التي تحدث عنها؟ أب قاتل .. وأم منتحرة .. وزوجة مختلة .. ووظيفة لا مستقبل لها؟

حاصرني باسمً ا : ااه .. ها قد قلتها لنفسك .. تظن أن بحثك خلف جُ لنار قد يُ ضيف بعض القيمة إلى عزيز قاسم ..

- لا تنكر أن أمر انتحارها وتلك الفتاة التي قتلتها مثيرًا بدرجة كافية لتعقبه..

- ظننت مثلك في أول الأمر ، ولكن سرعان ما تناسيت ما حدث .. فهو منافٍ للمنطق أم تناسيت أنت ما درسته بجامعات أوروبا؟

-ما درسته كان ساذجًا..

- وما تظن أنك ستكتشفه لي ُ درّ س أصبح وهمً ا ! ألم تلاحظ كذب كامل باشا؟ لا ينطق ذلك الرجل بكلمة حق واحدة .. كيف تجاهلت أيها المغفل التحوّ ل الجذري في علاقتكما من الفتور والنفور .. إلى صداقة مفاجئة دون مقدمات ..

-ربطتنا جلنار وعلاقته بها.. وثق بي..

-بل يستغلك لأمر ما.. عليك أن تعلمه..

-والأميرة إمتثال؟

-أميرة مدللة ضجت من أحاديث السرايات.. وتبحث عن مغامرة مع شاب أبله!

-بدأت تشبه تلك اللعينة ليلى..

- لا طاقة لك في العيش دونها .. قبل أن تجلس على مقعد التحليل لغيرك .. فلتنظر داخلك .. ليلى ضرورة لحياتك .. من مثلك لا يأمن إلا بجوارها .. أنت تنشد إذلالها يا عزيز ..

-لست مازوخياً يتمتع بإذلال النساء!

- بل ملعونً ا بحبك لأمك .. تعلقت بالملاك ، وما أن مات حتى كرهت ذكراه لحنينك الزائد إليه .. فبحثت عن الشيطان ، وارتميت في أحضانه .. نعم يا عزيز .. ربما كانت ليلى شيطانً ا ، ولكنها إن لم تُ خرجك من الجنة فإنها حتمً ا قادرة على إجبارك على الجحيم .. حتى تعتاد عليه ، بل وتعشقه .. وتصبح جزءً ا منه !

ضاق رأسي بهمساته فصرخت: من أين تأتي؟!

ء ء

آحرق وجهي بأنفاسه اللزجة: من حيث تركتني.. لوحة أمك الزيتية!

انطلقت مسرعً ا خارج المكتب وقد انفجر رأسي بهمسات ذلك اللعين ، ووصلت إلى الطريق أتنفس الصعداء ، وما أن رفعت رأسي إلى السماء أملً ا في شهيق نقي يثلج صدري حتى لمحت ارتعاش سواد الليل عن لونه القاتم . وقد اخترقه خيط أرزق هادئ يشير إلى اقتراب الفجر ، فعلمت أني تأخرت حقً ا عن لقاء الأميرة .

خرجت إلى الطريق الرئيسى فهاجمني الصقيع برعشة جرت بجسدي ، فتحركت بياقتين مرفوعتين من البالطو الشتوي الذي تدهورت حالته منذ معركة بركة الأسطورية ، وأنا أرسم أمام عيني احتمالات اللقاء الغامض للأميرة إمتثال في ذلك الوقت المتأخر .

قطع سيل أفكاري صوت مريب لحركة تزحف في الظلام حولي ، حاولت تجاهل الأمر في البداية ، لكن تعاظم الصوت باقتراب صاحبه زاد عليّ رعشة الصقيع رعشة أخرى من القلق ، وعندها لمحت بركن ضيق من جانب عيني ظلً ا يتحرك في سرعة مقلقة خلفي ، التفت إليه مسرعً ا ولكن .. اختفى في اللاوقت إلى ظلام الطريق مرة أخرى .

وقفت للحظات متجولً ا ببصري بين ثنيات الطريق ، شعرت بخطر لم يفهمه عقلي ، بل انتفضت له جوارحي دون سبب واضح ، فهممت بالسيطرة عليه وأنا أصارع ظنوني الطفولية التي همست في قسوة تعتصر أذني ، « ربما أصبت بلعنة جلنار ! بعدما أقحمت أنفك داخل أسرار قصتها ».

هل تطاردني فيروز لتحصد روحي أنا الآخر؟!

وقبل أن أصرف تلك الفكرة الساذجة عن رأسي وأنا الطبيب العقلاني المحنك ، شعرت بأنفاس آدمية تحرق مؤخرة رأسي ، وعندها فاض الكيل .. انفرجت قدماي دون أن أشعر ، وقذفت بي إلى ركض لاهث هربً ا من المجهول !

عبرت عدة منعطفات لطرقات غاب عنها المارة ، غمر الأدرينالين عروقي حتى فاضت به ، وانسكب بغزارة داخل مستقبلات الإحساس لديّ ، فضاعف من قوتها ، حتى أني كنت أسمع أنفاس من قرر مطاردتي ، وعلمت من انتظامها أنه معتاد على ذلك المجهود البدني ، خطفت ملتفتً ا نظرة قصيرة لهيئته ، فلم أر إلا سترة سوداء يتطاير جانبها الأيسر في الهواء .. بينما يعطل جانبها الأيمن عن الحركة شيء بارز أسفلها ، عندها لم يكتف الأدرينالين بسمعي وبصري فحسب .. بل غمر عقلي أيضً ا حتى وصلت لاستنتاج غير قابل للنقاش .

لم تكن فتاة كالتي وصفها كامل باشا ، بل كان رجلا في سترة سوداء .. وما كان ذلك البروز أسفل جانبها الأيمن إلا سلاح ناري !

ولكن.. من الذي يريد قتلي؟!

كان سؤالٌ اختار وقتً ا حرجً ا لإجابته ، فلم أفعل ، بل زدت من سرعة ركضي ، وأنا لا أعرف من الأساس لماذا اندفعت للهرب ، ربما كان يجب أن أواجه صاحب الظل الغامض ، لكن الأوان قد مضى حقً ا ، ولم يكن عليّ سوى استكمال تلك الرحلة المتعرقة إلى نهايتها .

رأيت سيارة أجرة على رأس طريق قريب ، فانطلقت إليها بقفزة أربكت غريمي ، وارتميت بالمقعد الخلفي صارخً ا : جامع بن طولون !

هدأت لحظيً ا وقد كشفت لي مرآة الصالون سقوط الرجل وهو يحاول اللحاق بسيارة الأجرة ، اعتدلت وحاولت أن أفرغ شحنة الادرينالين بالتدريج ، فهدأت أنفاسي .. وأثقل التعب جفنيّ

فأغلقتهما في اطمئنان ، حتى مر على هدوئي المؤقت ما ظننت أنه دقائق .

كان صوت محرك السيارة هو فقط ما يغلف الصمت ، حتى تحول إلى صمت مزعج هو الآخر ، لم يقطعه إلا صوت السائق ، فأخرجني من ظلمتي القصيرة :

- لا تقلق يا أفندي.. لدي مخبأ لا يخطئه أمثالك.. (ثم نطق في استمتاع) والله «براوا» يا أبناء مصر..

وكأن الليلة كان ينقصها ذلك الرجل، مسحت قطرات العرق الشتوي في حيرة مما يقول: ماذا تقصد؟

نقل بصره بين مرايا سيارته متأكدً ا من عدم ملاحقة أحدهم لنا ، ثم أخرج سيجارة رخيصة مبتسمً ا ومررها لي من فوق كتفه باسمً ا : عفّ ـر يا أفندي والتقط أنفاسك .. يبدو أنها عمليتك الأولى ..

راقبت ملابسي وقد تدهورت حالتها ، وأصبغها ارتطامي بجدران الطريق خلال محاولتي الأخيرة للهرب بطبقة من الاتربة المتسخة فوق بقع الدم التي أهداها إليّ رجال المحروسة ، ولاسيما أن سقط طربوشي وأنا أمرق من منعطف حاد ، لهذا ربما ظن ذلك السائق أني مجرد « أفندي » خرج لتوه من أمر ما ..

- ألست مع الفدائيين الذين أطلقوا النار على داود باشا؟

-نعم؟!

ء ء ء

أصابتني الصدمة بغضب فوقي لم أفهم سببه: أي فدائيين أيها الأبله؟!

ابتسم وهو يُ هدئ من روعي : حِ لمك يا أفندي .. فأنا لست بخائن .. « محسوبك » له تاريخ طويل من النضال .. فاطمئن .. و ...

ضربت مؤخرة المقعد المجاور له في غضب : لا يعنيني ماذا كنت .. فقط أقلني إلى جامع بن طولون دون حديث لا طائل منه .. فأنا لست من تظنه ..

اعتدل إليّ في ريبة ولم يبال بانفلات نظره عن الطريق : لست من أظنه؟ فلماذا إذً ا كان يطاردك البوليس السياسي؟ ! (انتبهت فأكمل) نعم إنه أحد ضباط البوليس السياسي وليس فقط أحد مخبرينه .. ولا يعني ذلك إلا أنك فعلت أمرً ا خطيرً ا ..

أشرت إليه في ارتباك: توقف توقف! ولماذا أنت متأكد أنه البوليس السياسي؟!

زفر في ضيق : وهل يتوه أمثالي عن أمثالهم؟ توقف عن استجوابي يا ولدي لتختبر وطنيتي ، فوالله لم أعد أرغب في هذه الحياة إلا مساعدة من هم مثلك بعد أن وهن العظم .. ولم أعد قادر ً ا على حمل السلاح ..

اختلط عليّ الأمر ، ماذا لو كان ذلك الرجل محقً ا وأن ذلك المجهول الذي كان يطاردني هو حقً ا من البوليس السياسي؟ هل أخطأني بأحد ممن ظن أنهم أطلقوا النار على داود باشا؟ كلا .. لقد كان في انتظاري بالتحديد ، وكانت لديه فسحة من الوقت ليتأكد من هويتي .. فلابد أنه كان يقصدني دون غيري ..

ً ء

وإن كان هذا صحيحا.. فلماذا يسعى البوليس خلفي أنا بالذات؟

وبينما كنت غارقً ا في تلك الأفكار المتضاربة ، لاحظت تغير ملامح السائق ، حيث بدأ بمراقبتي بشيء من القلق ، فربما أقلقه إنكاري لادعاءاته ، فبدأ في الاقتناع بأنى لست فدائيً ا ، وأنه ارتكب خطأً كبيرً ا بكشف أمره أمامي ، وحينها آثرت اصطناع ما سينجو برقبتي ..

- أخشى أن أئتمنك على سرّي فتكون أنت أيضًا مع البوليس.. وتدعي غير ذلك..

احترفت خداعه بتلك العبارة ، فالتفت في لهفة وسعادة : أقسم لك أني لست كذلك .. ها ، أخبرني ما الذي تريد مني أن أفعله؟

هممت أن أنسج موقفً ا من الخيال يؤكد له أني فدائي بصدد تنفيذ مهمة ما ، لكن صوت احتكاك عجلات سيارته بالأسفلت صرعني باهتزازات خلعت عظامي قبل أن نتوقف فجأة ..

صرخت في انزعاج: ما الذي يحدث؟!

همس إليّ في غضب: ششششش.. أخفض صوتك.. البوليس!

أخفضت رأسي بدلً ا من صوتي وكأن الخوف أربك معاني الكلمات داخل عقلي ، وراقبت بعيني من خلف مؤخرة المقعد الأمامي ، تحركات عناصر البوليس المختلطة جيئةً وذهابً ا بالقرب من حاجز صنعوه عند مفترق الطريق ، ربما كان بسبب اغتيال ذلك الداود . مال السائق عليّ بوجه منتفخ وعين جحظت في لهفة : أقسم لي أنك ممن قتلوا داود باشا .. أقسم ..

راقبته في صمت وحيرة وقد هربت الكلمات مني فأكمل في إلحاح : أرجوك يا ولدي .. لا أرغب في الموت بجسد دافئ تحت أغطية الولايا .. أريد أن أموت بطلً ا ..

كان الرجل في حالة هيستيرية من اليأس ، كمن كانت نجاته في نسج كذبة عليه أن يصدقها ، حاولت أن أخبره بالحقيقة حقً ا ولكن : إنك بطل بالفعل كما قلت .. ألم تخبرني أن لك تاريخً ا طويلً ا من النضال؟ .. فـ ...

صاح بي بقوة بعين دامعة : يا ولدي ! (تنهد في حزن) لـ .. لا أذكر حقً ا تلك الأيام .. فقد أصابتني طلقة انجليزية منذ اللحظة الاولى لتظاهراتنا احتفالا بعودة سعد باشا .. وأعجزتني عن أي عمل فدائي حتى اليوم .. (اهتز وجهه لبكاء) أي قصة بطولية هذه؟

أسقط رأسه المهتز أرضً ا في خجل وعدل من التواءته من مقعدي الخلفي ، ونظر أمامه وقد لمحت لمعة دموعه تحت ضربات الإضاءة الوهاجة التي أطلقتها مصابيح العساكر . خلبت كلماته قلبي ، وعلمت أنه يمر بحالة من الشعور بالخزي تجاه حياته السابقة ، لم تكن حالة صعبة لتشخيصها ، بل على العكس ، كان نموذجً ا مثاليً ا لأوائل ما درسنا من الحالات في فرنسا ، مما أصاب العديد من جنود الحرب العالمية الأولى ..

ودون أن أسمح لنفسي بالتفكير ، أشفقت عليه وقررت أن أسوق إليه ما يبعث على سروره : أقسم لك أني من قاتلي داود باشا !

كيف فعلت ذلك؟ كيف نطقتها؟ مالي والسياسة ، ومالي وعجوز خرف يريد أن يعجل بموته ، كان ما فعلته أكثر ما أقدمت عليه حماقة من الأفعال اليوم .. وهم كُ ثر !

تهللت أساريره وعلم أن تهريبي من السلطات يعد بمثابة مشاركته في ذلك العمل البطولي ، وقبل أن يترك لي مجالا للتراجع عما قلت ، اعتدل في حماس وعبوس وكأنه يستعد لأمر ما : حسن ً ا إذ ً ا .. لقد أغلقوا طريق المنيرة .. ولا هرب منهم سوى من تحت أنوفهم !

حاولت استباق فعلته: فقط أنصت إليّ فأنا...

قطع عبارتي بقصة أخرى من رواية الحُ مق القصير ، أضاء مصابيح سيارته الأمامية فالتقطت أعين العساكر ، والتفت إليّ في لهفة ممسك ً ا بلفافة غامضة من منديل يد : سأجذبهم إليّ ، ولتتخذ أنت ذلك الطريق الخلفي .. حتى إذا نجحت في إلهائهم يكن لديك من الوقت للوصول إلى ميدان السيدة زينب ! ادخل المسجد واسأل عن الشيخ علي العجمي .. سيتدبر أمرك .. هيا !

وأسقط في يدي اللفافة الثقيلة وحلّ ربطتها أمام عيني..

كانت مسدسًا غليظًا!

راقبت اقتراب العساكر من السيارة ، واهتزت يدي بما تحمل من سلاح لم أطلبه ، فضربني السائق في كتفي بقوة وهو يمتطي جسدي ليفتح لي مقبض الباب المجاور لحصري : هيا اهرب .. لقد أشعلت المصابيح العالية .. فلا يراك أي منهم الآن .. هيا ! انطلق !

تسمرت في مكاني وقد غلبني الرعب ، فلامست مقدمة السيارة أجساد العساكر وهم يتحركون ببطء ، فلم يجد العجوز بد ً ا من دفعي بالقوة وقد سقطت أرض ً ا ، وضغط بكامل قوته على دواسة البنزين .. وعندها ..

لم أعلم أيا منهم اصطدم بالآخر أولا.. سيارته وأجساد العساكر؟ أم رصاصاتهم وجسد العجوز؟

***

لم أسمع منه غير كلمة واحدة قبل أن أركض بلا عودة « فقط لا تنس اسمي .. عوض السايس !»، بدا حريصً ا على كتابة اسمه على لوحة البطولات .. وظن أن ذلك الأحمق الذي ضحى بحياته من أجله يُ حسن الكتابة .

استفقت من غيبوبة الإرهاق التي حلت بجسدي بعد ركض طويل ، فتحت عيني وقد ظننت أنها مازالت مغلقة ، فالظلام يسود ذلك المكان المجهول ، غير أن فتحة مائلة بجدار بدا خشبيً ا ، أفلتت حزمة رفيعة من ضوء أصفر متراقص ، فحاولت النهوض إليها لكن أيد خرجت من بين السواد وأجلستني في غلظة وقد همست بصوت مخيف : « لا تتحرك الآن !».

التفت حولي في هلع وأنا أحاول تحديد مصدر الصوت المخيف ، ولكن الظلام حال بيني وبين تلك المهمة البائسة ، خرج صوتي في قلق حاولت إخفاءه للحفاظ على مكانتي : أ .. أين أنا؟

لم يجبني أحد ، وعاد الظلام إلى الصمت مرة أخرى ، فأصبحت أسيرً ا بين فكيهما ، فكرت في النهوض ، ولكني خشيت اليد الغليظة ، فآثرت الجلوس دون حراك على اكتشاف الحقيقة ودفع ضريبتها من تهشم لعظام كتفي .

وعلى غير المتوقع، هتف صوت عذب واخترق الجدار المائل بكلمات قليلة: الدار أمان!

عادت اليد وأنهضتني وتحركنا في خطوات متعرجة حتى ذلك الجدار الخشبي ، اصطدمنا في طريقنا القصير بعدة عقبات أرضية لأشياء رقدت أرضً ا دون أن أعرف هويتها أو حتى أستنبط من ملمسها حقيقتها . وأخيرً ا وصلنا إلى الجدار وعبرناه إلى الداخل ، أو بالأحرى إلى الخارج ، عندما علمت أني كنت في مخبأ سري داخل إحدى غرف مسجد السيدة زينب .
هكذا قال الشيخ المسن وهو يدلك لحيته ببعض من ماء الوضوء .

انتهى طفل صغير من صب عمود من المياه على قدمي الشيخ من كوب معدني متسخ ، فابتسم الاخير وربت على كتفه قبل أن ينظر إليّ : رضي الله عنك يا فرغلي .. اسبقني إلى الصلاة وسألحق بك ... (ثم رمقني في هدوء) اطمئن أيها الشاب !

ركض الطفل خروجً ا من الغرفة الواسعة وأغلق الباب خلفه ، بينما فرد لي صاحب اليد الغليظة حصيرة خشنة أرضً ا ودفعني للجلوس عليها . وقد رأيت أخيرً ا هيئته . كان رجلً ا طويل القامة ، أسود الوجه ، بجلباب رمادي طويل وعمامة خضراء أحكم ربطها حول جبهته في قوة تناسب غلظته . ثم اتجه إلى الشيخ يساعده في إخفاء صلعة رأسه أسفل عمامة خضراء أخرى .

ابتسم لى الشيخ المسن : من حسن مقدرات الله أنك لم تكن بعيدً ا عن المسجد .. وإلا لأصبحت لقمة سائغة بين أسنان البوليس ..

راقبته في جمود: من أنتم؟

اقترب مني في لطف بالغ : لقد شهدنا بطولة عوض السايس وهروبك من سيارته .. ولولا تدخل « أنصاري » (وأشار إلى الأسود الغليظ).. لطالتك رصاصات العساكر بدلً ا من كعب بندقية أحدهم ..

أغمضت عيني في إرهاق ، وتذكرت ذلك العسكري الأبله وهو يطاردني رافعً ا بندقيته في الهواء قبل أن أغيب عن الوعي . وزدت من إغلاق جفنيّ غضبً ا مما أصبحت جزءً ا منه دون إرادتي . فظن الشيخ وتابعه الاسود أني فدائي شارك في قتل داود باشا كما ظن السائق المسكين سابقً ا .

رفعت رأسي وواجهت الشيخ في محاولة بائسة وربما تكون انتحارية لإنهاء هذا المسلسل السخيف من سوء التفاهم : لست ممن !!!! ...

قطعت كلماتي نقرتان على الباب الذي أغلقه الطفل منذ لحظات ، اتجه الأسود إلى الباب وتلصص في حذر من خلال أحد ثقوبه متبينً ا حقيقة الطارق ، ودون مقدمات فتح الباب في سرعة ، لينفلت منه ثلاثة شباب في ملابس أزهرية قبل أن يُ غلقه الأسود مرة أخرى .

أشار إليّ أحدهم وهو يسأل الشيخ في ريبة: من هذا؟

ابتسم له الشيخ وأشار له بالاطمئنان: بطل مثلكم!

تنفس الشاب وصديقاه الصعداء ، ثم بدأوا في خلع ملابسهم دون تردد ، حلّ أحدهم رباطة العمة من حول اسطوانة طربوشه الاحمر ، فلم يبق غيره على رأسه ، وتخلص كل منهم من جلبابه حتى ظهرت ملابسهم الحقيقية . مجرد طلبة في سترات رمادية وفى حالة رثة .

اقترب مني أولهم مادً ا يده بالسلام : لم أرك من قبل وإن كنت تبدو مألوفً ا .. ما الذي فعلته الليلة ليطاردك البوليس؟

ء ء ء

ألجم الخوف لساني فلم أجب، فأجاب الشيخ: كان ممن قتلوا داود باشا!

التفت إليّ المرتاب في عبوس وقد لاحظ توتري: حقا؟!

أومأت له عدة مرات في قلق هيستيري بالموافقة وقد هجم الخوف على جسدي ، فانتفض واقفً ا وقد فهم بفراسته أن الكذب يفوح من لساني حتى وإن لم أنطق به . أشار إلى صديقيه في غلظة : فتشوه !

اندفع الشابان تجاهي وأنهضاني في قسوة ، حاول الشيخ التدخل ، لكن الشاب منعه في لطف . ولم تمر ثوانٍ حتى أخرج أحدهم المسدس الذي أعطانيه السائق ، وأخرج الآخر شيئً ا لعنت بسببه فرنسا وكامل طلابها ..

كان التومباك التركي الذي أدمنت تدخينه مؤخرًا..

أمسك زعيم الشباب لفافة التومباك الجلدية وراقب هيئتها الفاخرة وقرّ بها من أنفه ، فاخترقت رائحتها العطرة شعيرات انفه ، وعندها نظر إليّ بنظرة حقد بالغة وكأنه عرف الحقيقة : بِ كَ؟ أم باشا في هذه السن الصغيرة؟

أخرج الشاب بطاقة العمل الخاصة بي، وما أن قرأ ما فيها حتى نظر إلى الزعيم وأجابه: بل بكِ!

امتقع وجه الشيخ الذي كان بشوشً ا ، بينما زاد عبوس الرجل الأسود وقبض على المسدس الذي وجدوه بحوزتي ، وألصقني الشابان الآخران بالحائط في قوة ، وأخيرً ا اقترب الزعيم في بطء كليث يراقب فريسته ، وحدث الشيخ دون أن ينظر إليه وهو يراقب وجهي في غضب : ربما حان الوقت لرفع أذان الفجر يا شيخنا !

تحرك الشيخ بلا مقدمات خروجً ا إلى ساحة المسجد ، وسحب الشابان جسدي تجاه الغرفة الداخلية مرة أخرى ، حاولت المقاومة واهتز جسدي تحت قبضيتهما ، فأطبق الأسود كفه على فمي وخرجت تأوهاتي كأنفاس مكتومة من أنفي ، حتى صرعت على صوت جهور يؤذن للفجر .

كان الصوت مرتفعًا حقًا، وكان مناسبًا للتغطية على صوت الطلق الناري الذي سيستقر برأسي.

دفعني الاسود داخل الغرفة ، فارتطم جسدي أرضً ا في الظلام مرة أخرى ، وتلمست المعوقات الأرضية التي عرقلت سيرنا السابق ، وبين لحظة وأخرى عرفت من ملمسها ما كانت حقً ا ، لولا أن جاء الأسود بكلوب ناري مضيء ، فتطابق ما لمسته مع ما رأيت .

مقبرة لعساكر الإنجليز!

صرخت بهم في فزع: توقفوا! لست خائنًا أقسم لكم بـ...

صاح الزعيم: أغلق فاك! و...

قاطعته في غضب : بل استمع إليّ!! أنا .. أنا مجرد طبيب .. جئت من فرنسا منذ شهرين فقط .. ولا دخل لي فيما تفعلون لا أنتم ولا الإنجليز ولا القصر حتى ...

غلظ أحدهم في عنف: وما الذي جاء بك إلى هنا؟ ولماذا تدّعي أنك قتلت داود باشا! وقد هرّبنا قاتليه للتو!

ابتعدت بجسدي إلى الخلف في ضغطات على أوجه وأقدام الجثث المكتظة حولي زادت من هلعي : اا .. لـ ... لم أدع شيئً ا .. لـ .. لقد كنت غائبً ا عن الوعي .. واستفقت وقد وجدت نفسي هنا ..

تقدم الأسود إلى زعيم الشباب : كان مع عوض السايس ! (ضربني بقدمه في قوة) استشهد عوض برصاص البوليس وهو يحمي هذا الكلب ! ربما ظنه ...

بهت وجه الشباب عندما نقل إليهم الأسود خبر موت السائق ، وفى ثوان تحوّ ل الحزن إلى غضب ، فانتفضت والعرق اللزج يغرق وجهي : أنا .. أنا أحذركم من قتلي .. فأنا على علاقة وثيقة بالقصر .. اا .. أنا عزيز بك قاسم .. بن قاسم باشا فريد و ....

ألصق أحد الشابين مسدسه برأسي في غل كاد أن يحفر دائرة بلحم جبهتي وصاح : أتظن أننا نخشى كلاب القصر من الباشاوات؟ انظر حولك أيها المتغطرس .. لقد قتلنا داود باشا شخصيً ا .. وليس قتلك بالأمر المستحيل ..

تقدم مني الشاب الآخر ورفع مسدسه بوجهي: ما كان نسبك الذي تتفاخر به.. إلا سبباً أكبر لقتلك!

ء ء

وأطلق طلقة قوية صفعت بهوائها جانب عيني قبل أن تستقر بصدر جثة جاورتني!

انتفضت في هلع وقد ظننت أن الطلقة أصابتني ، وقفزت كالمجنون مترنحً ا بحثً ا عن مخرج من تلك الغرفة ، فجثم الاسود على صدري وهمّ الشاب ان يطلق الرصاص مرة أخرى لولا أن صاح بهم زعيمهم :

«بل توقفوا!»..

التوت رقابهم جميعً ا تجاهه في تعجب ، بينما وقف هو فى ثبات وهدوء ممسكً ا ببطاقة العمل التي ألقى بها أحد الشباب وقت استدراجي : عزيز بك بن قاسم باشا فريد؟ !

أومأت له وقد اختلطت أنهار العرق بدماء جُرح وجنتي، ولهثت في يأس: أجل أجل!!

رفع نظره إلى سقف الغرفة متنهدً ا ، وغاب لدقائق مفكرً ا في أمر ما ، ثم أشار لهم بالابتعاد عني ، فصاح به الاسود : ماذا تفعل؟ !

أشار له بالصمت وتقدم ناحيتي ، وهبط على قدميه في جلسة القرفصاء وحدق بملامح وجهي : في الواقع لا أعلم إن كان ذلك الأمر سيمد في عمرك .. أم سيعجل بانقضاء أجلك ! لا بأس .. سنعرف عندما تستيقظ !

اعتدلت له في حنق: استيقظ من مـ...؟

وقبل أن أتم سؤالي الغاضب، أصابتني ضربة أخرى أحالت الدنيا إلى ظلام.

***

خيالات لا حصر لها ولا معنى . أرى إيماءة تأخرت من لوحة زيتية . يضرب أذني صوت الطرق على الجدار . إصبع مدمم يمر على خطوط كفي . أعرف الحقيقة . لقد قتلت ولدي . أحببتك وسوف تصبح ملكي . همست لها : جلنار؟ ظننتك غيرهم . كن عنيفً ا . طربوشه مائل وشرفه قائم بالكذب . لوّ حت لها قبل أن تخرج من صندوقها الخشبي . الإيماءة أصبحت ابتسامة . زيت اللوحة يغلي . طست ممتلئ برؤوس الإنجليز . أحببتك في المنام . فيروز . كان الخنجر لأخيك . كانت ساقطة . رب الولايا . من أين جاء به . مولانا الملك . بركة . دخان أخضر من غليون نحاسي . منديل وردي استحال سوادً ا . قبّ لني . حِ زْ مَ ة جرجير بألف جنيه . سعد باشا . عمري . اهرب . فيروز . قدماي تذوب في المِ لح . ابتسمت . لن أنجب . اقترب يا ابن ضاحي . فيروز . عمري . عمري .... عزيز !!

انتفضت في قوة صارخً ا ، ضاق صدري بأنفاس متسارعة ، فتحت عيني في ألم وأنا ألهث من الخوف ، أزاحت يد ناعمة كفها على وجهي في لطف ، كانت الرؤية غائمة ، وكأن ستارً ا من الماء يفصل بيني وبين من حولى ، عصرت جفنيّ أملً ا في إبصار أكثر وضوحً ا ، حتى عادت الرؤية إلى الوضوح تدريجيً ا وقد قايضتني على ألم غير محتمل يجول بعظام رأسي .

«حمدًا لله على سلامتك يا عمري»..

كنت نائمً ا بين أحضان ليلى على فراشي بقصر كامل باشا ، رفعت بصري فوجدتها تبتسم لى بعين دامعة ، حاولت الاعتدال فرأيت كامل باشا نفسه جالسً ا على مقعدٍ في مواجهتي ، كان منحني الظهر تجاهي ، وقد أسند مرفقيه على فخذيه مراقبً ا وجهي في صمت .

همست في إرهاق: ما الذي حدث؟

مسحت ليلى بيدها جبهتي عدة مرات كمن يدلل كلبه الأليف وألصقت وجهي بنهدها في حنان كرهْ تُ ه : ألا تذكر؟ لقد سرقك بعض اللصوص وتركوك جريحً ا حتى طلع عليك النهار .. إنه ذنبي يا عمري ، لولا عراكنا الأخير وتركك لبيتك وفراشك لما تعرضت لكل هذا .. ولكن لا تقلق ..

مالت على أذني في همس: سأسمح لك بردّي إلى عصمتك اليوم.. فلننس ما حدث ولنكمل ما بدأناه يومها!

لم يحول كامل باشا نظره عني ولو لبرهة ، فقط كان جامدً ا في جلسته دون أن يطرف له جفن : اتركينا لدقائق يا ليلى !

قالها في حزم ، فضربت وجهي بكفها وزادت من احتضاني في غضب : لا ! لن تنال منه اليوم بكلماتك السخيفة .. ألا ترى حالته؟ !

نهض في غضب : هل ترضين أن تستدعيه الشرطة وهو بهذه الحالة للاستماع إلى أقواله؟ سآخذ أقواله وأنقلها إليهم بنفسي لأوفر عليه مشقة التعامل مع أمثالهم .

ء ء

حاولت النهوض لولا آن زاد غضبها فأطبقت على صدري بقوة ونهضت في مواجهته: كلا! بل...

صِحْتُ بهم: فلترحلا معًا إلى الخارج!

نظرت إليّ ليلى في عتاب باهت ، بينما مال كامل باشا بعنقه وحدثني بنظرة غريبة : ما أردت إلا راحتك يا ولدي .. ألا تعرف عوض السايس؟

لطمني ذلك الاسم في قوة أوشكت أن ترسل بي خارج الوعي مرة أخرى ، اعتدلت في صدمة متوجسً ا ، وقد زاد من غرابة نظرته بشبح ابتسامة رسمها في حذر على وجهه ، فبدا مرعبً ا ، بينما نقلت ليلى نظراتها بيني وبينه في جهل : من عوض السايس؟

هربت الكلمات غوصً ا إلى قاع حلقي حتى كدت أختنق بها ، لكن كامل باشا نطق على غير المتوقع : إنه الصاغ الذي أرسله قسم الشرطة لاستجواب زوجك .. وهو رجل حاد المزاج .. فما أردت إلا أن أواجهه بنفسي وأوفر عليكما مشقة مقابلته ..

انتفخت ليلى في عزة: حاد المزاج؟ مع من؟ مع زوج ليلى هانم؟! سأقابله أنا و...

قاطعتها في هدوء وقد تأكدت أن كامل باشا يعرف الحقيقة: بل اتركينا يا ليلى.

ّّ

نظرت إليّ بالتواءة عنيفة من عنقها في حنق من انتصاري لكلمة والدها، فأومأت لها في هدوء أن تفعل.

خرجت بضربات اهتزت لها أرض الغرفة وصفعت الباب خلفها في غضب ، فابتسم كامل باشا وتأكد من إغلاق القفل الذهبي والتفت إليّ في جمود : أوشكت أن ترمّ ل ابنتي حتى وإن طلقتها !

اعتمدت بذراعي على الفراش جالسًا في ريبة: ما الذي يحدث؟

اقترب وجلس إلى جواري بحافة الفراش: أخبرني يا عزيز.. هل تؤمن بالصدفة؟

واجهته في غضب وقد بدأت أتلمس الطريق في حديثه: لا!

أجاب في نفس اللحظة: ولا أنا!

اعتدل في جلسته ورفع رجلً ا أراحها على الفراش وشرد في هدوء : كان عوض أبً ا لأربعِ بنات .. سميرة .. فوزية .. سلوى .. وهدى .. رفض أن يتزوج بعد وفاة زوجته الأولى .. وعاش مخلصً ا لبناته .. لم يغادر في الصباح ولو لمرة دون أن يجتمع ببناته على طاولة إفطار

واحدة .. حتى وإن كان ما عليها رغيف عيش وطبق شبه خالٍ ، كان ماهراً ا بلعبة الطاولة .. ولم يدفع قرشاً ا واحداً ا على قهوة بلدي لمشاريب راهن أصدقاءه على ثمنها إن فاز عليهم .. لم يحنِ رأسه أمام باشا طوال حياته .. ولم يرفع جبهته عن الأرض طالما وافق سجوده ميعاداً ا لصلاة بجامع السيدة زينب ، عوض كان مجاهداً ا في شبابه .. تمنى الموت كثيراً ا على يد أعدائه ليُ خلّ د بطلاً ا حتى ولو لم يذكر أحد اسمه .. عوض ..

قاطعته في حزن أثقل كاهلي : مات دفاعاً ا عن أبله لا يستحق دمائه ! أليس كذلك يا كامل باشا؟ أم عليّ أن أناديك منذ الآن بـ ... « عطوة زعيم الفدائيين » ؟ !

ابتسم نصف ابتسامة: لا تبدأٍ بالخلط الآن.. واستمع إليّ جيدا!

شعرت بخزي لا حدود له: ألهذا السبب أعتقني رجالك؟ أني زوج ابنة رئيسهم؟

راقبني في تعجب : عجيب هو أمرك .. لقد كشفت لك سراً ا خطيراً ا للتو .. ألا تتخذ بعض الوقت حتى ليتقبل عقلك الصدمة؟

ابتسمت في سخرية : هل على الدم أن يتجمد بعروقي عندما أعلم أن حموّ ي الباشا .. المقرب من البلاط الملكي هو فى الحقيقة .. فدائي داخل سترة غالية؟ لقد رأيت امرأة تنحر عنقها أمام عيني يا باشا .. (قلتها في غل) مرتين ! ولم يطرف لي جفن من الصدمة !

تنهد في تقبل لغضبتي : لست خائناً ا لجلالة الملك يا عزيز .. بل أعذره لضعفه أمام الانجليز .. وأفعل ما يتمنى فعله ولا يستطيع .. كل مصري يتمنى أن يفعل ما أفعل ..

واجهته في اتهام : كنت تعلم أن داود باشا يسكن بجوار مكتبي .. لذلك كنت تتردد عليّ طوال الأسبوعين السابقين .. لإعداد الأمر أنت ورجالك .. ليس هناك من فيروز .. ولا شبح قتل حبيبتك .. أليس كذلك؟ فقط كانت قصة جيدة تسيطر بها على الطبيب الساذج ليتسنى لك فعل ما تريد ..

أجاب في خجل : بعض مما قلت صحيح .. (زفرت في ضيق فعاد مؤكدً ا) قلت بعض ! ليس كل .. ولا أغلب .. ولا نصف ! فقط بعض !

- فلتتحدث إذًا عن ذلك الـ«بعض»..

اقترب من وجهي في حنق : انضج يا عزيز .. هل تظن أن ما كل يحدث حولك مجرد أفعال عشوائية لا يمت أي منها للآخر بصلة؟ كل همسة وحركة وسر أطبقت عليه الصدور .. مجرد خيوط داخل عباءة كبيرة من شيء واحد ..

غلبتني الحيرة فهدأت ثورتي: لا أفهم..

أومأ بتجاعيد صغيرة برزت بجوار عينيه وكأنها ابتسامة خفية : فلتنصت جيدً ا .. من كلّ ف جُ لنار بإغوائي؟ مصطفى باشا الورداني كما أخبرتك .. وكما اعترفت هي لي .. أليس كذلك؟ سافر ذلك الريفي إلى لندن لمحاولة تزكية داود باشا عندهم ولإجبار الملك عليه لتوليه رئاسة الوزراء بعد انتهاء الانتخابات ، في الوقت الذي تعمل فيه جلنار على تلطيخ سمعتي لإحراجي وطردي من الساحة السياسية ، ولكنها لم تفعل ، بل عشق كل منا الآخر ، وقررت مواجهة الورداني ليرفع سيفه عن عنق جُ لنار .. سر حقير كان يهددها بكشفه إن لم تطيعه ..

اندمجت دون آن آشعر فيما قال: وما هو ذلك السر؟

تنهد في ضيق : طفل أنجبته من يوزباشي بالجيش دون زواج بالطبع .. أخفته عن أعين الكل .. ولكن أباه الساذج قرر أن يكتبه باسمه ويتحدّى الجميع .. ولجأ إلى زوج أخته الباشا الجديد لمساعدته ..

- وكيف عرف الورداني بأمر ذلك الطفل؟

-فى رأيك من هو زوج الأخت الكبرى لذلك اليوزباشي؟!

دفعت عبارته رأسي للوراء مندهشًا: مصطفى الورداني؟!

زفر في يأس : أرسل الشاب إلى فلسطين بالأمر المباشر ، ليتفرغ للضغط على جاريته الجديدة لمصلحته السياسية ، التي تلخصت في الإطاحة بي .. بأمر من ابنتي .. ليلى !

تحجرت نظراتي إليه، وكأن الصدمة أصابتني بشلل مؤقت: هـ.. هل كنت تعرف؟

أكمل دون أن يهتم : لست ساذجًا ، وكذلك لم تكن جلنار .. لم نكن فقط عاشقين تمنى كل منا أن يقضي حياته بجوار الآخر .. وإنما كنا شريكين في حرب .. حرب كُتبت على المحروسة قبل

نهضت في بطء وتحركت في حيرة بين طرقات الغرفة: وما علاقة ذلك بقتل داود باشا؟ وفيروز؟

تنبهت إلى شيء طعنني بجرح غائر بمنبت كرامتي: وأنا؟

أجاب في حزن متذكرً ا مأساته : عندما نجحت في العثور على الطفل .. كان في رعاية نعمة زوجة الورداني الأولى .. هددتها بسَ جن ابنها فرج إن لم تسلمني الطفل .. فوافقت وهي تعلم أن الورداني لن يحميه ، ظننت حينها أن الامور وصلت إلى نهايتها .. حتى تبدل حال جلنار بخيالاتها عن فيروز .. كنت أظنها جُ نّ ت في أول الأمر .. ولكن بعد أن رأيتها بنفسي علمت أن القدر يلعب لُ عبة أخرى ليجبرنا جميعً ا على التوقف عن تلك الحرب التي أشعلناها ..

التفت له مكملا : استغلت ليلى مرض جلنار وزياراتها السرية إلى طبيبها النفسي .. وسجنته باتهام باطل بانضمامه للإخوان .. لترسلها إليّ وأحصل منها على اعتراف بعلاقتكما .. حتى انتحرت !

همّ بالرحيل : كان انتحارها ، وإن حزنت له ، منجيً ا .. وإشارة لنا بالبدء في الخطوة القادمة .. الإطاحة بداود باشا !

أمسك بمقبض الباب ونظر إليّ في حزن : قررت استغلالك في أول الأمر كما فعلت ليلى .. ولكن تلك الجلسات التي كانت بيننا .. علمت منها عنك أكثر مما علمته أنت عني .. أنت طيب القلب يا عزيز .. ولولا أن وثقت بك لما قصصت عليك كل هذا .. ولتعلم .. أنت الآن داخل المعركة سواء رضيت أم لم ترض .. فلتتبع تعليماتي في الأيام القليلة القادمة .. وإلا لحقت بجلنار !

فتح الباب وهم بالخروج فاستوقفته دون أن أهتم بتهديده الأخير: وخطاب إمتثال هانم؟

تنهد في ضيق : كان كارثة بكل المقاييس .. لا تعلم الأميرة أن البوليس السياسي يتبع كامل مخاطبات الأميرات خارج القصر .. ولم يكن يعني ذلك سوى ...

أكملت في ضيق من انكشاف الامر : إرسال أحدهم لمراقبتي ! (نظرت إليه غاضب ً ا) وهل ظننت أن إخفاءه قد يُ نجي رجالك من الضابط الذي كان ينتظرني بالأسفل؟ !

أومأ في ابتسامة من سذاجتي: بل كنت أخشى أن يقبض عليك دون أن تدري.. ارتاح يا عزيز.. ولنا حديث آخر..

وما أن خرج نصف جسده حتى استدعيته مرة أخرى : قلت أنك لا تؤمن بالصدفة .. فكيف وأنا مكتبي تصادف أن يكون بجوار مسكن غريمك داود باشا؟ هل ما قلته صحيح حق ً ا .. أم أنها مجرد قصة خائبة أل ّ فتها الآن للتستر على خيانتك للملك؟

عاد مضطر ً ا وواجهني في ثقة : ممن اشتريت مكتبك يا بِ ك بالقراريط التي بعتها رغم وصية والدتك؟ ! امتلكت المبنى بأكمله قبل أسبوع من عودتك من فرنسا .. ولولا إلحاح أبيك عل ّ ي ما بعتك إياه !

أومأت في ابتسامة سخرت بها من نفسي وراقبت رحيله ، أطرقت رأسي وأنا أقلب عيني أرض ً ا في يأس من سذاجتي الواضحة وهمست لنفسي : أيها الأحمق .. قتل داود كان معد ً ا منذ البداية ، شئت أم أبيت ، أصبحت يداك ملطخة بدمائه ..

رفعت رأسي في استمرار لابتسامتي الساخرة ، وصرعت عندما وجدتها أمامي تراقبني في شر لم أعهده منها قبلً ا ..

غلظ صوت ليلى ومالت بعنقها في تحديق مرعب وقد سمعت ما قلت دون أن أنتبه لوجودها..

«وما علاقتك أنت بقتل داود باشا؟!».

-٧-

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

«لقي عزيز قاسم مصرعه في حادث سيارة في الثامن والعشرين من يناير عام ٤٩»..

قالتها في برود ، وكأنها أرادت أن تدفن تلك القصة البالية مع خبر موت العزيز . ظننت أن ذلك الخبر قد يثلج صدري ويربط قدميّ عن البحث وراء الخرافات . ولكنها لم تكن تعلم بأمر الرداء الوحشي . ولو علمت لقفزت من مقعدها في صدمة وشاركتني البحث ولكن .. أنَّ ى لي أن أخبرها بالحقيقة بعدما فعلت ما فعلت؟

قتل جلنار أصبح حتميًّ ا يا إيمان . أقسمت لنفسي كما اعتاد فرغلي أن يفعل « أما والله » كنت أتحرّ ق لإخبارها ولكن ..

قصص القتل لا تروى للخائنات.. بل يكنّ أحد أبطالها!

-٨-

فرج الورداني

١٩٧٧

« القصة طويلة ، ولكن من هذا الذي يسمع لعجوز خرف تخطى الخمسين من عمره ، ربما لم يشتهر العِ قد الخمسين من عمر المرء بعد بما يستحق أن يوصف بالكهولة والعجز ، ولكن ما رأيته في الثلاثين سنة الأخيرة ، ضاعف من سنوات عمري البائسة ، وجعل من الخمسين مائة ، إذً ا .. فأنا عجوز خرف في المائة من عمره .

حسناً إن كان الضعف حقًا.. فهي مائة وثلاثة، ثلث ما قضى َأهل الكهف في كهفهم!

ولكن لا يوجد ضِعف يؤدي بأي رقم إلى المائة والثلاثة.. ولكنَ.. ألم أقل أني أصبحت خرفاً؟

اعذرني يا ولدي .. تداخلت الكلمات وعاشر بعضها بعضً ا .. فأفرخت عبارات غير مفهومة ، فعمّ ك فرج مهووس بحساب الأرقام .. وحتى وإن لم يكن محاسبً ا عمل سابقً ا في بنك أو مصلحة حكومية ، بل كان شغفه بما هو أغرب من ذلك ، شغف بالأرقام حقً ا ولكن من مستوى آخر . ألا تعلم ما هي النسبة الذهبية؟ إنها مهمة للغاية في عملي . عددان ، إن كان

مجموعهما مقسومً ا على أكبرهما ، يساوي أكبرهما مقسومً ا على أصغرهما ، فهو يساوي رقما ثابت ً ا هو ١٠٦١٨ ، وهي النسبة التي استعان بها كبار الرسامين في لوحاتهم منذ دافنشي وحتى فرج الورداني .

آه! اعذرني.. ألم أخبركٍ من الأساس أني كنت رساما؟!».

ظننت أنه سيغادر بعد تلك المقدمة المرتبكة ، فما لصبي بسيط مثله ، في السادسة عشرة من عمره قرر أن يقتطع من وقت مدرسته للعناية بجاره العجوز أن يفهم ما هي النسبة الذهبية ، أو حتى يصدق أن ذلك الكهل النتن ذا الجلابية المتهتكة والإلحاحات المتتالية على أبيه صاحب البيت أن يترك له غرفة قذرة بالبدروم مجانً ا ينهي فيها حياته ، كان رسامً ا عبقريً ا .. لحّ ن بريشته العديد من السيمفونيات الجمالية لمئات النساء؟

ولكنه لم يفعل، بل ظل محدقًا بي في ضيق وكأنه مجبر على التلطف معي: أكمل يا عم فرج..

خلعت طاقيتي التي اعتادت أن تكون مشركزة ولكن .. خرقها الزمن بعدة فتحات ممزقة ، وأصبغها بلونين أو ثلاثة من ألوان القذارة واعتدلت : سوف تتأخر على مدرستك يا ولدي ..

ابتسم وضم رجليه في تربيعة غير مريحة أعلى مقعد الأنتريه القديم الذي اشتريته بجنيهين من عم رضا بائع الأثاث ، وقال ضاحكً ا : بل اليوم الجمعة .. ألم تصل الجمعة يا عم فرج؟

مالت رقبتي رغمً ا عني في بلاهة : على زماننا يا ولدي لم يكن هناك من يصلي سوى ثلاثة : الشيخ .. والمريض .. والفقير .. فأما المشيخة فلم أقربها .. وأما المرض ، فلم يظن الرب أنه مناسب لأمثالي ، لم أعطس لمرة واحدة في عمري .. حسنً ا .. ربما عطست عدة مرات ولكن ما أقصد ..

- تقصد أنك لم تعطس لمرض..

-تبدو أكثر ذكاءً مني عندما كنت بعمرك..

-والفقر يا عم فرج؟ ألست فقيرًا؟

ابتسمت بنفس البلاهة السابقة وكأنها تحولت إلى عادة مجهولة الأصل والسبب : أيام الملك لم يكن هناك فقراء .. فقط غلابة .. ولكن فقير؟ فكلا وإلا !

ارتأيته كمن أراد أن يسأل عن الفرق بين الفقير والغلبان ، ولكنه تعثر في نطق سؤاله بإيماءة موافقة من رأسه ، وكأنه يمنع نفسه عن التساؤل موافقً ا على ما همسٍ استقر بأذنه « هذا الرجل أبله ولا فائدة من مناقشته »، ثم نهض وهو يعيد آخر أزرار قميصه السفلية إلى مكانه بعدما انفرج من انتفاخ معدته أثناء جلوسه .. فقد كان شابً ا بدينً ا : سمعت أبي وهو يتحدث مع أمي أثناء فورة الورق .. يلعبان الـ « كونكان » ليلً ا كما تعلم لتصرفه أمي عن شرب السجائر .. مر الآن شهر ونصف على إقلاعه عنها (هذا الشاب كثير الكلام حقا) أخبرها أن السادات قال : من لم يصبح غنيً ا في عهدي فلن يصبح أبدً ا .. فربما يكون أفضل من الملك خاصتك ..

خاصتك؟!

هذا الشاب ذكي وكثير الكلام.. والآن ذو لسان أطول من قامته السمينة.

هاجمته في فوقية المسنين على غيره من الصغار: تبدو صغيرًا لتتحدث في السياسة.

استشعر هجومي فرده في وقاحة وهو يرتب لي الغرفة كما أوصته والدته : وتبدو كاذبً ا بشأن كونك رسامً ا وأحد كفيك ينقصه إصبع !

ارتج صدري من إهانته ، فلطالما عانيت من تلك العاهة التي أصابت يدي بعد ثلاثة أيام فقط من يوم مولدي ، واعتدلت له في حنق : هل انتهيت؟

مد يده أمام وجهي في صفاقة: الجنيه!

نسيت أن أذكر أنه يجالسني ويرتب غرفتي القذرة مقابل جنيه في الأسبوع .. ولكن .. ألم أقل من قبل أني خرف ينسى أكثر مما يتذكر؟

عمر المائة والثلاث يصنع أكثر من ذلك برأس العجائز..

فردت ذراعي بالنقود في وجهه ، وكأني أطلب منه الرحيل في مقابل ذلك الجنيه ، وليس في مقابل عمله البسيط بإشارة إلى الباب ، ففى لحظة وثانيتها لم أعد أرغب في رؤيته وقد لوح بعاهتي أمام وجهي ..

أذكر كم من المرات التي عيّ رنى فيها الجميع بإصبعى المفقود ، منذ جيراني الصغار بأرض والدي اللعين في البلد ونحن نبذر البذور بمتعرجات الكتل الطينية لأرض الباشا ، وزملائي في المدرسة الابتدائية وأنا لا أكاد أملك مهارة وعبقرية الكتابة بالقلم ، و « خوجة » اللغة العربية بنفس المدرسة وأنا أتلقى ضربات « خرزانته » على كف بأربع أصابع ، وحتى الساقطات اللاتي اعتدت على امتطائهن ليلً ا وفجرً ا وأحيانا ظهرً ا في شبابي .. ولست حقً ا هذه المرة في حاجة لذكر سبب معيرتهن لي لغياب الإصبع !

إلا واحدة لم تذكر الأمر على الإطلاق .. قابلتها لثلاثة أسابيع فقط من سنوات عمري اللاهثة ثم اختفت من حياتي الهادئة ، وجلبت برحيلها حياة أخرى من المآسي والأحزان .

آااهٍ .. لماذا أذكرك يا جُ لنار؟ وقد طاردتني شياطين الإنس والجان إلى جنتك ، عادوا مطالبين بحقهم في شجرة الخُ لد التي نبتت من دمع عينيكِ . لماذا يا جُ لنار؟ لماذا؟

كنت حينها في نهاية العِ قد الثانى من عمري ، شابً ا فتيًّ ا ولكن في الوقت نفسه ساذجً ا غبيً ا ، رأيتها للمرة الأولى بغرفة نوم والدي ، ولا أرغب حقً ا في وصف تلك الليلة حفاظً ا على ذكراه حتى وإن كان شيطانً ا تمنيت موته في كل يومٍ وليلة ، ولكن .. فوجئت بها مرة أخرى بقصر أفندار الذي وهبته لي زوجة أبي سرً ا لأتخذه مرسمً ا ولاحقً ا ربما يكون معرضً ا للوحاتي الصبيانية . وجدتها تقف أمام باب القصر ، تمامً ا كما كانت تقف أمام تلك النافذة وهي عارية ، يتنفس جسدها البض ضوء القمر الأزرق ، لكنها وقتها كانت تقف بملاءة لف سوداء ، أحاطت جسدها في التفاف جذاب ، في ليلة اختفى منها القمر هذه المرة .

كانت تواجه البوابة الحديدية العتيقة وهي تمسك بمجمع إصبعيها طرف الملاءة وتجذبه لجناح مفرود لطائر مغرد ، لتخفي ما ظهر من وجهها ، اقتربت من وقفتها دون أن تراني ، وانتهزت فرصة أن أراد الرب ألا يخلق لأحدنا عينين في مؤخرة رأسه ، والتصقت بهوائها الدافئ واشتممت عطرها كما تمنيت أن أفعل ليلة رأيتها ... وعندها ..

علمت أن الرب قد اختارها دون الجميع ليكسر بها قاعدة الخلق..

حيث نطقت دون أن تلتفت في صوت متهدج ذي بحة مثيرة وكأنها رأتني حقًا: كنت على وشك الرحيل!

ابتعدت عدة خطوات لا أذكر عددها إلى الوراء منتفضً ا في صمت ، ولم يغلف صمتي سوى صوت أنفاسي المتسارعة ، التي اختلطت أسباب سرعتها ما بين الحرج من موقفي ، والشهوة المستعرة تجاه جسد من استدارت لمواجهتي .

رفعت ستائر أهدابها السوداء ورمقتني بعينيها الماسيتين في هدوء : عليك أن تعتاد على حفظ مواعيد الأميرات ..

عقدت حاجبيّ في حيرة لم تناسب نجلي: الأميرات؟

اقتربت من جسدي فانتصبت في قلق: ألم تخبرك زوجة أبيك؟ معالي الماما كما تسميها؟

ما دام علمتِ ذلك اللقب فلابد أنها قابلتها حقا: أخبرتني أنها سترسل ساقطة وليس اااا...

تعثر لساني والتف حول نفسه معتصرً ا عبارتي في قوة آلمتني ، انتبهت لدعوتي لها بالساقطة ، بعدما علمت أنها أميرة علوية وافقت على مطلبي الفج برسمها عارية ، بينما نظرت هي أرضً ا في هدوء ومالت بعنقها في تهكم : لم أظن أن من مثلها قد تتفوه بتلك الألفاظ ..

ضربت برأسي الأرض خجلًا: أعتذر يا سمو الأميرة، ولكن...

نظرت إليّ مرة أخرى في ابتسامة بائسة: ولكنها لم تخطئ وإلا لما ناشدتني العراء لشاب مثلك!

غابت شهوة الجسد واعتلت أمواج الألم بضربات قوية لشاطئ روحي ، فاقتربت منها آسفً ا ، وقد اهتز قلبي لمأساة أحاطت بها ولم أفهمها : ربما .. ربما ترغبين في التراجع عن قرارك ..

انفرجت شفتاها القرمزيتان لابتسامة عريضة وأثقلت جفنيها في هدوء : بل ندخل من فضلك .. فالجو أصبح باردً ا ..

لم أدر حينها أجرت بجسدي رعشة النشوة لاستمرارها في ذلك الاتفاق المخجل ، أم كانت لشعوري بالذنب تجاهها؟ ! فأنا من يستغل أحزان امرأة من أجل غرض فني تافه .. ولكن ...

- هيا!

قطعت حبل أفكاري بنصل ندائها ، فتحركت خلفها ، وبينما استعدت لعبور البوابة حتى بدأت لوحتي في رسم نفسها في الحال ، حيث رفعت بكفها الأبيض ذي الانحناءة الناعمة فروع الأشجار الميتة ، التي تشابكت على درفة الباب الحديدي الصدئ ، وارتعشت يدها وهي تدفعه للأمام من الصقيع الذي ألم بمعدنه ، بطريقة اهتز لها كامل جسدها للحظة قصيرة ، فأفاضت على عيني بانحناءة أخرى لذلك الجسد المثالي .. فوقع قلبي ودُ فِ نَ أسفل قدمي .

تحركنا في خطوات إلى داخل القصر ، فعبرنا حديقته المقفرة ، التي أيتمتها ظلمة الليل وعصفت بأوراقها رياح الشتاء حتى أنها أصدرت صوت صفير هادئً ا ، وكأن كل ورقة نمر عليها تصرخ لأختها الغافلة بنبأ مرور أحدهم عليها . وتعالى الصفير تدريجيً ا وكأنه احتفال مبهج بوصولنا بعد أعوام مزقت فيها الوحدة الأغصان الخضراء ، وتحول ندى زهورها إلى ما بدا أنه دموع الفرح . كم أنتِ جميلة يا سمو الأميرة . حتى الأوراق تبكي فرحً ا لاستنشاق عبيرك .

وبينما كان الطريق طويلً ا ما بين تلك البوابة والقصر ، عبرنا ذلك الممر وهي تحدثني دون أن تلتفت إليّ كعادة اكتسبتها منذ لقائنا القريب : هل ظننت يوم رأيتني بغرفة أبيك أن أكون بطلة لوحتك !!! ...

قاطعتها رغمًا عني: فضلًا.. توقفي عن إهانة نفسك!

توقفت حقًا ولكن عن الحركة واستدارت لي: ولم ظننت أن في سؤالي إهانة؟

هربت من نظراتها وابتعدت ببصري إلى زهرة تربت على كتف أختها لتهدئها من بكاء الفرحة مع هواء الليل المظلم : تربيت على قصف الروح بالمعيب سموّ ك .. وإن سمعت بعضً ا منه وإن كان خفيً ا .. يقع في قلبي من فوره ..

حفرت هوة حسناء بباطن وجنتها اليسرى جاءت بصحبة نصف ابتسامة : هذا إن أهنتك أنت .. ولكني أهين نفسي كما قلت ..

نظرت لها أخيرًا وقد تحررت من الخوف بفعل الشفقة: لستِ أول من يطعن قلبه بيده سموّك..

عادت إلى سيرها وقد أكملت نصف الابتسامة بنصف آخر اختبأ خلف تطاير خصلات شعرها بالتفاتها : ربما لم تكن ساذجً ا كما ظننتك ..

ابتسمت للمرة الأولى وأنا أتبعها وقد احترفت بلاغة الغزل : كنتِ على حق عندما ظننتِ بي السذاجة .. فمن هذا الذي يرى حُ سنك ويحفظ وقاره؟

- وشاعر أيضًا.. يسعدني أن أخبرك يا ولدي أنك «ابن حرام»..

تسمرت قدماي لعبارتها ، فانتبهت إلى تأخري عن اتباعها ، فعادت في أريحية بعدما سبقتني ، وقد تخلت عن الرسمية وجذبت يدي لتسوقني مرة أخرى للتحرك ، وما أن مدت ذراعها لتمسك بيدي حتى سقطت الملاءة عن كتفها ، فأضاء القمر وجهي لكنه الآن لم يأت من السماء ، وإنما من إشراق جسدها : لا تغضب هكذا .. أقصد أنك لا يمكن أن تكون ابن الورداني .. فشاطئ المالح لا ينجب نهرً ا طيب العذوبة ..

أوقفتها عن الحركة وقد قبضت على يدها في خشونة كما يفعل الفلاحون ، فرفعت عينها إليّ في قلق ، وقد تحجرت ملامح وجهي : ولكني لم أغضب من عبارة « ابن حرام »..

راقبتني في حيرة قلقة وعينها تتراقص بين قبضتي على معصمها ووجهي المتحجر ، فملت على عينها وكدت أن ألتصق بوجنتها فارتعشت في خوف : ولكن من كلمة ولدي .. لست صغيرً ا يا معالي الماما !

راقبت قسمات وجهي التي انفرجت تدريجيً ا لابتسامة لم تلبث أن اتسعت لضحكة عالية ، فزفرت في اطمئنان غاضب وضحكت هي الأخرى ، فبرقت ضحكاتها حتى أضاء الليل وضربت كتفي : أوقعت قلبي يا ابن الحرام ..

ضحكت لها وتحركت معها إلى بوابة القصر الداخلية: تحدثين كبائعة جرجير يا سمو الأميرة..

عدلت الملاءة على رأسها في قوة مازحة وغطت نصف وجهها بها كحبرة معتمة فلم تظهر إلا عينيها الكاحلتين : بل كوسة يا أفندي .. خدامتك فاطمة ..

أقسم أن أذني لم تطرب لصوت هز الفراغ كما طربت لصوت ضحكاتها في تلك الليلة ، ولم أصدق حقً ا أن ذاب ثلج لقائنا الأول بتلك السرعة ، فقد كنت فلاحً ا ساذجً ا ربما أسرف في قراءة بعض الأشعار وحلق برأسه في خيال الكلمات والألوان وهو يتدلى من أعلى ساقية بلده الريفي وهي تدور حول محور ثابت من البلاهة ، وكانت أميرة علوية فائقة الجمال والمقام . كيف لمن مثلي أن يمزح مع من مثلها؟ كيف لمن مثلي من لم تلمس أنامل امرأة جسده من قبل أن يستقبل قبض كف تلك الفاتنة على معصمه ويقابل ضربة منها على كتفه دون أن يغشى عليه من فرط الصدمة؟ كانت جلنار حقً ا خلقً ا استثنائيً ا للرب ، فلجمالها سحر يأسر الناظرين ويعقد أجسادهم من الشهوة ، ولضحكتها وبساطة روحها ترياق لهذا السحر ، حتى تشعر أنها ولدت إلى جوارك ، كأخت أو أم أو ابنة طال انتظارها ، فلا تشتهي منها إلا ابتسامة تعبر أمام ناظريك كنسمة هادئة ذات عبير زهري .

وصلنا إلى الباب الخشبي أخيرًا ، وقد ظننت أننا لن نفعل إلا بعد دهرٍ كامل من السير ، كان الباب خشبيًا هذه المرة ، بني اللون ، ولكن اختبأت بنيته أسفل طبقة رمادية من خيوط عائلة من العناكب استقرت به بيتًا وتوارثته لأجيال وأجيال ، حاولت أن تفتح الباب بكفها الصغير فاستعصى عليها ، وعندها تقدمت أنا وضربته بكتفي في قوة مبتسمًا ، وكأني كنت أتفاخر بقوتي . عبرت وقفتي في صمت وهي تضم رأسها إلى صدرها لكتمان ضحكة فلتت منها ، في سخرية من شعوري برجولتي لمجرد دفعة كتف لباب قديم .

دلفنا إلى القاعة المظلمة ، وبمجرد أن وطأت أقدامنا أرضية تلك القاعة حتى هبت ريح الصقيع تعصف بوجهنا من أسفل قدمينا ، كانت الأرض رخامية ، تساءلت سرًّا وربما تساءلت هي أيضًا ، من ذا الذي يبنى قصرًا بأرضية رخامية فاخرة إلى تلك الدرجة؟ مرت ثوانٍ في سيرنا إلى الداخل . وتباعدت الجدران من حولها من فرط اتساع ما بينها من بلاطات ومن علو ارتفاعها ، بحثت عما أخبرتني به معالي الماما عن قناديل شمعية فضية قديمة تضيء لنا الظلام ، وبينما كنت أفعل ، رأيتها تقف أمام إحدى اللوحات التي ورثها فرع آخر من عائلة العناكب الرمادية .

كانت تتأمل لوحة ضخمة لضابط تركي ذي شارب غليظ داخل ملابس عسكرية فاخرة ووشاح أحاط بجسده من إحدى كتفيه وحتى خصره ، وإلى جواره تجلس امرأة فاتنة في رداء شديد الاتساع والاستدارة حول جلستها . كانت صورة زواج كما ظننت لمالك ذلك القصر وزوجته جدة حورية هانم زوجة أبي . ولكن كانت نظرة جلنار إليها توحي بأن تلك الصورة تحمل معاني أخرى .

انهمكت في البحث داخل الدواليب الخشبية العتيقة والمزخرفة ببروز معقود في جمال تركي عن القناديل الفضية ، بينما نطقت هي وكأنها تحدث نفسها بعين تعلقت باللوحة : تبدو كعصفور رقيق تحت إبطيه ..

التفت لها في بلاهتي المعهودة: هه؟

نظرت إليّ بجانب عينها : هل رأيت حبً ا كهذا من قبل؟ آه .. تذكرت .. لازلت صغيرً ا على أن ترى الحب والكراهية ..

اصطنعت انهماكًا في البحث: بل رأيت.. رأيت حب أمي لذل أبي.. ورأيت كراهية عيني لطلته..

شعرت باستدارة جسدها تجاهي وعيني معلقة على عمق الدولاب الخشبي المفتوح بحثً ا عن اللاشيء ، اقربت مني واستمعت لصوت احتكاك ملاءتها الحريرية بجسدها أثناء اقترابها في غمرة ذلك الصمت الذي أحاط بالقاعة المظلمة : أتساءل دومً ا .. لماذا خلقت حواء إن كان الأمر كله بيد آدم؟

اعتدلت من انحناءتى وواجهتها، فوجدتها أقرب مما كنت أتصور: لتخرجه من الجنة!

نظرت إليّ متعجبة فأكملت : فيحمّ لها ذنب إخراجها له .. ويمتطي عنقها ذلً ا وعقابً ا .. فتزيد من غوايتها له انتقامً ا .. حرب أبدية يا سمو الأميرة .. بدأت بضلعٍ أعوج .. وانتهت بفاكهة محرمة !

شحب وجهها حتى في الظلام لما قلت ، وكأن عبارتي لمست من قلبها وترً ا مشدودً ا : أتعلم؟ لقد جمعت بين الاثنين .. خرجت من الضلع الأعوج .. وأقسم أني وصفت نفسي لأبيك كفاكهة محرمة ..

شعرت بنشوة التناظر وربتت على كتفها بيد مرتعشة ، وكأني أتلمس الأعذار للتزود من جمالها باللمس : الضلع الأعوج كان لآدم حتى وإن خرجت منه حواء .. وهو أول من قضم الفاكهة وهي تبعته .. الذنب كله على عاتقي آدم .. أما حواء فكانت سببً ا فقط لكي يريح ضميره ويُ لقي بالمسؤولية على غيره حتى وإن كان ذلك الـ « غير » أحب الناس إليه .. هكذا هي الدنيا سموّ ك ، نبحث عن الحبيب ليتحمل عنا ذنب عشقنا له !

راقبتني في تعجب بالغ ومالت بعنقها: ألم أخبرك أنك ابن حرام؟!

ضحكت فابتسمت وقد فهمت مقصدها ، فربما تساءلت ، كيف لصبي تافه مثلي أن يناقش قضية الخلق بتلك الفصاحة ، وأنا ابن الفلاحة المنسحقة ووليد الباشا المتعجرف ، أجبت نفسي حينها ، ربما من كم الكتب التي قرأتها أعلى ساقية أرض الباشا في قيظ الظهيرة ، أو حتى من أشعار الشيخ أحمد الزين شيخ الكتّاب عندما كان يتجلى بصوته سرً ا أمام الأطفال السذج وهم يرددون الآيات القرآنية حفظً ا ، مسافرً ا في عشقه بسرد أبيات الغزل في وصف حبيبته المتوفية .

أذكر أني سمعته في مرة ونحن نردد في صراخ الرضع سورة التكوير ، وقد وصلنا إلى آية « وإذا الموؤدة سئلت »، فأكمل متنهدً ا « بأي ذنب قتلت !».. ثم غرد بشعر لم أنسه من وقتها ..

«ومن التراب جئنا بنفخة من أزل.. وإليه عدنا ببدٍ للعدم..

إلا وريقة النخل شامخة الأجفان.. سُعاد الفؤاد، نبيّة الألم

ً ً

حاشا للثرى ضما لعودها.. وحاشا لقلبي حنثا للقسم»

أذكر أني قطعت اندماجي في ترديد الآيات مع زملائي ، وقفزت على جلسته بحصيرة متكئه الخشبي وسألته : قول لي يا شيخ .. من الخالة سعاد هذه؟

ابتسم لي رغم غلظته المعتادة ، وعلقت عيني على خرزانته مستعداً ا لضربة أخرى لها ، لكنه وضعها إلى جواره وقال : من أمالت عِ مّ ة شيخك يا ولد .. ولطخت وجهه بطين عشقها ..

أجبته في براءة الأطفال : أرض الباشا تطرح الطماطم .. ولكن طين الـ .. العـ .. عشك .. هذا .. محصول أرضه .. ماذا؟

نظر إليّ في بؤس: الوجع يا ولدي.. الوجع!

شردت في إجابته ولم أفهمها في حينها ، لكنه لم يستمر في هدوئه طويلً ا ، حتى انتبه لنفسه فجأة وأزاح جسدي بالخرزانة في غلظة : انزل يا ولد وأكمل .. انزل يا ابن الفرطوس !

فعلت ، وجلست أرضً ا ، يردد الأطفال البلهاء « والليل إذا عسعس »، بينما رددت أنا سرً ا « الخالة سعاد الفؤاد .. ونبيّ ة الألم ».. ولم أغفل عن قول « الليل عسعس » فدون أن أشعر أو حتى أفهم ، كان كل من العبارتين متصلين بطريقة ما !

عبرت الأميرة وقفتي واتجهت إلى النافذة العالية ، التي ابتعد مقبضها عن مستوى رأسها ، نخلعت حذاءها الأنيق ، وشهقت من تلامس باطن قدمها الثلجية بصقيع الرخام الأرضي فانتبهت لها ، وعندها رأيت الجزء الثاني من لوحتي وهو يرسم نفسه .

شبَّت على أصابعها العارية ، ومدت يدها لتدير مقبض النافذة الصدئ : لا أظن أنك ستجد ما يضيء تلك الليلة .. فلندع تلك المهمة لضوء القمر ..

عدت إلى بحث سريع مرة أخرى: تلك الليلة بلا قمر..

فتحت النافذة العالية فأطاحت بها عدة خطوات بعيداً : نحن بمنتصف الشهر العربي يا أبله .. ربما كان السحاب يحتضنه فقط ..

كانت على حق ، فما أن فتحت النافذة حتى ضرب ضوء القمر الأزرق وجهي ، وأفاض من النافذة بحزمة غليظة أضاءت القاعة بضوء هادئ ، لم يكن مبهراً ولا باهتاً ، فقط كان مثالياً ..

كانت على حق ، ولكن كل السحاب لم تكن تحتضنه ، بل قبة ذلك القصر المرتفعة ، وما أن أصبحنا داخله حتى أطلت نافذته على جانب السماء الآخر .. وقمرها المضيء .

لم تتحرك الأميرة بعيداً عن النافذة ، بل ظلت في مكانها ، بينما اتجهت أنا للأثاث القديم وبدأت في إزالة ملاءاته البيضاء التي كفنته ، وبينما كنت منهمكاً في عملي ، لمحت بطرف البصر وقفتها لدى النافذة ـ فانخلع قلبي . كانت تشبه وقفتها العارية أمام نافذة غرفة والدي ، وأفاض ضوء القمر عليها كما فعل من قبل وكأنه عشيقها الذي اشتاق لإنضاج جمالها بلمساته المضيئة مرة أخرى .

ضربت الهواء بإحدى الملاءات البيضاء ، فتتطايرات منها عاصفة من الاتربة ، انزعجت لها ومن غبائي للحظة ، ولكن .. اكتملت اللوحة الآن حقاً .

تداخلت ذرات التراب مع حزمة الضوء الأزرق أمام وجه الأميرة ، وتهاوت ببطء أمام عينيها وهي تنظر إليّ في هدوء ، كانت لوحة حية للجمال الفطري ، اهتزت ركبتي هزة غريبة وكأن

قدميّ لم تتحملا ما رأيت .

كنت صبيًا حقًا.. لم تتحمل قدماي وطأة الصلاة في حضرة الفتنة الجمالية.

لمحت تعلقي بلوحتها فاقتربت مني في خطوات بطيئة ووجه تتقلب ألوانه تحت ضوء القمر واختفائه خلف حركتها : أعلم أنك تريدني منذ أن رأيتني مع أبيك ..

دافعت في قوة: كلا بالطبع!

اقتربت أكثر: لا يطيل الكذب عمر الأغبياء!

تلعثمت بحثًا عن الرد: لا يجوز ذلك.. فهو.. فهو.. فهو.. (عثرت على الكلمة غير المناسبة).. حرام!

بسطت حاجبيها في تعجب باسم: حرام؟ لم أكن زوجته حتى أحرم على ولده.. ثم ااا..

وضعت ذراعها على عنقي : أيها أكثر حرامًا .. معاشرة الابن لامرأة الأب؟ أم الزنا في حد ذاته يا ابن الحرام المثقف؟ !

اقترب وجهها من وجهي حتى هرب الهواء من بينهما ولم تبق غير أنفاسنا الدافئة وسط الصقيع ، ألقت بعينها تعويذة أسرتني فلم أتمالك نفسي من القول متهدجً ا من الارتباك ، وشابت نبرتي لمحة من حزن لم أفهمه : لـ .. لم .. لم أقبّ ل امرأة من قبل !

لم تبتسم هذه المرة ، ولم يطرف جفنها ، بل ألصقت وجهها بوجنتي فاشتعلت متصلبً ا ، وفرجت شفتيها القرمزيتين فبدا كل منهما كبوابة قصر أكثر إشراقً ا من قصر أفندار نفسه ، راقبت تعرجات شفتها العلوية برسمها المنحني الناعم ، ومظلة شفتها السفلية وهي تلتصق بفمي . أدارت أقفال بوابتها الناعمة على شاربي الصغير الذي لم أحلقه بعد لينبت ، واعتصرت في حريرية لم أعهدها من قبل شفتي بين شفتيها ، فانعقدنا في قبلة كانت الأولى في حياتي .

دار القصر في عيني ، واقتربت أرضيته الرخامية من وجهي ، وغاب بصري في رؤية ضبابية أبعد وجهها عني ، وعندها شعرت لآخر مرة بارتطام جسدي أرضً ا !

أغشي عليّ حقًا من قبلتها وكان آخر ما سمعته منها كان: يا إلهي!

قالت الأميرة حقًا «يا لهوي».. أي أميرة؟ لقد قالتها فاطمة!

غلب الظلام جفني وتهت في عالم الإغماءة ولم أستفق إلا على صوت نسائي قبيح..

«انحضار»..

فتحت عيني في بطء ، قلبت نظري بحثً ا عنها فلم أجدها ، بحثت عن المرأة التي تحدثني ، وما أن رأيتها حتى امتقع وجهي في ضيق : صوتك يشبه النساء يا ولد !

رمقني « علي » بنظرة حنق وهو يحمل « حقيبة » الخضار البلاستيكية : الخضار يا عم فرج .. وحل عن رأسي اليوم فلن أطيق إهانتك ..

اعتدلت من فراشي المعدني الصغير باسمًا: لا تغضب هكذا يا ابن الحرام!

التفت إليّ منزعجً ا وأفلت بيده مدية لم أعلم من أين جاءت وصاح في غضب وهو يضربها بالهواء لينفرج نصلها : ماذا قلت؟ !

ضربت رأسي في خجل ، فلقد اختلط حلم جلنار ونداؤها ، بندائي للصبي « الشرّ اني »، فابتسمت معتذرً ا له : على رسلك يا ولدي .. اعذر عمك البائس .. فلقد كنت أحلم بشيء ما وتعثر لساني في بقاياه ..

لم يغلق مطوته وأكمل في جمود: لست صغيرًا للدرجة يا أحمق.. اضبط حديثك وإلا!

حاولت النهوض إليه في هدوء لأربت على كتفه ، ولكن .. حال ألم ظهري بيني وبين الانتصاب ، فبحثت بيدي عن عصاي ، فتحرّ ك رغمً ا عنه وجذبها متنهدً ا وتقدم ناحيتي ، فضحكت من هيئته ، يحمل عصا تسند شيخوختي بيد ، ومطواة تنهي تلك الشيخوخة بيد أخرى .

أمسكت العصا واستندت على كتفه فأكملت نهوضي ، فبدا استنادي على جسده احتضانً ا : انت طيب القلب يا علي ..

أغلق مطواته وابتعد في ضيق: أعلم ذلك! وهو ما يشجع أمثالك على استغلالي..

أكملت متحركً ا : ولكن لا أرتاح لحملك لتلك المطواة .. على زماننا .. كان من في مثل سنك لم يلبس بنطلونً ا طويلً ا بعد ..

جلس كرجل ناضج : على زماننا نحن ، وفى هذا البلد ، يكبر الولد قبل أبيه .. السادات قال بالأمس إنه سيذهب إلى إسرائيل .. ربما لم يكن أفضل من الملك خاصتك ..

اتجهت إلى فجوة بالغرفة اعتدت أن أسميها « مطبخً ا »، وبدأت في إعداد الإفطار ، وكان كالعادة « جبنة قديمة وورقة خس »، بينما جلس هو في شرود متجنبً ا النظر إليّ فأجبته : وما يضيرك أنت في ذلك .. ابتعد عن السياسة و ..

وضع المطواة في جيبه ، ورفع رجليه لتربيعة أخرى أبرزت بطنه الممتلئ وقاطعني : توقفوا أيها العجزة عن وصف ما يؤرقنا بكلمات كبيرة كالسياسة والنظام وغيرهما لتصرفوا أنظارنا عنها .. (اعتدل في غضب) في رأسكم فقط .. الفقر سياسة .. التعليم سياسة .. والخيانة سياسة !

اقتربت منه بخطوات متعرجة مسرعً ا في رد فعل اعتدت عليه : اكتم فاك يا ولد .. أتصف الرئيس بالخائن؟ ! سيقبضون عليك !

قطع صوت غليظ جملتي وفرج الباب بقبضته : استيقظ يا عم فرج .. انتهت المعتقلات وراح زمانها .. عبدالناصر مات ألم تسمع بالخبر منذ سبع سنوات؟

كان المعلم رمضان والد « علي » وصاحب غرفتي الضيقة ، اقترب من جلستنا فلم يهتز لولده طرف من وصول أبيه ضخم الجثة . سحب رمضان طرف جلابيته وأجمعه في كفه وجلس إلى جوار ابنه فأجبته : أنتم لا تفقهون شيئً ا .. أفسدكم التلفاز الملون ! حتى أن الابن يجلس في حضرة أبيه !

علمت أن نقدي لأخلاق «علي» كان واضحًا ولكنه لم يؤثر، فضحك رمضان وهو يشير لولده آمرًا: الشاي يا علي..

نهض علي تجاه فجوة المطبخ، بينما اعتدل الأب تجاهي فأكملت: لو كان ذاق أحدكم مرار السجن.. لما قال هذا!

مال عنقه في تعجب: أكنت معتقلًا يا فرج؟!

غاب الرد عن لساني الذي أوشك أن يُ قطع سابقً ا داخل سجون أبي عبدالناصر ، تذكرت مأساتي فاهتز جفني وأشحت بوجهي دون رد .

أبي عبدالناصر أليس كذلك؟ آآاه .. لماذا كل أب اختاره القدر لي بحكمته ، أو اخترته بحماقتي يدق عنقي ظلمً ا وقتلً ا؟

تجاوز صمتي: حسنًا إذًا.. جئت إليك لأمر هام يا فرج.. عليك أن تبدأ بدفع الإيجار..

خلعت طاقيتي القذرة في وجل: مـ.. ماذا؟ لقد اتفق معك الشيخ سالم أن تكون الغرفة مجانية!

قاطعني بكفٍ أشار به في وجهي لأصمت : كانت مجانية لسبعة أشهر ، ولكن الآن .. لن أكذب عليك .. جاءني شاب من أسيوط يدرس بالأزهر ويريد أن يؤجر الغرفة بمبلغ سخي يدفعه أبوه شيخ البلد .. هل أرفضه؟

تنهدت وعدت إلى سابق عهدٍي: على زماننا كانت الكلمة عقداً..

خرج علي من الفجوة: ألا تحفظ غير تلك الكلمة أيها الخرف.. «على زماننا»؟

أغلقت عيني في ضيق من جملة الصبي الوقح، فصرفه أبوه في أمر غليظ: ضع الشاي وارحل يا ابن المكنسة!

خرج علي دون رد ، بينما مال عليّ رمضان في لطف : فرج ! لست قاسيً ا وأنت تعلم ذلك .. ولكن .. ليس فقط ذلك الشاب الريفي هو سبب الأزمة .. وإنما تلك الخيالات التي تراودك .. بدأ الجيران يشكون إليّ من صراخك في وجوههم ظنً ا منك أنهم أشخاص عرفتهم من قبل وماتوا .. أو لم يفعلوا .. لا أعرف حقً ا .. ولكن ذلك الخرف الذي أصابك .. !!! ..

ء ء

أطرقت رأسي في حرج: إنها نوبات متفرقة يا معلم.. وليست ااا..

قاطعني مباغتًا: من عزيز قاسم يا فرج؟

لم أشعر إلا وانتفضت مبتعدً ا عن جلستنا ، سيطرت عليّ حالة من الهلع أفزعته : لا .. لا تذكر ذلك الاسم مرة أخرى !

نهض في مواجهتي بقسوة: لقد سألت عنه وعلمت أنه مات منذ ربع قرن! فلم تظن أنه يلاحقك!

صحت به: اصمت يا رمضان ولا تذكر اسمه!

حاصرني بصوته الرنان: ومن فيروز إذًا؟!

صرخت كالأطفال والتصقت بدولابي القديم حتى سقطت درفته الهشة أرضً ا ، كان يشهر في وجهي أفظع كوابيسي وطأة على رأسي : سـ .. سأترك لك الغرفة باكرً ا .. فقط ارحل !

امتقع وجهه في ضيق ، بالرغم من نظرة الشفقة التي لم تختف : حريٌ بك أن تفعل .. وإلا فلتسامحني .. سأرسل للخانكة للقبض عليك .. لحمايتك من نفسك !

واتجه للخروج ، فاحتضنت الجدار خلفي كالمجاذيب بعد جلسة كهرباء قاسية ، وجسدي ينتفض دون تحكم مني . لماذا يا رمضان . لقد عانيت لسنوات لنسيان ذلك الأمر . ولكن بما أنه قاله ، فلابد أن تلك النوبات اللعينة تؤكد أني لازلت أذكره حتى وإن كنت بلا وعي حينها .

اعتدل تجاهي قبل أن يختفي خارج الباب وقال : جاء ذلك الرجل مرة أخرى وسأل عليك وأنت نائم .. أخبرته أن يعود بعد صلاة العصر .. وها قد وجبت .. فأصلح هندامك .. فربما يأتي بمصلحة إليك ..

حدثته دون أن أنظر إليه: لا أريد أن أقابل أحدًا.. لا أعرف أحدًا.. ولا أحد يعرف مكاني..

غادر بجملة أخيرة: وأنا لست صبياً بورشتك لأتحدث باسم معلمي.. فلتطرده إذا أردت!

واختفى بصفعة للباب خلفه ، تهاوى جسدي في إرهاق وقد طفا وجهي فوق موجة من العرق رغم برودة الشتاء ، أغلقت أزرار سترتي الصوفية المتسخة وتكومت على فراشي الصغير ، كجنين خرج قبل موعده من رحم أمه واشتاق للعودة ، بعدما رأى من الدنيا ما لم يوافق عليه عندما وق ّع على عقد نفخة الأزل ، كما وصفها الشيخ أحمد الزين .

لا ألومك يا جلنار على ذلك اللعين عزيز أو تلك الشيطانة فيروز ، فأنت من أضاء سنوات حياتي بثلاثة أسابيع من البهجة ، حتى وإن ادعى ذلك اللعين أنك لم تفعلي !

نظرت إلى إصبعي المفقود ، وتذكرتها رغمً ا عني مرة أخرى ، مر أسبوعان كنت قد انتهيت فيها من اللوحة الإعجازية ولم يتبق سوى لونها . رقدت أمامي كعادتها في عراء كامل ، وبالرغم من

تلك الليالى الأربعة عشرة كما وصفت القمر في غيابه شوقً ا « بدر أربعة عشرة »، لكني لم أعتد بعد على معرض جسدها الفاتن . ففي كل مرة كانت تخلع فيها العباءة عن لحمها الأبيض ، كنت أنتفض من الشهوة ، وأتأمل نهديها الدائريين كثمرة ناضجة حاشا لخالقها أن تُ قطف ، ومنحنيات جسدها أسفل تلك الثمار حتى مهبط فتنتها ، قبل أن ينقسم إلى عمودين بضيْ ن كل منهما بفخذين أبيضين ناعمتين كستائر غرف الملائكة في بيوت الجنة ، ولولا شعرها الأسود المرهف على عنقها لتوقف قلبي هلعً ا من تلك الفتنة التي تحاصرني .

نعم .. أنا من تفتنه رقاب النساء بدلً ا من نهودهن ، أذوب عشقً ا في استدارة هذا العنق الأبيض وتلك الفجوة بأعلاها ، التي تهتز كلما شهقت صاحبتها بهواء تتنفسه في هدوء ، أو تبلع ريقً ا هادئً ا يمر بين عروقها المنتفضة في انسيابية عجزت عن عجم سر جمالها .

خرجت ذلك اليوم عن شرودها المعتاد وهي ترقد في حرية بالغة ، ونظرت إليّ وأنا مندمج في رسم انحناءاتها الطرية على لوحتي الصلبة وقالت في هدوء : أقدر حقً ا احترامك يا فرج ..

أجبتها دون اهتمام وأنا أضرب بفرشتي بحاجب معقود في تركيز: أي احترام يا فاطمة؟

مال عنقها في ارتباكٍ من العثور على الكلمات، فأشرت إليها حازمًا في لطف: أأأ! لا تتحركي!

أعادت عنقها إلى مكانه باسمة: أنكِ لم تستغل ما أفعل لتنال مني شهوةً!

ء ّ

ابتسمت بدوري: لقد آغشي عليَّ من قبلة.. فماذا لو عاشر.. عاشرتـ.. عاشرتك؟!

تنهدت ضاحكًا فضحكت: حتى ذِكر الأمر يربك لساني!

ضحكت في امتنان، فأكملت وأنا أنظر إلى صورتها تحت أصابعي بدلا منها: بل أقدر أنا عدم سؤالك!

مالت بعنقها مرة أخرى، ولكنها لم تلبث أن أعادته إلى مكانه قبل أن أطلب: أي سؤال؟

ارتبكت قليلاً وتعثرت الفرشاة في يدي: إصبعي المفقود .. أنتِ الوحيدة في كون الرب .. من لم تسأليني عن الذي حدث ..

أغلقت عينها في حزن: لكل منا إصبع مفقود يا فرج.. ولا فائدة من سؤال أحدنا عن عاهة الآخر..

تطوعت بالرد: استقالة!

اعتدلت في إرهاق وقد تيبس جسدها من كثرة رقودها: آه.. (تألمت في جمال) أ.. أي استقالة؟

تركت الفرشاة وذهبت إلى ملاءتها وغطيت جسدها أثناء جلستها ، وأكملت عني بإيماءة امتنان لفعلتي ، وسندت الملاءة بذراعها أعلى صدرها فبدت أكثر جمالً ا من عراها . جلست أسفل قدميها كعادة اكتسبتها من أمي : سألني الكثيرون ولكن .. غضبي من السؤال كان دومً ا يحترف عقد لساني عن الجواب .. فأثير حيرة الجميع .. واستمتع بشهوة الفضول في عينهم .. ووالله لا تنضب أبدً ا ..

أخرجت سيجارة من أسفل وسادة رأسها وأشعلتها: واخترتني أنا؟ لكوني لم أسأل؟

استأذنتها في سيجارة أغبر بها ضوء القمر الخافت في ذلك الوقت من الشهر ، وقد اعتدنا أن نستحم تحته : بل لأني أريد أن أقص على أحدهم في النهاية ، وكما أخبرتك .. بدأ الأمر باستقالة ..

- استقالة من؟

-فرديناند ديليسبس!

-مهندس القنال؟ ومال إصبعك ومال ديليسبس؟!

- قرر العجوز أن يستقيل الحياة السياسية بعد وفاة زوجته .. وسافر للعزلة .. فأرسل إليه أحد أصدقائه عدة كتب تسلّ ي وحدته .. وكان من بينها مذكرات نابليون بونابرت !

- ونابليون أيضاً؟ يبدو أنك تلصق تهمة إصبعك بالعظماء لتعلي شأنه .. إن كنت تنشد بتلك القصة تعويضاً من فرنسا أو بريطانيا العظمى .. فمن المؤكد أنك ساذج أكثر من اللازم !

ضحكت من طرفتها غير المضحكة ، بينما انتهبت أنا لعدم إشعالي السيجارة ، فأشعلتها لي .
ابتسمت من حالي : أميرة تشعل لك سيجارتك يا بن الفرطوس !

أكملت وأنا أراقب الفجوة بين الغطاء وصدرها عندما مالت عليّ لإشعال السيجارة اللعينة : قرأ ديليسبس سطرين بمذكرات نابليون عن مشروع لم يكمله لقناة تربط البحر الأحمر بالأبيض .. ومن وقتها تداخلت الألوان برأسه ، وقرر تصميم مشروع القناة !

أوشكت سيجارتها على الانتهاء ، وأوشك ضوء القمر أن يختفي خلف سحابة قطنية فاستعجلتني :
أقصر يا ابن الحرام !

ابتسمت للقبي الجديد المستنكر المحبب : أصدر الخديو عباس أمره بتجنيد الفلاحين قسرياً لحفر القناة يدوياً .. وكان من بينهم أكبر أجدادي .. جاء شيخ البلد برجاله إليه بالغيط .. وقد كان شاباً قوياً لا يملك مال البدلية .. فقرروا القبض عليه للسخرة .. فكر جدّي في زوجته وأطفاله لمن سيتركهم .. فأراد البقاء ولكن كان لكل شيء ثمن .. قطع إصبعه !

انتفضت واعتصرت عينها وضربت كتفي من أعلاه: آآآآآآه.. لعنت! لماذا تخبرني بذلك؟

أكملت دون أن أهتم برقتها البالغة : مضى الأمر هيناً .. وعاش جدي بين أولاده ، ولكن خشي أبوه أن يعيّره إخوته بقطع إصبعه ، حتى وهم صغار دون سن التجنيد ، فأمر أن تُقطع أصابعهم جميعاً .. فهو أخوهم الأكبر أولاً وأخيراً .. ولا يجب أن يكون ناقصاً في أعينهم ..

- ومالك ومال جدك.. طالت قصتك يا غلام!

- تحول الخوف إلى عادة .. والحفاظ على الشرف أصبح دينً ا جديدً ا ، وشريعته قطع الإصبع . كلما ولد طفل خشى أهله أن يعيّ ر أعمامه وأباه بأصابعهم فتسقط هيبتهم أمامه وينفرط عقده .. فيقطعون إصبعه .. فإصبع البتر عادة داخل العائلة .. حتى بعد أجيال وأجيال .. وما أن ولدت حتى قطع أبي إصبعي .. فقط حتى لا أعيره بإصبعه !

اعتدلت وقد غاب ضوء القمر بالكامل، فحل الظلام، ولم يضيئه إلا صوتانا فقالت: لا أصدق!

أومأت لها حتى وإن لم ترني : أكاد أجزم أن أبي لا يخلع قفازه أمامك .. حتى وهو .. وهو .. معـ .. معك بالفراش !

زفرت بقوة في حنق: صدقت! كان يعتصر جسدي بقفاز جلدي بارد.. فيزيد من مقتي له..

نهضت إلى القناديل الفضية لأشعلها : هكذا هو الأمر .. لو لم تمت زوجة ديليسبس .. لما قُ ط ِع إصبع فرج الورداني !

ضحكت وقد تصبغت قاعة القصر بلون النار الأصفر ، سخرت من حالي ، بينما لم تفعل هي كعادتها ، فلم تضحك ولا حتى تبتسم ، بل أشارت إليّ في قلق : فضلً ا أطفئ تلك النار ..

ً

التفت لها مستمرا بضحكاتي: عادة نخشى الظلام وليس النور..

نهضت في سرعة تجاه القنديل ورمحت حتى سقطت عباءتها فلم تهتم بالركض عارية ، ونفخت في قوة نفخة الأزل الثانية فأماتت الشعلة ، راقبتها في حيرة ، فانكمشت في خجل داخل جسدها العاري ، فرفعت غطاءها وألقيته على جسدها ، فأومأت في شكر صامت وغرق وجهها بحزن ألصق نظراتها أرضً ا : ما الذي حدث؟

هربت من سؤالي وتحركت مبتعدة: ذلك القصر مسكون.. ولا تأتي إلا في ضوء القنديل..

اقتربت منها في وجل: من التي تأتي؟

رفعت عينها بعيني ولأول مرة لمحت بريقًا لدمعة محبوسة: الفتاة!

- أي فتاة؟

-لمحتها منذ أسبوع.. لا تهتم.. إنها مجرد خيالات.. فقط لا تشعل النار.. إما ضوء القمر وإما الرحيل..

حاولت أن أستبق حديثها بسؤال أو حتى مواساة على ما لم أفهم ، لكن طرقً ا عنيفً ا على باب القصر أفزعني ، بينما تنهدت هي في ضيق . نظرت إليها في هلع . لا يعلم أحد مكان ذلك القصر المقفر ولا بوجود أحد بداخله . من الطارق إذا؟ ولماذا يطرق بتلك العصبية؟

نظرت إليّ في خجل وطرقات الباب تصرع الجدران حولنا: كامل..

اقتربت منها في حنق: كامل من؟!

وقبل أن تجيب. انفلق الباب إلى نصفين. انتفضت وصحت به: ماذا تفعل؟

نظر إليّ باسمً ا وهو يضبط عمته الأزهرية : اهدأ يا عم فرج .. فقط اا .. لا يجوز أن تنام داخل المنبر كل هذا الوقت؟

اعتدلت في تعجب من نومتي . كيف وصلت إلى هنا؟ أذكر أني كنت في غرفتي بعد رحيل رمضان بتهديده بطردي . ولكن كيف وصلت إلى جامع أنس بن مالك؟ وكيف دخلت إلى غرفة المنبر الضيقة وتكومت بركنها الحنجوري بتلك الطريقة؟ ! لم يخطئ رمضان .. إن لم يستدع الخانكة سأستدعيهم بنفسي .

ساعدني الشيخ نور في الخروج من ذلك التقوس المؤلم ، كان شابً ا جميلً ا ، عذب الصوت عندما يتلو القرآن ، هادئ الملامح عندما يصدح بخطبة الجمعة . علمت فور وصولي إلى عطفة

رجب أنه شاب أزهري تخرج لتوه في جامعة الأزهر ، ونال إجازة القرآن الكريم فنصبه أهل العطفة شيخًا عليهم رغم صغر سنه .

أجلسني كعادته بالصف الأول دون حديث ، فقط ابتسامة ، وعاد إلى قرآنه يتلوه على أهل الحارة بالميكروفون الجديد في عذوبة أثلجت صدري قليلًا من عذاب الوعي وتقطعه وغيابه ، والأسوأ .. العودة منه . وبينما كنت هائمًا في صوته ، اقتربت من جلستي عصا عجمي فاخرة ، تبعتها أقدام ذات جوارب قطنية أنيقة ، رفعت عيني ، فوجدت رجلًا مسنًا في ملابس رسمية يكفي ثمنها ليبتاع حي الأزهر بسكانه وبناياته عن بكرة أبيها . صعدت ببصري لمستوى أعلى رغم صعوبة ذلك ، فوجدت وجها ناعمًا محاطًا بلحية بيضاء كثيفة ولكن منمقة للغاية . جلس صاحبها إلى جواري دون أن ينظر إليّ .

عدت إلى رسم السجاد الرخيص الذي جاهد أهل العطفة لشرائه خصيصًا لأرضية المسجد ، وعبثت بأحد أصابعي التسعة على رسوماته كفنان متقاعد يشعر بالحنين إلى فنه المندثر ، وغبت فيما ظننت أنها بداية نوبة جديدة من الخرف . حاولت حقًا أن أقاومها . فشقهت وفركت السبحة في هيستيرية مستغفرًا ، لكن ثقلًا كبيرًا أطبق على رأسي نخدره .. وعندها استسلمت لتلك النوبة ، لولا أن نطق من كان بجواري .

«عبدالناصر لم يمت حقًا.. إن كنت قد سألت!».

التفت إليه في حيرة ، بينما أكمل هو دون أن ينظر إليّ : لا زال في الحكم مختبئًا خلف السادات .. إنها مؤامرة كبرى ..

عدت إلى رسم السجاد مرة أخرى: يا الله.. لقد عادت النوبة..

ء

أكمل الشيطان: اللواء رؤوف يرسل تحياته..

ارتج جسدي للحظة من هلع الاسم، فتسارعت أصابعي على حبات السبحة: مـ.. من أنت؟!

وضع كفه على يدي فأوقف تسبيحي في هدوء: لقد كنت رفيقك بزنزانة ١٢.. ألا تذكر الفلنكة؟

حاولت النهوض لولا أن أجلسني بقوة باسمً ا في شر: لها طرفان .. اجلس ! لها طرفان يا فرج .. الأول حول قدمك اليمنى ، والثاني حول اليسرى .. ثم الترس والجنزير .. يدور ويستدير .. فيفرج رجليك .. ويترك المجال مفتوحً ا للفازة الثانية من عمود الكهرباء .. أسقط بنطاله يا أومباشي .. أوامر معاليك .. أمسك مؤخرته جيدً ا ااااا ....

صرخت كالطفل مرة أخرى وانتفضت للنهوض ، فسقطت على ظهري بدلً ا من ذلك ، فانطلق الشيخ نور فزعً ا تجاهي : يا رحمن يا رحيم .. ما بك يا عم فرج؟

اعتدلت مع ذراعه ، وتلتفتت حولي في هلع ، ولكن لم أجد أحدً ا ، ضربت الأرض بيدي في غضب وصحت في هيستيرية : يارب .. إن لم تر في عقلي من نفعٍ لخلقك وأرضك التى جعلتنا خلفاءً عليها .. فلتأخذنى إذا بين التراب .. يلتهمني الدود .. وألتهم ما تبقى من سنين برزخك حتى الآخرة .. فلجهنم أريد الرحيل ! فلتقني فى الجحيم ولا أبالي .

صرخ الشيخ نور بعبارات الاستعاذة والاستغفار: أعوذ بالله! أتكفر يا رجل؟! هيا!

وجذبني بغير لطف إلى خارج المسجد ، تعرجت مع دفعاته إلى الخارج فرأيت تجمهر المارة أمام باب المسجد . ينظرون إليّ في غضب وشهوة لتحطيم عظامي . فلم يغلق الشيخ الميكروفون قبل نجدتي من سقوطي أرضً ا ، وذعت في الحارة بأكملها نبأ كفري ..

آآه.. على زماننا لم يوجد ذلك الميكروفون!

لم أشعر وإلا جسدي ممدد أرضً ا والضربات تنهال عليّ كأصوات مدفعية الإنجليز بما أسموه الآن العدوان الثلاثي أثناء اختبائي ببورسعيد ، ظننت حينها أن الأمان سيكون جليسي لو هربت من القاهرة وما بها والتجأت إلى بيت حامد الجزار سائق معدية القنال ، إلا أن ثلاث دول تحالفت على فرج الورداني لإفزاعه ، وكأن الرب لم يرض لي الراحة منذ رسمت جلنار العارية وهتكت ستره عن أجمل مخلوقاته دون إذنه .

فرّ ق رمضان الجمع الغفير بصوته الجهور وضرباته على أكتاف وصدور الرجال ، وحملني بمساعدة ولده السافل علي ، الذي كان يسند جسدي بضحكات مكتومة حتى أوصلني إلى باب الغرفة مع أبيه . همس إليّ ضاحكً ا : سامحني يا عم فرج .. ولكنك أغبى مما كنت أعتقد ..

كنت في شبابي ريفيًا ساذجًا.. وفى كهولتي عجوزًا خرفًا.. والآن كافر غبي..

على زماننا.. كان الرجل يكتفي بمعيبة واحدة حتى وفاته.

نهره أبوه بالرحيل ، ومال عليّ في لطف : لا حاجة لرحيلك غدً ا .. فلتستعد توازنك لبعد غد .. فكما رأيت رحيلك عن الحارة أصبح مطلبً ا شعبيً ا .. سأرسل لك مع أم علي لقمة تسند

قلبك ..

أشرت له في إرهاق: جزيل الشكر يا معلم.. فقط أريد البقاء وحدي.. فلتتركني.. من فضلك..

أومأ في موافقة بأسة مشفقً ا على حالتي وتحرك للرحيل بعدما أوضع يدي على عصاي في اهتمام بالغ : فلتتذكر إذا إغلاق الغرفة بالقفل قبل رحيلك .. فلقد تركته كالعادة ..

وغادر من فوره . فتحت الباب في تعب لم تحمله العصا ، فارتميت على الجدار البائش من مياه المجاري ، وأنا أغلق الباب في ألم . وقبل أن أجلس على أقرب كرسي . صرعني صوت جاء من فجوة الغرفة . أي المطبخ .

«لقد سمحت لنفسي أن أعد لنا بعض الشاي»..

كان الشيطان الذي اقتحم المسجد ووسوس إليّ بإعلان كفري . انتبهت له فرأيته في هيئته الفاخرة . جلس أمام المنضدة بصينية الشاي وهو يعبث بلحيته ناصعة البياض . احتددت عليه في غضب لم تسمح آلام عظامي بتعديه مرحلة الصياح فقط : من أنت أيها الإبليسي !!

ابتسم وهو يجلس: أعوذ بالله يا رجل.. أنا صديقك.. رفيق العذاب.. الفلنكة!

قاطعته في غضب: اصمت لعنك الله!

ء

- آتلعنني بمن كفرت به؟!

- كان كفري سُخطًا وغضباً فقط وليس إنكارًا..

- لطالما كانت آفتك .. الغضب والنطق بالسفه .. تشتم العساكر والضباط .. حتى ظن الجميع أن الفلنكة لم تخلق إلا لك .. فرج الورداني نفسه .

-ماذا تريد؟

-جئت لأذكرك بأمر هام.. اتفقنا منذ عشرين عامًا عليه..

تأملت وجهه في ضيق من ذلك الغموض وتوسلت إليه:
من أنت يا رجل؟!

تحرك تجاهي بكوب الشاي فرفضته ، فوضعه على فخذي فاضطررت إلى الإمساك به من فرط سخونته ، وعاد إلى مجلسه مرة أخرى : ربما ذلك الاتفاق يعينك على التذكر .. قل لي .. كيف ولد الشقاء يا فرج؟

جرت بعنقي رعشة كعروق الكهرباء: مـ.. ماذا؟

ً ّ

ابتسم لتوتري: حسناً.. ولد بغصة شيطان.. وشب على طمع امرأة.. وقتِل بانتحار ملاك..

حاولت النهوض في بطء استعداداً للهرب : من أين لك بتلك الكلمات؟ من أي حفرة جهنمية خرجت من الماضي أيها اللعين؟

نهض بدوره في بطء استعداداً للهجوم : هيا يا رجل .. لقد كنت فيلسوف المعتقل .. لولا غصة الشيطان بإجباره على السجود .. لما قرر الانتقام من آدم وبنيه .. ولولا طمع حواء لما أكلا من الشجرة .. ونزلا إلى الأرض وبدأ الشقاء ، ولكن ، وكما قلت في خطبتك العظيمة ونحن نحطم جبال المحجر بملابسنا الزرقاء المدممة ، سينتهي الشقاء .. يوم أن يقبض ملك الموت روح نفسه .. يوم ينتحر وتفنى الدنيا .. ولا يبقى سوى الرب كما تحب أن تناديه .. لمن الملك اليوم يا فرج؟ !

مددت يدي إلى مقبض الباب فباغتني بضربة قوية عليه أغلقته وحاصرني بجسده والغضب يفضح عينيه : إياك أن تنسى ما اتفقنا عليه !

صرخت به وكوب الشاي يهتز في يدي ولم أفهم لماذا لم يسقط بعد: أي اتفاق؟!

اقترب من وجهي بطريقة أرعبتني: أفندار..

كان على حق فأنا أعلم ما يقول: فيروز!

ابتعد عن وجهي باسماً وقد تذكرت ، بينما افترس رأسي الغضب : فيروز؟ ومالك وفيروز؟ لا ! لقد كان رمضان هنا ولم يرك .. لقد كنت في المسجد إلى جواري ولم يلمحك الشيخ نور .. متى عدت إلى غرفتي؟ وكيف دخلت؟ أيها الشيطان إنك نوبة أخرى من الخرف .

تنهد في ضيق بدا واضحًا عليه: انظر إليّ جيدًا وأزل تلك اللحية.. وانفض العجز عن قسمات وجهي..

عندها سقط كوب الشاي وتهشم تحت قدمي ، انبسطت عضلات وجهي للخلف وجحظت عيني في فزع ، انقطع صوتي ، وانفرج صدري طالباً إعصاراً من الهواء لأتنفسه من الصدمة : لـ .. لا .. أنت .. أنت نوبة خرف .. لا يمكن .. أنت نوبة خرف .

أغلق عينه وشاب الحزن وجهه: ربما.. وربما أكون..

أكملت عبارته ودموعي تنهمر دون بكاء: عزيز قاسم!

-٩-

فيروز الصيرفي

٢٠١٧

مال لهذا الكون يزداد عتمًا وسوادًا حتى في وضح النهار؟! منذ ليلة البارحة وتأبى الشمس أن تخرج إلينا لتُجلي عباءة الليل عما رأيت. حسنًا.. ربما خرجت على الجميع، ولكنها أرادت في عناد أن تتوارى عن وجهي، وعن ذلك الرداء الذي ارتداه رسمي داخل مذكرات ذلك العزيز القاسم.

كان حريًّا بي أن ألقي به في نار المدفئة وقتما رأيته. أي مدفئة؟! تلك التي أشرف عاصم على بنائها من الطوب الحراري ولم نشعلها لمرة واحدة؟ ربما ظن وهو يقف في سعادة أمام العامل الذي بناها أن ليلةً من خياله قد تأتي وترتطم بأرض الواقع. أجلس بين أحضانه عارية ويتلحفني بغطاء أحمر ناعم نشاهد ألسنة النيران، وهي تحرق الحطب الزائف في رومانسية تمناها ولم أبذل جهدًا في تحقيقها. ولكن.. منذ أن جربها لنا مهندس الديكور.. اشتعلت نيرانها للمرة الأولى والأخيرة، ولم يقربها أي منا مرة أخرى.

وبدلًا من ذلك، قضيت الليلة أنظر للرداء في صمت ورهبة. كان ذلك الجسر الحقيقي الأول بين ورقة بالية بمذكرة قديمة وبين قلب أنثى امتلأ حقدًا منذ سنوات والآن ضاق بالخوف. «قاتلة جلنار طوسون». عبارة تافهة انتفضت بالحياة من مجرد رداء.

عشت عمري يا عم فرغلي بين الخيوط ونسجها ، وراقبت كيف تحيل بالتفافاتها المعقودة جسد امرأة دميمة إلى منحنيات آلهة فاتنة ، فقط بعدة خيوط ملونة تم رصفها داخل قالبها المناسب . علمت قوتها الخفية ولكن ليس إلى تلك الدرجة . وها أنا ذا .. أصطدم بخيوط أخرى ، غير ملونة ، فقط الأبيض والأسود كانت كفيلة بمسخ قدري من مجرد مصممة تافهة بإحدى شركات الأزياء ، إلى قاتلة من نوع غريب ، فقط الأبيض والأسود يا عم فرغلي .. هل تصدق . وكأن فيروز أحقر من أن تبذل الأقدار لها مجهودً ا باصطفاف لون آخر . فقط يكفيها الأبيض والأسود لهدم أسوار حياتها . ولكن من يهتم؟ فبعد كل ذلك .. كنت على حق . فتلك المذكرة على حق ، وما جاء بها على حق .

وكنت أنت وإيمان على باطل.

أومن أنك تسمعني يا عم فرغلي ، إيماني بعصف قبضتي لروح جُ لنار . لن تمنعني تلك الأنابيب الباردة التي غرسها الأطباء داخل شرايينك من البوح لك بما يؤرقني كما اعتدنا . تصب لي الشاي الأحمر داخل كوبك المتسخ . ونتناوب على رشف عصير ذلك المسحوق الأسمر ، ودخانه المتكاثف يعرق جبهتي ويغيم نظارتك البالية في كل رشفة . وكأنه رسول يحمل كلماتي إليك ، ويحمل نظراتك الحانية إليّ. كوب واحد هو كل ما كنت تملك . وكوب واحد هو ما أفتقد الآن .

ستنهض يا عم فرغلي أعرف ذلك ، ولكن هل ستفعل قبل أن أقتل جُ لنار؟ ومتى أقتلها؟ هل قتلتها بالفعل؟ أم أن هناك أمرً ا آخر تتوقف عليه حياة تلك البائسة لم يظهر بعد؟ هل يجب عليّ أن ألزم فراشي حتى أهلك لأنقذ روحها؟ أم أسعى خلف عزيز قاسم وأوقف ذلك الجنون قبل أن يدوّ ن تلك العبارة التي قلبت حياتي رأسً ا على إصبع قدم؟ وكيف ذلك وقد مات منذ سبعين عامً ا هو الآخر . ااااه .. يا عم فرغلي .. ضاقت رأس جليستك بالأفكار .

أعلم أن حديثي ربما يكون مربكً ا ، ولا أعرف إن كنت حقً ا تسمعني أم أنك غبت في عالم آخر تتلاقى فيه الأرواح ، وتجمعك بمعشوقتك سعاد . على كلٍ .. سأرحل الآن .. ولتدعُ لي في عتمتك السوداء .. فربما لا تجد دعوتك بين السواد ما يزاحمها إلى السماء .. فتصل سريعً ا وتعتقني من ذنب تلك المسكينة .

ولكن.. كيف أعتمد على دعوة قدر محسوم.. ونفس ذات الأقدار قررت تعذيبي بعبثها الأزلي؟

خرجت من غرفته المعدنية الفاخرة من المستشفى الضخم ، الذي أصر عاصم على أن يدفع كامل تكاليفه حتى تنتهي القضية . وما أن مرقت خارج أعتابها ، ولفح هواء لقيط لفصول الصيف الساخن وجهي . حتى تاهت عيني في شرود مؤلم إلى الخطوة القادمة .

كانت سحابة رمادية تحجب الشمس .. علمت حينها أن اللعنة قد بدأت حقً ا ولا مجال لردها .. فأي سحابة ترقد بسماء الصيف في ذلك الوقت من السنة؟ من المؤكد أنها وكلت بأمري ، وأحنت عنقها في طاعة لآمرها « فيروز لا يجب أن ترى قرص الشمس بعد الآن .. حتى يتم مرادنا !».. فأجابت .. « السمع والطاعة يا ...».

لا أعرف حقًا هوية من جاء بعد الـ «يا.....»، ولكن.. لعنك الله.

«إيمان؟! كلا.. لم تأت بعد»..

أخبرتني نورا بذلك الخبر في جمود . وعادت إلى عملها مخترقة ممرات الشركة إلى غرفة البروفة مرة أخرى وهي تطالع التصميمات الجديدة للديفيليه القادم ، تعجبت من غياب إيمان ، فهى لم تغب عن عملها ولو لمرة واحدة منذ أن قبلت أوراق عملي بشركتها . ورسالة « هذا الهاتف ربما يكون مغلقً ا » لم تتوقف عن قطع محاولاتي للاتصال بها . وبينما كنت عالقة بين أفكار الحيرة غير المترابطة .. عادت نورا بما كان أكثر غرابة !

« آه .. تذكرت .. ولكنها أخبرتني أنها حاولت الاتصال بك ليلة أمس ولم تتمكن من الوصول إليكِ .. ونقلت إليكِ رسالة عندما تمنى علينا بإظهار وجهك .. شيء ما يخص رجل اسمه عزيز قاسم ! قالت إنها عثرت لكِ عليه !»..

لم يفزعني ظهور نورا المفاجئ والمعتاد أمام عيني هذه المرة كما أفزعتني عبارتها . ظننت بعد لقائنا الأخير أنها لم تعد تعبأ بتخريفي كما ألمحت . ولكن .. هل حقً ا قطعت من وقتها للبحث عنه؟ ! وكيف عثرت عليه؟ ! وما الذي قصدته بذلك البحث؟ !

أكملت نورا بملاحظتها التافهة بأنه يبدو عليّ التعب ، فاقتربت مني في دفء صادق لم تعد أطرافي تشعر به بعد الآن ونصحتني أن أعود إلى البيت اليوم ولسوف تتولى عني أعمالي . ولكن .. كيف أغفل تلك النيران التي تشتعل بصدري؟

أومأت لها في موافقة كاذبة ، وتحركت إلى باب الخروج وأنا أشعر بنظراتها التي تتابع خلف رأسي وهي تنحسر تدريجيً ا ، حتى اختفت حزمة الدفء عنه فعلمت أنها تحركت للعودة إلى غرفة البروفة وعندها اعتدلت مرة أخرى ، ورمحت في خطوات غير مثيرة لملاحظة زملائي إلى مكتب إيمان ، وفي طرفة عين . كنت أغلق بابها عليّ من الداخل .

تحرّ كت داخل المكتب الفاخر الذي لم أعتد عليه في غيابها ، كان ينقصه شيء ، ربما عطرها ، ربما صوتها الهادئ رغم حزمه ، ربما هي نفسها .

تحركت تجاه مكتبها الضخم وأنا لا أعلم عمّ اذا أبحث . ولكن ذكر المدعو عزيز قاسم وتأكيد نورا أنها بحثت عنه ، أوقع في قلبي قناعة ربما تكون بائسة أنها دونت شيئً ا عنه . فاغتصبت ذراعي أدراج مكتبها بحثً ا عن أي ورقة أو ملاحظة ، تقرّ بني من الرجل دون أن أحتاج إلى سؤال إيمان عنه شخصيً ا .

« ولم القلق؟ !». سألت نفسي .. ربما عليّ فقط أن أسألها لو كانت تكبدت عناء البحث ، فمن المؤكد أنها وجدت ما يدعم روايتي لها ، ولكن صفعني خاطر كان محقً ا ، بأنها خانت ثقتي من قبل وأبلغت عاصم بما حدث مع عم فرغلي رغم اختياري لها دونه بالنجدة من موقفي ، ربما كان عليها أن تفهم رفضي لإطلاعه على الأمر ، ولكنها أبلغته ، فلم لا تبلغه هذه المرة أيضً ا بجنون زوجته؟ !

ربما كان من الأفضل حقًا أنها لم تأت.

أهي لعبة أخرى من الأقدار؟ ربما.

كان ظل تلك السحابة الغامضة يحيط بتعرجات كفي وهو يتحرك بين الأدراج في هيستيريا للبحث عن عزيز ، فأحالت الغرفة إلى إظلام رمادي بعدما كان مشرقً ا قبل دخولي ، أوصمتني السحابة بعتمة تشبه ملك الموت التي تلازمه أينما ذهب وكأنه يشير لضحيته باقتراب موعد رحيله . تحولت إلى نذير شؤم يُ ظلم الجدران باقترابه منها . وتقبلت حقً ا ذلك الدور .. فإن أرادته مني الأقدار .. فمن أنا لأتحدى إراداتها؟

مرت الدقائق ولكن دون أمل .. رفضت الأوراق ، كما أطاعت السحابة ، أن تنهي بحثي بأي أمر مفهوم . وعندها تحجرت عيني ، وانتفض جفني تجاه درج إيمان السفلي ، ذلك الذي تغلقه على الدوام بمفتاحها السرّ ي . سألت نفسي .. هل عليّ أن أفتحه؟ !

أجابت أصابعي وقد تسللت إلى فاتحة الأظرف الحادة في غير إرادة مني . شعرت بألفة غريبة بيني وبين ذلك النصل الحاد وكأني رأيته من قبل في مكان ما ، ربما في أحلامي التي تقذف بي خارج أعتاب النوم في فزع ، ولا تلبث أن تتلاشى عن ذاكرتي ، فأتنفس في الصباح لاهثة في خوف مما لا أذكر .

ضربت النصل المستوي بقبضة مقفل الدرج حتى انحنى ، كان الإغلاق متينً ا وكأنه قَ سَ مٌ غليظ لا يتراجع عن مطلبه . أصابتني حالة هيستيرية من تعنت المصائر في وجهي منذ البارحة . تعالت الضربات صراخً ا حتى ظننتها تستنجد من طعناتي الطائشة وارتعدت لوصول صوتها إلى مارٍ عشوائي خارج باب المكتب ، وعندها تفاقمت الهيستيرية وارتقت من أصابعي المرتعشة إلى جفني المرتعدين بين الباب والدرج . حتى لعنت صانع أخشاب تلك الشركة . فثنائي صنعته أصاباني بالرعب والجنون .

وفى طرفة عين أخرى أوشكت قبلها أن أيأس من محاولاتي الغاضبة ، انفلق القفل النحاسي للدرج ، وانفرج عن آخره . فغاصت يدي بلا تردد إلى عمقه حتى قبل أن يُ فتح بالكامل ، ونثرت ما به من أوراق أمام عيني . بحثت عن ورقة أو قصاصة منها تشير بخط إيمان إلى عزيز قاسم ولكن .. ما رأيته كان أكثر إفزاعً ا من وجهه إن كنت قد رأيته حقً ا ..

كانت الأوراق بالكامل تحوي العديد من الوصفات الطبية والأشعة سميكة الملمس . ترك جفناي الباب وانهمكت في مراجعة ما أتت به تلك الرسائل القدرية . وبين كلمة وأخرى شعرت بتيار جارف من نهر مؤلم يشق طريقه على وجنتي . انهمرت دموعي دون وعي مني وقد علمت للمرة الأولى ما أخفته إيمان عنا أو عني تحديدً ا . إيمان مصابة بسرطان الثدي !

ازدادت غيمة تلك السحابة القاتمة حتى زحفت على الأوراق ، وكأن شعور الموت يتباطأ مقتربً ا . ابتلعت شهيقً ا مرتبكً ا وجمعت أشلاء الخوف الغاضب وأنا أتذوق ملح دموعي وقد وصلت إلى لساني ، والتفت بقوة لمواجهة تلك الغيمة !

لم أدر حينها لم فعلت ذلك؟ كيف يكون ما قلت حقيقيً ا من الأساس؟ غيمة موت؟ كان فكر ا ساذجً ا ربما ساعدت غرابة قصة جلنار على إنضاجه . ولكن ما أن التفت في غمرة ذلك الشعور الهيستيري الغاضب ، حتى وجدته أمامي .

كان يقف مبتسمً ا في شر . لا أخفي أني ارتعدت فور رؤيته رغم بساطة هيئته ، فقد كان حافيً ا في ملابس عمل متسخة كما يدعونها « عفريتة ». نبتت لحيته باتساخ أسود حول وجهه ، وأظهرت ابتسامته عدة أسنان غائبة عن جيرانها من الصفراويات القذرة . أشار إليّ بإصبع مرتعش أن أفتح النافذة . تلفت حولي في حيرة مما عليّ أن أفعل . ضرب بكفه زجاج النافذة في غضب وحزم لم يُ ذهبا ابتسامته . فامتدت أصابعي إلى مقبض النافذة وفتحته .

« من أنت؟ ».. هكذا قلت في بلاهة ولكنه كان السؤال المنطقي الوحيد للتعارف بين الغرباء ، حتى وإن كان لصً ا في ملابس راقية .. وشيطانً ا في هيئة رثة .

تنهد وقال: عامل تنظيف الزجاج..

كان حقً ا يقف على « سقالة » تنظيف الزجاج ، ولكن تلك الستائر المترامية أخفت إطار وقفته فربما ظهر كشبح معلق في الهواء . اقتربت منه في حزم : كذبت .. بل كان ميعاد التنظيف البارحة ..

قلتها في ثقة، فاعرضّت ابتسامته: حسناً.. «لص أبله».. وها قد قابل «لصوص هاي لايف»!

ابتسمت في سخرية ولم أنتبه للدموع التي لا زالت تبلل وجهي واتجهت إلى الهاتف : لص في العاشرة صباحً ا؟ ! لا عليك .. سأتصل بالأمن إن كنت تشتهي السجن ..

كنت قد التفت عنه ، فأجاب في همس أعاد هيئته إلى صفة الشيطان مرة أخرى : ااااه سأعتاد على جدرانه .. ولكن هل تصبرين بذلك الجسد على البقاء خلف قضبانه؟

التفت له في غضب: اخرس! أنا موظفة بالشركة التي حاولت سرقتها!

أشار بإصبع إلى الدرج المكسور وضم كتفيه في سخافة : على رسلك أيتها السفيرة عزيزة (كرهت حقا كل ما يرتبط بلفظ عزيز).. أي موظفة تكسر درج رئيستها .. نعم ! لقد درست شركتكم من الأعقاب وحتى باطن الرأس .. وهذا مكتب مدام إيمان (احترمها السافل بلفظ مدام رغم سرقته لها).. وكفى مراوغة .. فابن الحرام يعرف ابن الحرام مثله ..

لم يهتز لي طرف لجملته ، كنت مثلها قادرة على استجماع مشاعري بقبضة هادئة . جفت عبراتي نسبيًا وتقدمت منه في هجوم احترفت عيني اصطناعه ، وقبل أن أواجهه بعبارة حاذقة أخرى ، انتفضت وانتفض على صوت مقبض الباب وأحدهم يحاول فتحه . تسمرت في وقفتي في جمود . وكان قرارًا حكيمًا .. فإن ظهر عليّ الخوف فسيكون ظن « لص النهار » حقيقيًا ، ولكن إن لم أفكر في وسيلة للاختباء من فعلتي سينفضح أمري . وعندها عرفت أن ذاك القرار الحكيم سينقلب إلى حماقة إن لم أتحرك .

زادت محاولات الآخر لفتح مقبض الباب الذي أغلقته في إحكام ، واستمعت إلى صوت صاحبه من الخارج « لقد علق الباب وأريد ذلك التحويل البنكي قبل الثانية عشرة .. هه؟ لا .. مدام إيمان لا تجيب .. فقط أرسلي لعطا ليحل القفل فلا وقت لدينا ». كانت نورا . وكان إفزاعًا آخر لها تتسبب به لشعيرات جسدي المنتصبة . وكانت دقائق قبل أن يصل الساعي عطا ضخم الجثة إلى مسرح الجريمة . فإن استعصى عليه القفل . فلسوف يحطم صاحبه . الباب بالطبع !

ظهر الخوف على « اللص » وتنهد في قلق صادق : حسنً ا سأشرح لكِ الأمر كله .. ولكن عليكِ مساعدتي في إنزال ذلك الشيء .. فمنذ أن صعدت إليه وأنا محبوس بين عمدانه منذ الفجر .. فلم أسرق ولم أفلت بجلدي ، وأعدك أني سوف أساعدك .

لملمت الأوراق في ثقة : لا أحتاج إلى مساعدتك .. ولا أكاد أصف لك جم سعادتي بأزمتك المعلقة .. فلون السجن الأزرق سيليق بك حقً ا ..

توسل : أرجوكِ أنا حقً ا ساذج .. لا أعرف كيف تعمل تلك السقالة .. أنا ساقط ابتدائية ، لعن الله هذا البلد ، فلابد للص فيها أن يكون جامعيً ا حتى يسرق بضعة جنيهات .. أرجوكِ !

أعدت الأوراق إلى الدرج وأغلقته جيدًا والتفت إليه في تشفٍ: بل اا..

قطع صوتي صوت ضربة عطا على قفل المكتب . فاتجهت دون أن أشعر في آلية أثارت ضحكة غير منطقية لذلك اللص إلى النافذة . وفى سرعة صامتة . خلعت حذائي وامتطيت السور المعدني وجلست داخل السقالة وأنا أضم يدي حول خصري كتلميذة مخطئة أمام ناظريّ أستاذها .
ونطقت في بلاهة :

«أين تريد أن تذهب؟»..

***

انبطحنا بين الجدران القصيرة لتلك السقالة ، فصارت السماء الزرقاء الصافية هي سقفنا الجديد . راقبتها وأنا ممددة على ظهري وتعجبت . « أين ذهبت تلك السحابة القاتمة ». التفت إلى شريك الجريمة ونظرات القلق تغرق وجهه بأمواج من العرق اللزج وقد حطّ م عطا الباب . مالت رقبتي في شرود المجاذيب وأنا أراقب ذلك الرجل الذي هبط إليّ من السماء .. « أين حقً ا تلك السحابة .. هل كان هو .. هل تناثرت أقطانها في الهواء ، وتجمّ عت مرة أخرى في شخصه؟ ! لم يكن ظل السحابة الذي كان يزحف على الجدران وإنما ظله .. اااااه .. ها أنا أجالس سحابة متحولة إلى لص بشري .. أي عبث هذا؟ !»..

ارتفع صوت أفكاري نخرجت من بين شفتي دون وعي مني: هل أنت السحابة؟

كان متكومًا بقعر السقالة خوفًا من أن يلمحه عطا أو تتعثر به نظرات نورا، فتعجب من عبارتي: سحابة؟!

انتبهت لما قلت فتهرّ بت من نظراته وقد استفقت أخيرً ا من نوبة الجنون التي أصابت عقلي وصورت لي الرجال على أنهم سحاب متطاير ، بينما تنهد هو في يأس وكأنه علم الحقيقة : سحابة؟ !.. اه .. الآن قد فهمت .. حتى ولاد الذوات لم يسلموا من المخدرات؟ !

زفرت في ضيق من اتهامه الساذج ، وكذلك من انفلات لساني بما دفعه إلى ظن لم ألُ مه عليه ، بينما ارتفع هو بجسده مرة أخرى مراقبً ا المكتب وسكّ انه الجدد ، ولكنه لم يلبث إلا أن انتفض رقودً ا مرة أخرى وهمس في صرع : إنها متجهة إلينا ! أرجوكِ افعلي شيئً ا ..

دار برأسي ما دار سابقً ا من أفكار الهلع واحتمالات الكارثة إن رأتني نورا على تلك الحالة ، فهمست له : فلتحاول أن تُ نزِ ل ذلك الشيء !

بدا أن الزمن تتناقص فجواته تدريجياً فيضيق ويعتصر جسدينا بأسنان الرعب وشهوة الانتفاض من مكانينا قبل أن ننفجر هلعاً ، فصاح بي هامساً : أخبرتك أني أحاول منذ الفجر ولا أمل .. المقبض معطّل ..

وأشار إليه بجانب رأسي . رأيت المقبض وحاولت الاعتدال من تكوّمي بميل مؤلم للخلف دون أن أرفع رأسي في محاولة بريئة لمعاينته . ولكن ما أن لمسته حتى انفلت رباطه فجأة واندفعت السقّالة بعنف في الهواء بهبوطٍ صارخ !

كنت أسمع دوماً عبارة « السقوط الحر »، وكيف كان يصف الجميع الشعور الذي يستحوذ على صاحبه بالفزع . فالصدر ينقبض وتفلت حوافره أطراف الروح التي يحتويها ، فتتهاوى بسرعة أكبر لأسفل ، ربما حتى أسرع من الجسد الذي كان يضمها بعهدٍ باطل بالحفاظ عليها للأبد .

وكنت أسمع دوماً أن الروح إن فارقت الجسد لموت وشيك فهي تنتفض خروجاً إلى الأعلى ، إلى السماء كما يدعي كل من شهد خروجها لحبيب أو حتى عدو ندم على قتله . ولكن بسقوط تلك السقالة بتلك السرعة ، كانت روحي تنفلت من جسدي من أسفل . أما والله كما كان يقسم فرغلي .. لسقوط الروح من إخمص القدم .. أكثر فزعاً من انفجارها بين مضايق الصدر .

تهاوت السقالة وتهاوى جسدانا داخلها ، فبدت البنايات المجاورة وشرفات المنازل وما تحتويها من حبائل الملابس البالية وسجائر عاطليها ، وكأنها ترتفع بشهيق خاطف إلى الأعلى . بدا الوجود بأكمله وكأنه يتلاشى صعوداً إلى السماء . حتى ظننت خلال تلك الثواني القليلة أن عهد الدنيا قد انتهى ، وأن كل ما خُلِق على الأرض ، يصعد إلى جنة السماء مرة أخرى ، إلا أنا ، فلقد حكم عليّ القدر أن أهبط منها وحيدة بباطن الأراضين السبع لتتخذ نفسي من نفسي عدواً .

أغلقت عيني وانتظرت ارتطاماً وشيكاً ، ولم أملك مقاومةً لشهقة أخيرة تسبق هلاكي القادم . ولكن ، لم يمرح نصف ما أردت من هواء إلى صدري ، حتى ارتجت السقالة في عنف أطاح

بجسميْ نا نخض أمواج نوّ ة متأخرة ، فتطايرنا طيْ حً ا يمينً ا ويسارً ا حتى استقرت سفينتنا قبل الأرض بسنتيمترات قليلة .

توقفنا حقً ا ، وتنفّ س اللص الجبان عدة أنفاس قصيرة وكأنها تسبيح هيستيري بالحمد على بقائنا أحياء . بينما اكتفيت أنا بالصمت الأزرق على وجهي الباهت . مسح الرجل عرقه الغزير حتى ظهر وجهه مرة أخرى وقد كان توارى قبل ذلك خلف صفحة ماء الخوف اللزج ، فاعتدلت دون حديث وعبرت سور السقّ الة وقفزت إلى الطريق وتعلو رأسي صافرة خلوّ ها من الأفكار .

مشيت عدة خطوات متعاقبة دون وعي . فلمحته وهو يلحق بي متلهفً ا . سبقته بركض غير مبرر وعزمت على فضحه بين المارة بأنه يريد معاكستي إن اقترب أكثر من ذلك ، ولكن كنت ظالمة بحقه . فما كان لحاقه بي إلا لسبب أغفلته دون أن أدري .

«احذرى من الزجاج يا ست»..

صفعني بتلك العبارة . فنظرت إلى زجاج الأسفلت كما يدّ عي . فانتبهت لشيء آخر . كنت حافية . وعندها توقف الزمن عن تسارعه الجنوني . ورمح أمام ناظري منظر حذائي التافه وقد تركته بمكتب إيمان . وعاجلً ا أم آجلً ا ستعلم إيمان أني اقتحمت خصوصيتها . فتوقفت ورفعت رأسي للسماء . وبحثت عن تلك السحابة ، فلم أعثر عليها .

اقترب مني ونزع حذاءه المقطع ووضعه أمام قدمي. نظرت إليه في تعجب وإلى قدميه الحافيتين: ماذا؟

آجاب دون تردد: فلترتده حتى نعثر لك على آخر..

- وأنت؟!

ابتسم في بطولة زائفة كعامة البسطاء السذج : لا تهتمي ! نحن جدعان يا مدام ، وإن كنا « لصوص ً ا ».. ولا نرضى للنساء ، وإن كنّ « لصوص ً ا » (ابتسم من عبارته)، أن يغوصن في الألم و ....

قطعت جملته بتحرك محقر غير مبال لما قال من أشعار السذاجة الرجولية . وابتعدت عنه عدة خطوات في ترفع ، ربما أردت أن أثبت له أن من كانت أمامه ليست بامرأة راقية تافهة تخشى على أقدامها الارستقراطية من بعض الزجاج . ولكن .. عدة خطوات للأمام حق ً ا ، كانت كفيلة بأن تجعل من ذلك التصوّ ر السابق كتحريف الأتباع لكتاب نبيهم المقدس .

ارتديته في صمت . وابتسم في صمت . وآثر المارة الصمت وهم يرون امرأة في رداء خمري يطول ركبتها بسنتيمترات قليلة وترتدي « كاوتش » أبيض تحول إلى الرمادية بفعل اتساخه ، ويجمع رباطه القذر ما على الطريق من أوراق وأتربة ذرتها الرياح . ولكن .. هكذا أصبحت تعليقات المصريين على غرابة ما يرونه كل يوم . فقط الصمت .

حاول استباق خطواتي لاهث ً ا بكلمات لم أفهم سبب نطقه بها : اا .. أنا لست لص ً ا يا مدام .. عليكِ أن تعلمي ذلك ، أنا موظف محترم ولكن .. ك .. كانت المرة الأولى .. وها أنا فشلت بها ..

أجبته دون أن ألتفت أو أقطع سيري : أنت حر الآن .. وربما بطل أبله أعطاني حذاءه .. فلم تتكبد عناء الدفاع عن جريمتك؟

تحرك وتوقف أمامي لحبس خطواتي عن الحركة، كان يائسا: ربما جمعتنا الأقدار لسبب..

أزحته عن طريقي بدفع من كفي لكتفه وعبرت جسده الممتلئ : إن كان ما تقول حقً ا فعليك أن ترحل .. فما بعثت إليّ الأقدار إلا الشقاء .. وما طال من جاورني منها إلا الموت !

كان محقً ا . فمقبض السقالة كان عالقً ا لسبب تافه ، فلم استجاب لأصابعي في لحظة ، ولم يستجب لمحاولاته البائسة لليلة كاملة؟ لم أصدق عبارة « أنه جاهل ». فأي « بهيم » بلا رأس قد ينجح في سهولة في إتمام الأمر . ولكن .. في اللحظة التي كاد أن ينكشف فيها أمري . ترسل إليّ السماء موظفً ا أبله على سقالة معلّ قة لتنقذ رقبتي من اتهام السرقة؟ ربما كانت الأقدار تتناوب عليّ بقصص الأسرّ ة حقً ا . ولكن .. لمَ أهتم؟ يبدو أن قصتها أوشكت على الانتهاء !

استوقفني مرة أخرى: ١٤٠٠ جنيه.. هي كل ما أريد.. «الواد» سيرسب!

لم أتمكن من مواصلة الحركة بعد الآن، فالتفت في تعجب: هل كنت تسرق من أجل الدروس الخصوصية؟

أومأ في حيرة من سؤالي ، وكأن ما قال كان بديهيً ا : وهل يسرق الغلابة طمعً ا؟ سيصير دَكتورً ا ، وما أن يدخل كلية الطب ويتخرج .. حتى يغدق عليّ وعلى أمه وإخوته بالأموال .. فقط ١٤٠٠ جنيه قد تحيي أسرة بالكامل ..

ء ء ء

راقبته وكأني آراه للمرة الأولى: ما حكايتك؟

ابتسم في مستهل مقدمته المسرحية لإخبار قصته ، ولكنه ما لبث أن تجهم مرة أخرى عندما لمح شيئً ا يتحرك خلف وقفتي . لم أتردد في الالتفات لاستيضاح سبب تجهمه . وعندها سمعت صوت سيارات الشرطة وهي تصطف أمام بوابة الشركة . غريبة هي بلاغات الأغنياء . تجيبها شرطة مصر بسرعة الكاف والنون ..

لم أخف رعدة خوف زحفت على جسدي . تلك التي يشعر بها السارق حتى وإن لم يكشف أحد أمره . كان من الممكن أن أتقدم تجاه رجال الشرطة وأواجه رئيسهم كمساعدة مدام إيمان الشخصية حتى وإن عثر على حذائي ، فربما كان حذاء إيمان ، وربما كان الدرج المكسور للص غيري ولن يخطر على باله أن زوجة مدير مكتب وزير الخارجية هي من انتهكت حرمته ، ولكن .. كانت روح اللص تسيطر على جوارحي وكامل تفكيري . فكان رد الفعل في تلك اللحظة .. هو الارتعاش من الخوف .. والرحيل بخطوات متعرجة داخل ذلك « الحذاء الرياضي » الواسع .

لص ذو جسد ممتلئ .. بحذاء أكبر من مقاس فيلة الغابات .. ملعونة هي المصائر التي تتحفز لإيلامي بأتفه الأسباب غير المنطقية .

جذبني جناب اللص من ذراعي ولم أمانع . وتحرّ ك بي في سرعة وعينه تعرف طريقها إلى الطريق الخلفي للشركة ، الذي بمجرد أن دخلته حتى تبدّ ل منظر اصطفاف السيارات المرسيدس واستواء الاسفلت أمام البنايات الزجاجية الفاخرة ، إلى حارة شبه شعبية . تستقر بأحد أركانها قهوة بلدي لا تقل قذارة عن ملابس صديقي الجديد . وبين مقاعدها التي ترامت على الجانب الآخر من تلك الحارة عدة صناديق معدنية أغفلتها أيدي المارة بإلقاء القمامة خارجها . فلا أخفي أن كان مظهرها بديعً ا . صناديق قمامة فارغة وتلال من القاذورات تزين الطريق حولها .

ء ء ً

آسخر بالطبع. كان آمرًا مقززا.

استمر ضحية السقالة في جذب ذراعي تجاه القهوة . ودخلها دون تردد فانتصبت رقاب أشباهه من الغلابة ، على حد تعبيره ، أمام وجهي . امرأة فاتنة برداء قصير وعنق عارٍ تعبر بينهم . تجاهلت نظراتهم في بلاهة القلق من انتصابات الشهوة التي احتدت تجاهي . حتى وصل حارسي إلى صاحب القهوة والذي يبدو أنه كان يعرفه .

« الشرطة تبحث عنا ».. فأجابه الرجل في ضيق : قلت لك إن من مثلك لم يخلق للسرقة .. ادخل مخزن البيرة وأغلق الباب من الداخل . وما أن تحركا حتى استوقفه مرة أخرى : ولكن .. الأبلة ااااا .. عيب يا سيد .. لسنا بقرون والمخزن له حرمته ..

لم يهتم لأمره . فقط عبر جسد القهوجي السافل وجذبني وعلى وجهه ابتسامة تشفٍ في جيرانه من رواد القهوة . وكأنه يقول « فزت بالفاتنة يا غجر ». وأنا؟ لم أعقب .. فقط تبعته كالبلهاء إلى مخزن البيرة المزعوم . حتى أغلقه من الداخل .

«فلنجلس هنا لبعض الوقت..».

قالها وهو يقلب صندوقً ا فارغً ا خلف وقفتي ويمسحه بكم قميصه الأكثر اتساخً ا . جلست وحولي بنايات ضخمة من صناديق البيرة . بينما جلس هو أرضً ا وأخرج من جيب قميصه المتعرج سيجارة ملتوية ، يبدو أنها كل ما تبقى له . فخرجت عن الصمت أخيرً ا : ثم؟ !

انشغل بإشعال السيجارة . فعلقت نظراتي به في جمود . وعندها لاحظ تحديقي فابتسم وأجاب : آه .. إنها القهوة التي أتسلم منها أنا و « صاحبي » وردية التاكسي .. ااااه .. لعنه الله .. هو من

أشار عليّ بتلك السرقة .. ورسم الخطة بالكامل .. كان يعلم أني « عبيط ».. ولكن يبدو أنه صدق كما صدقت نفسي أني أستطيع فعل ذلك ..

تنهدت من نقص الاوكسجين بذلك المكان: وكيف وصلت إلى السقالة؟

نظر إليّ بطرف عينه باسمًا في يأس: ولم تهتمين؟!

نهضت متجولة في المخزن دون أن أجيب في اصطناع لعدم الاهتمام ، فلمحته بأحد أركان عيني السفلية وهو يمد عنقه تجاهي وكأنه كان متوقعً ا إلحاحً ا في سؤالى . بدا مريضً ا بالحكي . فأجاب في ضعف : صاحبي يعمل بها .. وأعد لي الأمر كله ..

كنت قاسية: وهل تظن أن دخول ابنك كلية الطب سيحيل بجيمك إلى جنة أرضية لتقدم على فعل بتلك الحماقة؟

أومأ عدة مرات في إصرار غاضب وكأنه يحاول إقناع نفسه بصدق ظنه : نعم ، نعم ! لابد أن يفعل .. محمد ابن أصول .. وسيحمل والديه وإخوته .. ولكن عليّ أن أتمم مهمتي تجاهه ..

تجاهلت وقد تعرق جسدي من ضيق المكان وحر الصيف فأكمل : هذا هو دفاعي .. ولكن ما هو دفاعك لسرقة مديرتك؟ ! فلقد كنتِ تلازمينها لوقت طويل في إخلاص كان واضحً ا ..

التفت إليه فأكد: راقبتكما كـ «لص» مخضرم لأسبوعين..

جلست مرة أخرى وأنا أصارع أنفاسي الضيقة : حماقة تشبه حماقتك .. حدوتة ساذجة توقف الأطفال عن الاستمتاع بها منذ عقود مضت .. (ثم نطقت في غموض) قصة من قصص السحر !

مرت دقائق من الصمت . وكأن كلا منا اختار أن يضم صدره على قصته دون أن يطلب من الآخر تفسير أي منها . مد يده إلى صندوق من صناديق البيرة وأمسك بزجاجة خضراء وفتحها ، وقبل أن يمدها لشفتيه نظر إليّ في حرج ضاحك : عدم المؤاخذة .. لن يسمح لي المعلم سوى بزجاجة واحدة .. فلا أستطيع أن أدعوك ..

قاطعته في رد مفاجئ لم أفهم سببه: فلنتناوب عليها إذًا..

ربما تذكرت جلساتي مع فرغلي وتناوبنا على كوب الشاي الذي لا يملك غيره . وابتسمت رغمً ا عني من المفارقة . فجلساتي مع شيخ حول كوب شاى ، تحولت إلى جلسة مع لص حول زجاجة بيرة !

أومأ في موافقة . وبعد أن كاد أن يلصق فوهة الزجاجة بشفتيه . ارتفع بها بعيدً ا وأسقط بعضً ا من سائلها الاصفر داخل حلقه وسلمني إياها . رأيته أكثر احترامً ا من الكثيرين وقد خشى أن أشمئز من الشرب بعده . كانت المرة الأولى التي أشرب فيها ذلك السائل ذا الرائحة العفنة . ولكن .. لم لا؟ ! فأنا لصة للمرة الأولى . وقاتلة للمرة الأولى . ومطلقة للمرة الأولى . وأوشك بعد موت إيمان الوشيك أن أكون يتيمة للمرة الأولى .

ولكل مرة أولى مرارتها.. وكذلك تلك البيرة!

امتقع وجهي وقد اختلطت أماكن ملامحه بانقباض غريب بمجرد أن لمس السائل لساني ، فأطلق « سيد » ضحكة عالية ، أتبعها المعلم بطرقة حازمة على الباب من الخارج وقد ظن ما ظن : يا سيد ! اتق الله ! والله لم أحلق شاربي منذ الدبلون ..

كتمت ضحكتي لمقولته وسلّمت الزجاجة لسيد ، وقد شعرت بألفة غريبة بيني وبين ذلك الجو الغريب الذي أقحمت نفسي فيه دون وعي ، بينما رمقني صديقي النتن بنظرة إشفاق وقال : المرة الأولى في خمر الغلابة؟

مال رأسي لثقل غريب أصابه لمجرد رشفة من خمر الغلابة وشردت في كذبتي التي حدثت نفسي بها سابقًا عن المرة الأولى للخمر : بل الثانية .. ولا أظن أنها ستكون الأخيرة ..

لم يفهم سبب شرودي . ولم أحاول منع الذكريات من الهجوم على رأسي . خرت دفاعاتي أمام صورة تلك الليلة التي حاولت نسيانها منذ عشر سنوات . يوم تذوقت الخمر للمرة الأولى . لم يخدعني أحد الشباب لتذوقها قبل ليلة حمراء أفقد فيها عذريتي . ولم أتمرد بها على أخلاقي في سفر إلى مدينة ساحلية مع « شلة » أصدقاء . بل قبلتها في صمت وجمود رغم اصطناعي رفضها وقتها ، عندما عرضها عليّ من كان أقرب إليّ من الجميع حينها !

كنت في السنة النهائية من تعليمي الجامعى التافه . وتلقيت لتوي خبر هجرة « عمر » حبيبي الأول مع والديه بعد فشل روايته الرابعة . ولم يكن ذلك بالخبر الغريب عندما تلقيته ، فلقد كان غريب الأطوار منذ عرفته .. حتى أنه اقتحم بيت أسرتي فقط ليصحبني إلى عم فرغلي بطل مسرحيته الجامعية الجديدة ولا يبالي . وكان هذا كل ما تبقى منه . عم فرغلي .

عدت إلى بيتي وقدمي تترنح من ثقل كاهلي بخبر اختفاء عمر عن الوجود . ظننت حينها كشابة أقرب إلى الطفلة منها إلى المرأة ، أن من نحب لن يرحل مادام للزمن من بقية . فالشمس تسطع بلمسة منه في الصباح . والليل يشدو ساحرًا بكلمة منه في الظلام . والروح تنساب في نهرية طالما التصق رأسانا بأحضانه . ظننت .. وما كان للظن أن يدنو من الحقيقة إلا في المصائب .

دلفت من باب الشقة ، فوجدت أمي كعادتها وهي تجالس ابن عمها في شكوى أخرى من زوجها ، وكان ابن العم بالطبع يواسيها في رفق بالغ لطالما كرهته . ربما كانت الغيرة على ضعف أمي الذي أردت أن يكون محله صدر أبي كما نرى في أفلام الأبيض والأسود ، وليست ربتات ابن العم المتوترة .. تارة على وجنتها .. وأخرى على كتفها في حياء مستفز . مررت من أمامهما دون أن يراني الأحمق أو تشعر البلهاء بضربات قلبي وتأخرها عن نبضها المعتاد . وارتميت على فراشي متكومة كجنين يرفض الخروج من رحم أمه رغم ضيق جدرانه ، وأفضت على وسادتي بالدمع حتى أنبتت .

غبت لنوم زارني فيه عم فرغلي بحلم بدا قصيرً ا ، جملة واحدة .. فقط « مري عليّ في الصباح »، ناقشته بالحلم بأنى لا أومن بجلسات ختمة القرآن الكريم لاستدعاء الحبيب حتى آتيك بعد رحيل عمر ، فتبدل وجهه بوجه عمر وقال بل أحتاجها والجحيم تُ عرض عليّ . سألته في بكاء : ولكن من مثلك لا ينتمي للجحيم . فأجابني بوجه أحمر أفزعني « ديْ ن يا فيروز حياتي ولابد من سداده ». ومسح دمعي بإصبعه . اعتادت أن تكون مداعبته ناعمة تنشدها وجنتي مرات في اليوم والليلة ، ولكنها أصابتني بحكة مؤلمة تعاظمت مع تزايد سرعة أصابعه . وما أن أوشكت أن تخدش وجهي حتى انتفضت من الحلم صارخة .

استفقت وكان جرح خدي مدممً ا . فزعت وابتعدت عن الوسادة الملطخة بمحلول دمعي ودمائي ، ففطنت إلى الحقيقة . كنت أنام على أشواك الوردة اليومية التي يتركها أبي بجانب رأسي عندما يعود متأخرً ا ويغفو قبل أن يصل إلى فراشه .

نهضت في تعجب ، فأبي كان مسافرً ا لأسبوع كامل ليجد بعض الحلول لخسارة أسهم مصنعه وابن عم أمي ، ولكن بدا أنه عاد في تلك الليلة ، ابتسمت رغم الحزن ، وقررت الذهاب إليه رغم مقاطعتي إياه بعد عشقي لجلسات عم فرغلي . فلم يكن لي إلا أذناه يستمع بها إلى شكواي ، ولكن تدهور حالته وتكرار سُ كره الروتيني ، ساعدا على نفوري منه .. وساعد كوب عم فرغلي الأحمر على جذبي لصدره كلما اشتد الحزن .

خرجت إلى الصالة ، فسمعت صوت تأوه مكتوم . حاولت تحرّ ي مصدره ولكن غاب دون رجعة فيئست من تلك المحاولة . وما أن اقتربت من غرفة نوم أبي حتى ضرب عيني بريق غريب . التفت ناحيته .. كان انعكاس ضوء الشرفة على كأسه الزجاجي . كان يجلس في استفاقة غير معهودة يشرب الخمر في جوف الليل .

كانت المرة الأولى التي يشرب فيها الخمر بالبيت .. والمرة المائة بعد الألف التي يتجرع فيها من ذلك السائل المُ سكر ..

ذهبت إليه في خطوات بطيئة عبرت بها باب الشرفة ، وفى كل خطوة كان وجهه يزداد وضوحً ا . كان شاحبً ا متجعدً ا كمن شاب لمائة عام في طرفة عين . كان ينظر إلى الطريق الخالي وقد فرد مرفقه على السور البارد وأسند ذقنه عليه في شرود . اقتربت منه حتى كدت ألتصق به فلم يلحظني ، رأيته يراقب قطة تدفن قاذوراتها في الرمال . راقبتها معه . حتى انتهت وبدأت في حومتها المعتادة حول بقعة الرمل تشتم رائحتها . سمعت حينها تأوهً ا مكتومً ا آخر وما أن التفت إلى مصدره حتى صرعتني ضحكة أبي . كان جسده ينتفض وهو يكتم فمه بكفه المرتعش وكأنه يكتم بكاءً وليس ضحكً ا . فربت على كتفه علّ ه ينتبه لوجودي . ولكنه أكمل مراقبته للقطة وتحدث دون أن ينظر إليّ أو يحرك ساكنً ا ..

«سيأتي زوجها الآن».

جلست أمامه على أحد مقاعد الخوص التي اعتاد أن يغزلها بنفسه في صباح الجمعة وقبل صلاتها : ماذا تقول يا أبي؟

أجاب وعينه تراقب الطريق : هم الذين يقولون .. يقولون إن القطة تترك رائحة قذارتها ليتبعها زوجها .. يتيهون ليلً ا ونهارً ا من أجل لقمة العيش .. يأ كلانها ، ويهضمانها ، ويتبرزانها ..

فقط من أجل أن يلم القدر شملهما من جديد .. دائرة مفرغة لا بداية لها .. وآخرها لم يُ خلق بعد .

- لا أفهم..

-لا أحد يفهم حقًا.. ولكنهم أجمعوا على أن حب الزوجين بني على قذارة المصائر..

تجرع رشفة أخرى من الكأس وهو يستند برأسه على مرفقه دون أن يعتدل ، فانسكبت الرشفة بالكامل على ذقنه وصدره ، ولكنه لم يعبأ .. فقط لحس ما تبقى منها على شفتيه كقط يلحس يديه من الملل وهو فى انتظار زوجته .

انتابني القلق من نبرته ونسيت حزني على عمر للحظات ولمست قبضته: ما أرجعك من سفرك يا أبي؟

نظر إليّ وابتسم: الرمل يا عزيزتي.. رائحة الرمل.

أطرقت برأسي في غير فهم وعوّ لت على الخمر غرابة كلماته ، لكنه التفت إليّ لأول مرة منذ بداية تلك الجلسة الغريبة وابتسم : اشتقت إليكِ يا ابنتي ..

ابتسمت في يأس وعصرت جفني إغلاقً ا للحظات تمنيت أن تدوم : بل اشتقت إليك يا أبي .. سافرت منذ سنوات ولم تعد حتى الآن ..

أمسك بزجاجة الخمر في بلاهة وجذب كأسً ا أخرى دون أن يُ لقي بالا لما يقول : وما فائدة العودة ولا أحد ينتظرك؟ ! أتشربين؟ !

فتحت عيني في فاجعة ! أيعرض أبي عليّ خمرً ا . ظننت أنه ربما اختلط عليه الأمر أو صهرت الخمر رأسه فلم يعد يفرّ ق بين ابنته وعشيقته . ملأ الكأس بالكامل وقربها من فمي : فلتجربي؟

-أجرب الخمر يا أبي؟!

- ولم لا؟ ! جئنا إلى الدنيا يا ابنتي عرايا .. وكُ تِ ب علينا اختبار كل مأساة فيها مقابل ما يستر عوراتنا .. كل مأساة بقطعة من قماش .. كل على حدا .. إن اختبرنا موت من نحب يستر الحزن صدرً ا بداخله قلبً ا احترق على فراقه .. إن اختبرنا فشلا يستر الذل عنقً ا مال من ضيق العيش وبأسه .. وإن تألمنا لخيانة تستر ورقة الموز عضوً ا ذكريً ا أو أنثويً ا بخل الحبيب عليه بشهوة حرّ مها على من دونه !

ضربت شفتيّ بكفى خجلً ا . كيف يقول الأب ذلك أمام ابنته؟ علمت أنه ثمل حقً ا وخشيت أن يصل به الأمر أن يتجرد من ملابسه أمامي كما المجاذيب ، ولكنه أكمل وهو يتجرع كأسه فتنسكب على ذقنه وصدره دون أن يبتلع نقطة منه :

« فلمَ إذً ا نختبر كل المآسي لكي نستتر .. ولا نختبر المتع وإن كانت حرامً ا .. كي نتعرّ ى من جديد ». ضحك ثم قال « أهذا عدل؟ ! اشربي ، اشربي »..

واجهته في حيرة: ولكنك لا تشرب حقًا يا أبي.. الـ.. الخمر ينسكب على صدرك..

ابتسم وعاد بنظره إلى الطريق : أي صدر .. نفد القلب المحترق منه .. لا تقلقي .. أصبح به فجوة كبيرة .. فما ينسكب خارجه .. يعود مرة أخرى إلى داخله ..

أرهقتني كلماته غير المترابطة . فقررت أن أنهض للنوم وقد ظننت أني سأشكو إليه رحيل حبيبي . ولكن .. كان عم فرغلي هو الخيار الأمثل . وما أن نهضت حتى جذب ذراعي وأجلسني : أريد حقً ا أن يشاركني أحدهم الشرب هذه الليلة ..

راقبته في جمود غاضب. فاض الكيل من انحرافاته والآن يجبرني على الحرام: أبي ااا..

ألصق الكأس بشفتي فجأة فانسكب على ملابسي ، وتذوقت بعضً ا منه رغمً ا عني . وامتقع وجهي من مرارته . فضربت يده بعيدً ا حتى طارت الكأس بالطريق فأفزع القط وزوجته وفرا هاربين .

نهضت في غضب ، فهمس في حزن استوقفني : أردت لك تذوق المرارة حتى تعتادي عليها .. ألا ترين؟ نتجرع المرارة قهرً ا .. ولكنها لا تلبث أن تصبح من متع الدنيا .. وحُ سن عذابات الآخرة ..

نظرت إليه شذرً ا واتجهت إلى غرفتي . تنهد برحيلي فلم ألتفت . أكملت طريقي ، ولكن في منتصفه ، أوقفني صوت التأوه المكتوم مرة أخرى فتسمرت أصابع قدمي الحافية أرضً ا . ظننت أني علمت مصدره . عقدت حاجبً ا انعقد بعقدة رجليّ فوق بعضهما للرجوع خطوات للخلف . تحركت في بطء تجاه غرفة نوم والدتي . فتعالى صوت الآهات . خشيت عليها أن تكون مرضت بمرض سرّ ي وتتألم وحدها ، ولكن .. خاطر غاضب افترس رأسي .. لم أعرف هويته ولا معناه ولا سببه .. فقط سيطر على شعوري بالخوف كلما اقتربت من مقبض باب تلك الغرفة المظلمة .

انفجرت الآهة المكتومة إلى أنفاس متعاقبة من اللهاث . فضربت المقبض بيدي وصرعت الباب بفتح درفته الساخنة ، وعندها رأيت ما رأيت . أمي عارية وابن عمها بين فخذيها متعرقً ا !

انفجرت خصلات شعري الأسود للخلف بتيار جارف من الصدمة ، وشعرت وكأن شيبً ا يزحف بين شعيراتها . اهتز عنقي في ارتعاش غير مفهوم . وضربني جفنيّ بنبضات هيستيرية وكأنها تدفعني بقوتها للخلف وتصرخ « ارحلي .. ولا تطيلي النظر !». انتفضت أمي وارتمى عشيقها وهو يستر عورته بكفه النجس أرضً ا إلى أسفل الفراش . التفّ ت أمي بملاءتها المبتلة بعصائر شهوتها المحرمة وأحاطت جسدها المتعرق وانهمرت دموعها . حاولت النهوض تجاهي في لهفة صرعت خطواتها . صرخت في توسّ ل متقطّ ع بما ظنته منطقيً ا وظننته حقيرً ا :

« ف.. فيـ.. فيروز! لـ.. لا.. لا.. لا تخبري أباكي عندما يرجع !».

أثقلت غيمة سوداء عيني ، وأحالت الرؤية إلى الظلام تدريجيً ا وأنا أهمس لها بحروف سمعتها أعجمية « اا .. ا .. انـ .. انه .. ف .. في الشرفة ..»، وعندها فطنت إلى حقيقة أفعاله . عاد من سفره ورأى ما رأيت ، فعاد كعبد وضيع مخنث إلى الشرفة يسكر من خيانة زوجته دون أن يحرك ساكنً ا لقتلها .

تمنيت لو فتحت عيني بعد أن فطنت إلى تلك الحقيقة ، أبي يجلس حيً ا وهو يسمع آهات زوجته في الغرفة المجاورة .. أي ذل هذا؟ ! فتحت جفني .. ولم تتفتح الرؤية . كان الظلام حالكً ا . ضربت عيني بأصابعي في قوة ، ظنت أمي أني ألطم كفتاة خائرة أمام خيانة أمها . وشعرت بيدها على رسغي وهي تمنعني . دفعتها بقوة ولم أر سقوطها . وعدت في غضب أضرب جفني بقبضات صارخة فربما تعود إليها الحياة وينطفئ الظلام بأي ضوء ولو خافت . إلا أن الكلمة عليّ قد حقّ ت .

عميت!

انجلت البصيرة بضياع البصر ، وعلمت أن سببه لم يكن عري أمي وجسد عشيقها المتعرق ، وإنما فاجعتي في أبي . ذلك الديوث اللعين . والذي كان سابقً ا ، إلهً ا عشقت عبادته .

لم يهزني رحيل عمر إلا بكاءً . ولم تطرق خيانة أمي عيني إلا بحوظً ا . ولكن الصيرفي؟ فأصابها بموت مؤقت لم أستفق منه إلا بعد عشرة أشهر . وما أن فعلت ورأيت النور مرة أخرى .. حتى شعرت بتلك الفجوة في صدري . فجوة الخيانة التي أبدع في بؤس في وصفها .. وتسرب إليها ما سكبه عليّ من خمر ، فأغرق قلبي وأسكره بالغضب حتى يومي هذا .

«مر!».

قلتها فتعجب لها سيد وقد أسندت رأسي على صندوق البيرة خلفي في نوم سريع باغتني . أيقظني صوت ضحكته : البيرة مرة حقً ا .. ولكن بعد فترة تعتادين عليها ..

أجبته دون أن أفتح عيني وكأنى اشتقت لعمايا المؤقت: ككل شيء مر في تلك الدنيا..

نفث هواءً قصيرًا من أنفه: معك حق!

فتحت عيني واعتدلت وأشرت إلى الزجاجة في يده فسلمها إليّ وقال : وجهك به بعض الجروح .. يبدو أنك فتاة مشاكل ..

تجرعت رشفة أكبر تعجب لها : أغلقت إيمان محمولها للمرة الأولى .. ولم تأت إلى الشركة على غير عادة .. ما الذي يعنيه ذلك؟

تعجب وقد ظن أن جرعتين من بيرته الرخيصة أسكرتني: ا.. لا أعلم.. ا..

ضحكت ضحكة عالية في بؤس: علِمت أن موتها اقترب!

ضرب المعلم الباب المغلق في قوة : افتح يا سيد !! التاكسي وصل .. معاد تسليمك وجب ! افتح يا جدع ولتوقف تلك المسخرة .. الله؟ !

لم يلتفت سيد إلى ضربة صديقه المعلم: ماذا؟ أي موت؟!

نهضت وأنا أنفض الأتربة عن مؤخرة ردائي: التحاليل كانت سيئة!

نهض واقترب مني: لا أفهم يا امرأة!

أرحت كفي على مقبض الباب والتفت له: سأعطيك الـ ١٤٠٠ جنيه.. ولترافقني طوال النهار..

انتفض إلى مقبض الباب يفتحه عني في حماس غريب: فلتأمريني.. و«حذاؤك» فوق رقبتي..

ابتسمت وهممت بالخروج وأنا أنظر للحذاءٍ الرياضي الخاص به بقدمي: ستتسخ رقبتك إذاً..

تراقص فرحًا وهو يحل ترباس الباب: والله وأصبحت الطب من نصيبك يا محمـ...

وقطع جملته فور فتحه الباب ، حيث انتبهنا على مشهد غريب . كان مسرحً ا من الرجال يجلسون أمام الباب يسترقون السمع لما ظنوا أنه لقاء آثم بين ذكر قبيح مثلهم وأنثى متفجرة المفاتن مثلي . وما أن رأوني حتى انتفضوا في تباعد الذباب عن جثة القطة الخائنة . وعندها نظر إليّ هامسً ا : الصيت ولا الغنى !

خرجنا إلى سيارة الأجرة البيضاء وقفز بها دون تردد حتى أنه نسى أن يداهنني بفتح الباب لـ lady مثلي . فهمّ أن يعود مسرعً ا ولكني قطعت محاولته بركوبي الصامت . أدار المحرّ ك وأثار به ضجيجً ا . انتظرت أن يتحرك ولكنه نظر إليّ في حرج وقدمه لا تزال تضغط على الدبرياج : اعذريني يا هانم .. فضل كبير منك أن تعطيني ذلك المبلغ .. ولكن .. لابد أن أعطي صاحب السيارة ٢٠٠ جنيه في نهاية اليوم .. و .. و .. وسيسحب ذلك من مبلغ الـ ١٤٠٠ و ..

أشرت له بالصمت وقد وصل محمولي إلى أذني . سمعني وأنا أتحدث مع موظف الاتصالات لشركة خدمات سيارات أجرة فاخرة . فشعرت ببرودة الموت وهي تحيط بوجهه خوفً ا من

ردة فعلي ، وقد ظن أنه أغضبني بمطلبه فقررت الاستعانة بغيره : من فضلك .. تعتمد مدام إيمان الفولي صاحبة شركة « هيلين أوف تروي » على خدماتكم عندما تتعطل سيارتها .. هل استعانت بكم اليوم؟

تنفس سيد الصعداء . وتنهدت من رفض الموظف الإدلاء بأية تفاصيل : أنا سكرتيرتها مدام فيروز الصيرفي .. راجع مديرك ليؤكد لكِ هويتي .. من فضلك نريد تأكيدً ا للمسافة التي قطعتها معكم اليوم لإضافتها إلى دفاتر المصاريف .. نقلتها من أين إلى أين؟

لم أعرف حقً ا إن كانت قد استعانت بهم أم لا ، وخفق قلبي من توقع إجابته بأنها لم تفعل ، ولكن كلماته ضربت أذني بعنوان غريب قصَ دَ تْ ه منذ نصف ساعة . أغلقت المحمول دون رد . وهمست لسيد والحيرة تحيط برأسي :

«٢٠٠٠ جنيه يا سيد.. فقط تحرّك للزمالك».

بهت وجهه في غير تصديق ، وارتعشت قدمه العارية من إثارة ما سمع . اهتز الدبرياج وأخطأ سيد في مزامنته مع دواسة البنزين فقفزت السيارة وانطفأ محركها ، فعاد وأدارها باسمً ا : سيكشف الدكتور محمد عليكِ مجانً ا مدى الحياة .. هذا وعد من أبيه .. ولن يرفض ابن الكلب .. أنت ومالك لأبيك .

توقع أن أضحك على طرفته كما فعل إلا أن العقل كان ضالً ا في طريق آخر . وتلك الفجوة الساخنة بصدري عادت إلى اشتعالها مرة أخرى فانسكب منها خمر الغلابة بدلً ا من سقوطها داخلها . فاستفقت من سكرتي المؤقتة . وفي لحظات لم أنتبه لطولها من قصرها ، وصلنا إلى أول الطريق الذي وصفته لى شركة الأجرة . خرجت من سيارة سيد دون أن أنطق بكلمة . فأكد على تأمينه لمصدر أمواله « في انتظارك يا ست ولو للصباح ». لم أجب ، بل عرجت إلى الطريق الضيق والذي جاور عدة مقاهٍ صاخبة ضلت طريقها عن حي الزمالك منذ سنوات ، أهي نسخة

محسّنة من المقاهي البلدي تجلس عليها الفتيات والشباب؟ أم كافيهات راقية تصبغت بصبغة المقاهى؟ فقط عرجت إلى الطريق الهادئ الذي يغلفه ضجيج المقاهى الكافيهية فيحبس أصواته عن خارجها . وتقدمت تجاه مبنى كنت أعرفه جيدًا . رأيت قطًا يحوم حول رملة داكنة اللون من فرط قذارتها . اعتدلت ورفعت قبضتي للطرق على الباب ولكن .. لمَ أفعل ذلك؟ فدخولى الدرامي دون استئذان سيزيد من ثورتي التي تُقت إليها .

أخرجت مفتاح الباب وطعنت القفل الذهبي به ، أذكر أني أشرفت على تركيبه بنفسي . حللت لسان القفل عن مكانه فانفلتت درفة الباب في بطء . وبقوة ! ضربت الباب بقدمي ذات الحذاء الرياضي المتسخ . وتسمّرت !

كانت مساحة الاستوديو كبيرة . والفراش الذي انتصفه لم يكن بعيدًا عن الباب . ظن أخي في غرور أنه لا يحتاج إلى أحد أركان الاستوديو الضيقة ليجامع فيه نساءه . فهو في الزمالك بحق الله ، وصوت آهات النساء بها جزء من موسيقاها التصويرية التي يطرب لها الجميع . ولكنه من المؤكد أنه سيعيد النظر في ذلك الأمر بعد ذلك النهار .

كانت عارية في أحضانه . وكان متعرقًا بين فخذيها . انتفضت على إثر اقتحامي ونهضت من نصف نومة . فلمع رأسها تحت النور الأحمر للشمس التي كادت أن تغرب . كانت صلعاء وقد سقط شعرها المستعار بفعل ضربات عمرو لجسدها في نشوته القصيرة . ولكنه لم يقفز هذه المرة ليختبئ أسفل الفراش . ولكنه احتضنها في حماية وبحث في هيستيريا عن الشعر المستعار ليُخفي بها عاهة رأسها ، وكأنه يستر نفسه . كان محبًا يدافع عن كرامة حبيبته . ولكن ما فعل لم يطفئ ناري إعجابًا . وصمتي لم يعقد لسانه غضبًا .

صرخ: فيروز! ألا تطرقين؟

تمنّ يت أن أصرخ بهما حتى ينفلق فكّ ي انكسارً ا على مصراعيهما ، ولكن غابت سخونة الغضب عن أطرافي وحلت برودة الحسرة واليأس على مقعده .

ارتعشت عينا إيمان لتحديقي بهما وطرقتهما أرضً ا ، بينما التف لساني وانعقد حول نفسه ، باحثً ا عن أي كلمة ثأر تناسب ذلك المشهد وتضاهي مقدار الحزن الذي استقر بقلبي على ما رأيت ، الذي لو كان قياسه بمقدار الحب الذي كنت أكنه لها ، لصار لا نهائيً ا .

ولكن ، تحولت إلى جثة نحاسية ، لا يخرج منها الصوت إلا بحشرجة ضحايا سكرة الموت ، فنطقت بصوت خافت لم أكد أسمعه لارتعاشة حروفه :

«عزيز قاسم يا إيمان».

نطقت بها دون أن أنتبه إلى معناها ، ولكن .. ما بدا على وجهها من خزي وحسرة أنبأني بذلك المعنى . علِ مْ ت وعلِ مَ ت أنها أصبحت بلا قيمة ، فلا عتاب بيننا وحرب تستحقها تلك الخائنة ، فقط كل ما أصبح بيننا هو المصلحة . تلك المعلومة عن عزيز بك قاسم .

وكان ذلك أكثر قسوة عليها من طعني لها بخنجر حديدي.

حاولت مقاطعتي بدمع وضعف غريبين عليها: فيرو..

أومأت لها باسمة بالرفض وقد تبلّدت مشاعري: عزيز قاسم.. من فضلك!

ارتدى عمرو بنطالاً في سرعة لم تنجح في إخفاء عظام حوضه واتجه إليّ في غضب : لن نبرر ما رأيتِ.. فانتِ الـ ..

تجهمت بوجهه كأخت كبرى فارتعد : أين كنت عندما جامعت أمك ابن عمها؟ لا أراك في ذلك المشهد يا عمرو .. اه .. تذكرت .. كنت بمخيم مدرستك الصيفي أليس كذلك أيها الطفل المدلل؟ (اقتربت من وجهه في قسوة أوجعتني قبل أن توجعه).. دعني أخبرك أمراً .. أمك ..

صاح في حزم وثبات: أعرف! لست وحدك من يعرف السر..

بسطت حاجبي في سخرية: ولكني وحدي من عانيت منه!

- ألا تسامحين أبدًا؟

-لا يسامح من لا ينسى..

-الجميع يُخطئ!

-ولذلك.. الجميع يعاني..

-لا تنصبي نفسك إلهًا يعاقب الجميع..

- ااااه .. معك حق .. ولكن فيَّ رأيك يا فنان .. لم يعاقب الله بتلك البشاعة؟ جهنم؟ الجميع يُ خطئ يا رب .. ولكن أيستحقون جهنم؟

-اااا...

-لأنه يحبهم.. وعلى قدر الحب يأتي العقاب.. أليس كذلك؟

-لقد جننتِ!

-لا تحاسب المجنون على أفعاله إذاً.. حتى لو وصلت إلى القتل!

-ماذا؟

ارتعد من عبارتي وربما ظن أني أقصد حبيبته العجوز ، فاستمتعت بخوفه وأومأت له بالموافقة فاحمر وجهه : المسي شعرة منها و ...

قاطعته بضحكة عالية . وكلما انتهت تعالت مرة أخرى في سخرية لاذعة : ألمس منها شعرة؟ حبيبتك صلعاء يا عمري !

ء ً ء

صاحت إيمان آخيرا في حزم اعتاد آن يلجم لساني: فيروز! آتركا يا عمرو..

عادت هيبتها إلى قلبي حتى وإن اصطنعت عكس ذلك . أومأ عمرو لها في طاعة العبيد وجذب قميصه وخرج وصفع الباب خلفه . فباتت المعركة بيني وبينها .

نهضت من الفراش دون أن تهتم بتغطية جسدها . وتحركت عارية تمامً ا في شموخ عهدته عنها . فمن مثلها لن تخجل لعراها . ولكن ما أن رأيت أحد ثدييها وقد غاب عن مكانه ربما لعملية استئصال . حتى انفطر قلبي وقبضت عليه في غضب لكيلا يرسل الشفقة إلى تعابير وجهي .

بدأت في ارتداء ملابسها في بطء وهي تتحدث في هدوء : أحبني رغم المرض .. اصطنع شهوةً رغم ضياع فتنتي .. (غطت صدرها بقميصها الوردي) استأصلت ثديه المفضل منذ سنة ولم يعلّ ق .. عمرو هو عشقي الوحيد يا فيروز .. (نظرت إليّ أخيرً ا في تهديد) إياكِ وإهانته في حضوري !

تقدمت منها وذقني ترتعش من الغل: كنت أبكي عندما علمت بما أصابك! أيتها الساقطة!

ضربت كتفي وأجلستني عنوة على مقعد بارد : لا عدل في تلك الحياة يا صغيرتي .. أحببتني .. وأحببتك .. ولكن .. تنجح الحياة حقً ا في مسخ ربتة على كتف من نحب .. إلى طعنة نافذة ..

علقت عيني على الأرض كطفل كره وجه آمه: متى بدأ الأمر؟

تنهدت باسمة وهي تجلس: من أول نظرة..

رفعت وجهي في غضب: إياكِ والابتسام لي!

غابت ابتسامتها في شفقة مفاجئة: أخبرني عمرو بحكايتك مع أمك.. ولكني لست مثلها..

- ولم تكوني قط.. أظننتِ حقًا أنك كنتِ لي أما؟

-إن لم أكن.. فقد كنتِ لى ابنة..

-قدري يختار لي الأمهات الساقطات..

ابتلعت الإهانة بوجه حزين: كيف عرفتِ بمرضي؟

نهضت في هرب من تقاطع ناظرينا ، فربما تغلبني دموعي : كسرت مكتبك ! كـ .. كنت أبحث عن أي شيء يخص حديثك عن عزيز قاسم .. ااا .. أخبرتني نورا أنك ..

أخرجت سيجارتها الرفيعة وأشعلتها : « لقي عزيز قاسم حتفه في حادث سيارة في الثامن والعشرين من يناير عام ٤٩ ..»..

قالتها في برود وكأنها أرادت أن تدفن تلك القصة البالية مع خبر موت العزيز . ظنت أن ذلك الخبر قد يثلج صدري ويربط قدمي عن البحث وراء الخرافات . ولكنها لم تكن تعلم بأمر الرداء الوحشي . لو علمت لقفزت من مقعدها في صدمة وشاركتني البحث ولكن .. أنّى لي أن أخبرها بالحقيقة بعدما فعلت ما فعلت؟ قتل جلنار أصبح حتميًا يا إيمان . أقسمت لنفسي كما اعتاد فرغلي أن يفعل « أما والله » كنت أتحرّق لإخبارها ولكن ..

قصص القتل لا تروى للخائنات.. بل يكنّ أحد أبطالها!

أخرجت أدوات الماكياج من حقيبتها وبدأت في تزيّن لم تحتج إليه رغم الكبر والمرض : اتركِ الأمر وراءك يا فيروز .

نظرت إلى عينيها من خلال مرآة يدها: أيهما.. قتل جلنار أم موتك في نظري؟

أكملت حركة أصابعها بالمكحلة حول عينيها دون أن يهتز لها جفن : اعتدت على الموت في نظر من أحب .. وبالرغم من أنه سيكون هذه المرة مؤلمًا فإنني سأتجاوزه قريبًا ..

كنت أعلم أنها تشير إلى موتها القريب، وقد تفشى السرطان بجدار صدرها: لم تعد قصة جلنار شيئًا يعنيكِ.

تنهدت: لن تتوقفي إذا.. حسنا.. عثرت لكِ على ابنه.. فربما يستطيع مساعدتك..

هممت بالرحيل في عزة ولكنها كانت تمسك بالورقة التي أحنت رقبتي: ما اسمه؟

أخرجت قصاصة صغيرة من حقيبتها واقتربت مني ، فأشحت بنظري بعيداً عنها حتى قارب وجهها على الالتصاق بوجهي وهي تغلق قبضتها على القصاصة : سأعطيكِ إياها .. ولكن بشرط ..

زفرت هواءً غاضباً ، فشعرت بيدها وهي تطبق على كتفي . أدارت جسدي تجاهها . لمعت عيني لدمعة أثارتها لمستها . فانتفض عنقي مبتعداً عن وجهها في غضب من ضعفي البائس . همست لنفسي « تماسكي أيتها اللعينة .. لا تحزني لأجلها .. لا تتجاوبي مع لمستها .. لقد ماتت أمك مرة أخرى .. فيروز ! تماسكي !».

وبهدوء بالغ وضعت كفها على مؤخرة رأسي ودفعته برفق تجاهها . قاومت عدة مرات لكن الكأس كانت قد فاضت بخمرها . وعندها ، لم أشعر إلا وقد اندفعت داخل حضنها . عصف البكاء بصدري حتى انتفض جسدانا في هزات عنيفة . طوقتها بذراعي في قوة وصرخت في نواح الأطفال وأنا أتحسس ظهرها بين كفي في هيستيريا وكأني أخشى ضياعها من يدي : لماذا أنتِ من بين كل الناس .. لماذا؟ !

لم تنطق بكلمة ، بل ظلت تربت على رأسي في هدوء . وتمرر أصابعها على شعري الأسود في حنان بالغ . وبكائي يتزايد حتى كدنا أن نسقط في نهر دمعي المالح . قبضت على جسدي أخيراً وضمتني في قوة . فهدأ بكائي . ومسحت عصائر أنفي وابتعدت عنها وأنا ألهث . وما كان منها إلا

أن ظلت تراقبني في ابتسامة ، وقد لمعت عينها بدمعة لم تسقط منها قبلاً . وحتى هذه اللحظة لم تفعل .

وضعت قصاصة الورق في كفي باسمة : ابن عزيز .. اسمه اللواء حاتم عزيز قاسم .. علمت أنه مساعد لوزير الداخلية .. حظاً طيباً في مقابلة أحد ملوك هذا الزمن ..

نظرت لها في حزن ، فأومأت بجفن ثقيل وكأنها تقبل طواعية ما كانت على وشك أن تطلبه : الآن يمكنك أن تفعلي ما لم تفعليه مع أمك .. هيا يا فيروز ..

أغلقت عيني تمنياً لعمى آخر ينجيها مما أمرتني به ، ولكن فتحت عيني وقد عاد الغضب يتسرب إلى وجهي مرة أخرى . وعندها أطعت الأمر في قوة .

صفعتها على وجهها!

مال عنقها يميناً بفعل صفعتي . واستقرت كذلك . لم تعيده إلى مكانه ، وكأنها خجلت من النظر إلى عيني مرة أخرى بعد إهانتها . أو ربما تجنبت تقاطع الأنظار حتى لا نتيه في بكاء آخر .

طال صمتنا . وشحب وجهها الملتوي . فتحركت نحو الرحيل وقد استعدت فيروز الغاضبة مرة أخرى بعدما تسربت الشفقة . مررت بعمرو بجوار الباب فلم أعبأ بأولى كلماته . خرجت أنشد هواءً بارداً لصدري ولكنه كان ساخناً . اقتربت مني سيارة سيد دون أن أشير إليها . ركبت في صمت . وانتظر ذو الأقدام العارية أمراً للرحيل .

دق محمولي لرسالة علمت هوية متصلها..

« أذكرك بحفل الوزارة الليلة .. حتى وإن لم تريدي العودة إلى عصمتي .. فقط أضيئى الليلة بوجودك وأعطنا فرصة أخيرة ».

رأيت عنق سيد متدلياً فوق شاشة المحمول وقد قرأ ما فيها: أين الحفل؟

سأل باسماً في لزوجة لم تغضبني، فأجبته دون تردد: بل إلى مكانٍ آخر..

أدار محرّك السيارة وفتحت قصاصة أمي المتوفية وقرأت ما فيها..

«إلى وزارة الداخلية»

***

كوب فاخر من القرفة انهمكت في شربه حتى يعود اللواء حاتم إلى مكتبه . كان مكتباً داكن الرائحة ، ذا هواء مظلم . أثاثه الخشبي كان أكثر حدة من قضبان السجون المعدنية التي يرسل إليها معارضيه . ولم تنجح الستائر القرمزية الداكنة التي افترشت وجنتي النافذة بتركيب بديع أن تزيد من بهجة ذلك القبر المقفر .

طرق الباب ودخل على استحياء التلاميذ لا رجال الأمن . وقع بصره أول ما وقع على حذاء سيد المتسخ . فعقد حاجبيه لبقية هيئتي الراقية ولكنه ما لبث أن ابتسم في دبلوماسية زائفة : إنه لشرف كبير تشريفك لنا يا مدام ..

استخدم كلمة الشرف مرتين في جملته.. ملاحظة تافهة.. ولكن تستحق الالتفات إليها.

كان ضخم الجثة كعمود رخام بفيلا والد زوجي المتعجرف . بأنف مدبب للأسفل كمنقار نسر استقر على علم وطني لم يعد يلقي أحدهم به بالً ا ، وعينين سوداوين غائرتين على قدر اتساعهما أذابت قلبي رعبً ا كما أظن أنه اعتاد أن يفعل مع غريميه ، وشعر وشارب أبيضين كسحابة الأقدار التي لحقتني منذ الصباح واختفت منذ الظهيرة . وربما كان يقترب بخطوات بطيئة مثلها . كمن تحرّ كه رياح هادئة تخدع من تتع ّ م بها ، فما تهدأ الرياح إلا لعاصفة وشيكة .

نهضت وسلمت عليه فانحنى: لن أستغرق الكثير من الوقت..

أشار إليّ بالجلوس فجلست وجلس ونطق بصوت غليظ: حرم عاصم بك تستغرق ما تشاء من الوقت.. أي خدمة..

عرّ فت نفسي بزوجة مدير مكتب وزير الخارجية وليس طليقته : ليست خدمة أكثر من .. اا .. سيادة اللواء .. أنا .. أنا .. أعد كتابً ا عن بعض الإبداعات القديمة لعظماء المصريين من فترة ما قبل ثورة يوليو .. ومنهم والدك ..

ارتعشت ابتسامته ارتعاشة غير مرئية ولكني رأيتها فأكملت : كان طبيبً ا نفسيً ا في زمن لم يعبأ فيه أحد بتخصصه العبقري .. وكنت أريد أن أجمع بعض المعلومات عن حياته الشخصية و ...

اعتدل واعتمد بمرفقيه على سطح المكتب وغابت عينه في تجنب لمواجهتي ، وكأنه يتفحص أجزاء مكتبه للمرة الأولى منذ أن اشتراه : رحمه الله .. لا يوجد هناك ما يُ ذكر .. فقد توفي صغيرً ا ..

راقبت مقاومته الغامضة للحديث عن والده فأجبرت لساني على الصمت . نظر إلى صمتي في تعجب ، بينما تهرّ بت منه في شرود إلى عبارة نصحني أبي بها قبلً ا عدة مرات قبل أن يفقد مهارة تربية أبنائه . كنت قد اعتدت على اتباع نصائحه ، ولولا فعلته الأخيرة وتحريم كلماته على أذني ، لربما أفادتني تلك الكلمات فيما تبقى من حياتي البائسة ، فلم أكن لأتزوج من عاصم ، أو أعمل لدى إيمان ، أو حتى أصحب ذلك اللص التافه كسائق خصوصي في رحلة مجهولة .

«لا تجالسي من لا تعرفين»..

كان صوته في رأسي محقً ا ، فأنا لا أعلم أي شيء عن ذلك اللواء النسريّ مفترس الهيئة ، فارتأيت حتمية التحرّ ي عنه قبل محاصرته بأكثر القصص جنونً ا على الاطلاق .

ولكن من الذي سأتحرّى منه عن ذلك الأحمق؟ ومتى؟ فأنا أمامه بالفعل.

وعندها كان الجواب يتراقص في استفزاز أمام عيني: سأتحرى عنه منه.

قطع شرودي في تعجب: مدام فيروز؟

انتبهت له ، وما لبثت أن اصطنعت ابتسامة : اا .. آسفة سيادة اللواء .. الكثير من تفاصيل ذلك الكتّاب تعبث برأسي .. حـ .. حسنً ا .. هل لك أن تمدّ ني ببعض المعلومات عنك ...

مال عنقه في حيرة: عني أنا؟ ظننت أن كتّابك كان عن والدي..

نافقته في براعة : وأسرته .. وربما سيكون من النادر أن أقابل خلال رحلة بحثي رجلً ا وابنه .. كل منهما عظيم في مجاله ..

اعتدل في جلسته نخرًا ذلك الأبله، فأكملت مسلسل إهانته: فلتقص عليّ قصتك من البداية.

راقبني في ابتسامة غامضة أذابت تصوري السابق بأنه أبله انتشى من نفاقي الساذج . شعرت وكأنه قرأ محاولتي الطفولية بالتحقيق معه ، وظننت حقً ا أنه على وشك طردي فاحتبست أنفاسي ولكن ...

ً

«حسنا.. ولكن.. فلتعديني بفصل خاص لي بكتابك.. ونسخة موقعة منك!».

زفرت ما احتبس من زفير مؤجل في ارتياح، واعتدلت: تفضل!

اتكأ على مقعده في عظمة فاتحي بلاد الفرنجة : حسنا لا أعرف من أين أبدأ .. فأنا .. ولدت قبل وفاة أبي بعدة شهور عام ٤٩ .. انتهيت من دراستي بالثانوية الأزهرية عام ٦٧ .. والتحقت بكلية الشرطة .. ومن هنا بدأت رحلتي في خدمة الوطن و ....

قطع شرودي المفاجئ وصول بقية كلماته إلى أذني ، فشيء ما قد قاله دون أن يعيره انتباهاً ا كشف أمراً ا غريباً ا وجلاه أمام عيني .

قاطعت سيل هراءاته: اا.. آسفة سيادة اللواء.. ولكن.. هل قلت أنك تخرجت في الثانوية الأزهرية؟

أجابني في تعجب: أجل.. و...

ابتسمت ابتسامة أربكته وأغلقت عيني وقد طرقت رأسي أرضاً ا وقد علمت الأمر : فلنعد إلى الحديث عن أبيك إذاً ا ..

ء ء

تجهم رغم محاولاته الحفاظ على لباقته: لم أعد أفهم ما تريدين يا مدام.

تطوعت بتلك المهمة عنه: رحل أبوك الحبيب عن دنيانا عام ٤٩.. أليس كذلك؟

تنهد وقد شعر بضغط استجواب لم يعتد عليه : أجل .. أجل .. كنت أتمنى مساعدتك وإرضاء عاصم بك ، ولكن هذه المقابلة أصبحت !!! ..

أزعجته بإشارة من إصبعي فزادت ابتسامته ، غبت في شرود لم يفهمه : اعذرني يا سيادة اللواء .. ولكن منذ أن بدأت حكايتك ... وسؤال محير يفترس رأسي ..

حك ذقنه الناعم في ثقة: تحت أمرك..

أكملت وعيني معلقة على كوب القرفة ومسحوقه الخفي : كيف يموت عام ٤٩ .. وقد ولدت انت بعدها بسنوات .. (نظرت إليه في تحد مفاجئ) غريبة .. أليس كذلك؟

- يبدو أنك لم تسمعيني جيدًا.. أخبرتك أني ولدت عام ٤٩ قبل وفاته بشهور..

تجرأت دون تردد: بل كذبت!

عاد وسند ظهره على مقعده وقد غابت بسمته . حدق بعيني في جمود قصد به إخافتي ولكن ابتسامتي سبقت غايته . ساد الصمت لدقيقة ربما . وعين كل منا مستقرة بجفن الآخر دون أن تطرف ولو للحظة . وما أن ظننت أنه تجمد مما قلت ، حتى نهض في هدوء من على رأس مكتبه وجلس على المقعد المواجه لجنابي . بدت حركته حول المكتب كذلك النسر السابق وهو يحوم حول فريسته .

ابتسم مرة أخرى ولكن في شر واضح : مدام فيروز .. مع كامل احترامي لزوجك .. ولكن دقيقتين هما كل ما تملكين حقً ا ..

وضعت رجلًا فوق الأخرى فاشتممت رائحة سيد النتنة وقد ارتقى حذاءه للأعلى: هل تشم ذلك؟

نظر إلى قدمي واعتدل ساخرًا: عدم إنفاق عاصم بك على أحذية زوجته أمر لا يعنيني..

استوقفته بنفس الإصبع مرة أخرى في برود: كلا كلا.. بل رائحة الكذب يا سيدي.. ما الذي حدث لأبيك حقا؟

- مات في حادث سيارة..

-وكتبك أولاد الحلال على اسمه..

- لست في حاجة لاستكمال ذلك العبث.. مع احترامي.

- بل انت في حاجة لإسكاتي إن لم تفعل.. مع احترامك.

- ماذا؟

-كيف يكون ولده رجلًا مرموقًا مثلك ومتعلقاته الشخصية تلقى بمقلب قمامة وضيع؟

-أي متعلقات؟

-حسنا.. ربما كتب.. أبحاث.. أو...

انتظر نطقي بها وقد توقعها: مفكرة قديمة بها رسم يخص جنونا مؤقتا لأميرة منتحرة!

تحجر وجهه لثوانٍ وكأن تلك العبارة طرقت بداخله على زناد صدئ أوشك أن يعود إلى حالته الطبيعية وينطلق بوجه أحدهم . نهض مبتعدً ا تجاه الباب . ظننت أنه سيفتحه كالأفلام القديمة ويعلن « انتهت المقابلة يا عزيزتي ». ولكنه فعل المناقض . أدار مفتاح المكتب تجاه الإغلاق . وعاد في هدوء دون أن ينظر إليّ وجلس مرة أخرى على رأس مكتبه : انتهي من القرفة من فضلك .

كنت أنثى مهما اصطنعت الشجاعة ، لا أخفي أني نفذت أمره دون تفكير . فطرة الأنثى لأوامر الرجل على ما أظن . وبينما رفعت الكوب لآخره وغطى وجهي . أخرج جليسي مسدس ً ا مفزع ً ا ووضعه بيننا ، نخرج صوت ارتطامه بالمكتب قويا : أكملي من فضلك ..

ارتعدت: أترفع سلاحًا بوجه.. اااا.. بوجه زوجة مدير اا..

قاطعني وهو يعبث بمسدسه : تؤ .. أنا أنظف سلاح مساعد وزير الداخلية .. على مكتب مساعد وزير الداخلية .. في حضور زوجة مدير مكتب وزير الخارجية .. (ابتسم) فقط !

أطرقت برأسي في إرهاق: أريد فقط أن أعرف الحقيقة..

لم ينظر إليّ: أي حقيقة؟

- لماذا تكذب بشأن تاريخ ميلادك؟

-ولماذا تظنين ذلك؟

- سيادة اللواء.. قلت إنك تخرجت في الثانوية الأزهرية عام ٧٦ ثم التحقت بالشرطة بعدها..

- ثم؟

واجهته في كشف لكذبته : كلية الشرطة لم تكن تقبل خريجى الثانوية الأزهرية قبل عام ٧١ .. أي بعد أربعة أعوام من زعمك الالتحاق بها .. وما أراه الآن أنك حقً ا التحقت بها .. فلا يعني ذلك سوى أنك ولدت بعد عام ٥٢ .. والأوراق تؤكد أن والدك قد توفي عام ٤٩ .. فكيف تكون ابنه بالرغم من كل ذلك؟

تحجرت أصابعه حول سلاحه الناري ، وفغر فاه مصدومً ا ، فتقطعت الكلمات خروجً ا من لسانه الجاف : كـ .. كيف .. كيف وصلتِ إلى تلك المعلومة التاريخية بكلية الشرطة؟

اعتدلت وقد عادت الثقة إلى أطرافي ، وتذكرت راجي دون احترام حقيقة زواجي من عاصم : اعتدت أن أكون حبيبة كاتب تاريخ ..

تجاوز إهانتى لاسم عاصم ونظر إليّ في استسلام: ماذا تريدين يا امرأة!

صرعته في هيستيرية المتوهمين وقد انتبهت لجأة بغضب إلى إرهاقي من تلك الرحلة البائسة : أريد بالله أن أعرف ما الذي حدث حقً ا لأبيك؟ ! مات قبل أن تولد .. كتب أن إحدى مرضاه انتحرت بسببي .. رسمني منذ سبعين عاما أو أكثر .. كيف ذلك؟

رفع عينه تجاهي منتبهًا. أشار إليّ وهو يسترجع شيئًا من ذاكرته: قلتِ إن اسمك ااا.. مدام فيروز؟

ثم أطلق لجأة ضحكة عالية ارتجت لها الجدران وربما ارتعد منها نسر العلم المنتصب على مكتبه فطار خوفً ا ، لولا النافذة المعلقة ، لحام حول رأسي كسبب آخر للخوف الذي أحاط بي . حاول

اللواء الضاحك أن ينهي ضحكته ، ولكنها تعاظمت أكثر حتى دمعت عينه . أعاد السلاح إلى درج مكتبه ونظر إليّ مبتسمً ا .

«أعتذر يا مدام.. هل تظنين حقًا أنك فيروز التي كان يقصدها؟».

واجهته في غضب: إذًا أنت تعلم ما مر به..

أومأ في موافقة وهو يمسح دمعة الضحك : نعم نعم .. فقط اهدأي بالً ا .. القصة بأكملها « نكتة » إن جاز التعبير .. عودي إلى بيت معاليكِ .. وانسي ما في رأسك ..

ضربت المكتب بقوة فلم يهتز: بل هو حقيقة!

أشارَ إليّ كممرض بالخانكة يُهدئ أحد نزلائه: اهدأي! حسنا.. كان أبي يعاني من الخرف.. هل ارتحتِ الآن؟

هاجمته في تصيد لأي خطأ: وهل ذلك الخرف قد يساعده على إنجابك بعد موته؟!

ابتسم في هدوء: ليس في الأمر لغز كبير.. إنها فقط قصة طويلة.. ولا مجال لقصها الآن..

- ربما على أن أتصل بزوجي ليخلق لك مجالا..

- أنصحك بألا تفعلي .. ستغضبين عاصم بك بما تقولين .. ويبدو أنك لا تعرفينه حقً ا وهو غاضب .. يبدو أنه يحبك بشدة لي ُ خفي وجهه الآخر عنكِ .. لا تدفعيه لذلك .

-أتهددني بزوجي؟

- انتهت المقابلة يا مدام..

وفى لحظات كنت خارج مكتبه . وفى دقائق كنت في غرفتي . وما أن دخلتها حتى نسيت أن سيد ركن سيارته بعيدً ا عن مبنى الوزارة بطريقين خوفً ا من العاملين بها ، فلم أعطه المبلغ المتفق عليه ولم أرحم قدميه من عراهما الطويل منذ بداية اليوم . ضربت رأسي وأنا أرى صورته وهو لا يزال يجلس وحيدً ا داخل سيارته منتظرً ا تلك اللصة التي سرقت حلم ولده وهربت . لعنت فيروز أكثر من لعني لإيمان . فلتذهب كلاهما إلى الجحيم .

دق محمولي لرسالة أخرى من طليقي : « هاتفني حاتم باشا .. فيروز .. عليكِ حقً ا أن تأتي الليلة .. حجزت لك غرفة في الاوتيل الذي سيقام به الحفل وعاملة الكوافير بانتظارك .. وإن لم تأت أقسم بحبي لك .. أن يفيض الكيل !».

أي بؤس هذا الذي أعيش به . لم أتمكن من نسيان ما قاله حاتم عن عاصم رغم محاولات التجاهل . ربما كان محقً ا . فهدوء عاصم طوال السنوات الماضية لم يكن من حسن الخلق وإنما لكبح عظيم لغضب حاول دومً ا دفنه بين ضلوعه . خشيت أن يفور البركان وتحرق حممه الغليظة وجهي إن لم أطعه . هل سيرفع حمايته عن قضيتي؟ ربما . هل سي ُ عديني إلى الطريق

بعدما انقطع عيشي بشركة إيمان .. يجوز . هل سيعيدني إلى أبي المكلوم . على جثة قاتلة الأميرات أن يفعل !

قررت الذهاب إلى الحفل. ولن أبرر تلك الحماقة. بل سألقي بذنبها كالعادة على الأقدار.

وصلت إلى الأوتيل المذكور . كان « زهدي » مساعد زوجي الشاب في انتظاري . غفلت عن وجوده وأنا أراقب بناء ذلك الاوتيل الفاخر . ربما لم أسمع عنه من قبل « فندق المشربية ». هل افتتحوه قريبً ا . وأي فندق فاخر يسمّ ى نفسه المشربية كمقاهي طريق المعز؟ امتنعت عن أسئلتي التي تكررت كعادة سخيفة برأسي منذ البارحة وعبرت البوابة الحديدية الضخمة ، وانعكست إضاءتها الملونة على وجهي الشاحب . لا يهم .. ستعتني « الاستايلست » بأزمة ذلك الوجه قريبً ا . طرق « زهدي » على كتفي في رفق فأفزعني ..

«أضاء المكان بنورِك معاليك.. عاصم بك على وشك الوصولَ»..

لم أمازحه هذه المرة كما أفعل كلما رأيته . « ألم ينقرض اسم زهدي منذ عقود يا رجل؟ ». ولكن أومأت له في موافقة وتبعت ذراعه التي فردها أمامي في احترام دعوةً للدخول . تأملت عراقة ذلك القصر كلما دنوت بداخله خطوة بعد الأخرى . وتمنيت أن يكف زهدي عن حديثه حتى يتسنى لي التمتع بجمال ما أرى من تصميم خيالي .

- غرفة معاليك رقم ٤٤٠.. «الاستايلست» في انتظارك.. والرداء أتى بَه السائق من فيلا جنابك منذ ساعات..

- هل كان عاصم متأكدً ا من موافقتي على القدوم لدرجة أن يرسل السائق إلى الفيلا قبل أن يخبرني بميعاد الحفل من الأساس؟

-اا.. عفواً؟ ماذا تقصدين جنابك؟

-لا عليك..

-حسنًا إذًا.. ااا.

التفتُ إليه قبل أن أدخل «الاسانسير»: زهدي أريد منك خدمة غالية.. والأغلى منها ألا تخبر عنها عاصم..

احمر وجهه من الخجل: هه؟.. اا.. أي.. أي خدمة يا سيدتي..

وضعت يدي على كتفه كشرف لا يحتمله أمثاله كضغط عاطفي : مهمة صعبة ولكن سهلة بالنسبة اليك .. أريد منك أن تعرف هوية منظف زجاج المبنى الذي تتواجد به شركة هيلين أوف تروي .. وتستجوبه عن عنوان صديقه سيد .. ولا تسألني عن اسمه بالكامل .. فقط افعل .. وما أن

تعرف .. أريد منك أن تذهب اليه .. وتعطيه خمسة آلاف جنيه .. دون أن تسمح له بمناقشتك .. وترحل من فورك .. هل تفهم؟

لم يتمكن من إخفاء حيرته فنطق في بلاهة: لا أفهم حقًا.

ابتسمت له: حسناً.. فلتفعل دون أن تفهم.. وحاول أن تعود قبل الحفل..

أومأ في طاعة وهو يراقب ساعته وكأنه يحسب الكارثة ، فما له أن يعود قبل الحفل بعد كل تلك المهام الغريبة ، ولكن لم يكن له أن يرفض . تحرك مسرعٍ ا فأوقفته بطلب غريب آخر ..

«ولتشتري له زوجًا من الأحذية مقاس ٤٢»..

وصلت إلى غرفتي فوجدت الفتاة في انتظاري . اقتربت مساعدتها وأخذت عني حقيبتي وانحنت : « ربما تريدين أن تأخذي حمامً ا قبل ارتداء الرداء »..

وأشارت إليه على الفراش الفاخر . فارتد جسدي للخلف وكأنه تلقى رصاصة طائشة . والتوت رقبتي عدة مرات في رفض المجاذيب . « كلا ! لن أرتديه ! كلا !!»..

امتقع وجه الفتاتين في تعجب من ردة فعلي الجنونية . واقتربت « الاستايلست » مني ففزعت للمستها : اهدأي يا مدام .. لا نملك غيره .. وقد أزف الوقت واقترب ميعاد الحفل ..

صرخت بها: ليس هذا من شأني! اعثري لي على غيره وإلا طردتكم أجمعين!

حاولت كل منهما أن تنطق بما كان منطقيً ا إلا أن يدً ا قد فتحت الباب دون استئذان فصرعتني من الخوف وانفجرت في صاحبها : ألا تطرق أنت الآخر؟ ! لم تردّ ني إلى عصمتك بعد لتقتحم خصوصيتي بتلك الطريقة !

تجمد عاصم في صمت وقد أهنته أمام موظفتيه . بينما تحركتا دون تفكير إلى الخارج منكستي الرأس ، وأغلقت أكبرهما الباب خلفها . تنهدت في ندم على صرختي وابتعدت عنه . ولكنه لم يحرك ساكنً ا . فالتفت إليه في ضعف : آسفة .

اقترب مني في جموده السابق ، ولم أعرف حينها ما الذي كان يقصده بذلك الجمود : قضيتك معقدة يا نور عيني .. ولكن لا تقلقي .. فأنا أتابعها عن قرب .. وبنفسي !

فهمت الآن تهديده بما يخص قضية فرغلي إن لم أطعه: لن أرتدي هذا الرداء يا عاصم..

مال بعنقه باسمً ا في شر غريب وعبثت أصابعه بشعري : لم يكن حاتم فقط هو من هاتفني ، عمرو كذلك .. يبدو أن عالمك ينهار يا فيروز ..

أكدت في جنون مكتوم وقد كادت أسناني أن تتحطم: لن أرتديه يا عاصم!

قبّل رأسي في هدوء كـ « ليث » يشتم رائحة ذبيحته قبل قتلها : ربع ساعة .. وأجد ذراعك بتجويف ذراعي .. متأبطين كعشاق المراهقة !!

وغادر دون أن ينطق بكلمة أخرى . خارت قدماي بعد رحيله وسقطت أرضًا . ارتعش جسدي عن آخره . ولم أجد مخرجًا مما أقحمت نفسي فيه . كان البكاء أقرب إليّ من الغضب الذي اعتدت عليه . لكن الحقيقة كانت أكبر من أن تُمحى ببضع قطرات من الدمع . فالليلة تكتب القصة آخر فصولها .

كانت الفتاة تربت على كتفي في مواساة وهي تُسقط أحبال ذلك الرداء على جسدي . لم تعلم سبب بكائي ولكنها شعرت بالمأساة ، فرقّ قلبها . كانت خيوطه كعنق ثعبان لعين يلتف حول رقبتي . كان يبتسم أم أني ظننته كذلك وقد فغر فاه . تمنيت أن يقضم رقبتي ويرسلني إلى الموت ولكنه لم يفعل . بل واصل التفافه حتى طرق إصبع قدمي . وكأنه كان يمر على كل قطعة من جسدي في نعومته القاتلة ليبارك تحوّلي من فيروز البشر ، إلى فيروز الوحش .

ابتعدت « الاستايلست » عن المرآة لأرى فنها الذي سكبته على وجهي وشعري . فرأيتني كما رسمني عزيز تمامًا بذلك الرداء الوحشي ، ابتسمت الفتاة في إعجاب صادق : تبدين كملاك حقًا !

تركتها واتجهت للرحيل: يقولون إن قابض الأرواح.. ملاك أيضا!

وصلت للقاعة الضخمة ، وتأبطت ذراع عاصم كما أمر ، وعبرت معه أجساد كبار رجال الدولة . أضاءت الثريا الفاخرة خيوط ردائي فرأيتها على حق للمرة الأولى ، كان يلمع وبين خيوطه رقائق من لون ذهبي . يبدو أنه كلف عاصم الكثير . تحركنا معًا داخل البهو الضخم . وانزعجت من زحام السقاة بصوانيهم الفضية وما كللها من كؤوس تفرقت بين الخمر والعصائر الطازجة

ومشروبات أخرى لم أعرف لها اسماً . أفزعني مظهر قناديل الاضاءة العتيقة وهي تتفرق على جدران البهو . كانت بديعة ولكنها في نظري استحالت إلى تشوّه جديد بلوحة على وشك أن ترسلني إلى مهمتي الأثيرة .

خطوت وخطوت . وكلما زادت خطواتي تجولاً ، ازدادت قبضتي قوةً على ذراع عاصم ، أرتعد خوفاً من تلك اللحظة التي ستراني فيها جُلنار . كنت أسمعه وهو يقدمني إلى أحدهم ، وما أن قبض ذلك الـ « أحدهم » على يدي ليقبلها ، حتى انتفضت وأحكمت إغلاق ذراعي حول ذراع عاصم .

«الآن أحبك أكثر»..

همس بها وقد ظن أني عدت إلى قلبه بعدما التحمت بجسده في مبالغة . مرت ثوانٍ تناوب فيها الحضور على إرهاق كفي ، تارة بتقبيله وتارة بالربت عليه ، حتى دبت السخونة بأطرافي رغم برودة هواء التكييف الخفي . فطلبت كجارية من سيدها أمراً ، لعله يُنجي جُلنار من مقتلها القريب .

«أريد الذهاب إلى الحمام.. هل تسمح؟»..

وافق فتنفست الصعداء لقراري على حبس نفسي داخل الحمام حتى الرحيل ، وعوّلت على انشغاله بمن كانوا على شاكلته فلا يلحظ غيابي . ورمحت في سرعة إلى كهفي الجديد .

قابلني خارج الكهف رجل أحنى الزمن ظهره . كان يبدو وكأنه في الثمانين أو ربما التسعين من عمره . فالشيب يجتاح رأسه ولحيته القصيرة . والرعشة لا تفارق يده على عصاه الرفيعة .

ابتسمت له احترامً ا قصيرً ا لا يُ ذكر ، وعبرته إلى باب الحمام . حاولت فتحه ولكنه كان عالقً ا . فلتتوقفي أيتها الأقدار .. فلن أعود !

«على زماننا.. كان العمّال يُحسنون عملهم».

التفت إليه في تعجب: كيف قلت؟

رفع رأسه رغم انحناءة جسده : افتتحوا الفندق منذ أسابيع فقط .. وأصابت العجلة العديد من مفصلات القصر بالفساد .. فقط مظهر فاخر .. ومفصّ لات بالية ..

ضربت الباب بقدمي في غضب: عليّ أن أدخل حقًا!

ضحك بصوت ضعيف : ها قد عشت ورأيت الأنثى تصرخ بقضاء حاجتها .. حتى ولايا الحواري لم يجرؤن على ذلك .. فلتستخدمي حمام غرفتك يا امرأة إن كانت لكِ غرفة .. وتحشمي !

تلفت حولي في هيستيرية: بل أريد أن أرحل.. دون أن يراني أحد.. هل يوجد باب خلفي؟

نظر إليّ مطولًا ثم أومأ في موافقة تأخرت لدقيقة بدت دهرا..

- ماذا؟

-أريد أن أرحل.. أرجوك.. أرجوك.. أرجوك..

رمقني بنظرة تفحّص باردة ولم يحرّك ساكنًا . شعرت وكأن نظراته تشوي جلدي فتُلقى به مهترئًا بين قدميّ، فزاد الأمر من هلعي . فهممت أن أصرعه في هيستيرية أخيرة .. ولكن ..

«تبدين كهاربة من شيء ما.. أعرف ذلك الشعور.. فقط اتبعي العجوز الخرف».

تحرك في خطوات بطيئة تمنيت وقتها لو ركلته بقوة حتى أرسله في الهواء بسرعة أكبر من ذلك . عبرنا ممرًا جانبيًا فأوصلنا إلى آخر أيمنه الظلمة . فوضعت يدي على كتفه لتسوقني حركته . وخرج صوته الضعيف ليزيد من هيبة الظلام تخويفًا :

- أعيش هنا منذ ما يقرب من خمسة وثلاثين عاما .. وحينما أرادت المحافظة تحويل القصر إلى فندق .. توسلت لهم أن يتركوني في غرفتي .. حتى وإن عملت لديهم خادمًا أنظف قذارة الزوار من حمام البهو ..

- لا أهتم بقصتك.. فقط أسرع..

- على رسلك .. لازال الممر طويلً ا .. المهم .. (زفرت في غضب) الله يستره أحد عاملي التجديد .. وافق على أن يفتح لي بابً ا بغرفتي على الطريق .. حتى أعيش بها منفصلً ا عن الجميع .. وكان الثمن بخسً ا .. ارتعشت يدي بالعمر ولكن .. تلك اللوحة التي أرادها لأبيه المتوفى .. رسمتها في أسبوع واحد ..

وصلنا أخيرً ا إلى باب خشبي عتيق ، وبالرغم من تهتك أخشابه فإن تلك الرسومات البارزة على سطحه كانت تخلب العقل . دفع العجوز الباب بيده باسمً ا وأشار لي بالدخول :

«أهلا بك في تحفة قصر أفندار!»..

لم أهتم للاسم الغريب . وتقدمت في الظلام بخطوات بطيئة . سألته عن مفتاح الإضاءة فأجاب : لا تعمل الكهرباء بهذا المكان رغم محاولات العديدين .. إن كنتِ تؤمنين بالسحر ..

أخرجت محمولي لأضيء به خطواتي ، ولكن ذلك الشيء العجيب قد حدث . انطفأ محمولي من فوره وتحول إلى خردة لا قيمة لها . تعجبت ونظرت إلى العجوز ولكنه لم يبال بنظراتي في الظلام . ربما لم يرها من الأساس . وعمد إلى عود ثقاب خشبي يشعل به بعض الشموع .

ضرب عود الكبريت بأحجار اشتعاله الدقيقة فانفجر الضوء الأصفر يضرب الجدران للحظة قصيرة ، وعندها رأيت تحفة العجوز المزعومة . كانت الغرفة شديدة الاتساع ، تجولت في دائرية حول وقفتي أبحث تحت أشعة الضوء الأصفر المتراقص عن باب الخروج الذي ادّعى العجوز وجوده . وقبل أن أسأله بغضب الارستقراطيات ، همس لنفسه بما صرعني : آه يا عزيز .. لولاك ما عدت إلى أفندار ولياليها !

جف حلقي وانجذبت رقبتي بيد خفية إلى الوراء . هرب الدم من وجهي . وشد الهلع عروقي فما عدت استطيع تحريك رأسي . « أي عزيز؟ ». خاطبت نفسي قبل أن أخاطب العجوز ولكن

شللٍ ا مؤقتٍ ا أصاب لساني . فحمل العجوز الشمعدان النحاسي وتقدم ناحيتي : منذ أن رسمته بنهاية السبعينيات .. لم أتمكن من المغادرة .

كان يتحدث في هدوء . وكلما اقترب ، زحف ضوء الشمع على الجدران بطريقة مخيفة . حتى اصطدم بلوحة مائلة وسط عدة لوحات أخرى لم يظهر بأسفلها إلا كلمة واحدة .. « جلنـــــــــــــــــــار !».

«معذرة.. ألم أخبرك أني كنت رسامًا؟.. على زماننا اا..».

ركضت بكامل قوتي إلى تلك اللوحة وعدلتها تجاهي ، وعندها غاب كل شيء .. وتبدلت أرض الواقع الضحلة إلى أرض السحر الخصبة . كان الاسم « جلنار طوسون ». وكانت اللوحة لامرأة بالغة الجمال .

سقطت أرضٍ ا وزحفت بكلتا يدي للخلف في هلع . اقترب مني العجوز ملهوفٍ ا وانحنى أكثر من انحناءته الطبيعية : ما لك يا ابنتي؟ .. هل ااا ...

وقبل أن يكمل . دقت الأقدار طبول الحرب . فانتفض كل منا على أغرب ما رأته عيناي . انحسر ظلام السماء فجأة وحل ضوء الشمس علينا ! اعتدل العجوز في ارتباك .. وجحظت عيناي في عنف حتى أوشكت مقلتاي أن تسقطا من تجويفهما . هب هواء عاتٍ فأطاح به أرضٍ ا وأطفأ الشموع . بينما أطلق جيشٍ ا من الأتربة بوجهي . احتميت بذراعي . ارتجت الأرض أسفل جسدي الممدد عليها . صرخ العجوز : « يارب العالمين !». تحركت ظلال القاعة في سرعة بحركات دائرية . كان قرص الشمس يركض في السماء ويختفي فيعود المساء ، ويظهر فيضيء النهار . ولا يلبث أن يدور ويختفي .. ويعتمنا الظلام . وكأن القاعة بأكملها كانت تدور في فلك

غريب بسرعة جنونية . تمضي الأيام بدوران الشمس . وينفجر الاثاث الخشبي ويتحطم بجوار جسدينا !

صرخت: «جلنار!».

وفى لحظة ! وما إن نطقت بها حتى توقف كل شيء . وعاد الظلام يحوم بأجنحته حولنا . وضربت النار فوهة الشموع رغم سقوطها فأضاءت مرة أخرى . لهثت بأنفاس متعاقبة لم أتمكن من حساب سرعتها . بينما التقط العجوز الشمعدان بيد مرتعشة واقترب مني زاحفً ا : صد .. صرختي بجلنار .. اا .،. اا .. أنى لك أن تعرفي ذلك الاسم؟

نظرت له في هلع. وبحماقة وضعت عيني بعيني جلنار وعندها حدث ما صرع العجوز حتى تمتم:

«أعوذ بالله من الشيطان.. عـ.. عزيز.. كـ.. كنت على حق يا عزيز!».

مال عنق جلنار داخل رسمها. وتحركت شفتاها المرسومتان في رعب كان باديًا عليها «مـ.. من أنتِ؟»..

ضرب العجوز عنقه تجاهي وقد فغر فاه . بينما انهمرت دموعي في غير تصديق من تلك اللحظات الغريبة التي أعيشها . ارتعشت ذراعي وأنا أزحف تجاه الصورة . وكلما فعلت تغير وجه جلنار إلى الفزع . كانت خائفة مني .. والخوف من نصيبي .

وصلت إليها وتواجهنا للمرة الأولى، فعادت في صوت متقطع باكٍ: مـ.. من أنتِ؟

جهشت في البكاء وأنا أنظر إليها في شفقة: أنا فيروز!

صرخ العجوز: فيروز! أيتها الشيطانة..

لم ألتفت له.. بل مسحت على وجنة الصورة في شفقة: نعم.. فيروز.. وأنتِ اااا..

أغلقت عيني في حزن هشّمٍ ضلوعي وانهمر الدمع مني جارفًا...

«أنتِ على وشك الموت أيتها الفاتنة!».

-١٠-

عزيز قاســم

١٩٧٨

«والآن انتهى كل شيء»..

نطق بها فرج وأمارات الحق تظهر على وجهه ، ويده ترفع دعائم اللوحة التي انتهى منها أخيرً ا بعد أشهر طويلة أصابت ما تبقى من سواد لحيتي بشيْ ب عجزت عن صدّ ه . رفعت رسغيْ المتعانقتين من على رأس عصاي الفاخرة ، وارتفع جسدي وكل تعرج بخلقه كان يصرخ بآهات التيبس . ثلاثة أشهر وأنا أجلس يوميً ا لعشر ساعات ، منذ إشراقة الصباح ، وحتى همس وعيده الباهت بالرحيل القريب إلى أحضان المساء . عشر ساعات كنت أتصلب خلالها في جمود الأوثان للمدعو فرج حتى ينتهي من تحفته الفنية . تحولت إلى عبدٍ لأوامره بعد أن ظننت أني استعبدته بما أغدقت عليه من وعود السكن والطعام .

أحللت أزرار سترتي الضيقة وأنا أتجه إليه في إرهاق ، وفرّ قت بسبابتي ما بين العنق وعقدة « الكرافات » الخانقة ، وحاولت أن أرى اللوحة للمرة الأولى : ربما آن الأوان لأن أرى ما ...

قاطعني وهو يغطيها بملاءة بيضاء متسخة متجنبً ا النظر إليّ : بل بعد بضعة أيام .. لا يرى أحدهم أيًّ ا من لوحاتي إلا بعد أن أنتهي من ألوانها .. فقط ارحل الآن ..

ً ء

كنت مضطرا لمداهنته حتى ينتهي الأمر فابتسمت في لطف زائد: حسناً.. لن أراها.. ولكن.. هل....

قاطعني في غضب وقد غلظت نبرته : فقط انتظر دون أسئلة ! لعنك الله .. ألا أنفذ ما أجبرتني عليه؟ فلتتركني وعملي إذً ا .. على زماننا .. كان الـ ...

ضحكت رغمً ا عني : على زمانكم؟ ! لقد جئت إلى « زمانكم » قبل أن تولد أيها العجوز .. فلتستمر بسحر المجالس بتلك العبارة العتيقة مع أحد غيري .. أما أنا؟ فأنا من ابتدع زمنك !

زفر في إرهاق واستسلام حزين: رُحماك يا رب.. ما الذي تريده يا عزيز؟

هدأ شيطاني الذي لم يفارقني منذ سنوات مضت ، ومسخ طبائعي الهادئة بأخلاق بني نسله . وعدت للحظات لا تتكرر كثيرً ا إلى عزيز بك القديم ، دون شر مستطير .. أو شهوة التمتع بمعاناة أحدهم . واقتربت من فرج متنهدً ا بهواء أحرق صدري : لا أعلم حقً ا .. سامحني يا صديقى .. بل أشكرك على ما فعلت ..

وأخرجت له عقد شقته الجديدة التي وعدته بها في مقابل إرسالي إلى عالم فيروز ، وتجهزت للرحيل في صمت ، وقد خشيت أن أنطق مرة أخرى بما يزعجه رغمً ا عني ، فذلك الشيطان قد عاد وتحسست مخالبه حول رأسي .

استوقفني : انتظر .. لست غاضبً ا منك .. بل .. بل حزين مما وصلت إليه .. ألا تذكر كيف كنت؟ كنت عزيز بك قاسم .. ذو القلب الطيب .. واللسان العطر بجبر الخواطر .. كنت ..

ء ء ً

أغمضت عيني في ألم ونطقت مصححا: كان يا فرج! كان.. ولكن ألم يخبرك أحدهم.. عزيز بك قاسم مات عام ٤٩..

- ومن الذي يقف أمامي إذًا؟

ابتسمت له وربت على كتفه راحلًا: لا أحد.. فقط ضحية فيروز التالية!

كنت أكذب ، فعزيز بك لم يمت حقً ا عام ٤٩ ، بل بعدها بسنة ونصف ، صحيح أن الأوراق أثبتت ذلك ولكن .. ما هي الميتة الحقة؟ شهادة وفاة مزورة؟ أم جسد يأكله التراب نهمً ا؟ أم .. أم لمسة أخيرة من حبيب فارق دنياه أمام عينيك باسمً ا؟

لم أمت يا فرج .. بل انتفضت روحي إلى السماء مع روحها ، وتركت جثتي الخاوية بين قدمي الشيطان يتحسس فاجعتي . وما أن رأى اللعين هوة قلبي على مصراعيها ، حتى نفث مارجه الساخن ببئره السوداء . فصرت خلقً ا آخر لم أعرف له اسمً ا .. ولا أظن أن من مثله يُثاب بالموت رحمةً من شقائه .

أنا جسد عزيز .. وروح الشيطان .. وذكرى جلنار .. وذنب أمي .. وقنوط أبي من الرحمة . أنا الكون بعبثه . والأقدار ببؤسها . أنا الموت إن تأخر . والحياة إن هلكت . أنا عشق امرأة . أنا تراب خلقها . وكفن جسدها .

بل أنا لا شيء حقًا.

بعد كل تلك السنوات صدقت ليلى في وصفها قبل أيام من كذبة موتي ، ابتسمت وأصابعها تتخلل شعر رأسي كمن تعبث بفروة قط مريض ، أرادت أن تودعه قبل أن تضع رصاصة في رأسه درءً ا لانتشار مرضه : أنت لا شيء يا عمري !

لم تقل « أنت لا شيء بدوني ». فقط لا شيء . اعتدلت من نومتي على فخذها : انتهى الأمر يا ليلى .. لن أردّ ك إلى عصمتي ..

ضحكت وهي تمسح على ذقني في حنان الأمهات للرضع : حتى لو وافقت على ذلك .. (أكدت) حتى لو قاتلت من أجل ذلك .. فلن تستطيع !

قرأت في وجهها ابتسامة غامضة ، لم تكن بـ « شر » عهدته عنها ، ولا حب لم أستسيغه يومً ا منها ، بل بدت وكأنها ابتسامة وداع أحزنت قلبها : ماذا تقصدين؟

جذبت رأسي مرة أخرى إلى فخذها رغمً ا عني في هدوء آمر وعادت إلى عبث أصابعها بشعر رأسي : علمت كل ما دار بينك وبين أبي البارحة .. داود باشا .. والفدائيين .. و ...

انتفضت من مكاني فزعًا: ماذا؟!

- اهدأ يا عمري .. لست أعاتبك .. بل أشكرك على كشف حقيقة ذلك الحقير .. تصوّ ر؟ كنت أبحث عن ذلك المجهول الذي يُ فسد خططي على الدوام .. ولم أعلم سوى البارحة أن ذلك اللعين أقرب إليّ مما أتصور .. إنه في بيتي .. وبينه وبين نومتي عدة أمتار .. أبي يا عزيز .. أبي هو الخائن الذي كنت أبحث عنه ..

-لا علم لي بما تقولين.. ولا أبالي بعلمه.. فقط دعوني وشأني..

- ليتها كانت بتلك البساطة .. كامل باشا الحداد عضو بجماعة الإخوان المسلمين إن كنت لم تفهم بعد .. ليس في الأمر فقط فدائيون .. وإنما جماعة تسلّحت بعد حظرها ، وعلمنا أن عناصر من الجيش تطوعت بتدريبها .. ذلك التنظيم .. لا يترك وراءه أثراً .. حتى وإن كان زوج ابنة أحدهم ..

ابتعدت عنها في فاجعة ، بينما تبدل وجهها إلى حزن لم أره على رسمها من قبل . تعرّق جسدي بقلب الشتاء ، وارتعشت أطرافي في جُبن الذبائح : هـ .. هل .. هل تقصدين أنه سوف يقتلني؟

فلتت من عينها دمعةٌ لم تبال بإخفائها ونهضت تجاهي في حب : آاه يا عزيز .. يا طفلي الساذج .. كيف تكون بتلك البراءة؟

تحسست وجنتي وانهمرت دموعها دون بكاء: إن لم يفعل.. فسأفعلها أنا!

تجمدت . ولم أستطع دفع نظراتي بعيداً عن عينيها الباكيتين . عقدت حاجباً آلم جبهتي من غلظته ، وهمست في غير تصديق : مما خُلقتِ يا امرأة؟

وضعت كفيها على يدي ورفعتهما في بطء تجاه عنقها حتى أغرقت دموعها فروج أصابعي ، راقبتني في حزن وهي تفعل . حتى ضغطت بكفيّ على عنقها بقوة : من ضلعك الأعوج يا حبيبي .. فلتقتلني إذاً .. ولن أقاوم .. فقط ضغطة بسيطة .. ربما تُنهي حياتي .. وتنجي حياتك .. مني ! افعلها يا عزيز .. افعلها يا عمري .. وإلا .. لن تخرج عليك الشمس بعد اليوم .. فقط اقتلني !

غابت الكلمات عن رأسي ولساني . رأيتها وكأني أراها لأول مرة ، لم تكن تلك الساقطة التي تشتهي السلطة وإهانة من تحب ، ولكني رأيتها امرأة هشة القلب ، وإن أحاطته الأحجار من كل جانب . رأيت امرأة تخشى على حبيبها من نفسها ، حتى تطلب منه أن يقتلها . كانت تعلم أنه إن لم يفعل فلسوف تفعل .

وليتني فعلت!

ضربت يدها وأفلت ذلك العنق النابض بشهوة الموت . ابتعدت عدة خطوات وأنا أراقبها في اشمئزاز : بل لا تستحقين راحة الموت !

أغمضت عينها فانقطع سيل الدموع وابتسمت كليلى التي أعرفها : بل لا تستحق أنت تعب الحياة .. سأجعلها في رأسي هكذا حتى لا أتألم .. « عزيز أفضل من أن يبقى حيًّا بتلك الدنيا اللعينة ».. سأخلصك منها ..

كنت أبحث عن المرضى ومن أصاب عقلهم من الخلل ما يكفي حتى أعالجهم ، ولم أكن أدري أن أسوأ مرضاي كان يشاركني الفراش : تحتاجين حقًّا للعلاج يا عزيزتي .. لقد فقدتِ عقلك ..

رفعت إصبعها مصححة : بل مع الأسف لم أفعل .. العقل آلة يا عمري .. لا تفتأ أن يدور أحد تروسها .. حتى تداوم على دورانها إلى الأبد .. حتى بعد الموت ..

- والعقل أن تقتلي زوجك؟ العقل أن تطلبي منه قتلك؟

ء ء

-بل قلبي هو من آراد منكِ قتلي.. آما عقلي فلا يرى إلا شيئًا واحدًا..

-وما هو؟

تبدل وجهها إلى العبوس ، وضاقت عينها لغضب مكتوم أوشك أن يفجر أوصالها : استعادة حقي ! امتلاك تلك الدولة ! أنت لا تعلم حقً ا كم عانيت من أجل ذلك ! أنت لا تعلم ما فعله بي .. وكيف فعله .. و ...

- من تقصدين؟ من الذي فعل؟

-لن تفهم!

- بل أريد أن أفهم .. كامل باشا وأسبابه مفهومة .. يخشى على عنقه إن تحدثت عن خيانته للملك .. أما أنتِ .. فبماذا سيُ فيدك قتلي؟ !

- أصبحت تعلم أكثر من اللازم .. ما تعرفه يكفي للضغط على كامل باشا ، وليس الإطاحة به لدى الملك .. يجب أن يكون بكامل سلطته تحت أيدينا .. لا أن يكون سجينً ا فنخسر نفوذه ..

-لن أنطق بكلمة..

ء ء ء

-كنت آتمنى آن يكفي ذلك.. ولكن.. لن آتمكن من المخاطرة..

-تخاطرين من أجل زوجك.. ألا يصلح ذلك ليكون استثناءً؟

-لا استثناء في السياسة يا عمري..

خلعت في عنف الرداء الحريري الذي أجبرتني على ارتدائه ، ورميت قميص ً ا على جسدي في عجالة وانطلقت للرحيل مسرع ً ا وقد علمت أنها سوف تحقق غايتها ولكن كذبت أمامها : لا أخاف منكِ .. إن استطعت أن تقتليني فافعلي !

انطلقت كطلقة من سلاح أبيها وانتصبت بيني وبين الباب فأفزعتني: ليس لك مهرب مني.. قتلك أصبح حتمياً..

«قلت لكِ.. لا أخاف منكِ»..

راقبتني في تفحص ساحر ومالت بعنقها بنظرة دبت رعشة غريبة بكامل جسدي ، ثم نطقت أخير ً ا : حسن ً ا يا عمري .. سأتركك ترحل ولكن ..

شبّت على أصابعها لتطال أذني وهمست بها كصرير الأبواب المغلقة : سأحاول ألا أتعقبك قبل الصباح .. فلتهرب .. إن استطعت !

عادت إلى وقفتها ، وبهت وجهها في براءة لحظية وكأنها تمنت حقًا ألا تطال يدها رقبتي ، وابتسمت ابتسامة أخيرة . وعلى غير المعتاد في وداع الرجال والنساء ، مالت على يدي ورفعتها أمام وجهها كسيد نبيل .. وقبّلتها في حنين بالغ ، ثم تراجعت في حزن وانحناءة . وكأني كنت امرأة عشقت حُسنها وانحرفت عن مسارها للمرة الأخيرة .

تبدلت الأدوار .. ولم لا؟ فإن كانت امرأة ضعيفة تهدد رجلًا بالغًا بالقتل .. ويصدق . فلم لا تعامله كامرأة وتنحني له كالرجال؟

كون عبثي حقًا.

عدت إلى مكتبي ، وربما كان ملجأً غبيًا لمن أراد الهرب خوفًا على عنقه . ولكن إلى أين كان عليّ الذهاب ولم أكن أملك شيئًا . لا مال أطوّع به مخابئ الهرب ، ولا أقارب أعتصم بهم من وعيد القتل الذي التصق باسمي ، ولا أب أغفر له بعودتي إليه قبل موتي بساعات . ولا حبيب أهلك بين يديه طلبًا للسكينة وهربًا من رجف الموت .

***

«خالتي محبوبة ماتت»..

قالتها ثم دخلت في نوبة بكاء متهدج الأنفاس وهي تنهض في لهفة من جلستها أمام عتبة مكتبي . كادت أن تقع وتسقط طرحتها السمراء الشفافة من فوق رأسها من شدة الحزن لولا أن سندتها بذراعي ، ليحدث حينها ما أشعل قلبي وقد سقطت في أحضاني .

تلهفت لتهدئتها: حسناً حسناً... بركة! اهدئي.. كـ.. كيف حدث ذلك؟

رفعت عينيها الزجاجيتين وسقط منها نهر ناعم من دمع لم أر لمثله صفاءً من قبل ، فتوقف الزمن ولم أسمع ما قالت : الحمّ ى يا بك .. غفلت عيني لبضع دقائق .. وكتاب الله المجيد .. وحب الله لنبيه محمد .. كانت دقائق فقط .. ونسيت الكمادات على رأسها حتى سخنت .. و .. استيقظت على حشرجة خروج السر الإلهي ..

وبدأتْ فجأة بضرب وجهها وعينيها وفمها . كان لا يظهر من كفيها سوى جزء صغير منه قبل انفراجة الاصابع ، فعباءتها الطويلة أخفت كامل رسْ مه ، فبدت فاتنة حتى وهي تعذب نفسها . ولعنت نفسي لاستمتاعي بجمالها وهي تعيش تلك المأساة .

استفقت أخيرً ا من غيبوبة تأملي لها وقد بدأت في شد شعرها ، فحاولت احتواء ذراعيها بقوة ، قاومت . فأحكمت قبضتي عليها . وما أن رأيت عجزها عن الخروج عن قبضتي ، حتى جرت بجسدي دماء الرجل مرة أخرى وقد شعرْ ت بقوتي .

اه يا عزيز.. ربما تكون أكثر مرضاك مرضًا.

انقطع تيار الوعي بين إقناعي لها بالدخول إلى المكتب وحتى أن وضعت فنجانً ا من الشاي بين يديها الصغيرتين وجلست أمامها على أريكتي الفاخرة . رفعت رجليها في تربيعة عفوية وكأنها لم

تكن معتادة على جلسة الأثاث . ابتسمت رغمً ا عني وهي تحاول الإمساك بالفنجان بطريقة صحيحة وترمقني من أسفل بنظرات الخزي من جهلها . فتديره يمينً ا ويسارً ا . تحاول أن تُ دخل أحد أصابعها بأذنه فتتعثر . وما أن يئست حتى احتضنته بكفيها ككوب زجاجي من أكواب الغلابة . فأمسكت بفنجاني واحتضنته كما فعلت تمامً ا فتنفست الصعداء الهادئ .

عدلت طرف جلبابها فوق تعاقد رجليها في خجل وقالت : عدم المؤاخذة يا جناب البك .. « اتبطيت » على أنفاسك فجأة .. ولكن .. لم يعد لي أحد .. ولن آخذ من وقتك الكثير ..

ابتسمت من المفارقة : لا تقلقي .. لا أملك الكثير من الوقت من الأساس .. وإني لسعيد حقً ا أن أقضي ما تبقى منه معك ..

ظهر عليها العجز عن فهم مقصدي بما قلت ، فتخطت الأمر بضمة طفولية لشفتيها حتى برزت وجنتيها ، وهزة رقيقة لكتفيها حتى برزت دقات قلبي ، ثم قالت : اا .. فقط .. كنت .. اا .. انت بك كبير .. ومقامك فوق رؤوسنا .. ف .. ف .. كنـ .. كنت .. كنت أطمع في كرم جناب معالي جنابك .. أن .. توصي عليّ لدى أحد أصدقائك .. (ربتت على رأسها في احترام ولهفة) مقامهم على رأسي .. حتى .. حتى .. ف .. من الممكن أن أعمل لديهم خادمة ..

حاولت أن أجيبها بخيبتي في تلبية طلبها ولكنها قاطعتني في لهفة : اا .. أأنا وحق غلاوة الحسين « لهلوبة ».. وأمينة .. تنقطع يدي ولا تطول أيًّ ا من خيرات أصحاب النعمة .. ولا أطلب حتى راتبً ا .. فقط .. « نومة » تستر عرضي .. ولقمة تسند عمري حتى يأمر الرزّ اق بموتي .. فقط جنابك .

كنت أتأمل وجهها وهو ينقبض وينبسط بحديثها ، فتارة تبسط حاجبيها وهي تقسم ، وتارة أخرى تعقدهما وهي تحني رأسها احترامً ا إن مر ذكري أو ذكر « أصحاب النعمة » على لسانها الوردي . فانحرف فكري إلى أمر آخر لا علاقة له بما قالت : كيف وصلتِ إلى عنواني؟ وكيف مكتبي وليس القصر؟

ارتبكت حتى اهتز فنجانها وانقبض وجهها في خوف ولمعت عينها بالدمع مرة أخرى : و .. والنبي يا جناب البك .. أنت كنت حنونً ا عليّ عندما احتضنت بكائي المرة السابقة .. فلا .. فلا .. فلا تضربني ..

تعجبت لها: أضربك؟

وضعت الفنجان في ارتعاش على الطاولة وارتمت أرضً ا تحت قدميّ متوسلة وهي تخبئ رأسها بذراعيها وكأنها تحتمي مني : والنبي يا جناب البك .. سأ .. سأرحل .. واعتبر أنك لم ترني .. ولكن لا تـ .....

قاطعتها ولم أشعر إلا ورفعت ذراعيها بقوتي السابقة إلى جلستي: اهدأي اهدأي.. لن أضربك.

أزالت ساعدها عن وجه البدر ومسحت عينها في طفولية من دموع سقطت من الخوف: و.. وغلاوة الحسين؟

ابتسمت لها: وغلاوة الحسين!

ابتسمت رغمً ا عنها أخيرً ا في خجل وهي تضبط طرحتها ، فأجلستها بيدي مرة أخرى ، فهدأت : بعـ .. بعد .. عملتهم السوداء .. وضربهم لك .. صمم شيخ الحارة أن يعرف من الذي دلّ ك .. يوم في الثانى .. ووصل إلى عوّ اد ..

- عواد؟

-صاحب لوكاندة التفاحة.. قال إنك كنت تبيت عنده..

-ولكني لم أترك له عنوان المكتب..

أعادت تربيعتها مرة أخرى واقتربت مني في عفوية وقد نسيت مقامي ، فضربت على نخذي ولوت ساعدها في الهواء كمن تحكي لجارة على مصطبة : لاااا .. من الواضح أن جنابك على « نيّ اتك ».. المدعوق عواد كان ولازال « لصً ا ».. لم يكن له أن يترك بك مثلك يرحل عن طريقه إلا بعد أن ينظف جيوبك ..

اندمجت رغمً ا عني : اااااااه .. يا لغبائك يا عزيز .. لقد ظننت أن أحد الرجال سرق أموالي أثناء المعركة الحربية التي وقعت أمام بيت خالتك ..

أكملت : لا .. رجال العطفة رجال شرف .. المهم .. بين أموالك .. عثر المدعوق على .. على .. والنبي لا أعرف ما أسمه حتى .. عثر على « قصوصة » عليها اسمك وعنوان « المطرح ».. ولولا أن شاء رب الغلابة أن يقبض عليه شيخ الحارة ويلقنه « علقة » عظيمة .. لكنت عدت في يوم ووجدت المكان على « البلاط »..

ضحكت في استمتاع بحكيها، فأجلست قبضتي أسفل خدّي: كل هذا حدث في يومين؟!

تنهدت في حزن : لما ماتت خالتي .. لم يوافق شيخ الحارة على إعطائي عنوانك .. بل طردني خارج الحارة .. فذهبت إلى عوّ اد في « الاسبتالية ».. وأعطيته خلخال الست فاطمة .. اللص .. كان كل ما أملك .. أخذه دون مقابل سوى عنوانك ..

غابت بسمتي: فاطمة؟

ارتبكت مرة أخرى: اا.. أقصد الست جلنار.. رحمة الله عليها..

اقتربت منها باسمًا وقد تجاوزت سيرة جلنار متعمدًا حتى لا تتوتر: وتنازلتِ عن كل ما تملكين من أجلي؟

احمر وجهها فجأة ونكّ ست رأسها ، وفركت يديها عدة مرات في خجل : رب الغلابة أرسلك إليّ ربع ساعة .. ربع ساعة فقط .. وكأنه أراد أن يخبرني .. أنه لن يتركني بلا معين بعد أن يرمي قضاءه على خالتي ..

رفعت رأسها ونظرت إلى سقف المكتب وكأنها تنظر إلى السماء بنظرة حالمة : الحنّ ان يا بك .. منذ ولدت .. وأنا على كفّ ه .. لم يتركني لحظة .. ولولا الحاجة ما أحزنته مني .. (نظرت إليّ) نعم يا جناب البك .. الحنان لا يغضب .. بل يحزن عندما يُ خطئ عبيده .. كنت أعلم أنه حزين .. وكأنه يعاتبني « لماذا يا بركة؟ ».. وأنا أبكي ولا أجرؤ من الخزي على النظر إلى سمائه ..

تعجبت لقولها: وما كان جرمك؟

نظرت إليّ في خجل وقد قسم جفنها الذليل عينيها ، وسحبت أطراف جلبابها وأكمامها في حزن : الستّ ار سترني .. ولا أريد أن أكشف ستره ..

أومأت لها في تقدير لحفاظها على السر ، فعادت ونظرت إليّ في انتظار لجواب مطلبها ، فتنهدت : مع الأسف .. لا أظن أني أستطيع أن أجد لك مكانً ا للعمل ..

هرب الدم من وجهها ولكنها اصطنعت الابتسامة المرتبكة : حـ .. حسنً ا يا بك .. لا عليك .. اا .. كلها أرزاق و ...

قاطعتها ولم أعلم من أين قفزت تلك الفكرة على رأسي: ولكن.. يمكنني فعل شيء آخر!

انتبهت إليّ في استبشار الغريق بتأرجح القشة على ظهر الموج: إلهي يبارك في جنابك..

اعتدلت لها في جدية: حسناً.. من الغريب حقًا أن أخبرك بذلك الأمر.. ولكن.. هناك من يريد قتلي..

ضربت صدرها بقوة أفزعتني: يا إلهي! قطع الله يده قبل أن تمتد لجنابك!

تذكرت ليلى وهمست «آمين»، ثم: الوقت يمضي.. وكنت أبحث عن مكان للاختباء و...

قاطعتني: ما الذي فعلته يا بك حتى يترصدك أحدهم لقتلك؟!

سكت للحظة بدت طويلة ثم ابتسمت لها: الستار سترني يا بركة..

أومأت في موافقة دون تردد بحركات عنيفة لعنقها تناسبت مع موافقتها على المبدأ : وأنا أمة الستار .. وجارية سرّ ك يا بك .. وكيف ستفعل؟

- أبحث عن مكان للاختباء.. فلو ساعدتيني على العثور على أيهم.. سـ...

أجابت فجأة مرة أخرى في حماس: على عيني يا بك.. كم تحوي محفظتك؟

كانت أوراق المكتب بحوزة ليلى فلم يتسن لي حتى محاولة بيع مكتبي ، الشيء الوحيد الذي أملك . ومنذ يومين وبعد سرقة عواد لي ، لم يدخل جيبي مليم واحد . فما وجدت أمامي إلا حلاً واحداً .

«هل سرقتِ من قبل؟».

استنكرت السؤال في أول الأمر ، حتى أنها انتفضت واقفة رفضً ا لـ « الحرام » كما أسمته . حايلتها في محاولة للشرح ، إلا أنها كانت مصرة على المقاطعة ، وزاد استنكارها عندما سألت في استخفاف بقدرتي على السرقة ..

«وبك مثلك لم يعتد على الشقاء.. سيسرق مَن يا حسرة؟!».

وأخيرًا حان أوان الإجابة. فابتسمت في شر: أنا!

تحركنا ركضً ا بين أرجاء المكتب نجمع كل ما يمكننا حمله من تحف فنية وفضيات مطلية بماء الذهب . اغتصبنا بقبضتنا أواني الزينة ، والتماثيل الحجرية ، حتى مقابض درفة المكتبة العالية ، خلعتها بركة في مهارة . كنت أراقبها وهي تُ عبّ ئ جلبابها بالأكواب الخزفية حتى انتفخ ، فلم أتمكن من منع ابتسامتي التي اتسعت وكأنها جرح ضاقت به وجنتي . وصلت إلى محتويات المكتب ، وجمعت الأقلام الذهبية وكل ما أهدتني إياه زوجتي السابقة وقاتلتي الحالية . وعندها وقعت يدي على غمد فاتحة الأظرف . ذلك النصل الذي نحرت به جلنار عنقها . فغابت البسمة وتجمد الوجه حزنً ا . كان من الممكن أن أترك الغمد وشأنه خصوصً ا بعد أن صادر البوليس السلاح الحاد . إلا أني قبضت عليه ووضعته بجيبي دون أن أفهم سببً ا لذلك . فلا بيعة لغمد بلا سلاح . ولكن .. ظننت حقً ا أني ربما أحتاج إليه .

جمعنا ما استطعنا ، فنظرت إلى بركة متسائلً ا إن كانت قد انتهت من سرقتي ، إلا أنها كانت تنظر في تعجب لشيء ما يتحرك خلفي . انتبهت لظله وهو ينعكس على سطح المكتب أمامي .

فالتفت متعجباً وعندها نطقت بركة : سبحان من خلق .. إنها المرة الأولى التي أرى فيها سحابة بتلك الضخامة بسماء المحروسة حتى في الشتاء ..

تعجبت كما تعجبت ، ولكن وقرت في قلبي رسالة الأقدار فصدقتها دون مراجعة وهمست : بل هي غيمة الموت يا عزيز !

«فيروز!».

كان اسمها مكتوباً على ملف كبير صنعته فقط من أجلها . ترددت ، هل يستحق أن أحمله بين كل تلك الأوزان المتفرقة على مفاصل جسدي؟ أم أنجو بعنقي وأتخلّى عن ذلك البحث الذي لم يجرني خلفه إلا للمصائب؟ كان القرار حاسماً . « أصبحت فيروز جزءاً من حياتك .. حتى وإن كنت ميتاً ».

اقترب الغروب من إسكات ضوء النهار ، غير أن ظلامه الباهت لم يكن كافياً لأخرج من مكتبي في سلام دون أن أسقط ضحية من قرر مراقبتي أمام عمارة المكتب . وقبل أن أهمس لنفسي بذلك الهاجس ، فاجأتني بركة بسؤال غريب : هل كان يخدمك أحدهم؟

أومأت لها بالموافقة ، فسألتني عن مكان مبيته . أشرت إلى حجرة صغيرة بجوار حمام المكتب كان يبيت بها عم سالم وكانت تتسع بالكاد لجسده ملتوياً . فانطلقت تجاهه وأفرغت بيدها محتوياته حتى عثرت على جلباب بلدي وطاقية بالية . ألقتهما بوجهي دون تردد : عدم المؤاخذة جنابك .. ارتدِ هذه .. ربما كان أحدهم يراقبك بالأسفل ..

أقسمت لنفسي أني لم أشاركها ذلك الخاطر . ولكن أومأت للخادمة كسيد مطيع . استغرقت دقائق بالحمام حتى أجد الباب المناسب للدخول إلى تلك القطعة القماشية المتهتكة ، كيف كان يُدخل سالم رأسه وذراعيه فيها؟ خرجت إليها منحنياً في بلاهة . لم تتمكن من كتم ضحكتها

الصامتة . كتمتها قدر الإمكان إلا أن شهقة رقيقة فلتت منها وعندها رأيت انعكاسي بذلك الجلباب الواسع بزجاج المكتبة فلم أجد بدً ا من مشاركتها الضحك .

أمسَ كَ ت بالطاقية . واقتربت من وجهي في تركيز ورفعت ذراعيها في الهواء لتطال رأسي . انهمرت أكمام جلبابها الواسع سقوطً ا للأسفل حتى ظهر ذراعيها دون غطاء على امتدادهما . توقف الزمن مرة أخرى . ولم يكن بيني وبينها سوى ما يكفي لتبادل الأنفاس بين أفواهنا . أجلست الطاقية على شعري الأشعث فشعرت وكأن ذراعيها كإطار فضي حول وجهها للوحة أكثر إشراقً ا من لوحة أمي الزيتية . نفذت الوصية القديمة . فنظرت إليها ولم ألتفت . متمتعً ا بذلك التقارب القدري . وشعرت بحرارة تدب في جسدي ، لم أدر حينها مم خرجت؟ أهى من جوارحي المشتعلة؟ أم من دفء روح ذلك الملاك الذي خرج من غيمة الموت فقط لإنقاذي؟

انتهت ولم أنتهِ . بل ظللت محدقً ا بها مشدوهً ا . وقعت عينها على عيني فطرفت في خجل عدة مرات وتراجعت إلى الخلف وقد أحنت رأسها ، فغابت اللوحة وإطارها . وساد الصمت .

لم أكن لأكسر الصمت في حضرتها. فقررَت أن تفعل: و.. و.. ولكن لم.. لم أعثر لك على عمّة..

استفقت من شرودي كطفل يرفض دواء الحكيم: وما حاجتنا إليها؟

خلعت طرحتها السوداء فانسابت ضفيرتها وعقدت قلبي : خالتي كانت دومً ا تقول .. الأهم من « الشغل ».. الـ « فينيش »!

ضحكت من إنجليزيتها الركيكة ، بينما همّت هي بالاقتراب مني مرة أخرى لتعقدها حول رأسي ، إلا أن نظرات الاشتياق لفعلتها أربكتها فوضعت الطرحة بيدي : فلتديرها هكذا حول رأسك .. (وأشارت بيدها في دائرية) هكذا ، هه !

وصلنا إلى الطريق ، أحمل « بؤجة » ضخمة على ظهري كعامل بناءٍ لم أعتد على رؤيته ، بينما حملت هي البؤجة الأكبر فزادت انحناءتها من قصر طولها فبدت أكثر رقة . خطونا بخطوات اختلط فيها الحذر بالإرهاق المبكر ، إلى أن وصلنا لرأس الطريق ، وعندها .. رأيت كامل باشا الحداد بنفسه .

كان يتحرك في عبوس وينتفض بضربات عسكرية كادت أن تحطم بلاطات الطريق الصغيرة . ظننته في أول الأمر وحيداً ، إلا أن عمة خضراء ووجه أسود كانا كفيلان بإقناعي بالعدول عن ذلك الظن . فذلك الأسود الذي عصفني بقبضته بمسجد السيدة زينب لم يكن بالشخص الذي يُنسى لسنوات وليس يومين .

علمت من فوره أنه جاء لتنفيذ أوامر سيده بقتلي . فحمدت ظهور بركة وكأنها هبطت إليّ من السماء مع غيمة الموت ، ليس لإنقاذها من بؤسها القدري .. وإنما لإنقاذي من بأس أقداري .

اصطدمت بكتف الباشا مرتبكاً ، فدفعني الأسود بقوة محافظاً على هيبة سيده من تلامس كتفه مع كتف خادم غلبان ، فالتفت إليه الحداد وزجره في همس : ماذا تفعل؟ ! قلت لك تظاهر بأننا لسنا سوياً .. انتظر هنا حتى أشير لك من النافذة ..

تنهد الأسود في طاعة وندم على إغضاب سيده ، بينما قبضت على يد بركة دون مقدمات وأسرعت بخطواتي في ابتعاد . فما كان بين الباشا والنافذة إلا بضع درجات من سلم المبنى الذي وصل إلى بوابته .

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي حاولت فيها قيادة بركة ، فبعد تلك الخطوات المسرعة ، كنت لها تبعاً . فهي من تولّت بيع المشغولات القيّمة لدى أحد البائعين « اللصوص » كما

كانت تناديهم في خلط بين الدعابة والجدية حتى تحصل منهم على ما تشاء من أموال . وكذلك شيخ إحدى الحارات البعيدة عن عطفة رجب التي كانت تسكنها ، الذي نجحت في إقناعه بالعثور لنا على مسكن قبل انتصاف الليل ، حتى وإن كان ، كما قال ، غرفة أرضية تطل نافذتها على إحدى المقاهي الشعبية .

وصلنا إلى الغرفة المذكورة ولم تكد قدمي ترتفع عن الأرض مقدار خطوة من التعب . فتح لنا السمسار القفل الصدئ وأدخلنا باسمً ا وكأنه رضوان الجنة يفتح لنا بابً ا لمتعة الخلود . فتهللت أسارير بركة وقبلت جانبي كفها وربتت على صدرها هامسة بالحمد . بينما تجاهلت شعوري بالتقزز لما رأيت واصطنعت الابتسام رغمً ا عني . فيبدو أن رضا بركة كان مُ عديً ا .

دخلت بركة على الفور واتجهت إلى الأثاث المتهالك تنفض عنه الأتربة فيحيل بين عيني وهيئتها الملائكية ، تقلب « مرتبة » الفراش ذات البقع الداكنة على سطحها إلى الناحية الأخرى وتحدّ ثني وكأنها تحدّ ث نفسها : نستر « العيبة ».. ونومة على ظهرها .. ستكون كافية لإراحة بدنك يا بك ..

وما أن انتهت حتى طفقت إلى طاولة رخامية مهشمة أطرافها ، استقر صنبور نحاسى أصفر على رأسها ، أمسكت بالبؤجة الفارغة وغمرتها بالمياه التي بدت سوداء بأولى قطراتها . وانهمكت في طي الأسطح في سرعة أملً ا في استرجاع لمعانها . كنت أراقبها في صمت ولم أنتبه إلى التصاق شيخ الحارة بخلف رأسي رغم كل ما مر من دقائق .

التفت له: اا.. أشكرك يا.. أشكرك! هـ.. هل هناك شيء آخر؟

ابتسم في لزوجة أظهرت أسنانه المهشمة: الشاي يا بلدينا..

ء

نظرت حولي في بلاهتي المعهودة: ولكننا لم نشترِ أي إبريق بعد لكي...

امتعض الرجل قبل أن أكمل حماقتي ، بينما شهقت بركة استنكارً ا لما قلت ، واتجهت إليه وقد أخرجت عدة فضيات من صدرها وسلمتها إليه ، فقبض عليها في حنق : عدم المؤاخذة .. لقد عاد لتوّ ه من البلد .. ولم يعتد بعد على « ملاغية » جدعان المحروسة .. يسلم عرقك يا سيد الجدعان ..

رمقني بنظرة حنق تبدلت مع الوقت إلى الجمود وكأنه أراد لنفسه الاقتناع بعذري الكاذب ، فهمّ بالرحيل ولكنه عاد بتحذير أخير : من أجل طيب لسان الست .. سأتركما اليوم بلا أوراق .. ولكن غدً ا سأحتاج إلى قسيمة زواجكما .. ليس لشك لا سمح الله .. وإنما من أجل شرعية بياتكما معً ا وسط الخلق ..

اندفعت تجاهه منكرة: لا لا.. فأنا لست....

كان دوري هذه المرة في إسكاتها والتحدث عنها : بعد بضعة أيام يا ... بعد بضعة أيام .. فلقد تركنا البلد بلا أوراق لظروف خاصة .. ولكني سأسافر في أسرع وقت ..

بهت وجهها وعلت زرقته فوق نضارته في صمت ، بينما تنهد الرجل وأومأ في حنق : حسنً ا .. أمامكما جمعة .. يبدو عليكما طيب الأصل .. رغم أن لغوتك ليست كلغوة الفلاحين .. ولكن ...

أشرت لها بأن تعطيه بضعة قروش أخرى لكنها طرفت عينها في رفض سريع ، وأجاب عنها : عيب يا بلدينا .. الشاي للتعب .. أما الأصول فليس لها ثمن .. ستعتاد على جدعنة أولاد البلد قريبً ا .. سلام عليكم .

وغادر وقد أغلق الباب خلفه بصفعة تردد قبل أن يتمّ ها ، بينما التفتت إليّ بركة بسؤال صامت عمّ ا قلت . فأجبتها مدافعً ا : إلى أين ستذهبين في ذلك الوقت من الليل؟ ليس لك مأوى إلا هنا .. ولا تقلقي ، فأنا كما قال الجدع .. « طيب الأصل » ولن أمتد إليك بـ ...

ضربت فمي بكفها في لهفة فوددت لو قبّ لته : معاذ الله يا بك .. لا أقصد .. ولكن .. لا أريد أن أثقل كاهلك بحِ ملي .

الكثير من الكلمات كان يجوب برأسي ردً ا على ما قالت ، ولكني نطقت بما وجدته أكثر منطقية في وقتها : هل بقي لدينا من مال لبعض الطعام؟

ابتسمت في خجل وقد فهمت أن الأمر صار محسومً ا ، فأخرجت من حزام خصرها كتلة ضخمة من الاموال فغرت لها فمي : حقً ا؟ ! لدينا كل تلك الاموال .. وتُ لقي بنا في ذلك القبر الـ .... ؟

قاطعتني وهي تجلس على الفراش وقد فردت جلبابها وألقت بداخله النقود لعدّ ها : لا يصلح لاختبائك قصر ولا حتى شقة .. ولا نعرف كم سيطول ذلك الاختفاء ، فمن أين ستنفق على عيشك؟ كل ما تحتاجه فقط « نومة » و « أكلة » ووجوه الغلابة لتختبئ بينهم .. اسمع مني جنابك .. لن تعرف قيمة ما تملك الآن من مال .. إلا عندما يعتصر الجوع بطنك ..

مدت يدها تجاهي بالرزمة الضخمة: يطرح الله فيهم الـ«بركة»..

ابتسمت لها وأغلقت كفها عليهم: لقد طرحها بالفعل منذ أن مستهم «بركة»..

غابت نظراتها في أرجاء الغرفة في خجل ، فاقتربت منها مستغلً ا تلك اللحظة وجلست إلى جوارها باسمً ا : أأ .. ألم يأن الأوان أن تخبريني بما دار بينك وبين جلنار؟

نهضت من مكانها وهي تهندم جلبابها البسيط ووضعت المال بجواري وابتعدت خطوات في هرب وتردد : الله ستار يا بك .. لقد استأمنتني على سرّ ها ..

نهضت إليها في حماس صائدي المعلومات: أي سر يا بركة؟ إنها كانت أميرة؟ لا بأس فأنا أعلم ذلك..

- ماذا تريد إذًا؟

-ما الذي قالته لك طوال فترة بقائها لديكم؟

-الكثير..

-أريد بعضًا منه فقط!

التفتت إليّ في ضيق متأزمة من حفاظها على مقامي ورغبتها في إجابة مطالبي : يا بك .. لو كان ذلك غرضك من بقائي معك .. فربما يكون الرحيل أفضل ..

وتحركت تجاه الباب فانطلقت خلفها بخطوة متسعة وجذبت ذراعها : إلى أين؟ ! حسنً ا .. أخبرتك من قبل أنها قتلت وأريد أن أعرف هوية قاتلها لنثأر لها معً ا .. ألم تحبيها؟

نظرت إليّ باسمة وقد فهمت حيلتي : أنا غلبانة يا بك .. ولست ساذجة .. لا تطرق على وتر حبي لها لتستدرجني في الحديث كالأطفال .. سر جلنار أقسمت عليه أن يظل مكتومً ا .. أراك على خير يا بك ..

تحركت مرة أخرى فوقفت بينها وبين الباب وكنت صادقً ا هذه المرة : حسنً ا حسنً ا .. لن أجبرك على شيء .. فلتخبريني وقتما أردتِ .. ولكن لا ترحلي .. أرجوكِ ..

احمر وجهها خجلًا من توسل من كان مثلي لمن كان مثلها فارتبكت: على عيني يا بك.. ولكن.. لماذا؟

نظرت إليها مطولً ا وابتسمت وقد احتبست الكلمات بين بوابات شفتي ، فلاحظت الغلبانة التي لم تكن ساذجة احتياجي إليها الذي لم تكن الكلمات قادرة على صياغته ، فأومأت كالأطفال وإن لم أستدرجها هذه المرة مثلهم ، ونطقت بما يرفع الحرج عن كلينا : تشرب شاي يا بك؟ !

منعت حركتها بلمسة على ذراعها أربكتها ، اتجهت إلى الطاولة الرخامية العفنة وأخرجت من بؤجتي كوبين من الخزف لم أرضَ ببيعهما ووضعتهما أمامي في حيرة : لا .. بل سأعده أنا !

كان فشلي حتميً ا ، وفى كل مرة حاولت فيها إصلاح ما أفسدته ، كانت ضحكاتها تضيء الجدران وتُ طفئها كلما انفرج فمها بموسيقاها وانغلق . كانت حقً ا المرة الأولى التي ضحكت فيها دون خجل ، وكانت المرة الأولى التي يضحك فيها فرج بعد ثلاثة أشهر من الصمت والعبوس ..

«بعد كلِ ما رأيته من مصائب.. وشقاء المُعتقل.. لازلت عاجزًا عن صنع كوب بسيط من الشاي لنفسك!».

حككت لحيتي البيضاء دون أن أشاركه الضحكات الساخرة وأعطيته ما أطلق عليه « السبرتاية » و « إبريقً ا » قديمً ا دون أن أنظر إليه : فلتصنع لنا اثنين إذً ا .. وأتمنى أن تكون مهارتك في الشاي .. كمهارتك في الانتقاد التافه .. ولننتهِ من تلك اللوحة من فضلك ..

«سنفعل.. بمجرد أن تشرق الشمس»..

اتجه فرج إلى «السبرتاية» مترنحًا مِن التعب وهو يكمل انتقاده: سيكون هلاكنا جميعا على يدك..

تعجبت من قوله وأخرجت سيجارة من جيب سترتي وأجلستها على لساني : لم تخبرني حتى الآن لماذا صدقت قصة جلنار؟ !

ارتبك وتعمّ د أن يصدّ ر إليّ ظهره وهو يعد الشاي : كنت تقصها عليّ ليل نهار حتى أصابتني بلعنتها وأصبحت الكوابيس أمرً ا معتادً ا ..

شعرت أنه يخفي أمرً ا : بل أظن أنك تعلم شيئً ا ما .. سرً ا ربما .. فلست ساذجً ا لتصدق تلك الخرافات من المرة الأولى ..

- وما هو ذلك السر الذي يترك المصريين بأكملهم ويستقر بابن فلاحة لم يدخل دنيا حتى شيبته؟

تجاوزت كذبه المتعمد وامتنعت عن استفزازه فقط حتى أحصل منه على لوحتي : هل حقً ا لم تدخل دنيا حتى الآن يا فرج؟

-لا تشتت الحديث.. فقط أجب على سؤالي.. ما هو ذلك السر أيها العبقري؟

كان دوري في المراوغة : كيف لم تدخل دنيا يا رجل؟ كيف لك أن تقضي مع امرأة بالغة الجمال كجلنار لثلاثة أسابيع كاملة .. وعارية .. دون أن ...

توقفت يده عن تقليب الشاي وتنهد في حزن: بعض الجمال لم يخلق لوطء أمثالي.

ساد الصمت للحظات ، فعاد إلى التقليب مرة أخرى بسرعة أكبر وكأنه يتجاوز ذكرى آلمته . وضع كوب الشاي بين كفّ ي . فباغته بالسؤال : أحببتها أليس كذلك؟

انتبه إليّ في مفاجأة ، ولكنه لم يلبث أن جلس أرضً ا بتلك القاعة المقفرة مرة أخرى في تأوهات العجز : لا أعلم .. ربما ما حدث .. ااا .. اااهٍ .. لا تنس أني أصبحت عجوزً ا خرفً ا لأتذكر ..

أعطيته سيجارة أخرى باسمًا: كأيام المعتقل.

راقب السيجارة في صمت . مرت ثوانٍ ربما حاول فيها أن يجبر عقله على تذكر ما ظن أنه كان جميلً ا بأيام المعتقل بدلً ا مما اعتاد على صفع رأسه من صور الإهانة .

ّ ء

نظر إلي نظرة قصيرة في تردد ثم آخذها مني وهو يقاوم ابتسامته: ألن تشعل؟

- لقد أقلعت..

-ولكني لم أقلع عن حبها..

انتبه إلى قوله فامتعض، بينما ضحكت في طفولة زملاء الدراسة السذج: ها قد قلتها أيها الحرف!

ألقى بالسيجارة في غضب: لعنك الله أيها الشيطان.. لست ااا..

قطع لعناته وزفر هواءً أفرغ صدره . بينما تحركت بالقرب من جلسته وشاركته إياها بالجلوس أرضً ا . رأيت ضوء القمر يفترش القاعة بحزمته الزرقاء التي ظللت رؤوسنا . فعلمت حينها أننا عدنا حقً ا إلى أيام المعتقل قبل أن تفرق بيننا الأيام . مجرد صديقين يجلسان كتفً ا إلى كتف تحت ضوء قمريّ زاحم قضبانه نافذة ضيقة لزنزانة عفنة ، نتبادل أنفاس سيجارة أخفيناها عن الحرس . وأفضنا بما في قلبينا دون تردد أو قلق من الغد ، فربما لا يأتي علينا ونحن أحياء .

بدا عليه أنه شعر كما شعرت فتطوع بالحديث شاردً ا : أحببتها حقً ا يا عزيز .. وتمنيت أن .. أن أضم جسدها بين يدي كما كنت أفعل بفرشتي .. لـ .. ليس في شهوة .. وإنما ...

علقت رأسي بالذكريات أنا الآخر فأكملت : وإنما في شوق إلى الكمال .. كنت أراها نصف ً ا افترق عني منذ الولادة .. وعشت عمري كله أنشد الاكتمال به .. كـ .. كان يبدو كـ .. حكاكٍ مستعر أصابني منذ أن وعيت .. وكأنه يطالبني بالبحث عنها .. « لن أهدأ يا عزيز حتى تلتحم بها ».. مطارحة الغرام ليست شهوة يا فرج .. وإنما عودة الروح الضالة إلى الجسد .. عودة النور إلى التراب ..

نظر إليّ متعجبًا: غريب أن تقول ذلك عن ليلى هانم.. لقد أخبرتني أنها كانت..

- ساقطة! كيف ظننت أني أتحدث عنها؟

-من تقصد إذًا؟

- أقلت أنك قضيت ثلاثة أسابيع مع حبيبة عمرك دون أن تمسّ ها؟ من أقصد أيها العجوز هي من قضيت معها أربعة أشهر دون أن أفعل ..

-وما الذي حدث بعد الأربعة أشهر؟

نظرت إليه وتأملت بسمته الغريبة ، كان يبدو منتشي ً ا من قدرته على استفزازي للبوح بما كتمته ، وربما كان يمزح مع صاحب قديم ، كغريبين تقابلا صدفة وقررا أن تتهدج صدورهما من الضحكات وهم يقصون سر ً ا حكايات غرفة نوم كل منهما . فابتسمت له في ثقل : ما حدث بعدها .. كان حماقة يا صديقي .

على قدر ما لعنت تلك الحماقة ، على قدر ما شكرت لها الوقوع . كنت قد اعتدت على التمتع ببركة بمجرد النظر ، فقط أراقبها أثناء نومها أرضً ا وصدرها يعلو ويهبط في هدوء لم يثرني قط ، بل كان يربت على قلبي بأجنحة السكينة . كانت تبدو طفلً ا بريئً ا في نومها بذلك الفم المنفرج بفتحة ضيقة تتنفس منها هواء الغرفة المكتومة ، ويدها التي تواصل رحلتها على طرف جلبابها لتغطي رجليها العاريتين حتى وإن لم تكن تعي ذلك . فقط كانت تفعل في لا إرادية .

وما أن يأتي الصباح ، وأكون مستغرقً ا في النوم وقد أرهقني السهر بنظري الدائم إليها حتى صياح مؤذن الحارة بأذان الفجر ونباح كلاب العطفة وراءه ، كنت أستيقظ على صوت خطواتها المتلهفة لإعداد الإفطار قبل أن أنهض . غريب هو أكثر ما كان يرسم ابتسامتي في الصباح ، لم يكن صوتها وهي تدندن بأغنية قصيرة امتلأت بالآهات ، ولا طرق رواد القهوة الملاصقة لنافذتنا على لوحات « الدومينو » التي ربما قد تعلموها من الانجليز ، وإنما كان صوت تلك الخطوات . موسيقى طبل كعبها على مؤخرة « الشبشب » المهترئ التي كانت ترتديه وهي تطوف حول نومتي في عملها اليومي .

كنت أضحك كلما تذكرت ذلك .. البكِ .. ابن الباشا .. لا يثيره جسد امرأة ولا عينيها . وإنما صوت « الشبشب »! كنت كما قالت مرة مازحة قبل أن تضرب فمها في خجل من سقوطها بتلك العبارة « بك فقري !».

أما في ذلك اليوم ، كان الأمر مختلفً ا . فتحت عيني على السكوت فرأيتها تجلس بكف أسفل وجنتها في همّ بالغ . اعتدلت لها . فعادت إلى عادتها وغطت بيدها طرف جلبابها على رجليها ، رغم أنهما كانا كذلك بالفعل . ونظرت إليّ في ابتسامة هادئة ..

«نوْم الهنا يا بك»..

كنت أعشق بداية يومي على تلك الجملة ، ولكنها اليوم قالتها بنبرة مختلفة يغلب عليها الحزن : ما بك يا بركة؟

تنهدت في كفاح لرد لسانها عم ّ ا أرادت قوله : اا .. حسن ً ا يا بك .. لن أستطيع أن أخفي الأمر عنك أكثر من ذلك .. أصبحنا على الحديدة !

اعتدلت متعجباً: ماذا؟! هل...

- نعم.. ولا مليم.. كنت أحاول تدبير الأمر منذ أيام ولكن.. لا فائدة..

أحسست بالعجز للمرة الأولى ، فلم أعتد من قبل على الشعور بالحاجة إلى المال مقابل أقل مطالبي وهو إفطار بسيط ، بينما أكملت هي في عتاب غليظ : قلت لك لا حاجة لعيشة البهوات .. فالخلق كلها تتناول الفول على الافطار ، وبعض الغموس في الغداء .. ولا حاجة لنا في العشاء .. ولكن كيف؟ ! جناب البك لابد أن يكون إفطاره القشطة والعسل وذلك العجين الذي أذهب إلى آخر الدنيا يومي ً ا للعثور عليه ! تجل ّ د يا بك ! لقد فاض الكيل !

لم أخف ِ امتعاضي من تجرؤها على مقامي ، كنت ب ِ ك مهما حدث وكرهت أن تعيد على سمعي نبرة ليلى في الصباح ، فاعتدلت غاضب ً ا : منذ متى وأنت ِ تتحدثين معي بتلك اللهجة؟ !

تنهدت ودارت عينها في ندم بأرجاء الغرفة ، بينما قفزت من الفراش الذي لا يستحق ذلك اللقب ، واتجهت لارتداء الجلباب وقد صرت محترف ً ا به ، واتجهت للخروج . وما أن لمحت تحر ّ كي ، انتفضت في فزع : يا إلهي ! إلى أين يا بك؟ !

ء ء ً

آحللت الطاقية من طرحتها المعقودة عليها وآلقيتها بعيدا وفتحت الباب: أخفف عنك حِمل البك المدلل!

تعلقت بقدمي في توسل: لا.. لا تفعل.. لعنك الله يا بركة.. والنبي لم أقصد إغضابك.. فقط أخاف عليك من...

- انهضي يا بركة!

-كلا.. لن أترك الأرض إن رحلت.. ولو بقيت عليها حتى يواريني ترابها..

-قلت انهضي!

نهضت في لهفة وأمسكت بكفي وانهالت به على وجهها: فلتضربني إذا لأتأدب.. اضربني يا بك!

فلتت يدي في قوة وانزعاج ، فقد نجحت في إجباري على ضربها ، وابتعدت عدة خطوات في حنق صامت . بينما تكومت هي بجلستها واهتز جسدها لبكاء محموم . راقبتها والغضب يتسرب من بين أصابعي التي طعنت وجنتها ، وما أن غاب حتى اتجهت إليها محاولً ا المحافظة على اصطناعي الغضب بعد أن انفطر قلبي لدمعها : حسنً ا .. لا عليكِ ..

استمرت في البكاء وهي تلطم على وجهها بضربات ضعيفة مرتخية : نصيبك يا بركة .. تطردين الكل من طريقك .. أنا أعرف نفسي .. لطالما دعت لي أمي .. وكان الجميع يخبرها .. بل هي فال شؤم .. دعوة أمك يا بركة .. أنتِ دعوة أمك التي ردّ ها الحنّ ان ..

هبطت على قدمي واحتضنتها دون حديث ، فارتمت على صدري تكمل بكاءها وقد ازداد . فما كان لي من مدخل إلى قلبها إلا بعبارة تافهة : سأثق برأيك بما يخص الفول .. ولكن إن آلمتني معدتي فسوف ...

انتفضت في لهفة أفزعتني : لا والله ! سأعدّ ه لك بالليمون والكمون .. وأراهن بهذا (وأمسكت خصلة من شعرها) أن تلحس أصابعك من طيب طعمه .

نظرت إليّ في ابتسامة منفرجة وهي تمسح دموعها في سرعة تعجبت لها . كانت طيبة القلب إلى حد لم أعهده من بني آدم وربما بنات حوّ اء . فأمسكت بوجهها في دهشة ، وسألتها ما سألت ليلى سابقً ا : مم خلقتِ يا امرأة؟

«من تراب قدميك يا جناب البك»..

أعدت الفول كما وعدت ، ولحست أصابعي كما توقعَ ت . وأمضينا النهار ككل يوم ، أشارك رواد القهوة جلستهم من خلال النافذة وتلك الأريكة التي استقرت تحتها ، أبادلهم الضحكات بالحديث عن أفلام الموسم بدار سينما الهلال بالسيدة زينب ، وكيف سيجمعون ثمن تذكرتها قريبً ا للذهاب والتمتع بحسناوات الإنجليز والأمريكان . بينما تقضي بركة يومها في إعداد طعام الغداء . قبل أن يهل الليل ويرقد كل منا بنومته دون أن يشغل باله بهموم الغد .

لكن اليوم كان مختلفً ا ، ولم يك ذلك الاختلاف فقد بسبب طبق الفول أو « صينية الدمعة » كما أسمتها بركة ، ولكن تأخرت في النهار على غير العادة ورجعت بقليل من أطعمة طبختها ،

ولم تكن تستحق ذلك التأخر . لم أسألها عن السبب ولم تتطوع بالإجابة . ولكن طرقً ا عنيفً ا على باب الغرفة في جوف الليل بدا ، وكأنه جواب مثالي لما كان يجوب في ذهني .

انتفضت من مراقبتي اليومية لنومتها ، بينما اعتدلت هي في هدوء . لم يبد عليها الانزعاج من الطرق الغريب وكأنها كانت تتوقعه . بل اعتمدت بيديها على الأرض وزحفت للخلف ، وهي تراقبني في رهبة ودمعة قريبة .

تحرّ كت إلى الباب في ريبة . تقاطعت نظراتنا لمرة أخيرة ، أسألها في إنكار لما أظنه ، وتشيح بوجهها في تأكيد لجرمها . صرعني الطرق المُ لِ ّ ح مرة أخرى وقد تأخرت عليه . ففتحت الباب مستسلمً ا .

كنت أظن أنها فضحت اختبائي، وقد أرسلت ليلى من كلّفته بقتلي، ولكن...

«لم تأخرت؟! القتلة لا يطرقون الباب أيها الأبله؟!».

كان قاسم باشا بنفسه . دخل في هيبته دون استئذان وعينه تجوب الغرفة باشمئزاز بالغ ، أخرج منديله الأبيض من جيب سترته السوداء وسد به أنفه من الرائحة التي اعتدت عليها . وضرب بعصاه جسد بركة بعيدً ا عن خطواته فالتصقت بالركن خلفها . وجلس في ضيق على أريكة النافذة .

- أتظن أن اختباءك بين هؤلاء الصعاليك سيُنجي رقبتك؟

-كيف علمت بمكاني؟

-أنا أبوك شئت أم أبيت.. ربما كان عليك أن تلجأ إليّ قبل أن تتصرف من رأسك..

وقفت أمامه في عزة وحنق وعيني على بركة: كيف علمت مكاني يا باشا؟

نظر إليّ معلمًّا: ابن الباشا لا يصعب العثور عليه يا جناب البِك..

هممت أن أتهم بركة فقاطعني : نعم ! هي من أخبرتني بمكانك ، فعلت الصواب .. علمت أنك لن تصمد ليوم آخر حتى وإن فعلت طوال الشهور الماضية .. يبدو أن الجميع يفهم حقيقتك إلا أنت !

صرخت في بكاء: وغلاوة الحسين ما أردت إلا الخير.. أنا معتادة على تلك العيشة.. ولكنك...

قاطعها أبي في غلظة: كفى نواحًا يا فتاة! واتركينا!

نهضت مهرولة لإطاعة الأمر فمرت بجواري أملً ا في الوصول إلى الباب ، لولا أن قبضت على ذراعها وأنا أحدّ ق بعيني الباشا : ماذا تريد معاليك؟

لم تقاوم جذبي لها ، بل استقرت في مكانها خوفً ا من التحرك للأمام أو الخلف ، فبقينا متجاورين كحبيبين حتى وإن كان وجه كل منا في اتجاه ، كحبيبين حتى وإن كان قبضي على ذراعها لم يكن لشوق وإنما لغضب ..

راقب الباشا إصراري فتنهد ، وأدار عصاته على محورها كما اعتاد أن يفعل عندما يتحدث بلا منطق : سأعد لك الأمر لتعود غدا إلى باريس حتى تهدأ تلك العاصفة ..

ارتعشت ذراع بركة بقبضتي وسمعت بكاءها المكتوم لفراقي : وما الحاجة إلى السفر؟ ألا تستطيع حماية ابنك من امرأة حمقاء؟

- لا أستطيع..

-آه.. وأنا الذي عاتبت نفسي على اندثار الرجولة..

- اكتم فاك أيها الأبله؟ ربما تكون الوحيد في مصر المحروسة الذي لا يعلم حقً ا من هي ليلى الحداد .. إن صلاتها بالقصر قد ...

-قد ترسلنا أجمعين إلى الهلاك..

-أصبت! (استفزني مؤكدًا) للمرة الأولى! اسمع يا ولد.. بلا نقاش.. ستعود غدا إلى باريس و...

-لن أفعل؟

-لا تتصنع الشجاعة..

-لا أفعل..

-عنيد كأمك!

أثارت سيرة أمي على لسانه حنقي ، حتى وإن لم يهنها صراحةً ، ولكن يكفي أن يذكر قاسم باشا ذلك اللفظ ويعد الأمر من بعده إهانة لجأة . قبضت رغماً عني في غيظ على ذراع بركة فتأوهت وسدت آهات ألمها بكفها . فأفلتها رغماً عني وواجهت الباشا : شرّفت معالي الباشا ..

انتفض من مكانه بسرعة لا تناسب عظام جسده الواهنة ، فكاد أن يسقط ولكن .. لم أتحرك لإسناده هذه المرة ، فاستند على عصاه مترنحاً والدم يثير وجهه إحمراراً : أنت ابني ! ولن أسمح أن تضيع مني أنت الآخر ! هل فهمت؟

- من ضاع قبلي؟ ندُرَ من يبكي من القتلة على دماء ضحاياهم!

-اصمت! فأنت لا تعلم!

-بل أعلم.. خانتك أمي، وأنجبت من غيرك، فقتلت ولدها.. أخي!! أليس هذا هو سرك اللعين؟!

- كلا!

-أحزنتها حتى انتحرت! أليس كذلك؟!

صرخ وقد انفجر صدره: كلا!

هجمت عليه صارخًا: ما الذي حدث إذا؟! تحدث!

ضج لسانه بصياح قطّع أوتاره: بل كان ابني!

ارتد رأسي للخلف في صدمة ، بينما دمعت عينه وسقط على الأريكة في إرهاق وشرد في حزن أخفى هيبته وربما أشاب ما تبقى من سواد رأسه . انقطع الصوت عنا أجمعين كراديو خرب صاح بوجوهنا بحقيقة أن لا أهمية له بعد الآن ، فلم يعد هناك من أخبار سرية ينقلها إلينا فنفزع ، ولا أغنيات تطربنا فنبتهج ، ولا قرآن يُ ثلج صدورنا فنقفز للصلاة طلبً ا لغفران على ذنب نسينا جحيم عقابه .

لم يكن إلا صوت الرياح التي تسللت من فتحات الشيش المحطمة .. وأنفاسي المحترقة .. وصوت عُ قَ ل أصابع أبي التي كانت تهتز ارتعاشً ا .

بدا الوقت الذي مر بالسكون ، كزمن كون جديد خلقه الله منذ آدم وحتى انتحار ملاك الموت . بدا كملايين السنين . وما أفاد ذلك الوقت إلا بتحجر عنق أبي انحناءً للأسفل ، لا يقوى على النظر إلى الأعلى ، أو ربما يراقب حبات التراب على الأريكة النافذية التي بدأت في سرد أحداث شبيهتها من تراب الابن الذي دفنه بيده .

نطق أخيرًا في ضعف : كان ظني كله خاطئًا يا ولدي .. لم تخنّي أمك حتى ولو اجتمع الكل على ذلك الظن .. اا .. ااا .. كـ .. كنت مريضًا بحبها .. المجنون كان أنا يا عزيز وليس أمك .. كـ .. كان الجميع يتودد إليها .. ولم لا؟ ! فقد كانت ملاكًا .. قتلتني الغيرة ، وصار هوسي أن ينال غيري ما تمتعْتُ به شغلًا أعتم نهاري وأفقر ليلي .. ظ .. ظننت أنها خانتني .. خلب الجنون عقلي .. وآمنت أن أخاك لم يكن من صلبي .. أحمق ! تحريّت الأمر .. وساقت إليّ الأقدار ما ألهب ظني وأنضجه حتى صار حقيقة .. إنها الأقدار يا ولدي ، وكأنها أرادت أن تلعنني حتى الموت ، وكأنها كانت تعاقبني على مجرد الشك في امرأة كزوجتي .. حبيبتي .. وما عقاب الظن الخطأ إلا أن يكون صحيحًا .. أقنعتني فصدقتها .. وواجهت أمك .. فأنكرت صدقًا .. ولكن ، لا تُخمد النار بكلمات الملائكة .. ظللت على عنادي .. وفعلت ما ظننته ثأرًا لرجولتي .. قتلت ابني الصغير .. كان من صلبي ودمي .. وقتلته ! كتمت أنفاسه بكفي هذا ! نثرت التراب فوق وجهه بتلك الأصابع ! قتلته .. ثم قتلتها حزنًا عليه .. ربـ .. ربما كان على زوجتك أن تقرر قتلي أنا وليس أنت .. ولكن .. لمَ تكتب لي الأقدار ما يرحمني من بؤسي؟ ! كلا .. تجبرني على قتل ابني .. وتجبرني على مشاهدة ابني الثاني ، وهو يموت أمام عيني دون أن أحرّك ساكنًا .. لن أسمح بذلك .. ضاع مني أحدكما .. ولن يضيع مني الآخر !

لم أشعر إلا وكنت أمامه أرضًا . خارت قدمي والتصقت بتراب الأرض وكأنها كانت تبحث تحت طياتها على ما تبقى من جسد أمي . لم أصدق ما سمعت ، كنت أعلم طوال الوقت أنها لم تكن خائنة ، أذكر ضحكتها وأصابعها بين شعيرات رأسي قبل النوم ، وصوتها ! كنت أذكر صوتها وهي تغني لي في حنان اشتقت إليه ولم أنله مرة أخرى . كنت أذكر كل شيء وأقسم أنها لم تخن . وبالرغم من ذلك ، لم أدافع عنها أمام من قذفوها بالباطل ، بل كنت أخجل وأطرق رأسي من العار ، وكأني أشارك اللاعنين لاسمها لعناتهم . ربما قتلتها مرة يا أبي . ولكن .. يبدو أني قتلتها آلاف المرات من بعدك .

ظللت وأبي على تلك الحال لدقائق عارية من أي صوت . فقط يجلس محني الظهر . وفقط أجلس منكس الرأس . وما قطع الصمت إلا تنهيدة بعيدة خرجت من بركة وأتبعتها بجملة أفاقتني

وأبي من غيبوبة الحزن المزمنة : هوّ ن على عبادك يارب الغلابة .

رفع أبي رأسه ببطء متعجبً ا ، بينما اعتدلت له بشهيق أعاد الحياة إلى عيني فنظرت إليه .
مسح على وجهي في هدوء وقال : لن يمسّ أحدٌ ابني يا عزيز .

أجبته في هدوء وكأن غفرانًا استقر بين عينينا: لن أترك المحروسة يا أبي.

- لماذا؟

-لن ااا.. ربما لن تِصدق.. ولكن.. أشعر أني وجدت نفسي أخيرًا بهذا المكان.. بتلك الحياة..

-أي حياة.. حياة الأموات فقرًا؟!

-لا أراها كذلك..

- أنت ب ِ ك يا عزيز .. ويومً ا ما ستصير باشا .. وحاملو الألقاب يا ولدي .. يولدون بالقصور ويموتون بها .. ولا طاقة لهم بأقل من ذلك .. تلك هي س ُ نّ ة الأقدار ..

- بل ربما كان هذا هو سبب شقائي .. لطالما شعرت بالغربة دون سبب .. لطالما شعرت أني لا أنتمي لقصرك ولا لقصر ليلى ولا حتى لذلك المكتب الفاخر .. ربما .. ربما .. ربما كان مقدرً ا

لي أن أكون شخصً ا آخر .. أكثر بساطة .. ربما ..

-ستشقى يا عزيز..

-لقد استنفدت نصيبي من الشقاء سابقًا يا أبي.. لن يصيبني أفظع مما حدث..

راقبني في محاولة لقراءة صدق أقوالي وفصلها عما ظن أنها غيبوبة افتتان السائحين ببيئة جديدة فحسب ، ولكنه لم يلبث أن تنهد وقد لمس قناعتي بما قلت ، فأومأ في موافقة : حسنً ا إذً ا .. ليس لها إلا حل واحد .. أن تموت قبل تُ قتَ ل !

صاحت بركة واندفعت تجاهه في غضب : لاااا .. ورب مُ حمَّ د لن تخرج من الحارة حيً ا إن فعلت ! لقد جئت إليك لإنقاذه لا لقتله ! صرخة واحدة وأجمع عليك رجال الحارة ينهشون عضمك بأسنانهم ! وأنا قبلهم !

رمقها بنظرة هادئة وعاد إليّ ، بينما أشرت لها بالصمت فأكمل : سأقتلك كما قتلت أخاك . ولكنها هذه المرة لأحييك .. لا لأميتك .. لديّ من يستطيع أن يعد لك أوراقً ا مزورة تؤكد وفاتك يوم اختفائك .. أكان في الثامن والعشرين من يناير؟ !

أومأت له بالموافقة فأكمل: حسنًا.. ولكن علينا أن نعثر لك على سبب اااا...

قاطعته بركة في عفوية وكأنها وافقت ضمنيً ا على رأيه وتناست غضبها السابق في لحظة بعد أن فهمت مقصده : حادثة .. بعد الشر يا بك .. ولكن حادثة سيارة .. وأنا أعرف صول يمكنه أن يحرر محضرً ا قديمً ا بذلك .

عاد الراديو الخرب ليتسيد الغرفة بصمته . والتفتّ وأبي في بطء إليها وعلامات التعجب تفترش وجهينا . راقبتنا في توتر ، وما لبثت أن ضمت كفيها إلى صدرها في احترام كمن تصلي ، ونكّست رأسها من فوره . ابتسم أبي ورمقني في حيرة : من أين جئت بها؟

أغمضت عيني وارتعشت وجنتي لابتسامة ناسبت سيل الأحداث الذي بدأ بالأميرة جلنار طوسون وانتهى ببائعة الجرجير .. « بركة ».

«ااه.. لن تصدق»..

لم أتكبّ د عناء إخباره بما لم يكن مصدقً ا . بل تركته وتركني ، وعاد إلى دنياه التي اعتاد عليها ، وانصرفت إلى دنياي التي تمنيت أن تعتاد هي على بقائي كدخيل بين جدرانها . تعهّ د بتزييف موتي ، وفعل . وتعهّ دت أن يكون موتي ميلادً ا جديدً ا لعزيز آخر ، ولكن .. هيهات أن أفعل .

حاول أن يعرض عليّ مالً ا ربما يُ عينني على ما اخترت من حياة الفقراء ، ولكن رفضت في عزة كانت جديدة على عزيز بك قاسم . لم أفهم من أين انتفضت مشاعل تلك الكرامة بنيران الرفض النبيل ، ولكنها بدت مناسبة لتلك الرغبة التي أفصحت عنها قبلً ا . « العيش كالبسطاء كما أشتهي .. فربما يعثر عزيز على عزيز بينهم ». ولا أمل في إتمام ذلك إلا بالتخلي عن كل ما ارتبط به ذلك البِ ك السابق ، حتى وإن كانت بضعة جنيهات من أبيه .

مضت الايام ، وحاولت استنساخ حياة « الغلابة »، فالتصقت بطعامهم ، وأصبح الفول وجبتي المفضلة ، ورضخت لمطلب بركة التي لم تجرؤ على الإفصاح به إلا بنظرات تعلمت قراءتها بأن أبحث عن عمل ، فيدي وإن كانت بطّالة فلا تستحق حقًا أن توصف بـ « النجسة ». فرافقتها إلى الأسطى صابر بحي النحاسين ، وقدّمتني إليه كصنايعي شاب ينشد العمل تحت إمرته ، يطيعه قبل أن يأمر ، ويأخذ منه الصنعة دون أن يتذمّر .

وما أن رأيت الأسطى صابر حتى تراجعت عن قراري بالتعمق في تلك العيشة البسيطة . حيث كان دائم العبوس ذا هيبة مخيفة رغم قصر قامته ، أصلع الرأس ذا حاجبين غليظين كثيفيّ الشعر حتى أنهما كانا يوشكان على تظليل عينيه السوداوين المتسعتين على الدوام ، ولحية بيضاء مترامية الأبعاد بدءًا من عنقه المتجعد لسنواته السبعين وحتى تجويف عينيه في عشوائية مقززة . حتى ظننت أن صلعة رأسه ما كانت إلا لتفرق ما أُخِذ منها على جوانب وجهه المشعر .

خرج بتلك الهيئة من باب ذي سقف دائري مظلم بغرفة ضيقة بالحي المذكور ، نفض جلابيته القصيرة في حنق وأجاب نداء بركة : من يُنادي؟

أجابته بركة باسمة وهي تقبض على يدي لكيلا أهرب : مراسيل ربنا يا أسطى .. أرسلنا إليك من أجل لقمة العيش ..

لم يهتم بنا ، بل سحب طستًا نحاسيًا مقلوبًا وجلس عليه عابسًا ، وأمسك بصينية نحاسية ذات نقوش غير مكتملة ، وبدأ بمسمار رفيع ومطرقة غليظة بالدق عليها : لا يصلح !

تعجبت من إجابته فهو لم ينظر إليّ من الأساس، فقاطعت ضجيج طرقه: ولماذا تظن ذلك وانت حتى لم...

توقف عن الطرق ونظر إليّ حانقً ا : كف أسطى النحاس لا تتعلق به النساء يا بلدينا .. يبدو أنه ناعم أكثر من ذلك ..

أطاحت بركة بيدي في سرعة فالتفت لها مستنكرً ا فعلتها ، ولكنها لم تبال واقتربت منه : بل هو رجل ولا كل الرجال .. يتعلم سريعً ا ويطيع الأمر .. وما كان تعلّ قي به إلا أملً ا في أن تقبله .. (ثم همست له) نحن على فيض الكريم يا أسطى .. والخلق كلها تحمد لك جدعنتك ..

تنهد بأنفاس ساخنة ونهض إلى الداخل دون رد ، فعادت إليّ بركة في ابتسامة دعم هادئة : لا تقلق يا بك .. ربك لا ينسى ...

صاح من الداخل بقوة انتفضنا لها معًا: ماذا تنتظر يا «ولا».. اترك الحريم واتبعني.. الله؟!

تهللت أسارير بركة وفغرت فاها لعدة زغاريد متعاقبة انتبه لها المارة ، فبدأت إحدى النساء في مشاركتها الزغاريد ، ولم يمنع أخرى ثقل وزن طفلها على كتفها من مشاركتهما ، وتحول الحي إلى زفاف مصغر ، وما أن انتهين حتى ربتت إحداهن على كتف بركة وهي تستعد لزغرودة أخرى : وما أمارة الفرْ ح يا أختي؟ زواج؟

كن يزغردن دون أن يعلمن السبب، فابتسمت بركة وحضنت المرأة: بل فرحة رضا ربنا يا كريمة..

ظننت أنها ستنهرها على زغرودتها التي جاءت بلا سبب واضح ، ولكن على العكس عادت المرأة وزغردت ورفعت يدها إلى السماء وصاحت « آمين ». بينما ظللت واقفً ا أمامهن كالأبله ،

وما استفقت إلا على صوت الأسطى صابر وهو يهمس بأذني : ألم أقل لك ، اترك الحريم .. لن يفيدك البقاء إلى جوارهن سوى مضيعة للوقت .. سيزغردن حتى الصباح ..

ابتسمت له واستجبت لدفعة كفه الغليظة إلى الداخل حتى كدت أن أسقط على صوانيه النحاسية فأزيده من الغضب غضبً ا .

ظننت أن الأمر سيكون سهلً ا ، ما المشكلة في النقش على بعض القطع النحاسية؟ مثله كمثل أي فن ، سيأخذ بعض الوقت لتعلّ مه ، فتخيلت نفسي أطرق على الأواني كأقصى جهد مستطاع ، لولا أن أجلستني يد الأسطى على طست نحاسي أصغر كطسته السابق وأمرني : ولّ ع !

نظرت إليه متعجباً: ماذا تقصد؟

زفر في غضب حاول كتمانه ومال على جسدي وضرب شيئً ا لم أره في الظلام ، وفجأة انفجرت كتلة من النار في وجهي ما لبث أن أهدأ شعلتها ، كانت باجورً ا بهيئة غريبة وصوت يصم الآذان ولكن صوت صابر كان أقوى من أن يحجبه ضجيج النيران : عم فؤاد الذي يسكن جوار سبيل محمد علي سيفتتح عربة فول .. والطلبية : قِ درة .. ومغرفة .. وعدة أطباق ..

- وهل سأصنع القِدرة؟

- كلا بالطبع .. بل يكفيك الأطباق الصغيرة .. والقِ درة ستكون من نصيبي .. إلى جوارك عدة صفائح .. استخدم الولعة حتى تُ ثني أطرافها لأطباق عميقة .. هل فهمت؟

كنت ب ِ ك درس في أعظم عواصم العالم زخر ً ا بالعلم ، لكني شعرت لأول مرة بجهل أغلق عقلي ، فنظرت له في بلاهة لم يهتم بها ، وعاد إلى مجلسه دون حتى أن ينفذ وصية بركة بتعليمي .

انتصف النهار وأنا منهمك في عملي ، شعرت أني تعلمت سريع ً ا وأن الأسطى العابس سيتنازل لي عن ورشته فرح ً ا . تناسيت الزمن والساعات ، وغفلت عن كوني ب ِ ك قديم ً ا وشعرت بمتعة غريبة وأنا أصنع من شيء صلد باهت ، شيئ ً ا آخر جميل ً ا وذا قيمة . شعرت بقيمة الإبداع .

استفقت من هيستيرية النشوة على صوت الأسطى وهو ينطق في استنكار : ما جاء بك مرة أخرى يا ست .. اتركيه لحاله الله لا يسيئك ..

كانت بركة ، فك ّ رت أن أنهض لها لولا خوفي من الأسطى ، فاسترقت السمع من مسافة لم تكن بعيدة ، وسمعتها وهي تسأله : جئت فقط لاطمئن .. هل ااا ..

قاطعها بغرابة تعجبت لها واقترب منها هامس ً ا وقد تعم ّ د ألا أسمع : عادة ً تأتي النساء لتقديم « لقمة » لأزواجهن .. ولكنك لم تفعلي ..

ارتبكت وفركت كفيها في تهرّب: الـ.. الـ.. الطعام على النار و...

نهض إليها فحجب بجسده الرؤية: بل لا تجدين ببيتك ما يسد جوعكما أليس كذلك؟

انتفضت من مكاني خوف ً ا من إهانته لها ، ولكن قبل أن أصل إلى الباب ذي السقف المستدير ، حتى توقفت على فعله الغريب . مد يده في جيب جلبابه ودفعها إليها سر ّ ا : يومية

ثلاثة أيام .. اطبخي له شيئً ا قبل أن يعود .. يبدو عليه أنه ابن ناس وطيب القلب ..

تنهدت من فعلته بينما ارتمت بركة على يده لتقبلها فسحبها متمتمً ا بما لم أسمع ، ودمعت : رزقك الله الجنة يا اسطى ..

سكت وأطرق برأسه في حزن غريب وانبسط وجهه عن عبوسه وحدّ ثها في لطف وخجل : اا .. فل .. فلتدعي لي في الفجر لو شئتِ .. والآن .. ادخلي للاطمئنان عليه .. فربما لمح وجودك ويتعجب حينها من سبب مجيئك .. واخفي النقود حتى لا يشعر بالانكسار أمامي .. لا يكسر الجدع إلا حسنة القرش ..

جمعت أطباقي وخرجت لهما مسرعً ا متجاوزً ا ما رأيت وسمعت ، ولأتباهى بما صنعت لأثبت له أني لن أكون غير مستحق لماله ، وحافظت على ترفّ ع الباكوات في نبرتي : بركة .. ما جاء بك؟ حسنً ا .. خُ ذ يا اسطى اثنى عشر طبقً ا ..

راقب الأسطى تحفتي الفنية ، بينما نظرت إليّ بركة في خجل وضربت صدرها ، فاحمر وجهه وخاطبها متجاهلا وجودي : ولا تنسي أن تدعي عليه في الفجر أيضً ا !

علمت لاحقً ا أن ما صنعت لم يكن إلا صفائح ملتوية لا تصلح إلا لتلال من القمامة . ضحكت بركة بينما زجرني صابر إلى الداخل ، فتبعته صاغرً ا ، بينما لوّ حت لي بركة في سعادة بهيئتي الجديدة وإن كانت مهينة ومرهقة وانطلقت في سعادة إلى غرفتنا .

اعترفت لنفسي بعدها بأيام أن ما مررت به كان أفضل ما حدث بحياتي . لم أغفل متعة كسب المال من التعب ، ولا من العودة إلى الغرفة الصغيرة وبركة في انتظاري بغداءٍ اعتدت على الاشتياق لرائحته ، ولاسيما نومة الإرهاق التي أعادت إلى الفراش البالي عظمته التي لم أكن أدركها . ولم يكن ينقص هذا كله سوى التحام لَ يلِ ي بجسد من شعرت أنها زوجتي منذ زمن بعيد .

مضى شهر حتى تحولت بين الجميع وأمام نفسي إلى الأسطى عزيز راضي ، وصادقت جيران القهوة من نافذة الغرفة ، الشيخ عطية الشاب الأزهري ، و « كوارشي » صاحب ورشة العجل بجوار مدرسة الكمالية ، فأصبحنا كأصدقاء قدامى يعتمدون على الشاي الذي تعده لنا بركة بدلً ا من شاي القهوة ولا يدفعون للقهوجي سوى ثمن جلستهم على كراسيه رغم غضبه . صادقتهما وبدأت مشاركتهما جلساتهما من الداخل بقصصي عن اوروبا ونسائها ومقاهيها ، واحترفت الكذب عن مصدر معلوماتي بأني كنت أعمل لدى بـ ِ ك قديمً ا قص عليّ كل ما رأى قبل أن يموت في حادث سيارة .

وبالرغم من ذلك ، لم أكف يومً ا عن سؤال بركة عن جلنار وتفاصيل ما دار بينهما في الأسبوعين اللذين جمعاهما في مكان واحد ، ولكنها لم تكف أيضً ا عن التهرّ ب ، حتى جاء يوم شعرت بغرابته منذ نسيم الصباح .

عدت من الورشة في ميعادي اليومي ، وعلى غير العادة وجدت النافذة مغلقة وأنا أدلف من رأس الحارة ، تعجبت وتسارعت خطواتي تدريجيً ا دون سبب . طرقت الباب كما أفعل حتى تحتشم بركة قبل دخولي ، ولكن لم أسمع إجابة ، وعندها علمت سبب تسارع خطواتي ورسالة نسيم الصباح الغريبة .

فتحت الباب بقوة فصرعت على إناء كبير ملقى أرضً ا والمياه تغرق الأرض ، تقدمت خطوة فوجدت بركة تجلس أرضً ا في دموع صامتة ، تستند على الجدار خلفها ورجلاها ممدتان أمامها .

هرعت إليها: بركة!

وما أن رأتني حتى مدت ذراعيها في الهواء كطفل يطلب من والده حمله وعلمت أنها لا تتمكن من النهوض . ارتميت عليها فزعً ا فانخرطت في بكاء مؤلم : ماذا حدث؟

تقطعت كلماتها من فرط البكاء : كـ .. كنت أود أن .. لقد أردت .. أن .. أخبرتني أنك شممت رائحة الكوارع لدى الجيران .. فأردت أن أعدها لك .. فسقط ماء السليق المغلي على رجليّ ..

كانت رجلاها مغطاة كالعادة بجلبابها الوحيد . مددت يدي في تحفظ لأرفع ذيل ردائها متفحصً ا ما قالت . ولكنها انتفضت وأمسكت يدي في خجل لحظي وكأنها عادة لم تتمكن من التوقف عنها . فربت على يدها مطمئنا ، فاستسلمت تدريجيً ا لأصابعي ورفعت الغطاء .

كانت رجلاها محترقة ببروز جلدي أحمر ، حاولت لمسه فصرخت وقضمت يدها بأسنانها حتى لا تخرج الصرخة للمارة في الحارة . فانحنيت لحملها : هيا بنا !

امتنعت في ألم: إلى أين يا بك؟

وضعت ذراعها على كتفي واستعددت لحملها: إلى الطبيب لابد أن...

أبعدتني عنها في هيستيرية: لا.. لا.. إلا الحكيم.. لن أفعل.. حتى وإن مت!

أمسكت بها رغمً ا عنها فضربتني بقوة أجلستني إلى جوارها . نظرت إليها في حيرة ، فبكت من فعلتها ومن شيء آخر : يا بك .. أنت لا تعلم شيئً ا ..

سكتّ في حنق . فتنهدت ومسحت عينها من البكاء ثم اعتدلت في ألم ورجلاها على حالتهما : حسنً ا .. آن الأوان .. سأحل ستر الستار وأخبرك .. أنا .. أنا كنت .. كنت أعمل ببيت

دعارة !

أصاب وجهي الجمود ، لم أحزن ولا أصدم ولا أغضب ، فقط في جمود ، فأكملت وقد انقسم عنقها أرضً ا في عار : وإن ذهبت إلى الحكيم سيرى ختم الحوض المرصود على فخذي ، والناس تتحدث يا بك . في ساعات .. ستعلم الحارة كلها أن زوجة الأسطى عزيز .. كانت ...

سألتها رغمًا عني في ضيق كاد أن يفجر صدري: ساقطة؟

أومأت بعنقها المنكس وغرق صدرها بدموع لم تتوقف : أحببتك يا بك .. ها قد قلتها .. و .. منذ أن رأيتك أمام نصبة الحضار .. ولكن .. كنت حُ لما بعيد المنال .. حـ .. حتى ساقني النصيب إليك .. تعلّ قت بك أكثر .. وتمنيتك كما رأيت عينيك وهي تتمناني ولكن ... كيف أدنسك بذنبي .. وأنت البك الكبير .. لا يستحق البك أن تحبه ساقطة ..

عزفت عنها وجلست إلى جوارها كتفًا إلى كتف والحزن يجلد عظمات صدري: هل كنتِ تنفقين عليّ من...

شهقت في فزع وانتفضت لتفعل ما اعتادت أن تفعل بكتم فاهي بأصابعها ، ولكنها صرخت متأوهة من ألم رجليها فعادت باكية : لا ! وغلاوة الحسين توقفت عن الأمر قبل أن أراك .. قبل حتى أن أرى الست جلنار ..

نظرت إليها وقد غامت رؤيتها لدموع قفزت إلى عيني: لماذا إذا؟!

غطت رجليها بحذر وألم : النصيب يا بك .. أنا بنت ناس .. غلابة ولكن أولاد أصول .. مات أبي قبل أن أراه .. وربتني أمي حتى صرت شابة ، عملت معها على نصبة الخضار .. حتى مرضت .. وفى يوم اشتد مرضها فهرعت بها إلى أقرب « اسبتالية ».. الحوض المرصود .. ماتت قبل أن يراها الحكيم .. حاولت الحصول على جثتها ولكن تاهت بين غرف « الاسبتالية ».. لم أتركها .. وبقيت على الأرض لأيام أتوسل للجميع مساعدتي في العثور على جثة أمي ولكن دون فائدة .. رأتني حكيمة .. وعطفت عليّ .. واستغلّت ضعفي وضياع ما تبقى من مال أمي .. وضياع فرشة الخضار بأمر من شيخ الحارة الذي دفعت له امرأة أخرى لتأخذ مكاننا ، أقنعتني الحكيمة أنها ستوفر لي عملاً .. ولكن عليها أن تكشف عليّ أولاً .. صدقتها رغم غرابة ذلك الكشف .. حتى باغتتني بختم على فخذي .. وواجهتني في وقاحة .. بأني الآن مختومة بختم الساقطات .. ولن يتزوجني رجل مادام رآه قبل أن يقترب مني .. وليس لي إلا طريق واحد .. العمل لدى معارفها من أصحاب بيوت الدعارة .. رفضت .. ولكن اختنقت معدتي من الجوع ووهن جسدي .. ولم أجد بدًا من ذلك الطريق .. ولما بهت الختم .. وقبل ميعاد الكشف الجديد بالحوض المرصود .. وقبل أن تختمني الحكيمة بختم آخر بأني صالحة للمعاشرة بلا أمراض .. حاولت الهرب .. فغضب ضاحي اللعين صاحب البيت .. فقد كان الرجال يطلبونني بالاسم .. فاتفق مع الحكيمة .. أحرقها الله في جهنم .. وفعلا ما لم يفعله أحد ببنت هوى قبلا .. كوى لحمي بالختم نارًا حتى أصبح دائمًا .. فلم يعد لي من مخرج .. وطاوعته .. ولكن .. لم يهن عليّ حزن الحنّان مني وأردت التوبة .. فعهدت إلى الحلاوة والشطة .. آكل منهما كل يوم .. حتى اشتدت عليّ الحمّى .. وكلما شفيت منها .. آكل مرة أخرى .. فأمرض .. فيأس مني ضاحي .. وطردني ..

رجت الغرفة ضحكات عطية وكوارشي من خارج النافذة المغلقة ، فشعرت وكأن الأقدار هي التي تصهل بالضحكات على حالي . المرأة الوحيدة التي تمنيتها ولم أنل منها قبلة ساقطة الجسد ، والمرأة التي عاشرتها كرهًا كانت ساقطة الروح . سمعتها وكأنها تهمس « ليس لك من هناء يا عزيز .. سواء كنت بِك .. أو حتى أسطى تافه ».

طال صمتي فالتفتت إليّ بركة : أنا أحبك يا جناب البك .. ولكن لك السمع والطاعة .. إن أردت رحيلي فسأفعل من باكر .. فقط ارحمني حتى أتمكن من الوقوف على قدمي ...

قاطعتها بنهوض مفاجئ وقد استنارت روحي ، وضربت درفة النافذة بقوة أفزعتها فغطت رجليها ، بينما انتفض عطية على صفعة الدرفة بأذنه : أعوذ بكلمات الله ! ما بك يا أسطى؟

نادت عليّ في ضعف وهي تزحف بعيدً ا عن مرمى أبصار عطية وكوارشي بينما راقبتها في جمود : استرني يا بك .. سأرحل .. ورب الغلابة سأرحل ..

نظرت إلى الشيخ عطية في جمود غاضب وهمست بأذنه بشيء فارتد جسده للخلف واقفً ا : ماذا؟ ! ألم تكن زوجتك من الأساس؟ ! أعوذ بالله !

سمعت لطماتها على وجهها: سيقتلوننا يا بك..

نظرت إليه في جرأة لم أختبرها سابقً ا واستمر عبوسي فلم يهتز لي طرف من اتهامه : ربك ستار يا شيخ .. أليس كذلك؟

اقترب مني في ضيق وجلس متنهدا : ونعم بالله ولكن .. أستغفر الله العظيم .. وأنا كنت أجلس خلف النافذة طوال ذلك الوقت لأحرسكما؟ لطختني بالعار يا ابن الكلب !

جذبته من ملابسه بقوة تعجب لها وخاطبته في غلظة ارتعد لها رغم هدوء صوتي: الآن يا شيخ.. هل تفعلها؟!

أزاح يدي من على ملابسه في عنف ، وضبط استقامة عمته وزفر في موافقة : من ستر مؤمنً ا في الدنيا يا اسطى .. ثم صاح على كوارشى !!

زحفت بركة أسفل الفراش وهي تصرخ في هلع: على من ينادي؟! يا بك أقبّل قدميك.. يا إلهي.. يا..

جاء صاحباه فأجلسهما: اشهدا.. دون أسئلة.. سترنا الله جميعا يوم القيامة..

مط كل منهما شفتيه في تعجب مما يحدث، حتى علا الشيخ عطية بصوته وهو ينظر أرضا: أتسمعين صوتي يا ست؟!

خرج صوتها متقطعًا: بالله عليك يا شيخ.. اا..

قاطعها : إذً ا تسمعين .. حسنً ا قولي ورائي .. « زوجتك نفسي على كتاب الله وسنة رسوله المصطفى وعلى مذهب الامام أبي حنيفة النعمان وعلى ....».

برز رأسها من أسفل الفراش في صدمة وخرج صوتها متقطعا: كيف قلت؟

زفر في ضيق : يا ست ورب الكعبة إن لم تقصري لأعودن إلى البلد الآن أرعى البهائم بدلاً من المحروسة وما رأيته فيها .. أوشك الكيل أن يفيض ..

نظرت إليّ بركة في غير تصديق وقد عادت أنهار الدموع تشق طريقها بين وجنتيها الحمراوين ، ولكني لم أنظر إليها ، فأكمل عطية : وعلى الصداق المسمى بيننا .. عاجله وآجله ..

كررت وراءه في تلعثم هامسة وهي تدفع نفسها زحفاً خارج الفراش ، ثم التفت إليّ : قل ورائي يا جار الشوم .. وأنا قبلت زواجك ..

ابتسمت له بهمس يشبه همسها: وأنا قبلت زواجك..

نظر إلى كوارشي وعليّ فوجدهما يراقبانه في بلاهة فأومأ لهما: لا تسألا..

اندفع كوارشي: ولكن ألم يكونا اااا..

صرعه الشيخ بقوة: ما بك يا رجل؟ احترم العمة يا أخي! فقط لا تسأل.. ها! هل تشهدان على ما حدث؟

هرش كوارشي في رأسه: أشهد والله على ما لا أفهم..

التفت إليّ الشيخ عطية وهو يمد يده ليغلق درفة النافذة بنفسه : مبارك لكما يا أولاد الكلب .. سأستخرج قسيمتكما مع شيخ الحارة في الغد ..

منعته عن الإغلاق وهمست له: ولكن يا شيخ.. شيخ الحارة يظن أننا متزوجان و...

احترقت كرامته : شيخ حارة؟ أم شيخ أزهري يا اسطى؟ ! والذي نفس محمد بيده .. لا يقربكما سوء ولا فضيحة بعدما التجأتما من الحرام إلى جنب الله .. والآن أغلق تلك النافذة وإلا رجمتك بنفسي !

ابتسمت من غضبه فزفر في هدوء أخيرً ا وأومأ لي في احترام قصير وأغلق النافذة . أحكمت غلقها والتفت إلى بركة ، فزحفت على وجهها في سرعة وقبلت قدمي ! اندفعت حاملً ا إياها فصرخت . اضطررت لإعادتها إلى الجدار وجلستها السابقة ، بينما قبضت على جسدي في احتضان هيستيري ويداها تربتان على ظهري وتمسح بوجهها في صدري بكاءً وكأنها تطوق ذراعيها بحلم تخشى أن تستيقظ منه : سـ .. سترتني يا بك .. سترتني .. والله لا أستحقك .. اا .. ولكن أحبك .. أحبك حبي لأمي وخالتي .. لا .. أحبك أضعاف .. وغلاوة الحسين لولا حبه وحب النبي وخالقهما .. لقلت أنك أعلى من الجميع حبً ا .. لم فعلت ذلك؟ !

جلست أمامها باسمً ا ولم أترك ذراعيها : أحببتك يا بركة .. فقط أحببتك .. ولم يعد بجوار ذلك شيء يهم بعد الآن .. تـ .. تزوجت قبلك من هانم .. هانم تنحني لها الرؤوس ولكن .. لم تكن في عيني مقدار إصبع من قدميك .. كانت ساقطة هي الأخرى ولكن على طريقتها .. وكنت ساقطً ا أنا أيضً ا .. أسلم لها جسدي كي أبقى في النعيم إلى جوار نفوذها وأموال أبيها ، وما أن قابلتك حتى مات عزيز القديم حتى قبل أن يؤمر بقتله .. ومات في عيني أيضً ا ما كنتِ عليه قبل أن تدخلي قلبي .. نحن روحان يا بركة .. تلاقينا .. ورأى كل منا في الآخر ما لم يره أحد ..

كيف أن أترك ذلك لذنب ربك نفسه يغفره .. ومن يغفر ذنبي غيرك؟ أنا عزيز راضي .. ولست عزيز بِ ك قاسم .. وأنتِ بركة عمري .. ولست ساقطة بيوت الفحش .. فقط ما أريد أن تحبيني كما أحبك .. و ...

كان سهل عليها أن تفعلها هذه المرة . فباركت فمي بلمسة من كفها لتصمتني ، ونطقت في وجه أضاء بسعادة لم أر مثيلها إلا على وجه أمي ، ولمعت جداول دمعها : خُ لقت لحبك يا بك .. ولن أعزف عن رضاك إلا بالقبر وبين جدرانه ..

قبلت يدها أخيرًا دون خجل: لا تنادي الزوجة زوجها بـ «بك».. فقط عزيز..

ابتسمت: بل سيدي.. وسِيد كل الناس..

قبّلت رأسها متألمًا: كم كنت أتمنى ضمّك اليوم ولكن إصابتك اا...

أمسكت بيدي ووضعتهما على وجهها فاشتعلت شوقًا: لا تهتم.. فقط أقبل.. أقبل يا سيدي..

لم أفهم ما كانت تقصد ولكن جزءً ا من بسمتها اختفى للحظة لألم مستتر ، ولكنها أجبرت نفسها على الابتسام . فتحت رجليها على استقامتهما في ألم عظيم أخفته وجذبتني لأجلس بينهما . رفعت طرف جلبابها وسحبته تجاهها في بطء حتى رأيت رجليها عاريتين ، تخطت عيني حرق قدميها وبدا

صغيراً بين تلك الامواج البيضاء من فخذها . غطت بكفها ختم الساقطات ، وأكملت حتى تعرت تماماً ورأيت منبت فتنتها !

نظرت إليّ وجذبت ذراعي: بالحلال يا سيدي..

اقتربت منها زحفاً بين رجليها ، فمدت يدها إلى جلبابي وخلعته . كان الكون يتحرك بنصف سرعته ، فجاريناه ، وتحركنا في بطء ناسب شاعرية تلك اللحظة . همست حِزم القمر الزرقاء من فتحات الشيش على وجهها بحُسن سحر عيني . اقتربت من وجهها ببطء وفغرت شفتي . فأغمضت عينيها والتحمْت بشفتي . قبضت لأول مرة على شفاه امرأة غير ليلى . مررت ببوابات فمي عليهما وتذوقت فاكهة الجنة وحلاوتها . اشتعل جسدي فضممتها بذراعي ونزعت عنها جلبابها حتى صارت عارية أمامي ، وانسابت حرائر شعرها الليلي بين يدي . مسح نور وجهها على وجهي وكأنها كانت تشع حقاً بنور أزلي . لم أنظر حتى إلى نهديها .. فقط احتضنتها بقوة حتى باتت كملاك صغير داخل صدري العريض . انتصبت رجولتي فخجلْت منها . أطبَقت بكفها على ظهري ودفعتني تجاهها باسمة . وعندها ولجت إليها .

كنت بداخلها ، التحمنا وضوء القمر المتقطع يطوف حولنا وكأننا ارتقينا إلى السماء كروحين عادا إلى ملكوت غير مرئي . كنا جسداً واحداً عارياً ، أطوقها خشية رحيلها ، وتطوقني أملاً في بقائي . كانت لحظة الكمال التي سعى الخلق أجمعين إليها منذ نُفخت الروح فيهم . لم أعد ناقصاً الآن ، بل كنت . كانت ليلى تصرخ بانتفاضي المتكرر داخل جسدها شهوةً حتى أتعرق ، ولكن مع بركة .. كنت ساكناً ، فقط أنا داخلها من أسفل وهي داخل صدري من أعلى . لم ننتفض لشهوة ولم تهتز الجدران كما ظن الشيخ عطية بليلة زواجنا الأولى . بل ملتحمين في صمت . وبكيت أخيراً حتى أغرقت دموعي ظهرها العاري وجرت قطراته عليه في نعومة . أما هي فكانت تراقبني باسمة ، كأم تراقب رضيعها وهو يمتص حليب الحياة من قلبها .

ء ـــ ء ء

ألصقت فمها بأذني في همس: الآن يا سيدي.. سأخبرك بسر جلنار..

***

«استعد للقاء أمارات الجنون يا رفيق الظلم»..

قالها فرج ساخرً ا وإن لم يضحك بل كان عابسً ا . أزال ملاءة بيضاء بقوة من أمام لوحته أو بالأحرى لوحتي الجديد ، وكأنه يزيح في عنف ستارً ا مسرحيً ا غليظً ا عن آخر فصل من مسرحية بائسة . تسمّ رت مكاني قبل أن أذهب إليه لأرى تحفته الفنية وسبب حتفي القريب . كنت ملهوفً ا من قبل على رؤية ما رسم ، متشوقً ا لرؤية فيروز لأنهي ذلك العبث الكوني . ولكن .. التصقت نظراتي بالأرض في خوف الأجنة بالقفز من أرحام أمهاتهم . كنت كعازف مبتدئ قضى ربع قرن في غرفة صمّ اء ليتسيد آلته الموسيقية ، وما أن أزاحوا الستار عن حفلته الأولى ، حتى سقطت آلته أمام نظرات الجمع .. من كان لقاؤهم سببً ا في عزلته ، وتحول أخيرً ا إلى سبب لموته ذعرً ا .

حقً ا .. تفرُ ق السنوات بيننا وبين ما نتحرّ ق إليها انتظارً ا .. وما أن يأتي حتى نهرول فزعً ا منه . ربما لم نكن معتادين على الحصول على ما أردنا .. فأصابتنا فوبيا الفوز به .

تحرّك فرج للخروج في غضب مسرع: أفعلت ما أردت؟ لا أريد أن أراك بعد الآن!

حدثته دون أرفع رأسي عن بلاطات الأرضية الرخامية رغم قطرة العرق التي ضربت جفني ، فتوقف : ما الذي حدث لك حقً ا يا فرج كي تنضم إلى كتيبة فيروز؟ !

التفت إليّ في حنق هادئ: ما الذي حدث لك أنت؟

- ضحيتها انتحرت أمامي.. ولكن، ما الذي حدث لك أنت؟!

-وافقتك فقط كي أعيش.. عرضت بيتًا ومالًا مقابل لوحتك.. ولولا ذلك ما فعلت..

-ما الذي حدث يا فرج؟!

وضع يده على مقبض الباب القديم وكأنه كان يستعد للهرب فور نطقه لما أخفى : لم أشارك أحدً ا من قبل ذلك الأمر .. والآن .. إن فعلت فلتعدني أنك لن تلاحقني مرة أخرى .. لا أريد أن أراك أبدً ا يا عزيز !

تقدمت منه وتناسيت اللوحة: أعدك ولكن تحدث.

خرج من باب القاعة وأغلق درفة الباب إلا جزءً ا يسيرً ا سمح بلقاء ضيق لعينينا : كنت مع جُ لنار عندما نطقت باسمك !

بهت وجهي وانكمش حاجباي لعقدة أصابت رقبتي برعشة بسيطة غير مصدق : كـ .. كيف ذلك؟ ! لم نتقابل إلا عندما جاءتني بالمكتب .. كيف علمت اسمـ .....

سكتّ وقد ضرب الظن رأسي وتمنيت أن ينفيه فتحدث في تشفٍّ : بل فعلَ ت يا عزيز .. قالت إن الفتاة أخبرتها عنك بالاسم « عزيز بـِ لـ قاسم »!

فتحت الباب في قوة وقبضت على مجمع ملابسه ودفعته للداخل ، فسقط أرضً ا ، وعندها عاد الشيطان واتخذ من رأسي عرشً ا . تقدمت منه في شر دفعه للزحف بعيدً ا في خوف : وكيف لم تخبرني بذلك قبل الآن؟ ! تحدث ! لقد قابلتك منذ عشر سنوات .. وقصصت عليك الأمر كله .. كله أيها اللعين ! كيف أخفيت الأمر عني؟ !

نظر إليّ في غل وخوف : بل لماذا لم تسأل نفسك كيف تقابلنا؟ ! ولم تقابلنا؟ ! الرسام الذي رسم لوحة لامرأة ظنت أنها تسببت في انتحارها بمكتب طبيب نفسي .. يقابل ذلك الطبيب صدفة ! كيف؟ بل تجمعهما زنزانة واحدة .. كيف؟ ! يختصه من دون الجميع ليقص عليه الأمر كله .. كيف يا عزيز؟ !

رأيت منه بوادر انفجار ربما يُفلت من لسانه ما أردت، فحافظت على هدوئي ونظرت إليه شذرًا: أكمل!

قلب عينه أرضً ا وجسده يعلو ويهبط بأنفاسه الغاضبة ، ثم قال : على زماننا .. لم يوجد ما يسمّ ى بالصدفة .. وخصوصً ا عند الغلابة أمثالي .. بل كان دومً ا النصيب .. النصيب يا عزيز .. أو كما يعرفها أمثالك .. الأقدار .. الأقدار تسوقنا جميعً ا إلى حتفنا .. كلً ا بطريقة مختلفة .. قد ترسل أحدنا بالحب ، وآخر بالحرب ، وآخر بالمعتقل .. وقد ترسلنا بلقمة العيش إن ضاقت ، أو الرضا إن استبد بنا بموت على فراش مهترئ !

**تعجبت من حديثه ولم أفهمه: تتحدث بكلام غير مفهوم!
لقد عاد إليك انحرف!**

إنتفض واقفًا رغم سحق العجز لعظامه ثائرًا فى تصميم: بل إستفقت الآن! ألا تفهم؟! يخلقنا.. ويدفع بعضنا ببعض.. فنتقاتل حتى الموت.. وأحياناً.. نحب! حتى إذا فعلنا.. أخذ منا الحبيب.. فنكره! ولكن هل نموت بعدها؟! كلا! يمد فى أعمارنا والكراهية تحرق صدورنا حتى نتمنى الموت ولا يُجيب.. يفتك بنا الوهن.. والموت لا يُجيب! يرحل عنا الجميع ولا يتبقى سوى الوحدة.. والموت لا يُجيب.. تخرُف عقولنا وتذوب أرواحنا.. واللعين لا يُجيب! أى مصائر هذه؟!.. أى..

**قاطعته في غضب: توقف! توقف عن ذلك الجنون!
وأخبرني فقط بما حدث!**

التفت إليّ بوجه متعرق وجنون واضح: سأخبرك! إن كنت تريده أن يجيبك وحدك!

قرأت وجهه ، فتراجعت للخلف من هوْ ل ما قرأت وواجهته بما تمنيت أن يكون خطأ : لقد رأيت فيروز يا فرج .. أليس كذلك؟ !

ابتسم في سخرية غاضبةٍ من سذاجتي: كلا يا بِك! بل رأيت جلنار وهي تنتحر!

ء ء ء

- بل رأيتها أنا! ولم تكن معنا أيها الحرف!

- لم أقصد انتحارها بين يديك.. بل انتحارها الأول بين ذراعي..

بدأت الأمور تتضح: هل حاولت الانتحار قبلًا؟

دمعت عينه في غضب فصاح في انهيار : أجل ! شقت رسغيها ! حـ .. حاولت إنقاذها في اللحظة الأخيرة .. وفعلت ! غابت عن الوعي .. فلم أجد بدً ا من اللجوء إلى صديقتها الأميرة إمتثال . وما أن أفاقتها حتى اتهمتني أمامها بأني من أرسل إليها فيروز .. زعمت أن الفتاة أخبرتها بذلك .. قالت « فرج هو من أدخلني إليك قبل أن يموت محترقً ا !»،

- وكيف صدقت ذلك؟

- لم أفعل ! بل ظننتها طاحت بعقلها إلى الجنون .. فأخبرَ ت الأميرة إمتثال عنك .. وأنها يجب أن تراك لتفهم الأمر .. وطلبت مني ألا أراها من جديد .. رفضت .. كنت مهووسً ا بها .. أحببتها حقً ا .. ولكنها طلبت من أبي الكافر أن يخلصها مني .. ففعل .. وأرسلني إلى البلد مرة أخرى حبيسً ا بدارنا القديمة .. لم أستطع أن أغادر وقد أوصى العمدة بغفير يحرس حبستي .. لم أستطع أن أغادر حتى بعدما علمت أنها أتمّ ت انتحارها أمامك ! لم أستطع أن أغادر حتى لأدفن أمي ! خمس سنوات يا عزيز وأنا حبيس أربعة جدران .. إلى أن تولّ ى الجيش البلاد .. وما أن خاف الورداني على مُ لكه من التأميم .. (ضحك في جنون).. دفعني رشوة لرجال

الحكم ليستثنوه : « شاب ريفي أبله يصلح أن يكون إخوانيًّا متآمرًا على الحكم ».. باعني أبي لِيُنقذ نفسه .. وصرت شيخ المعتقل حتى رأيتك .

توقعت الذي حدث بعد ذلك ، فجلست في إرهاق وقد تكشّف لي الأمر فأكمل : وعندما رأيتك ! عندما أخبرتني باسمك .. عندما علمت أنك ستكون رفيقي بالزنزانة .. عندما صاحبتني وقصصت عليّ قصة جُلنار بالذات من بين كل القصص ... علمت حينها أن الأمر لم يكن جنونًا .. وكيف يكون؟ ! فيروز أخبرتها أنها ستموت منتحرة .. وفعلت ! وأخبرتها باسمك .. وها أنت أمامي ! فلم لا أموت محترقًا !

هدأت وقد أثقلت كلماته رأسي : لذلك أصابك الخوف المرضي من فيروز .. ومني ! وأنا الذي ظن أنك فقط تأثرت بما قصصته عليك ، تعجبت كثيرًا من تصديقك للأمر دون مقاومة .. كنت أحمق .. ظننت أن كلماتي إليك بأنك من تسبب في انتحار جلنار لرسمك إياها كان هو السبب الرئيسي لمرضك .. ظننت أنك ضعيف النفس .. وأني استغللت ضعفك .. ولكن ..

هدأ أخيرًا وشاركني المأساة بوجه حزين : ولكني كنت يد الأقدار يا عزيز .. حاولت الهرب منك .. فاتّبعتني .. وأجبرتني على إتمام الأمر .. فلتنعم به إذًا واتركني لحالي أنتظر النار لتحرق رأسي !

ونهض في بطء وشرود راحلًا ، لم أمنعه بل ظللت مكاني دون حراك . تحجرت وغاب عقلي يُعيد التفاصيل منذ اليوم الأول وحتى تلك اللحظة . غابت الشمس وضرب الليل القاعة ولازلت على مقعدي . لم أنتبه كم مر من الساعات وأنا على تلك الحالة . حتى عبثت الرياح بالجدران في تصاعد تدريجي . لم أنتبه لها في أول الأمر . فقط سمعت صريرها وهو يغلف الظلام . كان يتصاعد متعمدًا حتى نفخ بوجهي صياحه وعصف بالأثاث القديم . وأسقط اللوحة أرضًا بصفعة رخامية ضجت القاعة بصوتها .

استفقت أخيرًا ونهضت أبحث عن ضوء القمر لينير طريقي ، لولا أن سحابة مألوفة غطته فاعتمت عينه . عثرت على ثقاب فرج ، فأشعلت الشمعدان المحطم وتوهج اللون الأصفر يجري كنهر متغير الألوان على الأرض والسقف . اتجهت للوحة . توقفت مفكرًا ، « ماذا أفعل؟ !».

إن كان فرج محقًا فأنا أيضًا جزءٌ من حكاية تحاول الأقدار قصّها ، وإن كانت فيروز أخبرت جلنار عني قبل موتها ، فلابد أنها رأتني حقًا ورأيتها حقًا . وها أنا أجبر فرج على رسمي لأقابل تلك الروح الغامضة . فماذا لو قررت التوقف أخيرًا عن ذلك البحث العبثي ، ماذا لو لم أر فيروز؟ بالطبع ستختلف الحكاية .. ولن تُقتل جلنار . ولكن .. جُلنار قتلت بالفعل . فلا مهرب لي إلا ما رسمته الأقدار .. سأرى فيروز .. وسيموت فرج محترقًا . فقط عليّ أن أستسلم .

ولكن .. ألم أكن مستسلمًا طوال حياتي ! من موت أم ، وقطيعة أب ، وزواج من إبليس على هيئة امرأة ، وحب من أخرى كنت أعلم أن نهايتها ستكون على يدي . ألم أكن مستسلمًا؟ !

كلا.. فلتفعل الأقدار ما شاءت ولكني لن أظل كذلك.

أمسكت باللوحة في غضب وطرقت بها بكل ما أوتيت من قوة على السطح الرخامي علّها تتحطم ، ولكنها لم تفعل ! لم تكن من صلب أو حديد ولكنها لم تتحطم ! كيف ذلك؟ ! اه .. علمت الآن ، أيها الأقدار ، أن الحرب أصبحت بيني وبينك .

مددت إصبعي بالفراغ الضيق بين ورقة الرسم واللوحة الخشبية محاولًا فصلهما . كان الأمر شبه مستحيل ، ولكن لم التعجب؟ ! من قال إن قتال السحر سيكون هينًا . تعرق جسدي وانهمكت قواي وأنا أدفع بإصبعي بتلك الفجوة . أحلت عليّ طاقة هيستيرية اهتز لها جسدي ولكن دون جدوى . قفز الدم من إصبعي وصرخت لألمي ولكن .. لن أتراجع .

صرخت بالفراغ لمسامع الأقدار: لن أتراجع! إما أن تستسلمي أولاً.. وإما أن أموت!

وفى لحظة وثانيتها ، انفرجت ورقة الرسم دون مجهود يُ ذكر . هل استسلمَ ت حقا؟ لا يُ هم فقد اقتربت من مرادي . رمحت إلى الشمع المحترق لألقي اللوحة على نيرانه ولكن .. نفثت النافذة رياحً ا أطفأت النار في عنف ! ها قد عدنا إلى الحرب . حاولت تمزيق اللوحة ولكن كانت محاولة متوقعة النتائج . لم أفلح !

تلك اللوحة مؤمّ نة ضد الضياع . سقطت أرضً ا من الإرهاق . علمت الحقيقة ، لا نجاة مما طلبت . سأقابل فيروز عاجلً ا أم آجلً ا . أحمق . أنا من سعيت لذلك ، والآن أحاول الهرب منه .

افترشت الرخام وقد تحوّ لت إلى هيئة المرضى الذين كان يعرضهم الأساتذة علينا في باريس . متكومً ا في وضعية الجنين ألعق الأرض بلساني من الخرف . يغرق الماء وجهي دون أن أعي إن كان دمعً ا أم عرقً ا . غير واعٍ لما يحدث حولي ، تساءلت : أنحن نهارً ا أم ليلً ا ، ألازلت بقصر أفندار أم لم أغادر مكتبي قط وكل هذا مجرد خيالات شيطانية ، أقابلت جلنار حقً ا ، أم كانت مجرد صورة أخرى لوالدتي وانتحارها بين يدي ، هل سخر مني العقل الباطن ونسج حكاية من الخيال ودفعني داخلها فظننتها حقيقة ، لماذا أنا ، ما الذي فعلته ، أين الليل ، وما القمر ، كـ .. كيف يُ حرك الناس أقدامهم للنهوض والرحيل ، هل شللت ، كـ .. كيف .. من أنا ، ما أنا؟ !

غبت في غيبوبة لم أعهدها من قبل ، وذهبت إلى تلك المنطقة من العقل ما بين الخيال والحقيقة . وظننت حقً ا أني جننت . فاستسلمت لمصيري ، ولكن .. ودون مقدمات ، ابتعدت السحابة المألوفة عن عين القمر . فزحف ضوؤه الأزرق تدريجيً ا بأرجاء القاعة . تساءلت « هل عفت عني الأقدار؟ » حقً ا فعلت .. فكيف إذً ا لا يسقط الضوء إلا على ذلك الشق

العميق من الجدار؟ لم يكن مرئيً ا من قبل ، ولم تكن اللوحة قابلة للموت . وعندها ظننت أن الأقدار عفت عني حقً ا .. وفهمت رسالتها .

تحركت في خطوات متعرجة إلى ذلك الشق العميق . وطويت اللوحة إلى أقسام صغيرة ، ودفعتها بقوة داخل تلك الفجوة الجدارية . لم أهتم حينها بإصبعي المدمم وهو يصطدم بنتوءات الفجوة المسننة ، فقط كنت أهتم بدفع تلك اللعينة إلى أقصى عمق يُ مكن أن أصل إليه . وأخيرً ا فعلت .

ولكن.. لم يكن قلبي ليطمئن بعد.

انتظرت طلوع النهار ، وأرسلت إلى أحد العمّ ال ودفعت له أضعاف ما أراد ، فقط لكي يطمس ذلك الشق من الجدار . وانتظرت مقاومة الأقدار لذلك ، ولكنها لم تفعل . ونجح العامل في مهمته في نصف ساعة لا أكثر . وعندما رأيت الجدار مكتملً ا دون مدخل إلى لوحتي الحبيسة . تنهدت في اطمئنان لم أعهده منذ ما يقرب من ثلاثين عامً ا !

رحلت عن أفندار ، وطويت صفحته وصفحة جلنار وألقيت بكلاهما إلى الماضي . سرت على قدمي لساعات طويلة ، وكلما تقدمت خطوة انسابت ذكرى من ذكريات تلك الحكاية الغريبة من على كاهلي وسقطَ تْ أرضً ا لأخطو عليها . حتى وصلت إلى أحد الأكشاك ، وطلبت من صاحبها الهاتف لأُ جرى اتصالا تأخر كثيرً ا ..

خرج الصوت من السمّاعة فانفطر قلبي: «ألو؟».

ء ء ء ء ء

ترددت في الرد وأوشكت أن أنهي المكالمة قبل أن تبدأ ولكن: ا.. ااا.. حـ.. حاتم؟

انفجر حاتم في لهفة وتسارعت كلماته: أبي؟! أيـ.. أين انت؟! يا الله! أبي لقد بحثت عنك طويلاً!!

فلتت مني دمعة في سكينة: اخشن صوتك يا ولدي.. لقد كبرت!

هرول في كلماته: أأ.. أين انت؟!

وددت لو أحتضنه : فلتسامحني يا حاتم .. لقد تركتك وحيداً من أجل .. من أجل .. خيال .. جنون .. و .. اشتقت إليك ..

بكى في نحيب: وأنا أيضًا يا أبي! وأنا.. وأنا ايضًا!

ابتسمت وشعرت بعودتي إلى عزيز قاسم: فقط تعال لتأخذني.

جلست منتظراً كعجوز على أريكة حديدية أمام الكورنيش . استندت على عصاي في إرهاق وأمل للقاء ولدي . ولدي الذي تخليت عنه منذ سنوات بمجرد أن تخرّج في كلية الشرطة وعلم

بجنون أبيه . لم يرفضني مرة واحدة ، بل حاول مساعدتي تمامً ا كما حاولت مساعدة جلنار قبل انتحارها . ولكن كنت عنيدً ا وتركته وحياتي ورائي وسعيت إلى نهاية ذلك اللغز . ولم أكن أتصور أن تلك النهاية ستكون هكذا . أجلس على أريكة حديدية رث الثياب أشعث الشعر كمجاذيب العشاق .

لم يمض الكثير ووصل حاتم بسيارته على الجانب الآخر من الطريق . كان يبدو وجيهً ا في ملابس الشرطة وقد أصبح رائدً ا . كانت عينه تبحث عني في أرجاء الطريق . نهضت له في بطء والدم يجري بعروقي متشوقً ا لعناق بعيد . وتقدمت من الطريق ملهوفً ا .

ولكن .. قبل أن أتم عبوري وسط السيارات المندفعة . ضربني خيال لم أفهمه فدق قدمي أرضً ا وتسمّ رت . علت أصوات تنبيه السيارات من حولي منبّ هة من اصطدام وشيك . لمحني حاتم وبدلً ا من أن يبتسم صرخ بوجهي في فزع .

وعندها توقف الزمن وتحول إلى لوحة عارية من الحركة. اختفت الأصوات من مجرى أذني ولم أسمع سوى صوتها..

«أنت عزيز قاسم؟»..

بحظت عيني وانهمر الدمع من أطرافها . ولمحت حاتم يركض تجاهي ولكن وجهها كان يغطي الكون أمام عيني : مـ .. من أنتِ ؟

«أنا فيروز!».

عاد الزمن إلى سرعته، وانفجر الضجيج يفترس سمعي. صاح حاتم: حاااسب!

وما شعرت إلا وقذيفة حديدية تضرب خصري في عنف . فقدت الإحساس بالحركة وكأني كنت أطير في السماء ، ووجه فيروز لا يفارقني حتى في تحليقي . دمعت عينها وتوسّلت :

«ساعدني يا عزيز»..

ولكن فجأة انطفأ كل شيء إلى الظلام..

-١١-

فيـــــروز الصيرفي

٢٠١٧

«ما الذي تفعله أيها الـ...؟!».

قطع صرختي بضربة غليظة من عكازه القديم . تطايرت بالهواء حتى غاصت الأرض ببروز وجنتي وقد التصقت بها . ضرب الظلام جفني للحظات متكررة ، وكأنه يتردد بين إرسالي إلى إغماءة حتمية وإعادتي إلى وعي مؤلم . انسابت قطرات الدم من جبهتي فملأت تجويف عيني . تيبّست مفاصلي لشلل مؤقت وأنفاس الألم المتقطعة تعصف بصدري الضعيف وأنا ممددة دون حراك في وضعية نوم أجبرني فرج العجوز عليها حتى ينتهي من مهمته الجنونية .

كانت الرؤية غائمة ، والحركة مستحيلة . رأيته في صعوبة ودون مقاومة وهو يركض بخطوات مائلة من العجز تجاه « باجور قديم »، ارتعشت يده وهو يحلّ صنبوره الصغير متجهً ا إلى لوحة جلنار وهو يردد :

«لا.. لن يحدث الأمر مادمتُ حيًا».

سكب في عشوائية سائل الجاز الثقيل فوق لوحة جلنار وألقى بالباجور في عنف بأحد أركان القاعة المقفرة . علمت أنه يريد إحراق اللوحة ، فزحفت معتمدة بكلتا يدي على السطح الرخامي وألم جبهتي يزيد من قطراته دمً ا يحجب رؤيتي . دفع يده داخل جيبه بقوة وأخرج كبريتً ا خشبيً ا . ضرب الكبريت بمشطاته مرة فلم يفلح في إنجاب ألسنة النار . زحفت في قوة أكبر وأنفاسي تزيد من سرعتها . ضرب عودً ا آخر ولم يفلح . اقتربت من أقدامه الثلاث . وما أن همّ بضرب عودٍ آخر حتى صفعت قدمه الثالثة الخشبية التي كانت يستند عليها بمرفقه ، فسقط إلى جواري !

هتفت له بصوت لا يكاد يخرج من لهاث التعب: ما الذي تفعله أيها الخرف!

حاول النهوض في هيستيرية : ابتعدي أيتها الشيطانة .. سـ .. سأ .. سأنقذ جلنار .. سأحرق تلك اللوحة قبل أن تقتليها ..

استعدت بعضًا من قوتي ونهرته في غلظة: بل لن تفعل.. لن ااا..

صفعني بقدمه بعظام أنفي فارتد رأسي في استسلام يضرب الأرض مرة أخرى ، وتمددت على ظهري كمسيح صُ لِ ب أرضً ا وأنا أسعل الدم من بين أوتار حلقي . زحف بقوة وقبض على عود الكبريت وحكّ ه بمشطاته فتوهج وانتفضت القاعة لنهار لحظي ما لبث أن انطفأ .
اقترب بالشعلة القصيرة من لوحة جُ لنار وما أن ظننته سيشعل النار فيها ، وما أن اندفع تجاه أطرافها بسرعة عالية ، حتى تسمّ رت الشعلة بيده فجأة .

راقبته من نومتي ، كانت يده ترتعش في تردد . تقلّ ب جسدي على محوره فرأيت عيني فرج وهي ترمح في دائرية داخل جفنيه محدثً ا نفسه بصوت سمعته : مـ .. ما الذي أفعله؟ حـ .. حاولت التخلص من اللوحة قبلا ولكنها لم تتحطم أو تتمزق .. لمَ لم أفكر في إحراقها من قبل ، لماذا الآن؟

حاولت الزحف إليه من جديد ودمي يرسم خطوطًا أسفل حركتي: أطفئ الشعلة يا...

بحظت عينه في فزع ونظر إلى سماء القاعة : قـ .. قالت جلنار أني أرسلت اللعينة إليها قبل أن أموت محترقً ا .. وها قد أرسلتها .. هل اااا؟

صرخ كالمجنون مبتعدًا عن اللوحة انتفضت لصرخته: لاااااا.. لن أفعل.. لن أموت محترقًا بيديّ..

صحت به متألمةً: أطفئ الشعلة!

التفت إليّ منتبهً ا . نظر إلى عود الكبريت بيده . لمحت النار وهي تتسلق العود الخشبي تجاه إصبعه وقد أوشكت أن تنطفئ . ولكن فجأة ! انفجرت النار كأن نفثها شيطان خفي وتصاعدت في كرة ملتهبة أمام جسده . ألقى بالعود مفزوعً ا إلا أن مارجً ا منها التقط ما سقط على شعيرات يده من سائل الجاز فخلبت ذراعه !

دار واستدار وانتفض صارخً ا والنار تركض في ضرب الأعاصير حول جسده حتى أحاطته . سقط أرضً ا وألسنة اللهب تعصف بلحمه في عنف وغلّ، يتقلب متأوهً ا بصرخات بشعة

أذرفت لها عيني الجاحظة دموعً ا ساخنة . استجمعت قواي واندفعت مترنحة تجاه ملاءة قديمة أملً ا في إخماد الجحيم الفرجيّ . تعثرت خطواتي ، ودفعتني حرارة النار إلى الابتعاد عنه وقد غطيت وجهي بذراعي .

صرعْ ت على ضربات عنيفة متعاقبة على باب القاعة . صاحت من خلفه عدة أصوات متشابكة : من بالداخل ، ما الذي يحدث؟ ! حاولوا دفع الباب ولكن قفله القديم الذي يبدو أنه ينشد الانفلاق إلى نصفين بهزة صغيرة ، أبى أن يستجيب بالرغم من ذلك لأجساد الرجال الغليظة . تبيّ نت من بين الأصوات المتداخلة صوتً ا عرفته : اتصل بالشرطة حالً ا !

صرخ فرج صرخة أخيرة تصاعدت على إثرها ضربات الرجال . وتهاوى جسد المحروق في استسلام لمخالب اللهب وقد غابت الحياة عن أطرافه . ترنح كعبه دون رفس أو اهتزاز وضرب عمودً ا من الجاز انتصب بينه وبين لوحة جلنار . فضحكت النار في شيطانية والتهمته وزحفت بصاروخية على طوله حتى ضربت اللوحة .

اختفى الألم للحظة وانفلتت القوى من بين مفاصل جسدي ، وهرعت مرتمية على لوحة جلنار أحاول إخماد وحوشها ومخالبهم . نظرت إلى جلنار في ذعر ، صحت بها : لا تخافي !

نفث الشيطان الخفي النار مرة أخرى فانفجرت بكرة أحاطت بإطار اللوحة واحترقت الملاءة بيدي . همست جُ لنار وهي تبكي : اتركيني وشأني ! اتركيني !

علمت أن اللوحة هالكة لا محالة ، فاندفعت في محاولة أخيرة للتحدث معها : سـ .. سـ .. احذرى يا جلنار .. ستموتين منتحرة .. ستموتين منتحرة .. لا تفـ ...

- مــ.. من أرسلك؟ من؟

-لا اعلم!! فقط استمعى إليّ !!!..

-آلا تراها؟ انظر!

-من الذي تتحدثين معه؟

-ألا تراها يا كامل؟! إنها...

-جلنار! استمعي إليّ..

-تحدّثي أيتها الفتاة! من أرسلك؟!

-هذا الحرف فرج.. هو من أدخلني إليكِ قبل أن يموت محترقًا..

-فرج؟!

-فقط حاولي ألا....

تنبهت فجأة إلى الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتها ويعلم الأمر كله فصرخت بها وأنا أصارع الزمن قبل أن تلتهمها النار: جلنار! اعثري على عزيز بك قاسم .. طبيبك .. هو يعلم كل شيء .. هو من سيُ نجيكِ! فقط لا تموتي! لن أكون قاتلتك .. أرجوكِ!

وصلت النار إلى لوحة خشبية كانت مختفية وراءها ، فالتهمت ألسنتها دعائمها وسقطت أمامي . كان مكتوبً ا عليها « كامل باشا الحداد ». تعالت ضربات الرجال خلف الباب في قوة أكبر وكأنهم استعانوا بشيء ما لتحطيمه . عدت إلى لوحة كامل مرة أخرى ، رأيت عينيه تراقبني في تعجب وخوف . صرخت به : أنقذ جلنار ! فلينقذها أحدكم بحق الله !

بدا أنه لم يسمعني. فجذبت لوحته والنار تكاد أن تفترس ساعدي وبحظت له في غضب: اسمع!

لم يجب ، فألقيت به وأمسكت بما تبقى من الشمعدان النحاسي وأشرت إلى رقبتي في هيستيرية الأبكم ، أشرت بقضيب الشمعدان بعلامة الذبح وصرخت : ستنحر عنقها أيها الأحمق .. ساعدها !

صاحت جلنار فالتقطت عيني مرة أخرى ، اهتز وجهها باللوحة وارتسمت تحت عينيها ظلال سوداء وقد غاب جمالها : إنها أمامك أيها الأبله .. كيف لا تراها؟ !

من كانت تُ حدِّ ث؟ أهو عزيز؟ انخرطت في بكاء محموم وسقطت على ركبتي وأنا أتوسلها : لا تفعلي ! أرجوكِ .. لا تفعلي !

غطت النار وجهها وهي تنظر إلى شيء ما جوارها ، لم أعرف في خضم تلك اللحظات السريعة من قصدت ، ولكنها كانت كمن تشير إلى شخص كان بجوارها . وقبل أن أنطق بكلمة أخرى . ابتلع اعصار النيران اللوحة وغابت بين أسنانه وكأنها لم تكن .

تجمدت. لقد انتهى الأمر. اختفت جُلنار.

تسربت مشاعر مختلطة من الحزن والفزع إلى أطراف أصابعي فارتعشت دون توقف ، شعرت وكأن صرخة بركانية تندفع بين عظمات صدري صعودً ا حتى طالت لساني ، وعندها تقطعت أوتاري وانفجرت في بكاء وصراخ رج أرجاء القاعة وأسكت من كانوا خارجها : جلنار !

عمّ الصمت لثوانٍ لولا صوت النار وهي تلتهم ما تبقى من لوحة جلنار وتبتلع لوحة المدعو كامل . حتى قطع الصوت المألوف صمت النار في تعجب : فيروز؟ !

لم يلبث أن تكرر بضربات قوية على الباب وتعالى الصوت: فيروز! فيروز! أنتِ بالداخل؟!

نظرت إلى الباب في استسلام وهمست: ع.. عاصم..

صاح في ثورة: ألا ترون الدخان؟! زوجتي تحترق يا عالم! اتصلوا بالمطافئ! فيروز! فيروز!

رأيت النار وهي تتوهج أكثر فأكثر حتى زحفت على الجدران . وركضت في شراسة حتى أحاطت بها أجمعين وطالت السقف . علمت أنها نهايتي . فتمددت في بطء وقد جفت مقلتاي من الدموع رغم ابتلال وجنتي بها ، وافترشت الرخام الساخن . عدت إلى صلب المسيح الأرضي وهدأت ثورتي . انتظرت الموت ليلتهمني بِ رسُ له النارية . ونظرت نظرة أخيرة على الباب وهو يهتز بضربات عاصم وصرخاته .

ء ء ء ء ّ

خرج صوتي بالكاد: لم أعد أهتم أيتها الأقدار.. فلتعجلي بقضائك!

ارتعش جفني في إرهاق وأنا أرى أمواجًا من جهنم وهي تدور حول السقف في شغف. توقفت عضلات عيني عن الحركة ولم أقاوم أوامر إغلاقها. وفي هدوء.. رحّبت بالظلام.

***

هل هذا هو شعور الموت؟ جسد ممدد بلا حراك، وعين لا ترى سوى الظلام، وأذن لا تسمع سوى خطوات ملائكة العذاب وهم يتباطأون اقترابًا؟ هل هذا ما شعرت به أمي حقًا عندما توقف صدرها عن الحركة وانسابت منها الحياة رويدًا؟

كنت أجلس إلى جوارها في صمت، لم أدرِ يومها إن كان خوفًا أم حزنًا. أصرّت على أن تراني بعد هجري لوجهها بثلاثة أشهر، كنت لا أزال بعمايّ المؤقت الذي ظننت حينها أنه سيكون دائمًا. أرسلت إليّ ببيت خالتي وأصرّت على لقائي، رفضت كما توقعَت، ولم تُفلح إلحاحات خالتي ولا زوجها ولا حتى توسلات أخي عمرو وبكائه أملًا في أن تستعيد أمه عافيتها عندما تراني. كنت حجرًا ميتًا ببركة راكدة.

قررت أن أترك ما حدث وراء ظهري، وتظاهرت بأن والديّ قد ماتا منذ سنوات، حتى نسيت ما كان بيني وبينهما من حب وشجن، ولاحقًا من انكسار وخيانة. قررت أن أعود لدراستي حتى وإن كنت عمياء. واستعنت بأقرب صديقاتي «مي» لتساعدني في رحلتي الدرامية التافهة بالحصول على شهادتي الجامعية، وكأني أردت أن أكون جزءًا من قصة مستهلكة للتصميم وتفوق المعاقين رغم ظروفهم، بدلًا من أكون جزءًا من قصة نادرة لخيانة الأم أمام ناظري ابنتها.

ولكن .. لم يمض سوى ثلاثة أشهر حقً ا ، وقد ضقت ذرعً ا من مطاردة تلك المرأة لسمعي بكلماتها الباكية ، وعندها أقدمت مي على أسوأ الأفعال التي لن يفلح تبرير « النية الحسنة » في الصفح عنها .

كانت مي تجالسنى بغرفتي الجديدة ببيت خالتي كالعادة ، تقرأ لي المراجع وتعيد سطورها على سمعي حتى أحفظها عن ظهر قلب ، يمر النهار ويتسرب الليل وأنا أجبرها رغم التعب على مواصلة العمل ، ظننت في أول الأمر أنه إصرار الضريرة لتحدي الإعاقة ، ولكن تلك الساعات التي كنت أصيح فيها بسطور المراجع في غضب ملحوظ ، لم تكن إلا ضجيجً ا كنت أسد به أذني عن همسات قلبي بالحنين إلى أمي والاستجابة لمطلبها برؤيتي .

تنهدت مي في إرهاق سمعته، وحاولت مقاطعة صراخي بالمذاكرة: فـ.. فيروز.. حـ.. حسناً توقفي.. حبيبتي!

أجبت عليها في استكمال لصراخي : ماذا تريدين؟ ! هل تعبتِ ؟ حسنً ا فلترحلي أنتِ .. سأذاكر وحدى .. لا أحتاجك . لا أنتِ ولا غيرك ! اتركوني لحالي .. الله؟ !

ارتعش صوتها الرقيق، وزفرت في حنق فنطقت بلطف: اا.. لـ.. لماذا تقسين عـ...؟

قاطعتها بقوة : أنا لا أقسو على أحد .. لماذا تحترفون جميعً ا دور الضحية؟ عرضت عليكِ مساعدتي ولقد قبلتِ ! وإن رأيتِ في خطابي لكِ قسوة .. فلترحلي إذً ا !

ربتت على يدي: حبيبتي.. لا أقصد نفسي.. بل كنت أقصد.. لماذا تقسين على نفسك؟

سكتٍ للحظة وقد كرهت ضعفي أمامها وقد لمست وترًا مشدودًا. فانفعلت بأضعاف عن المرة الأولى: ارحلي يا مي!

سمعت صوت احتكاك أرجل مقعدها بأرضية الغرفة ، فعلمت أنها نهضت ، وما ظننت أنها تحركت للرحيل استجابة لمطلبي ، حتى زاد اشتمامي لعطرها وقد جلست إلى جواري : حسن ً ا .. لن أتطرق إلى ذلك الأمر مرة أخرى .. فقط لا تغضبي مني .. فأنتِ صديقتي الوحيدة .. ولا أملك غيرك ..

هدأت ثورتي قليل ً ا ولكن حافظت على بعض الحدة في وعظ : ستتألمين إذ ً ا كما تألمت وربما تفقدين البصر أنتِ أيض ً ا ..

شعرت في صوتها بانزعاج وتعجب: لم تقولين ذلك؟

التفت لها وتخيلت وجهها البريء بين ثنيات الظلام : لا ترتكني على عزيز واحد بحياتك .. يوم ً ا ما سيغادر ويترك قلبك مفطور ً ا .. وإن لم يفعل ، وظل بجوارك سيطعن ذلك القلب مرات ومرات حتى ي ُ ميته ..

ء ء

آحاطت كتفي بذراعها: آنتِ غير الكلِ يا فيروز.. من مثلك لا يمكن أن تمد يَدها بأذى إلى أحد..

- بلى أيتها الساذجة ! الكل قادر على الخيانة .. الكل يقتاتون على آلام محبينهم .. وإن لم يكن اليوم سيكون غدً ا ..

-لا تستلمي لغيابات الحزن يا صديقتي.. سيتوه عقلك بين أمواجها..

-بل تاه قلبي بينها.. ولم أعد أحمل بداخله ذرة حب لأحد.. ولا حتى قِسمة من شفقة.. لا لك ولا لغيرك..

سكتت للحظات طويلة . فاشتعلت غضبً ا مرة أخرى ، وكأن العمى يطوّ ر عصبً ا جديدً ا في خلقة البشر ، يشتد عندما يسود الصمت ولا يرى الضرير نظرات محدثه ، فتفترس الظنون رأسه : ما الذي أصمته ، وفيم يفكر ، وهل كان باسمً ا أم كان عابسا ، هل ابتسامته شفقة ، ام استهزاء ، هل عبوسه حزنً ا على حالي ، أم مللً ا من مجالسة المعاقين أمثالي؟

صحت بها: لماذا الصمت؟! فلتتحدثي كي أراكِ أو ترحلي!

ربتت في لهفة على كتفي: اا.. آسفة يا حبيبتي.. فقط كنت أفكر في مـ.. مطلب.. أنجل من طرحه عليكِ..

- تحدثي..

- حسنً ا .. أنتِ تعلمين أني لن أتخلى عنك تحت أي ظرف .. ولكن أمي مرضت منذ أيام .. وأنا أقضي معكِ اليوم بأكمله .. فـ ...

-إن كنتِ تريدين التوقف فلـ...

- لا لا .. بل أريد منكِ .. إن سمحتِ فقط .. أن نعقد جلسات المذاكرة ببيتي غدً ا .. حتى أكون على مقربة منها ..

-لا يهم.. سأنتظرك حتى تُشفى..

ألحّ ت في غرابة شعرت بها من تهدج صوتها : لا ! بل تأتين معي ! وأنا بنفسي سأعرج عليكِ غدً ا وأسوقك إلى البيت دون مشقة منك .. إنها فرصة يا فيروز تخرجين بها من عزلتك .. ألم تشتاقي لنسيم الصباح خارج تلك النافذة؟

كنت أشتاق حقًا إلى ذلك، وصارعت كبرياء الرفض لعرضها: ولكن...

قاطعتني ولقد قرأت موافقتي بلا شك ، فهى لم تكن ضريرة : ليس في الأمر « لكن ».. حسنً ا .. فلنكتفي اليوم بما ذاكرنا .. وغدً ا سأعرج عليكِ لنتحرك سويً ا ..

ء

وطبعت قبلة على جبهتي وقفزت في رحيل قبل حتى أن أزيف رفضا آخر لاقتراحها. فاستسلمت.

جاء الصباح ، وتوقف نسيمه عن مداعبة النافذة التي سخرت منها مي ، تساءلت هل امتنع لحنق منها؟ أم أراد أن يهمس إليّ بانقطاعه ، بأن اليوم لن يكون كغيره مما سبق من الأيام ولا مما تلاها؟

انتظرتها فجاءت وساقت خطواتي إلى سيارة الأجرة ، ولم تتوقف عن الحديث بكلمات غير مترابطة طوال الطريق ، تحدث عن صديقتنا وزواجها العرفي ، والخبر الفلاني بأخبار التاسعة مساءً ، وتبدّل أحوال الطقس ، وسعر كيلو الطماطم وارتفاعه . وددت لو تصمت ، ووددت حقًا لو علمت سبب استرسالها بتلك الكلمات التافهة دون انقطاع على غير عادتها .

وصلنا إلى ما بدا أنها عمارتها . دلفنا من بابها وظلت تبدّل الحركة بين ذراعي ونحن نتحرك للداخل ، تارةً يميني ، وتارةً يساري ، بل إننا تحركنا في دائرية بإحدى المرات ، حتى غابت عن حواسي أبعاد المكان ، ووصلنا إلى المصعد وتحركنا للأعلى .

كانت ذكية رغم براءتها. وغبية رغم نيّتها الحسنة.

خرجنا من المصعد وعادت مي إلى عادتها في تشتيت شعوري بأبعاد الممر وتوالت على إسناد ذراعي من يميني ويساري ، لكن حيلتها سقطت بمجرد أن طرقت على باب الشقة ، وانفلق لسان قفله بتيار من هواء مألوف أحاط بجسدي فأصابه برعشة ، وعندها فطنت للأمر كله .

«لقد وثقت بكِ يا مي!».

قلتها في عتاب هادئ ، فتنهدت وفلتت يدي بربتة عليها : ستعلمين أني لم أرد لك إلا الخير يا حبيبتي .. فعلت الصواب حتى وإن قررتِ قطع علاقتك بي للأبد .. ولكن إن لم تفعلي سأنتظرك بالأسفل ..

غاب عطرها تدريجيًا بابتعادها ، وأحل هواء بيتنا القديم مكانه . شعرت بأنفاس كرهت حنيني إليها ، انقسمت إرادتي وترددت بين تراجع إلى المصعد ، وبين تقدم غاضب لأكمل ما بدأت منذ ثلاثة أشهر ، شد الانقسام جسدي بقوة متساوية في كلا الاتجاهين ، فكانت النتيجة أن تسمّرت دون حراك كتمثال حجري ينتظر أقدار غيره أن تملي عليه أفعاله .

اهتز صوتها لجملة قصيرة: لن أُطيل.. فقط دقائق انتظرتها طويلا..

لم أجب ، فقط تحرّكت في صمت إلى الداخل بجمود محايد وكأن طبائع ذلك التمثال لم تكن لتغادر ملامحي حتى وإن أردت ذلك . حاولَت أن تسند حركتي وتوقعت مني رفضًا لذلك إما بصياح أو بضرب لذراعها لكني لم أفعل . سمحت لها وتحركنا بخطوات كنت أعلم نهايتها وقد أعادت إليّ ذكريات قريبة حاربت لطردها من رأسي ، ولكن لم أحاول أن أفعل الآن .

وصلنا إلى غرفتها الآثمة . فابتل وجهي بحبات تعرّق عشيقها السابق وكأن الذكرى لم تجد بصرًا لتضربه ، فافترشت جوارحي بما يفعل ، لم أعلّق ، ولم أتوقف ، بل تركت نفسي في استسلام بارد لتحركها ، حتى أجلستني على طرف الفراش في بطء . كنت أسمع أنفاسها وهي تتقطع بمسافات زمنية غير متساوية ، كمن كانت تحاول أن تبدأ كلامًا وتتراجع عنه في كل مرة . حتى أن جلست على الفراش ، بدأت على استحياء .

« أعلم ما تريدين قوله وفعله يا ابنتي .. و .. وسأرفع عنك حرج إتمامه .. ولكن عليكِ أن تستمعي إليّ أولًا »..

لم أجبها ولم أطرف بجفن أو أتحرك بمقدار إصبع ، فقط كنت صنمً ا فأكملت : لطالما أحببتك .. أحببتك حتى قبل أن أحمل بك .. منذ أن كنتِ خيالً ا برأس المراهقات أمثالي قبل سنوات من زواجي بأبيكِ ، منذ الصغر وأنا أحلم بطفل أحتضنه بذراعي .. أضمه إلى صدري وأطعمه .. أسهر إلى جواره حتى يطمئن لعينه إغلاقً ا .. ربما وافقت على الزواج بتلك السن الصغيرة فقط من أجل أن يصبح ذلك الحلم حقيقة .. وما أن تحقق حتى وصل إلى الكمال عندما أصاب الجنين بأن تكوني بنتً ا .. فتمددت أحلامي بعقد ضفائرك وأنتِ طفلة .. وإسرارك إليّ بما تخفينه عن الجميع وأنتِ مراهقة .. و .. ااه .. وربتة من يدك على كتفي وأنتِ امرأة ترعى أمها العجوز ولا تنساها وقت أن تنسى الجميع .

كانت كل كلمة منها تمسح على عظمة من عظام صدري فتدفعه للنحيب ولكن ، متلازمة الصنم الحالية كانت أكبر من أن أحاول الاستجابة ظاهريً ا لحديثها ، فأكملت جمودي ، وواصلت حزنها : وما أن حدث ما حدث حتى تعاظمت أحلامي لحُ لم آخر .. ربما طغى عليهم أجمعين .. وهو أن تسامحيني يا ابنتي !

تنهدت لصمتي فتهدج صوتها لبكاء تدريجي : أعلم أنه حلم يستحيل تحقيقه .. أو ربما نلت نصيبي من أحلامي السابقة .. فأنجبتك .. وأطعمتك .. واحتضنتك .. وعقدت ضفائرك ، وحقً ا لو كنت مكانك لما فعلت ، ولكنك كنتِ دومً ا أفضل من أمك ، أقوى منها بين الأحزان ، وأصدق منها حديثً ا بالمشاعر .. فلم لا تكونين أكثر صفحً ا منها؟ أمّ كِ خائنة يا فيروز .. لن أجبرك حتى على طرد تلك الفكرة من رأسك .. أنا خائنة حتى وإن لم أقصد .. تسببت في لعن ابنتي الوحيدة بالعمى حتى وإن فضلت الموت على ذلك .. وصمتك بالعار لعمر كامل حتى وإن علمت أني لن أشاركك ذلك العمر .. أنا خائنة وخاطئة حقً ا ، ولكن قبل أن أساعدكِ في إغلاق تلك الصفحة من حياتك .. سأستسمحكِ بدفاع قصير عن نفسي ..

بدت أنها اعتادت على سكوتى ، فاقتربت من جلستي وشردت : أنا ككل النساء يا فيروز .. كنت بنتً ا صغيرة بخطوات قصيرة وذراعين مفرودتين للأعلى بابتسامة استجداء تجاه كل من

رأيت ، وكأني كنت أنشد حضنً ا دافئً ا من الجميع ، كانت أمي تسخر من براءتي وتقول « ستصبح رميّ ة بلا كرامة .. تلقي بنفسها بين أحضان الكل دون شروط ».. وحقً ا كنت . لم أفهم يومً ا سر ذلك الحنين الغامض لقلوب الآخرين ، فقط استمتعت به ، وظننته فضيلة نادرة بهذا الزمان .. لا أكن حقدً ا لأحد ، ولا أبخل بحبٍ لمن يعرض بادرة منه عليّ .. ل .. ل .. لن أخجل منك وقد رأيتيني في أبشع صورة قد تُ رى فيها امرأة ، ما أن كبرتُ يا فيروز ، وتحولت من طفلة ذات مشاعر مجردة بلا غاية ولا سبب .. إلى امرأة تعكرت مشاعرها بحنين إلى رجل يُ طفئ شهوتها .. اا .. ا .. لازلت أخجل من قولي ذلك ، ولكن لا مفر الآن ، لم يعد الحب كلمة وابتسامة وربما حضنً ا دافئً ا ، وإنما زاد عليه ضمة الرجل ، وقُ بلاته ، وتوقه إلى جسد امرأته .. بحثت عن ذلك في أبيكِ ، ووجدته ، عشت معه سنوات من العشق أفرخت ملاكي الصغير .. أنتِ .. فزاد حبي له بسببك .. واستقرت مشاعري وشعرت بأن الحياة لم تبخل عليّ كما تفعل بالآخرين .

لم أفهم كيف حافظت على تحجري طوال تلك المدة ، وددت لو ربت على كتفها وأنا أسمع صوتها وهو يتقطع من بكائها الهادئ ، ولكن كان عقابي لها أسوأ من الكلمات ، فقط الصمت والجحود ، حتى بدأ صوتها بالضعف في هزال غامض .

« مرت السنوات .. ولا حظتِ بنفسك ما جرى لأبيكِ .. تبدّ ل بعد موت أخيك رضيعً ا .. جاهدت لإخراجه من تلك الحالة ، حتى أني أجبرته على إنجاب عمرو .. ووعدته بأننا سنراقبه يكبر أمام أعيننا كما لم يفعل من مات ، وكأني كنت أجبره على أن يكون كما اعتدت عليه ، حبيبً ا ، حنونً ا ، لا ينأى بحضنه بعيدً ا عني حتى وإن كان حزينً ا ، ولكنه أصر على أن يستغرق في حسرته ، صاحب الخمر .. وأهمل فراشنا .. فأبرد قلبي من اشتياقي إليه ، زاد على ذلك إهماله لأعماله .. فضاق عيشنا ، واستحال برد الفؤاد ثلجً ا ناعمً ا كزجاج مطلي بالسواد .. يبدو رقيقً ا من ملمسه .. ولكن لا يخترقه شيء .. لا لمسة ولا ضمة ولا حتى كلمة كل عدة ليالٍ حاول بها أبوك أن يعتذر عما يحدث ..

لم أضعف رغم ذلك .. وإن اختفت سماحتي تدريجيًا وحل الغضب مكانها دون إرادة مني ، فكنت أقسو عليكِ وأخيكِ نهارًا .. وأبكي ليلًا ندمًا على أفعالي . كيف أقسو على فاكهة قلبي وأنا المعتادة على الحنان حتى مع المسيء؟ حاولت حقًا العودة إلى سابق عهدي ، ولكن فاض الكيل وانسكبت الحياة من أطرافه .. ولم يعد لي إلا البكاء ، حتى وإن لم أجد حضنًا أبلله بدموعي ..

إلى أن جاء ابن عمي لإصلاح ما أفسده أبوكِ بأعماله .. قاومت حنانه عليّ منذ اليوم الأول ، بل أشرت عدة مرات لأبيكِ في تبجح بأن مشاعر تنشأ بيني وبين الرجل علّه يغضب ويقرر أن يمنع زياراته ، ولكن .. لم يفعل ، بل عمد إلى عكس ذلك .. سمح له بالبقاء معنا لأيام كل أسبوع .. وكأنه وجد ضالته فيه .. وجد الحضن الذي تنشده زوجته ويعجز عن تقديمه .. اشترى لي رجلًا يرفع عنه حمل مواساتي .. ورضي لى عشيقًا يهدئ باله من ذنب التقصير في احتضانى ..

وبالرغم من ذلك يا ابنتي لم يستغل عشيقي الأمر .. بل شعر بما شعرت به بأن ما يحدث هو بداية خطأ كبير .. فآثر الابتعاد .. ولكنه كان قرارًا متأخرًا ، فقد اعتدت على كلماته وهي تُهدئ بكائي ، واعتاد على احتياجى إليه وهو المنبوذ دومًا من الجميع .. أصبح كل منا نصفًا ينتمي للآخر ..

وفى ذلك اليوم المشؤوم .. س .. سافر أبوكِ ، وقد أصرّ على بقاء ابن عمي مكانه .. تعجبت وتعجبنا معًا من قراره .. هل كان يعد لنا الفراش لخطيئة لن يغفرها أحد لنا؟ أم أراد أن ينتقم من نفسه وقد خانت زوجته التي يحب .. علّه يموت متحسرًا ويتخلص من حياته التي ارتبكت في السنوات الأخيرة؟ لا تظلمي أباكِ يا ابنتي .. كلنا نفعل ذلك .. نتعمد تشويه ما نحب ومن نحب .. فقط انتقامًا من أنفسنا .. وكأن شيطانا يتلبس أجسادنا ويوسوس إلينا في شبق أن نقتل كل عزيز بقلوبنا حتى نضعف ونستسلم للموت دون مقاومة تُذكر .

فطنت إلى ذلك .. وطلبت من عشيقي الرحيل .. ليس لأخلاق لم أعد أهتم بها .. وإنما إشفاقاً على أبيكِ من نفسه . رحل .. وانتظرت عودتك .. ربما أشكو إليكِ ضعفي .. فتملأين ذلك الفراغ المقيت ، ولكن قسوتي أبعدت قلبك .. وشاءت الأقدار أن يرحل أخوكِ إلى مخيمه الصيفي التافه ، لن أخفي الأمر عليكِ .. ك .. كنت أرمح بالبيت جيئةً وذهاباً في توق إلى عودته . ومن أقصد بعودته .. أباكِ ».

تغيرت نبرة صوتها وترنحت ، فعلمت أنها مالت بجسدها على الفراش في نومة لم أفهم سببها ، خرجت بمقدار ضئيل من تجمّدي وأغلقت عيني أملاً في ظلام أحلك مما أطبقه عليّ مرضي القريب . عادت إلى حديثها ، ولكن بصوت أضعف كنت أسمعه بالكاد ، وشابته بحة متقطعة وكأنها كانت تكافح النوم قبل إتمام دفاعها .. وسمعت صوت حكة متكررة على سطح ما ، ظننتها بغضب أنها تلمس ملاءة فراشها القذرة في حنين سافل إلى ليلتها الشهوانية .

« دق الباب يا فيروز .. أبوكِ لا يدق الباب أبداً حتى وإن كان مخموراً .. فتحته فوجدت شريك الخطيئة أمامي دامعاً .. همس إليّ : « لم أستطع ».. هربت منه وعدت إلى الداخل ورجوته أن يرحل .. افترش جلستي بكاءً واعترف : « أحبك »، كان نادماً على ما قال ، وأكد أنه يعلم أن ما يفعله خطأ كبير .. ولكن .. كيف له أن يكتم مشاعره وهو يرى أني كنت عاجزة عن ذلك؟ عرض عليّ أن يتحدث مع أبيكِ فهو صديقه مهما حدث .. أراد في جنون أن يُقنعه بالطلاق حتى يتزوجني .. أغرق سمعي بعباراته « لم يعد لي غيرك ».. « سأحارب الجميع من أجلك ».

كيف لامرأة شاخ قلبها أن تقاوم تلك العبارات وهي تعلم أنها لم تكن كذباً؟ اندفعت في بكاء وارتميت في أحضانه .. وعندها .. جئت .. لم أتوقف عن بكائي ، أردت لكِ أن تريه وهو يواسيني في حنان واضح .. فربما تفعلين ما لم يفعله أبوكِ .. ربما تندفعين تجاهي وتستنكرين ما رأيتِ .. ربما حتى إن أطلتِ النظر نخجل وأدفعه للرحيل فيوافق .. ولكن ، عبرتِ أمام ناظريّ بنظرة قصيرة لم تحتمل حتى ردّها ، وذهبتِ إلى غرفتك وغبتِ في نوم عميق ..

زاد حزني .. وصار بكائي نحيبً ا . كيف؟ كيف لم يعد يهتم أي منكم بتلك المرأة الضعيفة؟ لماذا تدفعونها لتدنس حبها بقلوبكم فقط لكى ترحلوا عنها ، ما الذي فعلته؟ حنوت عليكِ ، وأحببت أباكِ ، وطعنت قلبي بخنجر الصبر على وليدي الميت فقط من أجلكم . لم أكن أريد حنانً ا ، بل قسوة تُ رجعني عن ضعف نفسي .. كانت عبارة استنكار أو لطمة على الوجه أفضل عندي من صمتكم . لم الصمت؟ لم الصمت قبل الخطيئة؟ لم الصمت حينها؟ ولم الصمت الآن يا فيروز؟ !».

انتبهت لتعليقها على صمتي . علمت أنه يؤلمها . تمنيت لو نطقت بأي كلمة قد تهون عليها وطأة ما تقص وهي تتعرّ ى أمامي في ضعف . ولكن .. وقد علمت الآن أن صمتي حقً ا يؤلمها ، آثرت الاستمرار فيه ، وكأني أتلذذ بعذابها . ففتحت عيني وعدت إلى جمودي السابق . صرخت داخل رأسي : تألمي يا أمي .. تألمي فربما أصفح عنك إن تقطع قلبك من الألم ..

لمست أصابعي في بطء وأحسست برعشة خفيفة رجت الهواء المحيط بكفها وأكملت : ضعفت يا ابنتي .. ومن منا لا يفعل؟ استسلمت له فأحاط جسدي بذراعيه .. تُ هت في زمن آخر .. زمن كان فيه الحب محرابً ا، عزلته النشوة عن كل محيط .. عدت إلى نفسي في تلك اللحظات القصيرة .. رأيت ماما وهي تسخر من مشاعري وتصفني بال« رميّ ة »، لم أغضب .. كنتِ محقة يا أمي .. ما الضير في أن أكون رميّ ة العشق .. غيري عاش ومات وهو رميّ ة الغضب .. وغيره رميّ ة الكراهية .. وغيره رميّ ة القسوة . ما الضير أن أكون رميّ ة الأمان؟ ارتميت بحراب ذراعيه وكأني أصلّ ي في تضرّ ع لعبادة نسيت عدد ركعاتها . لا تستنكري التشبيه يا ابنتي .. فلم أعد أهتم بحساب الملكين على ما أقول من كفر .. فأنا في النار لا محالة ..

قررت أن أنطق أخيرًا، ولم أفهم حتى الآن لماذا اخترت تلك الكلمة لتكون أول وآخر ما أنطق به:

«لست ابنتك»..

زاد ارتعاش يدها قليلاً . ومر من الثواني ما حسبته عمراً بدأ وانتهى بلمستها . ثم ربتت على يدي وهي تزفر عدة أنفاس قصيرة سمعتها وكأنها جزء من ابتسامة يأس . ونطقت أخيراً :

«لا تقلقي.. حرصت ألا تكوني كذلك منذ أن جلسنا معاً»..

لم أفهم عبارتها ، وتعاليت عن سؤالها عما تقصد . قررت حينها أن المقابلة التي كانت تتوق إليها قد انتهت ، وحاولت أن أسحب أصابعي من أسفل كفها . تعطلت قليلاً وغابت عني مهارة الحركة ، أردت أن أسحب يدي بسرعة مناسبة ، فلا أعجّل حتى لا تظن بي القسوة رغم ما قالت ، ولا أبطئ فتتوهم في الصفح عما فعلت .

وبينما تعطلت أصابعي بين هذا وذاك ، غابت رعشتها ، وأجلست كفها الناعم على كامل يدي واستقرت كذلك . زفرت في حنق من إصرارها على إضعافي . ولكنها لم تعقّب بتعليق إن كان رفضاً أو مواساة . فقط ظلت كذلك . حبست أنفاسي وأطرقت سمعي إليها . فعادت الرعشة ولكن إلى أصابعي أنا هذه المرة .

انقطع صوت أنفاسها.

انعقد لساني وأصابه ما أصاب عيني من شلل ، دفعت كفها بإصبعي علّها تنتفض لحركتي ولكنها لم تفعل . رفعت يدي المنتفضة وتحسست جسدها حتى وصلت إلى صدرها . فكان ساكناً .

ضرب زلزال عنيف أعماق جسدي ولم يتنفس خروجاً . تمنيت لو أذرف دمعاً على ما فطنت من حقيقة غيابها عن الحياة ، ولكن أبى الدمع بلعنة أن يخرج من عيني الميتتين . زحفت بذراعي حتى عنقها ووصلت إلى وجهها ، تلمّست استدارة شفتيها وتعالت أنفاسي ، فقد كانت باسمة . بحثت عن يدها الأخرى فتلطخ بحثي بنهر من الدماء !

كان صوت الحكاك هو صوت شق رسغيها ! لم ترسل إليّ لتطلب السماح والغفران ، بل جاءت بي لأشهد موتها ، انتظرت كل ذلك الوقت واحتملت توقها للموت فقط حتى تبرر فعلتها أمامي . أرادت أن ترحمني من عبء لقبها الذي التصق باسمي « والدة فيروز »، وأرادت أن تعترف أمامي بدفوعها ، وما كان لها أن تحقق الغرضين ، إلا بالرحيل .

انتحرت أمي من أجلي . من أجل قسوة قلبي التي لم تسمح لها بصفح عما فعلت . قتلت أمي بصمتي وتحجر مشاعري . نصّبت نفسي إلهاً لا يغفر إلا لمن يشاء . وما شئت أن أغفر لها . تحجر الإله طوال جلسة اعترافها . فتحول إلى وثن لم تكن عبادته إلا كفراً . عبدتني أمي فكفرت بحياتها بين قدمي . وما أن أرادت التوبة عن كفرها الأول ، حتى انساقت إلى كفرها الثاني وانتحرت .

لم أصرخ ، وأصر الدمع على البقاء مسجوناً ، فأظلم قلبي وبات نعته كعيني ، قلب ضرير . تحولت في تلك اللحظة من فيروز التي كانت تحب وتغضب بل وتحزن للدرجة التي تتظاهر فيها بعدم السماح ، إلى فيروز الصيرفي ذات القلب المظلم ، التي لا تشعر بحب زوجها وإن باع عمره من أجلها ، ولا تعبأ بمستقبلها وإن تظاهرت بغير ذلك .

كان لتلك الفيروز أن تكون نهايتها كنهاية القتلة . فيروز الصيرفي تصلح حقاً أن تكون قاتلة جلنار انتحاراً كما قتلت أمها انتحاراً .. والسبب الأول في احتراق فرج كما أحرقت روحها القديمة . ولم يبق إلا عزيز قاسم .. ترى .. كيف ستقتلك فيروز أيها العزيز؟ !

انتظرت ملائكة العذاب ولكنها كانت تتباطأ ابتعاداً ، ربما لم يكن هناك حقاً من ملائكة عذاب ، يقولون إن من يموت يراها قبل أن تفارق روحه جسده البالي ، ولكن أمي كانت باسمة قبل الفراق ، هل كانت تبتسم لعذابها كنوع من التطهر؟ أم أنهم ترفقوا بها حقاً وأشفقوا عليها في الوقت الذي لم أشفق أنا فيه على بؤسها؟ أم أنهم لم يأتوا على الإطلاق؟

ربما لم أمت حقاً . فتلك الآلام المتفرقة على جسدي تصرخ بالحياة ، ولم يعن الظلام قط موتاً ، فقد كنت مظلمة لعشرة أشهر وما مِت حقاً إلا عندما عاد إليّ بصري واشتقت إلى وجه أمي أمام ناظريّ .

فتحت عيني ببطء آلم جفوني . كنت أرى حبيبات سوداء صغيرة متجمعة فوق السطح الرخامي الذي اتخذه رأسي وسادةً باردة . دارت مقلتاي داخل استدارة عيني الملتهبة . كان لا يزال المكان مظلماً . تساءلت : هل غفوت لدقائق فقط؟ كل تلك الساعات من ذكريات قديمة وهلاوس قريبة مضت في دقائق؟ أم أني غفلت في غيبوبة لأيام تبدّل فيها النهار بالليل عدة مرات حتى استفقت على ليل آخر؟

إلا أن بصيص ضوء مستتراً خرج من ثقب لا يكاد يظهر ، أطاح بأسئلتي إلى جواب واضح : نحن حقاً بالنهار ولكن .. أين النافذة وضوؤها من تلك الظلمة؟ !

اعتدلت في تعب تسرّب تدريجياً كعباءة أفلتها رويداً . تأملت المكان حولي فتعجبت مما أرى . كانت الجدران محترقة حالكة السواد ، لم يعد هناك من قطعة أثاث انتصبت على قائمتها . تفرق الجماد بين تماثيل من رماد يوشك أن يتهدم إن لمسته ، وبقايا سوداء لامعة كمسحوق ساخن من القطران السائل . امتلأت الأرضية الرخامية بحبيبات الرماد فغطتها . تساقطت دهانات الجدران عن بكرة أبيها ولم يظهر منها سوى شقوق متعرجة غطتها زينة البناء . نظرت إلى الباب فلم أجده ، ورأيت مكانه تلالاً من الأحجار بدت وكأنها تشهمت من جدار لم يتحمل إعصار الجحيم فسدت مدخله . وكذلك النافذة ، غطتها تلالاً أخرى من أحجار ذات أسياخ حديدية سقطت من سقفها ، فلم يظهر منها إلا ذلك الثقب النهاري .

اعتاد بصري على ما رأيت ، فسمح تأخر إدراكي لأذني أن تنصت وأن تلتقط بعض الأصوات . كانت صادرة من ذلك الثقب . تحركت إليه متعرجة من الإرهاق وأنا أتعثر في بقايا ما سقط من أحجار . ألصقت عيني بفتحته فوجدت حشدً ا يتقدمهم عاصم يتظاهرون أمام قصر أفندار .

كان عاصم يتحدث في توتر إلى زهدي، ولا يلبث أن يقطع حديثه ويصيح تجاه القصر: فيروز! هل تسمعيني؟

لم أجبه ، فسمعته يحتد على زهدي : تصرّ ف .. وإن لم تفعل فسأفعل أنا .. لن أترك زوجتي حبيسة بالداخل حتى وإن كانت ميتة ! فلتتصرف ..

أجابه زهدي : يا سيدي .. إن تحطم الأحجار يحول دون إخراجها .. والطريقة الوحيدة هي أن يُ هدم جانب القصر الداخلي .. ولا نستطيع فعل ذلك .. إنها ممتلكات الدولة ..

صرخ به ، فانتبه له الحضور ممن تبقى من حفلة البارحة : فلتحترق الدولة بمن فيها ! استخرج قرارً ا بهدم القصر .. فيروز ! هل تسمعيني يا حبيبتي؟ ! افعل شيئً ا يا زهدي !

اعتدلت دون أن أجيبه مرة أخرى ، علمت أني وإن كنت لازلت حية سأموت قريبً ا ، فلِمَ أطعنه بالأمل لساعات قبل أن أسرقه منه مرة أخرى .

اعتدلت من إصغائي وتجسسي ، وتأملت قبري الجديد ، مسحته ببصري أملً ا أن آلفه قبل أن أتركه جسدً ا بلا روح بعد ساعات . بدت تشققات الجدران في هيئة جميلة وقد تحررت من شهوة الحياة وزينتها ، فظهر كل شيء على حقيقته ، لم يعد هناك من جميل وقبيح ، فقط كل شيء جميل .. وكان عليّ أن أموت حتى أعلم ذلك .

تحرّ كت في خطوات آلمتني بأحجار الأرض المسننة ، خلعت حذائي وقد انكسر كعبه وألقيته بعيدً ا واستمتعت بعري قدميّ دون أن أهتم باتساخ عقبيّ بما تتلطخ به من رماد وقد تلطخ

جسدي بالكامل به . أجلست راحتي على شعاع النور الضيق وتحركت معه أتتبعه إلى النقطة التي سقط عليها فأجلس تحتها مستظلة بآخر نهار ستراه عيني .

جلست مستندة إلى جدار اعتلاه شق من نوع غريب ، عدلت جلستي حتى أضبط بؤرة الضوء الضيقة على عيني تمامً ا ، شعرت بنشوة التعلق بالضوء ، بعد أن كنت حبيسة الظلام سابقً ا . فربما سأموت كما ماتت أمي وكما ماتت جلنار .. ولكني هذه المرة لن أرى الظلام . فقط سأرى الضوء الصافي .

تأملت تراب القاعة وهو يدور حول شعاع النهار فيضيء بنوره ، بدا الأمر كلوحة أخرى من لوحات أفندار لم يرسمها فرج ولم يُ قدر لبطلها أن يُ قتل على يد فتاة مسكونة بالذكريات القاسية . فقط كانت لوحة جميلة من تراب أذرّ ه القدر حول عمود من ضوء مبهج .

أسندت رأسي على الجدار خلفي ، فضربني حجر مسنون بوخزة ارتد وجهي على إثرها . ابتسمت ساخرة في استسلام للأقدار التي لا تسلط آخر ضوء من نهارها إلا على تلك البقعة من الجدار ، حيث شق مسنون يؤلم خلف رأسي إن اشتهيت اعتراض بصيص الحياة الابيض .

اعتدلت وجذبت حجرً ا أرضيً ا وطرقت به على ذلك السن المدبب ، فإن كنت سأموت ، فلن أتنازل حتى عن تلك الجلسة الهادئة .

ضربت السن عدة مرات فلم يتحطم . كان الأمر تافهً ا ، فلتتحركي يا فيروز سنتيمترات قليلة تجنبً ا لهذا العناء العبثي ، ولكن .. أصابتني هيستيرية الإصرار : بل ستنكسر أيها الشق اللعين .

استنشقت هواءً عريضً ا واستجمعت قوتي وانطلق كفي محتضنً ا حجره الغليظ تجاه الشق في عنف بضربة لم تخطئه . ضربته .. فانفلق السن إلى نصفين . ابتسمت ، ولكن ما لبثت أن تجهمت مرة أخرى ، وقد سمعت صريرً ا لتراص الأحجار وهو يتحرّ ك .

آه .. لن يكون الموت هادئً ا . بل سيكون قاسيً ا بسبب تافه . من بين كل الجدران اخترت أوهنهم لأضربه حتى ينهال عليّ ويدفن جسدي أسفله .

انهار جانب من الجدار ، وتسمّ رت في استسلام لضربته ، ولكن كان انهياره متعرجً ا بشق ي ُ رسم أمام عيني في براعة غير مفهومة . يتحرك في حلزونية حتى أغلق دائرة حول نفسه . وفى هدوء وسلاسة .. سقطت الدائرة أمام قدميّ دون أن تمسّ ني بسوء .

هل ما رأيت كان حقً ا؟ أضاءت بقعة النهار بالتحديد الجزء الدائري الذي انهار من الجدار . وليته توقف عند ذلك ، بل اخترق ثقبً ا مستطيلً ا به وكشف عن شيء ما مختبئ داخله .

هل ما رأيت كان حقً ا؟ مددت إصبعى داخل الثقب فتلمّ ست شيئً ا ورقيً ا . ساعدت الإصبع الأول بآخر وأطبقت بهما على طرف اللفافة الورقية . وجذبتها في قوة . فسقطت أرضً ا وانفلقت طياتها .

هل ما رأيت كانٍ حقًا؟ برز من ذيل الورقة المطوية عِبارة كُتب عليها «عزيز قاسم»!

سقطت على ركبتي وعلمت مكائد الأقدار . كانت تشير بثقبها النهاري إلى ذلك المكان بالتحديد ، وأصابتني بجنون غير مفهوم لأضرب هذا الجدار دون غيره فقط حتى أعثر على لوحة قتيلي القادم .

صدق فرج عندما سألني: إن كنتِ تؤمنين بالسحر.

فتحت اللوحة في استسلام ، فاتسع ثقب النهار بسقوط بعض أطرافه تباعً ا ، لم ألتفت إليه ، بل أكملت عملي وقد فهمت ما تريده ، وكأنها تهمس : ها قد أفضت عليكِ بالضوء بين الظلام حتى تريه جيدً ا .. وتقتليه سريعً ا ..

فتحت اللوحة ورأيت هيئة عزيز ، كان يبدو مسنً ا قليلً ا بضربات فرشاة فرج البيضاء على لحيته . راقبته في جمود : أنت عزيز قاسم .

دبت الحياة في وجهه وبدا عليه الفزع فلم أطرف لفزعه، فقد اعتدت على صرعة الناس لرؤيتي.

همس في خوف: من أنتِ؟

جرى صوته بجسدي في دفء شعرت وكأني كنت أتوق إليه، فتساقطت دفاعات جمودي، وانهمرت دموعي في ضعف وتوسلت:

«أنا فيروز».

اقتربت من وجهه في يأس حتى بللت دموعي رسمته..

«ساعدني يا عزيز»..

-١٢-

أفندار

∞

كانت تؤنسني فقط بنظرتها بتلك الغرفة المقفرة من المستشفى . يكفي أن تنظر إليّ في هدوء وربما استسلام لم أفهم سببه ، أو بالأحرى لم أحاول . فقد كان في إشراق وجهها بين تلك الأجهزة الطبية وأنابيبها الباردة سلامً ا غير مفهوم ، ارتحت له وأحاط جسدي المهشم - من ضربة تلك السيارة المسرعة - بنسيم دافئ يداعب أطرافي في حنان . تعجبت من جلنار ، كيف لها أن تفزع برؤية ذلك الوجه الناعم ، بتلك النظرة البريئة والتي تشبه في استدارة عينها وانسحابها تحت جفنها المنكسر كنظرة طفل مسكين يتعلق بإصبع من أحاطه أمانً ا وحبً ا . هل هي كذلك حقا؟ ملاك بوجه خمري يربت على ضربات القلب فيُ هدئ تسارعها إلى اطمئنان غير محسوب ، أم أنها من نسل إبليسي تتشح بتهافت أجنحة طاووسه الزائف وألوانه الزاهية فقط من أجل استدراج مريدي جمالها حتى لحظة افتراس قلوبهم ، فتظهر أنيابها وتنهش قلوبهم المطمئنة وتدفع بهم من أعلى حافة الفزع إلى انتحار إرادي؟ !

من أنتِ حقًا يا فيروز؟

من أنت حقً ا يا عزيز؟ كيف يكون ذلك الشبح الذي أطاحت كلماته على مفكرة قديمة بأيام حياتي في لحظة وثانيتها ، أن يكون بتلك الهيئة المقدسة؟ نعم .. كان يبدو كنبي علم الحقيقة من

وحي مجهول ، فأسرّ ها في نفسه ، وزهد في الدنيا وما ورائها بابتسامة رثاء على من لا يزالون أسرى ألوانها النابضة بحياة الأموات ، ينظر إليهم في حزن على ما لا يعلمون ، يتمتم له بدعاء الاستيقاظ من الغفلة بطرفات هادئة من عينه . ونعم لم أنطق بكلمة . فقط راقبت وجهه ونظراته الانسيابية كبحر مالت أمواجه على شاطئ مقفر . شاطئ وجهي الذي تكاد الشمس أن تنطفئ عنه قريبً ا جدً ا .

أريد أن أحدّثه كما فعلت مع جلنار ولكن.. ماذا أقول؟

هل عليّ أن أبدأ أنا؟ هل كان هذا هو الإجراء الذي اتبعته مع جلنار؟ فقط تراقبها حتى تطمئن لها ثم تهمس بأي كلمة لتجيبها؟ ولكن .. ماذا لو فعلت؟ وكانت تلك الكلمة هي التعويذة القدرية التي ستمسخ حالها من ملاك باسم اطمئننت له ، إلى وحش مدمم المخالب فزعت له جلنار فنحرت عنقها؟

لا .. لا أريد أن أفعل ذلك . كيف أغامر بصرف تلك الروح المؤنسة من أمام عيني وأنا في أحوج الحالات إليها؟ كنت أعلم منذ أن أطاحت بي معادن السيارة الغليظة في الهواء ، أني سأكون وحيدً ا . وكأن لحظة اقتراب الموت تتسع فجأة إلى زمن بعمر الدهر الأزلي ، أرى فيها وأسمع ، بل وأفكر وأظن . رأيت حالي بينما كنت في الهواء قبل أن يلامس جسدي الأرض ، رأيتني ممددً ا في نصف جلسة ، ربما إن مِ ت فتلك هي هيئة الأموات قبل تشريفة ملاكيْ السؤال ، وإن كنت حيًّ ا .. فتلك هي هيئة الأحياء ممن يُ لقي بهم محبوهم على فراش بمستشفى فارغ من الأنفاس ، يستمع إلى مواساتهم وقدر مشاعر الحب التي ضجت بها قلوبهم ، ولكن لن يلبثوا إلا أن يرحلوا إلى أيامهم وما فيها ويتركوه وحيدً ا . فقط تنغرس أنصال المحاليل وأنابيب الأدوية بلحم ذراعه ، وتصم صافرات أجهزة القلب والحياة آذانه . فيزيد السكون من وحدته شقاءً ، ويتباطأ الوقت قبل انصرافه قرونً ا .

أنتِ جليستي الوحيدة في عزلتي القدرية يا فيروز . ها أنا ذا على فراش ممدد كبهيمة تنتظر الذبح . فإن أردتِ قتلي فافعلي ، وإن أردت إبقائي حيً ا .. فاستمري بتلك النظرة ولا تحيدي عنها .

هل تعرف الحقيقة يا عزيز؟ كلا بالطبع .. كيف لك أن تعلم أن قاتلتك حبيسة جدران تفتك بروحها للفناء في بطء قاسٍ ، كمن تكومت بأحد أركان العالم بعد عصفه لجسدها الصغير ، وتراقب أقداره وهي تقترب منها في بطء وتوعد ، ربما علمت الأقدار أن بطء اقترابها يزيد من خوف فريستها وعذابها ، فلا تعجل بطعنها ، بل تقتات على رؤيتها فزعة . فلتطعني القلب وتخري العروق بل لتكتمي الأنفاس بالفعل ، ما الذي يؤخرك؟ افعليها لأرتاح .

وما هي الراحة حقا؟ جثة ممددة بقبر ينتفض على خطوات ملائكة السؤال؟ أم تلك الحالة التي أنا عليها الآن؟ فقط أجلس أمام ذلك الرجل ، أحدّ ثه بالنظرات ، فيردها إليّ اطمئنانً ا . وكأنه يعلم ما يدور في خلدي ، فلا يجيب ولا يعقّ ب ، فقط تنسكب روحه داخل فجوات جسدي المهترئ ، وانسكب روحً ا داخل عينه اللامعة .

لا تتحدث يا عزيز إن أردت .. فربما إن فعلت ينفلق مقبض السحر ويحدث ما اعتادت عليه الأقدار من قسوة ، فتنتحر كما فعلت صاحبتك .. أو تنصرف كما فعل كل من أحببتهم يوما .

كيف تفعل يا رجل؟ تلك هي المرأة التي انتظرت رؤيتها لثلاثة عقود . ها هي أمامك ، فلتتحدث ، فلتسألها عن سر ما يحدث ، فلتحل لغز جلنار الذي رفس بجسدك إلى نفق من الأحداث لم تظن يومً ا أن تكون بطلها . اللغز الذي سن نصل ليلى على رقبتك ، وأضاع منك بركة ، ونسف ما أملته من علاقة بابنك الوحيد ..

تحدّث يا عزيز..

«لم الصمْت يا عزيز؟ أتخشى أن أقتلك؟».

ها قد تحدثت.. فلتجيبها: و.. وهل عليّ أن أخشى ذلك؟

«لا أعلم.. ربما!»

هل أفزعته بتلك الكلمة؟ وإن فزع .. فلماذا؟ إن كان يعرف الحقيقة التي بحثت عنها طوال تلك الأيام الماضية فربما لم يكن ليسأل ذلك السؤال . هل هو مثلي لا يعرف ما الذي يحدث حقا؟ ربما كنا شريكين في رحلة مجهولة وظننا خطأً أن كلً ا منا سيجد جواب سؤاله بحديث الآخر . ولكن .. يبدو أن أيًّ ا منا لن يفعل .

«حتى وإن كان ما قلت.. فلم أعد أهتم يا فيروز»..

- ألا تخشى من الموت؟

-أتخشين أنتِ قتلي؟

-لست بقاتلة أيها المجهول..

-يبدو أني كنت مخطئًا إذًا.. بل ربما ليست تلك هي البداية التي تليق بلقائنا..

آرحت لوحته على الحائط واستسلمت ٍلإرهاق جسدي: فلنتخير تلك التي تليق إذا..

أغلقت الممرضة ضوء الغرفة وانصرفت وهي تلوي عنقها تعجب ً ا من تحدثي مع جزيئات الهواء وخرجت فاعتدلت لونيستي : لم أصد ّ ق عندما رأيتك أنك قد تكونين السبب في انتحار من يراك ِ..

ابتسمت في سخرية بائسة: بل صدّق.. فأنت على وشك الموت..

هرب ما تبقى من دمي وشحب وجهي: هل ستفعلينها؟

راقبت خوفه فندمت على قولي رغم صحته : أخبرتك أني لست قاتلة .. ولكن يبدو أنى أصبحت وليدة لملك الموت .. ربما كلفني بمهمة بسيطة لا أفهمها ولا أحتاج لأن أفعل .. فقط انظري إلى الضحية وهي ستموت من تلقاء نفسها ..

- فلماذا صرّحتِ باقتراب موتي إذا؟

-أين أنت الآن؟

-ولم السؤال؟

-إجابة سؤالي هي إجابة سؤالك..

-بالمستشفى..

أغمضت عيني في استسلام: لا تقل إنها حادثة سيارة..

تعجبت من علمها بالأمر: كـ.. كيف تعرفين ذلك؟

نظرت إليه في شفقة: هذا ما قالوه.. أنك ستموت في حادثة سيارة..

- ولكني لم أمت بعد..

-ربما ستفعل متأثرًا بجراحك..

-لا لن أفعل..

-فلتراجع تاريخ يومك إذًا..

-هل تعرفين مستقبلي؟ ومن الذين قالوا؟

-قالوا إنك ستموت في حادثة سيارة في الثامن والعشرين من يناير عام ٢٠٤٩..

ابتسمت مما قالت فهي لم تكن تعلم الحقيقة ، ولكن ما لبثت أن دبت بجسدي رعشة غريبة ، لم تكن خوفً ا منها ، على العكس ، بل كانت في حيرة من علمها بذلك التاريخ المزيف ، فهذا يعني أنها لم تكن روحً ا أسطورية كما تصوّ رت ، تجوب العوالم وتضرب ببسمتها خيالات البؤساء فينحرون رقابهم ، بل هي أبسط من ذلك بكثير..

سألتها السؤال الوحيد الذي بدا منطقيًا حينها: من أنتِ حقًا يا فيروز؟

ما دفعه لسؤال مثل هذا بعد ما قلته له . لقد كشفت له تاريخ موته الذي يبدو أنه اقترب للغاية ، وبدلً ا من أن يفزع لتلك الحقيقة ، يسألني عن هويتي الحقيقية؟ وأي حقيقة كان يقصد؟ وفي أي هوية كان يظنني قبل ذلك السؤال؟

أجبته في غير فهم: امرأة كغيري..

يبدو أنها لم تفهم ما قصدت: حسنًا.. أخبريني منذ البداية.. كيف بدأ الأمر بالنسبة إليكِ؟

جاءت أخيرً ا اللحظة التي تمنيت أن اقتص فيها ممن تسبب بشقائي : بدأ بحماقة شخص مثلك .. رسمني بمفكرته البالية ..

- وكيف علمتِ أني رسمتك؟

-لقد رأيتها..

-كيف ذلك وهي لم تفارقني..

-ألا تفهم بعد؟ لقد آلت إليّ بعد موتك..

ضربت عبارتها رأسي: بعد؟!

ضرب سؤاله غفلتي عن إخباره بالحقيقة التي ظننت أنه يعرفها مسبقً ا : أجل .. لقد عثرت عليها بعد موتك بسبعين عامً ا .. لك أن تتخيل أيها الغريب أن ترى رسمً ا لنفسك بمفكرة قديمة مضى عليها ما يقرب من قرن من الزمان .. رسمها أحمق قبل أولد ..

لا لا .. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك . هل ما فهمته حقيقي؟ هل كانت تلك الفتاة من زمن آخر؟ زمن أعقب زمني بعدما اندثر؟ أكان الشبح الذي طارد جلنار حتى موتها ، فقط لفتاة من عدة سنوات مقبلة؟

- هذا مستحيل!

-لم يعد هناك من مستحيل فأنا أحدثك وتحدثني..

- كيف يحدث ذلك إذا؟

- أملت أن أجد إجابة ذلك السؤال عندك..

بدا من إصفرار وجهه أن ذلك السؤال ربما يكون الوحيد الذي لم تخلق له إجابة . عندها هز جسدي ذلك الشعور الذي يصيب القافز من حافة الجسر قبل أن يرتطم جسده بالماء انتحارً ا . وكأنه يسأل نفسه .. ماذا فعلت؟ لم انتحرت؟ كان الممكن أن أصلح ما أفسده الزمن بحياتي .. ولكن .. فات الأوان سأموت قريبا ..

هكذا شعرت . بذلك الندم على ما فرطت في حياتي بركضي وراء تلك المفكرة ، خسرت زوجي وعملي وأحلامي وإيمان وفرغلي وكل شيء . علمت الحقيقة فقط قبل أن يرتطم جسدي بالماء وتمنيت أن أعود لما قبل تلك المفكرة فأصلح الأمور .. ولكن حدثتني نفسي كما حدثت ذلك القافز « فات الأوان أيها الأحمق ».. وفى حالتي « أيتها الحمقاء الساذجة ».

قالت عبارتها وسكتت في حزن . فألجم الحزن لساني أنا الآخر . كنت أركض طوال تلك السنوات فقط لأعرف حقيقة ما حدث منها ، وها هي تطلب تلك الحقيقة مني . بدت مثلي تمامً ا ، مجرد ضحية لمؤامرة قدرية لا أول لها ولا آخر .

اعتدلت وقد حاولت أن أعود إلى البداية ، ليست بداية ما حدث ، وإنما بدايتي أنا ، كطبيب محنك يحاول أن يحلل الأمور في تسلسل منطقي ..

«فلنرَ إذًا.. تقولين إن الأمر قد بدأ بعثورك على مفكرتي.. ووجدتِ بها رسمك.. ما الذي حدث بعدها؟».

مللت حقًا من استجوابه عما لا أعلم فاحتدت نبرتي : كما قلت لك ! رأيت رسمي .. فتحرّيت عنك .. وعلمت عنك وعن جلنار كل شيء .. فقط !

- فكيف قابلتِ جلنار إذا؟

-ساقني بحثني اللعين إلى لوحتها.. فما أن رأيتها حتى فزعت.. وانتحرت!

-ولكني لم أرسمك حتى انتحرت جلنار..

-لماذا لا تصدق؟! لقد أخبرتك بكل ما أعرف!

ارتد رأسي للخلف وقد صفعته أجنحة الحقيقة ، فلو كانت فيروز أمامي لأطبقت على كتفيها في صدمة : توقفي ! هل تقولين انه لولا أن رسمتك في تلك المفكرة .. لما وصلتِ إلى جلنار؟

مالت رقبتي رغم ما تفرق عليها من ألم وقد فهمت ما رمى إليه : وهل تقول أنت انه لولا أن رأيت جلنار لما رسمتني؟ !

نظرت إليها متحجراً وغابت الكلمات عن أسوار لساني فما سقطت منها واحتبست بحلقي، فوالله كادت أن تخنقني.

انتفضت وجلست القرفصاء أمام لوحته ولم أعرف إن شعر برجفة ذراعي على لوحته أم لم يفعل . تزاحمت برأسي العديد من الكلمات حتى ضاقت بها شفتاي ولم تسمح لها بالخروج . فكان الصمت سيدً ا أطعناه معً ا .

تعالت صافرة جهاز القلب وقد تسارعت دقاته: أهي دائرة مفرغة؟

كسر الصمت أخيرًا فانفجرت أنا الأخرى: يا الله! كيف يحدث ذلك؟!

غاب صوت الصافرة عن رأسي فاستقام ذهني لصفاء غاب عني لفترة طويلة ، وعارضتها : السؤال ليس « كيف ».. وإنما « لماذا؟ ».

دمعت عيني بعدما امتنعت عن ذرف الدموع بعلمي عن اقتراب موتي : كما أخبرتك .. قدر .. قدر يجبرني على تنفيذ مهمة .. وهي القتل .. قتلت جلنار ولسوف أقتلك بعد قليل ..

صرعتها في قوة: توقفي عن ذلك الظن!

تحوّل فجأة إلى أب ذي سلطة على فتاة خائرة القوى فانتفضت له وبررت في ضعف: لقد قالت الأوراق ذلك!

اندفعت رغمً ا عني : كذبت الأوراق ! لقد زيفت ذلك التاريخ .. أنا حي يا فيروز ! وإن مت .. فلن يكون ذلك عام ٤٩ .. فأنا في ٧٨ بالفعل !

وكأن الأمور كان ينقصها المزيد من الغرابة . ليس لأنه قال إنه زيّ ف تاريخ موته ، ولكن لحقيقة أنه حي ولم يمت إلى الآن ، فأنا لم أقتله كما فعلت مع جلنار .. ألست بقاتلة؟

حاولت أن أطمئنها: لستِ بقاتلة يا فيروز..

هل سمع ما جال بخاطري؟ إعتدلت له: هل تقرأ أفكاري أيضًا؟

الآن رأيتها بحق . ليست كشبح جال بخيال جلنار فكرهته ، ولا كوجه ملائكي آنس وحدتي فأحببته ، وإنما كانت كطفلة مذعورة ، سقطت سهوً ا من يد الأقدار فتاهت بين أروقتها واستقرت بخوفها أمام عيني ، لا تفهم ما الذي أتى بها إلى هنا ، ولم أعد أفهم كيف أعيدها إلى مأمنها .

حاولت ضمّها بكلمات أضاءت عقلي بما غفلت عنه: لم تقتلي جلنار يا فيروز.. جلنار انتحرت..

اهتزت وجنتي لابتسامة امتننت بها لمحاولته التخفيف عني: لقد قلت بنفسك أنها انتحرت عندما رأتني..

قاطعتها بما آمنت به : بل انتحرت لأنها أرادت ذلك .. (تنهدت في شفقة على جلنار).. كل ما حدث لجلنار منذ أن انحنى لها الملك دون غيرها .. حتى وطأتها أدناس الرجال أجمعين دون غيرها أيضً ا .. وهي تبحث عن مخرج .. ولم تكوني إلا مجرد مفتاح لباب خافت طويلً ا أن تفتحه ..

تمنيت أن يكون حديثه صحيحًا: هل هي من أخبرتك بذلك قبل انتحارها؟

تمنيت لو كان ذلك صحيحًا: بل علمته عنها بعدما فعلت.. لم أترك أحدًا خالطها إلا وسألته.. كانت مسكينة..

عدت إلى حنيني إليها الذي لم يشعله إلا دقائق شاركتها فيها الحديث: وما الذي قتلها؟

شعرت أنها كانت جزءً ا منا أجمعين : الأمل يا فيروز .. الأمل .. كل منا يشبه جلنار بطريقته .. نُ خلق ببراءة لم نظن أنها سترحل عنا .. فنحب من أحبونا .. ولكن سرعان ما يرحلون .. وتتبدل البراءة بالحسرة .. فنقسو على أنفسنا .. ونرتكب من العار ما نعاقب به أرواحنا .. ثم نستفيق .. ونأمل .. نأمل أن نعود إلى ما كنّا عليه .. فيكبلنا الحزن مرة أخرى .. فنأمل من جديد .. فتحكم الحسرة قبضتها علينا .. فنأمل من جديد .. ونأمل من جديد .. ونأمل .. حتى يصرخ الأمل بـ « كفى ! ما أنا إلا وهم العاجز ».. وعندها فقط .. تمتد أيدينا إلى ذلك الباب .. وننتظر مفتاحه ..

أفاض حديثه على رأسي كنهر ثقيل غاب عن جداوله فقط ليعيد عليّ أحزاني : ليتني وجدت ذلك المفتاح مثل جلنار .. هـ .. هل فكرت في ذلك قبلً ا؟ أن تدير ذلك المفتاح داخل مقبض الباب وتفتحه؟

خرجت الاجابة دون وعي مني: لولاكِ لفعلت منذ عقود!

انتبهت له، فأشاح بنظره نجلًا: أنا؟!

فات أوان الخجل : اا .. أجل .. كان لغز فيروز هو من يبقيني حيً ا .. يوم رحلت حب عمري .. وفى أكثر اللحظات ألمً ا ومهانة في المعتقل .. حتى يوم أن تحولت إلى عزيز آخر .. شيطان بأجنحة ملائكة ، في كل مرة .. كنت أبحث عن ذلك المفتاح .. ولكن .. كلما اقتربت منه .. همست الأقدار إليّ باسمك .. « بل انتظر حتى تقابلها ».. ربما أنقذت حياتي عدة مرات يا فيروز رغم ما تظنينه عن نفسك بأنك قاتلة لا محالة ..

تمنيت أن تثلج كلماته صدري ولكنها زادته اشتعالا: بل ربما تكون أنت مفتاحي يا عزيز..

سألتها ، ليس كطبيب قديم عاد إلى وظيفته كرحالة بين أحزان النفس ومآسيها ، وإنما كعجوز شعر بحنين ما لتلك الطفلة : وكيف بدأت أحزانك يا فيروز؟

«كما ينتهي كل شيء.. بابتسامة»..

أغمض عينه في حزن لم أفهم له سببً ا ، بل اعتصر جفونه إغلاقا وظل هكذا لثوان ، وكأن عبارتي طرقت على رأس وترٍ محموم فشدته وآلمت به قلبه . فأغمضت عيني بدوري وكأني اتحدت معه في تلك الرغبة بتخطي المنظور والغوص بين لطمات الماضي المظلم في سكينة ، ولكن لم يدم الأمر طويلً ا ، فما أن واربت شفتي لإكمال مسلسل أحزاني حتى انتبهت على أمر تعجبت له ، فغضبت رغمً ا عني ..

« لماذا سألتني ذلك السؤال؟ لست في حاجة إلى مواساتك أيها الغريب .. فأحزان فيروز لفيروز حتى تبتلعها مقابر الأقدار ».

لم ألتفت لمقاومتها عن البوح بما أسرّ ت به لنفسها ، فقد كانت رغبتها بالانفجار تقفز بين أنفاس عبارتها الغاضبة . إنه الكبر فقط . أعرف ذلك الشعور جيدً ا ، بل أعرف ما هو أكبر منه .. « شهوة النواح للغرباء رغم أنف النفس وعزّ تها ».

« أنت خيال يا عزيز .. وربما أكون أنا كذلك بالنسبة إليك .. فلم تحاول استقطاب مشاعري وأنا على حافة الموت؟ »..

أصررت في هدوء علمت أنه سيشعلها غضباً: تحدثي يا طفلتي..

اشتعلت غضبً ا من إصراره : ماذا تريد أيها الأحمق؟ ! ليس لك أن تقتحم ظلمتي .. ولم أطلب منك ولا من غيرك أن ينيرها بكلمة باهتة أو ربتة خائبة على كتف تحمّ لت فوق طاقتها .. فلتنصرف عني ! أردت مقابلتك فقط لكي أفهم ما الذي يحدث .. ولكنك لا تعلم .. فلم يعد لك من نفعٍ .

فتحت عيني ففلتت دمعة احتبسها جفني قبلً ا : لم تكن جلنار هي الوحيدة التي انتحرت يا فيروز .. بل كذلك أمي ..

نفثت عبارته تيارًا من الصقيع أذهب إحمرار وجهي ونطقت دون أن أدري: وأنا كذلك..

عدت وقد نظرت لها: كرهت من أحبني.. وأحببت من رحل عني..

ارتعشت أناملي وأنا أتأمله وكأني أرى الماضي بين عينيه: وأنا كذلك..

استسلمت لنظراتها البائسة، فأكملت هي: لم أعد أعرف من أنا حقًا يا عزيز..

أومأت لها وقد علمت الحقيقة: وأنا كذلك يا فيروز..

شعرت بالحقيقة ولم أتمكن من النطق بها ، وكأن الكلمات لم تُ خلق لها ، فقط شعرت أني فهمت الأمر كله ، ولكن ....

ولكن .. لم يقو أي منا على البوح به ، بدت الأمور لنا وكأن السبب وراء كل ما حدث أعلن عن نفسه أخيرً ا بطريق الخطأ . فقط عبارة قالتها .. عبارة قُ لتها .. نحيب آلمها .. لنفس

السبب الذي آلمني ..

« لماذا أخبرتني عن موت أمك؟ لولا أن أخبرتني .. لما أخبرتك عن أمي .. ولم نكن لنظن كما نظن الآن كمجنونين أن هناك رابطً ا بيننا »..

« بل أنتِ من فعل ذلك .. جرت كلماتي على لسانك .. ودق قلبي لذكرى وافقت ذكراكِ .. بدأ الأمر حيث ينتهي كل شيء .. بابتسامة .. عشت قبلك تلك العبارة لسنوات .. قلتها ولم أفهمها حقً ا حتى سمعتها منكِ »..

تمنيت أن أستسلم لما شعرت به، ولتلك الفكرة الجنونية، ولكن عاندت نفسي: كلا.. في الأمر صدفة..

مسحت دمعي وابتسمت لها: أتخشين قولها؟

كان على حق: بلى..

نطقت بها بدلًا منها: سأقولها أنا.. كل ذلك كان من أجل أن نلتقي..

لم أتمكن من معارضته ، فأجبته في شرود فصل جسدي عن ظلمة القاعة : ولكن لماذا؟ ما الذي تهيئه الأقدار من وراء ذلك اللقاء؟ أنقتل بعضنا؟ أنعود بسحر إلى الماضي فنصلح ما أفسدناه؟ بل كيف يكون ذلك معقولً ا؟ لا يا عزيز .. الأمر أبسط من ذلك .. لا يمكن أن نكون شبيهين فقط لأن أمي انتحرت كأمك ..

قاطعتها في إصرار هادئ: أمي انتحرت بعدما خانت..

تصلب وجهي وتهاوت وجنتي في بؤس: مـ.. ماذا؟

أكملت لها: انتحرت أمك لخيانة أيضًا أليس كذلك؟

توّسلت إليه في إرهاق: توقف يا عزيز..

لم يعد هناك من مفر: لن أفعل يا عزيزتي.. فلقد أشرقت الحقيقة ولا مجال لمحق أقمارها..

انفجرت أخيرً ا وصرخت بسماء القاعة المظلمة وكأن ثورة على الأقدار أوشكت أن تندلع : أي عبث هذا ! لماذا أنا بالذات؟ ! لماذا اخترتني أيتها الأقدار لأكون بيدقً ا بتلك اللعبة الساذجة؟ !

همستٍ لها وأنا أحدّث نفسي بما كرهت تصديقه: ربما كنا روحا واحدة.. انفلقت في الأزل وآن أوان جمعها..

راقبته في اشمئزاز غاضب: أتسمع ما تقول؟! إنها فلسفة فارغة.. جنون! انت تافه! تافه!

قبضت على قلبها لتستسلم: لماذا بدأ الأمر وانتهى بابتسامة يا فيروز؟!

اشتعل جسدي غضباً: توقف!

باغتتُّها: لماذا يا فيروز؟!

جرى العرق أنهارًا على جسدي البارد واختنقت شرا: قلت لك توقف!

صحت بها: فلتصرخي بالأمر!! افعليها!

اهتزت رقبتي كالمجذوب الذي يرفض مواجهة عقله: لا.. لا.. لـ.. اا..

أوقفت مرضى المشفى: بل قوليها!

تصاعدت الأحزان بركانً ا وقطعت صدري حتى ألهبت حلقيٍ ، فانفجرت في بكاء تناثرت دموعه كشظايا متلاحقة من قلب حديدي ذاب بنار الحنين أخيرً ا : أمـــي ! أم .. ـي .. لماذا أيها اللعين؟ ! لماذا؟ أمـــي ! لا تتركيني .. لا تتركي طفلتك .. فهي من دونك تراب .. لا تتركيها .. فقد غابت روحها يوم أن فعلتِ ! أمي ! أين انتِ ؟ !

صرخت بأمها حتى تقطعت أوتار حلقها ، تعالت أصوات نحيبها حتى غطت على صافرات أجهزة قلبي الباردة ، كانت تهتز وتنتفض في بكاء الرضع بعيداً عن ثدي أحياهم قبل أن يميتهم . مال جسدها في هيستيرية لم أر لها مثيلاً .. وغاب وجهها وراء نوّة من دموع كانت تثقب وجنتها الناعمة فتقبرها ..

كان بكائي محرراً لروح حبستها بين أضلعي لسنوات . لم أبكِ على أمي قبلاً حتى وهي تفارق الدنيا بين ذراعيّ، لم أحاول حتى وإن كنت وحيدة . كان قلبي يرتعش دوماً في عنف ليجبرني على نحيبها ولكن ، كنت أضرب على رأسه ليتوقف . ظننت أنني نجحت في ذلك . ظننت أني كرهتها وأنى لن أنساق وراء حنيني إليها ببكاء لم تستحقه . ولكن .. كنت مخطئة .. انا أشتاق لأمى حقاً .. يعتصرني الندم على ما فرطت في جنبها . أتوق إلى لمسة أخرى من أناملها على وجهي فتضيئه سلاماً ناعماً . لم تنتحر أمي في تلك الليلة .. بل انتحرت فيروز .. وها قد بعثها ذلك العزيز من جديد .

تمنيت لو فعلت مثلها وأبكي على أمي للمرة الأولى . ولكن لم أفعل . وهل انهمرت دموعي على أحدٍ من قبل؟ كلا .. كنت جداراً يريد أن ينقض ، فأقامته الأقدار بتأويل استطعت لعقود عليه صبراً . ماتت أمي قبالة عيني فلم ينقض الجدار ، ضاعت بركة ونحرت بضياعها رباط قلبي ولم ينقض الجدار .. ومضيت أسأل .. متى ينقض؟ متى ينهار فوق رأسي فأدفن تحته؟ ولكن أبت الأقدار أن تجيب .

كان شارداً . وكانت ثورتي تنساب في هدوء حتى سكن جسدي . رفعت عيني له في تعب أرهق جفنيها . تفرقت مشاعري تجاهه بين الشكر على ما فعل والخذلان مما فعلت . فعدت وعاد إلى ما كنا عليه فور لقائنا .. الصمت وتبادل النظرات ..

راقبت وجهها وقد ارتسم عليه عمودان من ممرات الدموع شوّها وجنتيها ، فانسقت وراء ما قدّر لنا : لم يكن عبثاً يا فيروز .. الآن فهمت حقاً .. كان لابد أن نتقابل حتى نطرد أسحار الأحزان من عقدة قلوبنا .. ونهدأ ..

لم أردّ له بادرة راحة كالتي استعمرت روحى لحررته ، فتمنيت لو لمست وجنته لأهون عليه : و ..
ولكنك لم تهدأ بعد ..

خرج الحنين من صدري هواءً تنهدت له: أحزاني أكبر من أن تفارقني بتلك السرعة..

أملت لوحته أرضً ا فأصبح وضعها أفقيً ا وبدا نائمً ا في نظري : فلتفارقها أنت .. تحدّ ث يا عزيز .. فربما كان هذا هو مقصد الأقدار .. أن تدفعنا بالبوح عمّ ا خبأنا لسنوات ..

خارت قوتي وزادت من نومتي نومًا على فراشي: لم أخبر أحدًا بهذا من قبل..

أرحت جسدي أرضً ا وتمددت في استسلام وشبكت كفي تحت رأسي كوسادة تحمل نوم عقلي عن غليانه : لم تقابل مثلي من قبل أيضً ا يا عزيز .. أفلت الثقل عن كاهلك ..

أفلت جسدي تحت غطاء الفراش المعدني البارد وقد أدفأته كلمات فيروز . فصرنا في نومة متجاورة .. كشريكيْ فراش واحد ، يواجه كل منا الآخر في نومته ، يكاد وجهانا أن يتلامسا ، تتلاقى أعيننا دون عوائق . يظلني الليل ويعتم ما حولي عدا وجهها الراقد بوسادتي ، ويضيء وجهها بصيص النهار الذي غزا ظلمة سجنها بنومة هادئة . كنا حقً ا على فراش واحد ممددين بلا حراك ، فقط أنظر إليها في سكون .. وفقط تربت بنظرة عينيها على أحزاني في دعم ..

« من أين أبدأ؟ منذ أن كنت ب ِ ك ف ُ ت ِ ن بفتاة بسيطة فترك بهاء عيشته إلى فقر جنتها ، أم من لحظة زواجي بها ، أم منذ أَن تحولت إلى الاسطى عزيز راضي .. أمهر أسطوات المحروسة

في نقش النحاس؟ نعم .. أصبحت كذلك .. أهدتني الأقدار حياة جديدة منذ أن تزوجت ببركة .. فاحترفت صنعتي ، واعتدت على جلبابي القديم . وتجدد شوقي في كل ليلة لأحضان زوجتي وفى كل نهار إلى عرق لقمة العيش التي صرت عبداً لشقائها حباً . مضت أربع سنوات على زواجي من بركة ، ذقت فيها حلاوة العيش الحقيقية ، بين نوم هانئ .. ويقظة ضاحكة .. ونظرة ممن أحب كانت تشعل قلبي بأمارات تقديرها لوجودي . أشعرتني بركة أني رجل بحق .. كانت تعشق ذلّها تحت قدمي . وعشقت دوماً ضم ذراعيها براحتي وأنا أنهضها من جلستها تحت أرجلي وماءها المالح بعد يوم شاق . أقبّل لها وأرفع من مقامها .. فتخجل وتثمّن حبي وتقديري لها . شعرت بين يديها بالخوف لأول مرة . كان الخوف قبلها جُبناً .. كنت أخشى من سطوة زوجتي ليلى المرأة الارستقراطية .. ونفوذ أبيها الباشا .. وصدام أبي اللعين .. واغترابي عن طبائع المحروسة . أما خوفي مع بركة فكان من نوع آخر .. الخوف من الخسارة ، أصبحت أخيراً أملك ما أخشى ضياعه . فما زادني خوف ليلي إلا احتقاراً الجبني . وما أفاض عليّ خوف بركة .. إلا فخراً برجولتي .

أعلم يا فيروز أنك ربما لا تعلمين من هي بركة التي أتحدث عنها ، ولماذا قابلتها . قابلتها لأعرف منها سر جُلنار الذي ربما قادها إليكِ . حبسته عني طويلاً حفاظاً على عهدها مع حبيبتها فاطمة كما كانت تسمّيها ، بعدما وجدت جلنار في البيت الذي تسكنه فتاة بسيطة كبركة السكينة التي كانت تبحث عنها .

فوقعت في حب من كانت جزءاً من رحلتي ، وما أخبرتني بالسر إلا عندما تزوجتها . أخبرتني عن جلنار وكيف أنها كانت تعاون بعضاً من ضباط الجيش للانقلاب على الحكم ، بعدما أقنعها حبيبها السابق ووالد طفلها الغائب ذلك اليوزباشي بشعاراته الوطنية .

كلف الورداني جلنار بالإيقاع بكامل باشا حموّي وقتها ظناً منه أنه مجرد منافس وفديّ يطمح للإطاحة بحزبه من الانتخابات البرلمانية القادمة ، ولكنه لم يكن يعلم حقيقتها . أوقعت جلنار حقاً بكامل فوقعت في حبه كما ذاب عشقاً في حُسنها . وساقتها ليالي الشهوة بينهما

لمعرفة أنه هو الآخر كان متضامناً مع هؤلاء الضباط ، فتوافقت الأغراض ومهّدت الطريق أمامها لعشق محذور .

أسرّ إليها بالسر فأسرّت إليه بسرّها ، بل ساعدته في إتمام رحلته . ربما كرهت حياة الأميرات وزيفها واشتاقت لحياة البسطاء وعموم حالتها على الجميع بالعدل . ولهذا أراد كامل قتلي عندما ظن أني عرفت حقيقته فأهدد بجبني مهمته المقدسة . ولهذا يا فيروز زيفت موتي خوفاً منه واختفيت ببيت بركة . وتحولت إلى الاسطى عزيز بك .

وكانت بركة على حق ، فما مرت ثلاث سنوات إلا وانقلب الجيش على الملك وطردوه وتولّوا حكم المحروسة . ولكن .. لم يكن لي أن أترك جلنار عند هذا الحد .. بل ظل ما حدث لها يطاردني ويدفع بحياتي إلى طريق غير محمود العواقب فقط لكي أراكِ . أرأيتِ كيف أجبرتني الأقدار على لقائك ، هل صدقتِ الآن؟

انتهت مهمة بركة وعلمت سر جلنار منها ، ولكني لم أنته من حبي لزوجتي الجديدة . فطلبت منها أخيراً أن ننجب .. ولم لا؟ ظننت أن زواجي منها لن يدوم ، فمن مثلها لا يدوم لها الهناء عِقداً من الزمان حتى يرحل عنها . ولكني أصررت . الآن يا بركة .. لقد رضيت بحياتي معك ، لن أرحل عنك حتى بعد زوال خطر الباشوات وأصبحت حراً . تلك هي الحياة التي تمنيت قضاء أيامها .

كان حسين يا فيروز . أسميته على اسم حبيبي وصاحب الغلاوة الحسين بن علي . تعلقت به منذ أن كان بروزاً ببطنها . سمعت أنفاسه كلما ارتكنت برأسي على جسدها من التعب وهي تداعب خصلات شعري في حنان تحت ضوء القمر . أحببته من حبي لأمه . وشاركتها كل يوم من أيام حملها دون ملل . تغير جمالها فلم أبالِ . فشلت في كتمان آلامها فلم أشكُ من فلتات غضبها . احتضنتها كما احتضنَت حسين طوال التسعة أشهر في سعادة تعجب منها الجميع من جيران الحارة . كنت أثمّن كل يوم تعود فيه روحها إلى جسدها بعد انطلاقة النوم حتى وإن قبحت في نظر الكل . بل كانت خلابة يا فيروز . جسدها الصغير ببروز ضخم ، زاد من بهائها جمالاً .

تهدّ جت خصلات شعرها وغاب عنها انسيابها فعشقت خشونته أكثر فأكثر . أقسم لكِ أني من فرط حبي لها لم أتقزز من حملها لقضاء حاجتها بين يدي وقد خارت قدماها لحمل بطنها فما عادت تتحرك إلا بين ذراعي . أحببتك يا بركة حبً ا فاق الوصف . وكانت تلك غلطتي .

جاء يوم الميلاد . وتجمعت نساء الحارة بالغرفة بالدعوات حول زوجتي والقابلة بين رجليها . ربت رجال الحارة على كتفي وأطعموني الشاي واليانسون على المقهى رغمً ا عني لأهدأ من انفطار قلبي على صراخها . كان يخرج إلينا من فتحات الشيش المحطمة فيزيد من استغفارات الرجال ويضرب عيني بدمع آلمني . تعجبوا جميعً ا مني . إنه الاسطى عزيز القوي ذو الهيبة بينهم والجدعنة . كيف يدمع لصراخ امرأته؟ غفرت لهم حيرتهم فهم لا يعلمون . فقد كانت بركة هي الروح التي خلبت جسدي ولم تفارقه أبدً ا .

أتعرفين ما معنى العشق يا فيروز؟ كنت أتشدق بتلك الكلمة دون أن أعرف مقصدها الحقيقي . فقط كلمة تعبر عن حب الرجال والنساء ، استقاها الجميع من أشعار المعذبين . ولكن في يوم كنت أصوغ تحفة نحاسية أخرى . وأخبرني المعلم وهو يهرش لحيته البيضاء « فلترقق حواف الصحن حتى يتعشّ ق في غطائه يا أسطى ». عندها علمت المعنى وقد شعرت به سابقً ا دون حديث . العشق : روحان يلتحم كل منهما بالآخر .. ليس لأولهما غنى عن ثانيهما ، ولا لثانيهما مقام ولا حياة إلا برقوده بين لحام أولهما . كنت وبركة روحين تعشّ قنا بقلب واحد . فلم تكن دموعي على صراخها مجرد شفقة ، وإنما ألم مثلها . فما كانت تشعر به ويضرب جسدها ، يعود إليّ ويهشم جسدي . كنا شخصا واحدا يا عزيزتي .

حتى جاء حسين إلى الدنيا ، وحملته وحملتني بدموع الفرحة إلى حضنها . وتجهزنا لحفل السبوع بقلب الحارة .. فيسعد الجميع بسعادتنا . ونفتخر بوليدنا كملك علويّ تحتفل المحروسة بتتويجه سيدً ا على قلوب أهلها .

وكان ذلك الحفل هو منبع أحزاني يا فيروز.

أذكر كل شيء كالبارحة تمامً ا . أشرفت بنفسي وبساعدي أيضً ا على تزيين الجدران بأحبال الاضواء الملونة . وأخرجت ما ادخرته من يومية الورشة واشتريت عجلً ا لذبحه . وتوسطت قلب الحارة وحولي دوائر الرجال نصيح ونقارع كفوفنا في ابتهاج بليلة العمر . أما هي .. فقد كانت بين النساء ببيت إحدى جاراتنا الواسع وقد ضاقت غرفتنا البسيطة بزحام المهنئات .

الابتسامة يا فيروز . تلك الابتسامة الأخيرة علت وجهينا وكل منا بين أصحابه . تراني من خلف أسياخ نافذة الجارة . تراقبني في وداعة وفرحة هادئة والنساء خلفها يحتفلن بالمولود برقص وغناء . وأراها من خلف أعمدة الرجال داخل دائرة أحاطوني بها .

أعطتها الجارة لفافة حسين فاحتضنتها ونظرت إليّ . وأشار إليّ كوارشي بذراعه إلى حلبة آدمية من الرقص لأبهج الجميع . فذهبت إليها خلف النافذة المطلة على الطريق ..

همست إليها وأنا أقبض على الأسياخ الفاصلة بيني وبينها: يريدون مني أن أرقص يا أم حسين..

ابتسمت لي وداعبت إصبعي حول السيخ الحديدي البارد بإصبعها فأشعلته دفئً ا : فلتفعل يا سيدي .. إنه على شرف حسين ..

استفزتني في مزاح: أم اااا.. أم لا يعرف عزيزِك كيف هو الرقص بالعصى؟

غابت بسمتي وتحجر وجهي فتعجبت وقد ظنت أنها أهانتني . تركتها وتحركت في تصميم وإصرار إلى الرجال بجلبابي الجديد وعباءتى المستوية حول كتفي وحتى أعقاب قدمي . لم أنظر خلفي ، لم

أعد النظر اليها مرة أخرى . بل تقدمت بقوة واخترقت الحلبة . أفلت العباءة أرضً ا والتقطت العصى التي رماها إليّ كوارشي في الهواء دون حتى أن أراها . كنت كمعلِّ م متمرس حقً ا .

تعالت صيحات الرجال مهللين . وضربت الهواء بالعصى في رقص عنيف ، أتمايل مع المزامير ودقات الطبول في استمتاعٍ . كانت هذه هي اللحظة الأخيرة لعزيز بـِ ك .. وانساب كل ما مضى من حياتي تدريجيً ا تحت قدمي كلما رفعتها وأسقطتها على رمال حِ نّ ة برقص على إيقاعات الاحتفال . غفلت عن بركة في غمرة النشوة التي أحاطت بي . ولا أذكر كم مر من الوقت . فقد كنت أرقص وأرقص .. حتى انخدلت ذراع عازف المزمار .. وأجبرني على ختام مقطوعته .

ضجت جدران الحارة بالتصفيق . فالتفت إلى أسياخ النافذة ومن كانت وراءها ضاحكً ا لها . ولكن .. لم أجدها ! أين ذهبت؟ اهتز كتفي لربتات الرجال من حولي على ما أبدعت من رقص وأنا متجهم بالنظر إلى جلستها الخاوية . لم أفهم إلى اليوم سبب ذلك الشعور المؤلم الذي رفس قلبي قلقً ا عليها . فربما غابت إلى جلسة النساء . ولكن .. لم أظن أن ذلك هو ما كان حقً ا .

اتجهت إلى النافذة وصحت بجارتنا: أين بركة! أين زوجتي وولدي؟!

تعجبت المرأة من صياحي وقلقي فضحكت وضحك النساء: اااااه يا بركة ليت رجالنا كرجلك.. يـ...

قاطعتها بقوة انتبه لها تجمع الرجال: انطقي!

بهتت واقتربت مني في طلب الهدوء : على رسلك يا حبيبي .. لا تقلق .. لقد جاء إليها « الواد موزة » وأخبرها أن هناك من يسأل عليها فعادت إلى غرفتكما ..

تركتها ورمحت في قوة انتبه لها الرجال الآن بكامل طاقاتهم . فتعجبوا وتبعوني وهم يمطرونني بالأسئلة عن سبب غضبي . تجاهلتهم واتجهت إلى الغرفة . كانت نافذتها مغلقة في وجهي عندما عبرتها من خارج البيت . لماذا أغلقتها بركة؟ اندفعت إلى الداخل .. فوجدت باب الغرفة محطمً ا .

تداخلت أصوات الرجال من هول ما رأينا ، فانطلقت إلى الداخل بين حطام الأثاث أبحث كالمجنون عن زوجتي وولدي . صاح أحدهم : أين تبحث يا اسطى .. الغرفة .. شبر وربع .. لو كانت موجودة لرأيناها ..

كنت أبحث في ذلك « الشبر » عنها كالمجنون رغم منطقية جاري . كنت هلِ عً ا لا أصدق أنها غير موجودة . فرغت روحي فجأة بغيابها فطار عقلي . أخرجتني يد كوارشي من إغماءتي الغاضبة فصرخت دون مقدمات : يا موزة ! اعثروا على الولد !

جاء الطفل بخطوات خائفة يقترب مني، فصرعته: من الذي سأل عليّ.. من الذي رحلت إليه بركة؟

تلعثم الطفل وبكى من الخوف: بـ.. بك كبير.. و..

قبضت على كتفيه فصرخ، فوقف الرجال بيني وبينه فأكملت رغم ذلك: انطق! وماذا؟

ء

خرجت كلماته مبللة بدموعه: بـ.. بك كبير يا آسطى.. ومعه هانم كـ..

ابتعدت عنه منتفضًا قبل أن يُكمل عبارته: لا! أنت تكذب!

سألني كوارشي في حيرة: ماذا يحدث يا عزيز؟ أي بك.. وأي هانم؟

التحم فكّ اي في غضب حتى كدت أن أحطم أسناني ، وخرج زفير الغضب متعاقبً ا من أنفي حتى أحرق شاربي ، وهمست في غل : لا ! ليس مرة أخرى !

ركضت كالمجنون في طرقات القاهرة . لم أذكر أي مواصلة ركبتها ، وكم مضى من الوقت حتى انتصبت أمام تلك البوابة اللعينة . خرج إليّ البواب الذي بدا أنه كان جديدً ا على المكان : إلى أين يا بلدينا؟ !

ضربته في صدره في غضب وثبات فسقط خوفًا: أين تلك الساقطة!

حاول إجابتي ولكن آلام صدره منعته . فاندفعت إلى الداخل دون تردد . عبرت الحديقة التي لطالما مررت بين جانبيها منكس الرأس من سخرية كامل الحداد كلما عدت من مكتبي . وصلت إلى مقبض باب القصر الذي لطالما تمنيت أن تؤدي استدارته في كفي إلى انفجاره وزواله ومَ نْ داخله عن الوجود . فتحته وضربت الباب بقدمي . دخلت فكان البهو فارغً ا . اندفعت إلى

الداخل أبحث عن تلك اللعينة ولكن .. تسمّ رت قدمي على صوت موسيقاها الأوبرالية المفضلة لها وهي تشدو من غرفة النوم بالطابق الثاني .

طويت الدرجات صعودً ا ، فزدات حدة الموسيقى ارتفاعً ا حتى ظننتها ضحكات خبيثة تغتال روحي وتسوقها إلى غضب عارم لن تكون عواقبه محمودة . ولم أهتم .

كسرت الباب بضربة من قبضتي فانفلق نصفين. دخلت فوجدت حبيبتي فانخلع قلبي على ما كانت عليه.

كانت ممددة ، مفرودة اليدين والرجلين بقيود غليظة بدعائم الفراش . والدم يقطر من فمها وعينيها . قضبان زرقاء استقرت على رجليها العاريتين من ضربات السوط . ودموع أغرقت وجهها حتى اختلطت بدمائه وغابت عن الوعي .

اندفعت تجاهها وأحللت قيدها وأنا أبحث بعيني الملتهبتين عن تلك المجرمة . احتضنت بركة فلم تستجب لحضني بل استمرت في إغمائها . حاولت إفاقتها لولا أن صرعني صوت اللعينة من خلف جدار مختبئ بالغرفة الواسعة وهي تدندن مع الموسيقى .

نظرت إليها . فرأيتها تجلس على مقعدها الهزاز أسفل النافذة . تحتضن ولدي وتضرب بثديها العاري فمه وكأنها تجبره على الرضاعة . لم تنظر إليّ ، فاندفعت إليها كصاعقة لحظية متمنيً ا القبض على عنقها كما حلمت دومً ا . ولكنها انتفضت قبل أن أفعل ومدت بولدي ذراعيها خارج النافذة وكأنها تهددني بإلقائه موتً ا .

تسمّ رت مكاني ، بينما همست هي دون أن تنظر إليّ ، بل كانت تراقبه معلّ قً ا في الهواء : بابا يريد أن يقتلك يا حاتم ..

نظرت إليَ في شر: ولكن لا تحزن يا صغيري.. فهو معتاد على ذلك.. فما أحبه أحد إلا قتله..

لم أتمكن من كتم غضبي كما فعلت معٍ قدمي: اتركي ولدي يا ليلى وإلا قتلتك حقًا!

ضحكت وعادت إلى جلستها ، فتحركت نصف خطوة . فعادت ووضعته بالهواء فتسمّ رت مرة أخرى ، وعندها جلست ترضعه من ثديها الفارغ وقد علمت أني لن أحاول مجددً ا : اهدأ يا عمري .. واتركني لأطعم ابني .. ألم تسمع أن اللبن الأول للأم .. السرسوب أليس كذلك؟ هكذا يسمّ ونه .. لبن السرسوب هو أفضل غذاءٍ له؟

جحظت عيني ودُ كّ ت أسناني من الغضب وأنا محبوس بخطوتي : لماذا ! ألم يكفيكِ ما أهدرته من عمرٍ إلى جوارك؟ لقد ظننت أنك نسيتني .. لقد ظننت أني تحررت منك أخيرً ا .. لقد ...

قاطعتني وهي تضرب ثديها بعنف على وجه صغيري : توقف توقف ! لم كل هذا النواح يا عمري .. أتظن أني أريد إيذاءك .. كلا والله .. بل أريد مكافأتك .. أنت زوجي الحبيب .. الذي يحبني .. يحبني للغاية .. يحبني حتى الجنون .. حتى أنه لم يرد إرهاقي بحمل وولادة .. فاستأجر لي رحمً ا لينجب منه ابني .. حاتم .. ما رأيك .. يشبهني .. أليس كذلك؟ !

صرخت بها: اخرسي! ابني اسمه حسين.. ولستِ أمه.. بركة هي أمه..

أشارت إليّ بسبابتها في هدوء بارد نافية : لا لا .. بركة ما كانت إلا البهيمة التي استضافته بين نجاسة أحشائها لبعض الوقت .. (حدثت الطفل في مداعبة جنونية) ولكن لا تخف يا صغيري ، الآن سأنظفك ، وأضعك في فراشك الخاص ، أجل .. اشتريت لك فراشً ا لك وحدك .. فأنت ابن أميرة .. ملكة .. ولا يجوز أن تشارك أحدهم الفراش كذلك الأحمق وامرأته .. أجل أجل .. معك حق .. إنه من العيب أن أصف بابا بالأحمق .. لقد أحسن تربيتك يا حبيبي .. و .. و .. ولكن دعني أخبرك سرً ا ... بابا أحمق فعلا !

طرفت عين بركة في تردد بطيء ، وكأنها بدأت في الخروج من إغماءتها . بينما يئست ليلى من خروج اللبن من ثديها البالي ، فأرجعته مكانه وزادت من قبضتها على ابني وبدأت في اهتزازها الاسترخائي على مقعدها التافه ..

«أنتِ مجنونة! لقد فقدت عقلك!»..

قلتها وأنا غير مصدق لتلك الحالة التي وصلت إليها . نعم كنت أعلم أن بعقلها خللً ا وأرجعته قبلً ا إلى جنونها بحبّ ي ، ولكن الأمر قد تخطى حد العواطف الساخنة . كانت ليلى حقً ا مخبولة .

راقبتني في جمود وجسدها يتمايل للأمام والخلف كحبر يهودي يؤدي صلاة لم أعد أؤمن بها ، ونطقت : كان حريً ا بك أن تقتلني ولقد سمحت لك بذلك ، بل رجوتك أن تفعل .. ولكن حتى وإن وضعوا السيف بيد العبد فهو أكثر ذلً ا من أن ينظر بعين سيّ ده ليسبّ ه حتى .. لا ليقتله ، لن أخفي عليك الأمر .. تعجبت حقً ا منك يومها ، كنت أعرف أنك تشتعل بكراهيتك تجاهي .. ولكنك لم تقتلني؟ ! الحق أني فكرت في الأمر طويلا ، ولكن .. لم يعد الأمر غريبا .. وقد تزوجت من تلك الساقطة .. واجه نفسك يا عزيز .. ما أنت إلا مجرد عبد

تزوج من جارية .. ولكن ! إن أراد السيد إنهاء تلك اللعبة .. فلسوف يفعل ولن تجرؤ على ......

قاطعتها في عنف : بلى يا ليلى ! كنت عبدً ا ، ولكن انصتي جيدً ا .. كنت ! والآن .. لولا احتماؤك السافل بجسد ولدي .. لقتلتك بطرفة عين !

نهضت وهي تحمله فاستفاقت بركة ، وما أن فعلت حتى احمر وجهها خوفً ا مما ترى ، فواجهتني ليلى : لا ! ليس ولدك وحدك .. إنه ابني أنا الأخرى ..

صاحت بركة بصوت قطّعه الألم: سدّي فاهِك يا «مرة».. إنه ابني!

انفجرت ليلى في الضحكات حتى اهتز حسين بين يديها : حسنً ا حسنً ا .. أنا لست شيطانً ا كما يدّ عي زوجك .. خذيه ولترضعيه .. فأنا أخشى على ابني من الموت مثل أبيه تمامً ا ..

تعجبت لها ، كيف ستسلم الطفل إلى بركة بتلك السهولة دون أن تخشى انقضاضي عليها وقد غابت حمايتها؟ ولكني لم أهتم حينها ، بل راقبتها حتى وضعته بيد بركة التي خطفته في لهفة ، وانقضضت على عنقها حتى سقطت وسقطت فوقها ..

خرج صوتها متقطعً ا أسفل قبضتي على عنقها ، وكانت تضحك بالرغم من ذلك : اهدأ يا عمري .. اتعتليني أمام امرأتك؟

رفعت رأسها من عنقها وضربتها بالأرض عدة مرات دون أن تتألم بل حافظت على بسمتها : ما الذي حدث لكِ ! والله لأقتلنك ..

- ااااه.. لازلت تعد بما لا تفي..

-فلتدعِ ربك أن يغفر لك..

-لا أحتاج لذلك..

- كافرة!

وما أن هممت بكسر عنقها حتى صرخت بركة صرخة أفزعتني ، فاتسعت ابتسامة ليلى لشيء ما خلف ظهري . التفت في بطء .. فوجدت فوهة مظلمة من سلاح ناري تستقر بين عيني ..

رفعت يدي في الهواء ، فانفلتت ليلى من تحتهما ونهضت تضبط ملابسها بهوس الهوانم وربتت على كتفي ولا زلت بجلستي أرضً ا : لست كافرة .. بدليل أن الله أرسل إليّ من يحميني منك .. أم أن مخالطتك للأرذال أنستك أن دعواتنا تستجاب أيضً ا؟

عبرتني ليلى إلى بركة مرة أخرى وجلست إلى جوارها في صمت ، بينما تقززت بركة من ملمس جسدها وابتعدت قليلً ا فجذبتها إليها في عنف . فنهضت وواجهت صاحب السلاح : لم نتعرف بكلبك الجديد يا ابنة الباشوات !

ضربني الكلب بسلاحه على عيني فطرحني أرضً ا ، بينما زامت ليلى في استنكار : عيب يا عزيز .. هل تجرؤ على مخاطبة حضرة الصاغ بتلك النبرة؟ ولكني لن أخفي إعجابي بما أصبحت عليه .. تقف في شموخ أمام النار دون خوف من إحراقها لروحك .. وقد كنت قبلً ا تفزع إن خالط الضوء ظلً ا لكلب .. حتى أصغر من ذلك الذي تتشدق به في تشبيهاتك .. حقً ا .. خمس سنوات ربما تصنع أكثر من ذلك !

توسلت إليها بركة في خوف غاضب: ماذا تريدين يا ست؟

واجهتها : لا لا .. أنا لا أحتاج لأن أُ سأل عما أريد حتى يُ نفذ .. فما أشتهيه يحدث بالفعل .. قبل أن يخطر حتى السؤال على بالك ..

اعتدلت في نومتي وأنا أمسح دماء عيني: لن أعود لكِ مهما فعلتِ..

قطع الصاغ عبارتي في غلظة: اصمت يا ابن الكلاب.. لست في موضع يسمح لك باتخاذ أي قرار..

رمقته في احتقار: إن قبلت أن أشاركك فيها أيها القذر.. فأنا لن أقبل!

هم الصاغ يدهسني بقدم غليظة ، فأوقفته ليلى : على رسلك يا حضرة الصاغ .. اهدأ يا عزيز .. فمن يقف أمامك ليس رجلاً مسلحاً فقط .. ولا حتى فحلاً يفلق الأسرّة برجولته فحسب .. (وضحكت في سفالة).. بل هو رجل من رجال الثورة .. وإهانته .. تعتبر في هذا الزمان من علامات الخيانة للدولة ..

نهضت في بطء وقد فهمت : ااه .. الآن فهمت .. بعتِ نفسك إليه لتحافظي على مقامك .. أليس كذلك؟ لطالما كنتِ رخيصة !

نظرت إليّ في حنق وكأن إهانتي أصابتها هذه المرة ، فأشارت إلى الفحل : من فضلك يا حبيبي .. خذ الهانم وابنها إلى الخارج .. وترفق بهما .. فأنا أريد طليقي في مسألة بسيطة ..

تقدم الفحل من بركة التي استنجدت بي: يا إلهي! انجدني يا عزيز! انجدني!

انطلقت وقبضت عليه ولم أعد أهتم بسلاحه ، فغزا الغرفة رجلان آخران ، قبضا على جسدي وألصقاه بحائط في غلظة ، فشلّت حركتي تحت أذرعهم الكبيرة ، فتدخلت ليلى : لا تقلق يا عزيز .. ما دمت تطيع كعبد مخلص .. فلن يصيبهما أي أذى .. تفضلوا يا رجال جميعكم ..

أحكم الرجلان قبضتهما عليّ حتى أنهض الفحل بركة وصحبها إلى الخارج . راقبتني في حزن ودموع وأنا مكبل بالأجساد ، نظرت إليها في حنين وقد خشيت أن تكون المرة الأخيرة التي أراها فيها ، بينما وبالرغم من آلامها وأحزانها .. أومأت إليّ في بطء وكأنها تواسيني على ما يحدث .

اختفت بركة ، وهرع الرجلان إلى الخارج خلفها ووقفا على عتبة الباب المحطم شاهرين أسلحتهما . كاد جلدي أن يذوب من سخونة غضبي ، وظلت عيناي جاحظتين من شر العاجز الذي لا يقوى على إفراغ غلّه فيمن يكره . فتحركت ليلى إلى كرسيها الهزاز مرة أخرى وجلست . فراقبتها في صمت ملتهب الأنفاس ..

أخرجت سيجارة من نوع غريب وأشعلتها ، وأبدلت بينها وبين كأس من الخمر وهي تتحدث في هدوء وكأن عقلها عاد إلى مكانه أخيراً : أحببتك يا عزيز .. لا شك في ذلك .. وتريد قتلي .. ولن أعارضك في هذا .. فأنا حقاً شيطان جامح .. ولكنك تعلم يا عمري شعور .. شـ .. شعور ذلك الشخص الذي يعرف حقيقته .. يعرف قبحه .. بل يكره نفسه كلما تعثرت نظراته في مرآة .. ولكنه عاجز عن أن يكون شخصاً آخر .. كنت كذلك يا عزيز وها قد تبدلت .. ولكني لازالت على ما أنا عليه .. ولا أمل فى ......

ء ء ء

«لا شأن لى بمآساتك.. فلتقتلي نفسك إن آردتِ!»..

ابتسمت في بؤس وعقدت رجليها في أناقة الهوانم : تمنيت ذلك .. ولكن مع الأسف .. أنا أحب نفسي أكثر من اللازم .. ولم أكن مستعدة قط للسماح للموت باصطيادى إلا بيد شخص واحد .. شخص أحببته أكثر من نفسي .. أنت يا عزيز ..

«اقصري يا ليلى.. فقط أخبريني بما تريدين لأعود وأسرتي إلى ما كنا عليه.. ولا داعي للحرب»..

استوقفتني بنظراتها وكأنها اتحدت مع ما قلت : ااااه .. ها هي .. الحرب .. إنها الحرب حقًا يا عزيز .. الحرب التي كتبت عليّ وأمي منذ زمن .. ولن تنتهي .. إلا كما انتهت بالنسبة لأمي .. بموتي مثلها .. اجلس !

رفضت الجلوس ، فتنهدت وأشارت إلى أحد رجليها بالخارج فهمّ بالدخول شاهرًا سلاحه ، فضربت الفراش بيدي وجلست عليه في غل ، فابتسمت : هكذا إذا يا رجل .. لا يجب أن أشهر السلاح بوجهك كلما أردت منك تنفيذ أتفه الأمور .. عيب !

- ماذا تريدين؟

- أريد ابني يا عزيز..

-لا يستحق ما تقولين آن آجيب عليه.. حتى ولو كان بصفعة أخرى على وجهك!

ابتسمت لي : سأخبرك بما لا تعلم إذً ا .. لم تنل شرف رؤية أمي أليس كذلك؟ أمي يا عزيز كانت امرأة بالغة الجمال ، ربما أكثر من جلنار عشيقة أبي التي استبدلها بذكرى أمي ، أقسم بحبي لك أنها كانت فاتنة حتى يوم موتها .. وفى يوم رآها أحد أقرباء الملك فؤاد .. أمير لم يفرق عنها بهاءً ولا جمالً ا .. فأعجبته وأعجبها .. وأدخلها فراشه وطارحته الغرام .. حتى حملت منه ، أنت تعلم بالطبع أن أمي لم تكن علوية .. ولكنه وعدها بالزواج وأن يجعل منها ومن وليدها أمراء من النسل الشريف ، ولكن .. علمت إحدى عشيقاته بالأمر .. امرأة مثلي أحبته .. ولم يقابل حبها .. مثلك تمامً ا .. فما فعلت؟ ! طلبت منه سهرة أخيرة .. وشاركته الخمر .. فما طلع عليهما الصباح .. حتى مات كلاهما ..

«ومالي وما تقصين؟!».

أشارت إليّ بالصمت في جنون المجاذيب : فقط اسمع .. أتعرف ما فعلت تلك المرأة؟ وضعت قبعتها الوردية التي اشتراها لها من باريس بمحلول ملحي .. ثم مزجته بالخمر .. وقررت أن تموت معه بالسم الذي اشتراه لها بنفسه ! لا تصدق بالطبع .. ولكنها حقيقة يا عزيز واسأل عنها ما تبقى من القصر حينما تعود إلى الحياة ..

قاطعتها في تعجب: أعود من أين؟!

زفرت في ضيق : لا تريد أن تسمع أليس كذلك؟ ! إنها إهانة لو كنت تعلم .. فما أقصّ ه عليك هو من الأسرار العميقة لأروقة قصر عابدين .. فانصت ! المهم .. حاولت أمي أن تثبت نسب وليدها ولكن .. رفضت نساء القصر ذلك .. بل أجبرنها على الزواج من أبي ، وأجبروه أيضً ا على قبول أن ينسب الوليد لاسمه في مقابل الباشوية .. فوافق اللعين ، وتزوجت أمي بأبي كرها .. وأنجباني رغمً ا عنهما .. وأصبحت بالكاد ليلى هانم الحداد .. بعدما كان مقدرً ا لي أن أكون الأميرة ليلى سليلة محمد علي باشا ..

قرأت ما أرادت قوله: ألهذا قضيت حياتك تسعين وراء السلطة؟ أتظنين أنك ستحكمين في يوم من الأيام؟

انتفض وجهها في غضب : حقي ! أنا أميرة وإن لم تشهد الأوراق بذلك ! ويومً ا ما كنت سأكون ملكة على مصر .. و ...

اشمئززت منها ولم أخف بعض الشفقة على حالها: أنتِ مريضة يا ليلى! لن يحدث ما يخدعك عقلك المخبول بهِ..

تهللت أساريرها فجأة : بل أوشك أن يحدث .. أرأيت ذلك الفلاح الذي أهانك بسلاحه منذ قليل؟ هو من رجال الدولة الآن .. انقلبت الأمور وأصبح الفلاحون يحكمون .. لا بأس .. هكذا هي الدنيا .. ولكن ليلى الحداد لن تيأس ، تعرفت عليه وجعلت منه عبدً ا لشهوته تجاهي .. وسأساعده ليتقرب من عبدالناصر .. وربما يحل محله في يوم من الأيام .. وعندها سأكون زوجة ملك البلاد .. أو رئيس البلاد لا يهم ..

ء ء ً

نهضت واتجهت إليها متعجبا في آسى: أنتِ ساقطته يا ليلى.. لن يتزوجك!

رمقتني في غضب: عُد إلى مكانك!

أكملت : حتى وإن فعل .. فلن يصبح ذلك الأبله رئيسً ا على مصر أبدً ا .. من يعبد امرأة لا يصلح لأن يكون إلهً ا على دولة .. استفيقي .. نخطتك الجهنمية ما هي إلا سرد تافه لفكرة مجنونة ..

ارتفعت بقامتها أمامي في شموخ والتصقت بعيني في تحدٍ : كان حقي منذ سنوات مضت أن أنجب منك طفلً ا .. منك أنت وحدك .. فأنت حبيبي حتى وإن كرهتك .. وذلك السرد التافه للفكرة المجنونة أيها الطبيب الماهر .. هو من سيجعل من ابن الساقطة ابني .. و ...

أمسكت بمجمع ردائها: كلا لن تفعلي!

وضعت راحتيها على وجنتي : لو كنت تركتني أكمل لما قلت ذلك الكلام .. سلطتي هي من ستجعل من ابن الساقطة ابني .. وهي من ستزيحك من طريقي إلى الأبد .. ليس هذا فقط .. وإنما ستذيقك من العذاب أضعاف ما ذقته في بعادك يا عمري ..

- لم أعد أخشاكِ..

- قلتها من قبل فلا تكرر نفسك .. واستمع إلى ذلك مثلي « حاتم عزيز قاسم ».. اسم عظيم .. وسيزداد عظمة عندما يسكن اسم ليلى الحداد خانة الأم ..

وقبل أن يهتز هوائي لحركة مني ، صرخت بصوت مخيف ووجه قبيح أفزعني : بركـــــــــــــــــــــــــة !

دخل الرجلان وكبلاني بذراعيهما وحفرا بفوهات أسلحتهما جانبي رأسي ، ودخل الفحل ببركة وبين يديها ابني . اتجهت ليلى إلى بركة وحاولت خطف الطفل منها ، فصرخت : لا .. يارب الغلابة .. انصرنا عليها يارب !

قاومت الرجال وحاولت التدخل ، لكنني لم أستطع فما كان مني إلا أن قاومت في عجز ، بينما قبض الفحل على كتفي بركة فألجم حركتها وخطفت ليلى ابني وتحركت مبتعدة في بطء : حضرة الصاغ !

أخرج الصاغ سلاحه ووجهه إلى بركة . اشتعل وجهي وانتفضت مفاصل جسدي لمقاومة الرجلين ، كنت أهتز كالمحموم في عنف ، حتى سقطنا ثلاثتنا ، فاعتلاني أحدهما وطعن ركبته فوق صدري ، بينما نام الآخر بمرفقيه على جانب رأسي فألصق جانبه الآخر بالأرض . صرخت : لا يا ليلى !! اقتليني أنا !

هبطت على قدميها وأنا عاجز عن الحركة كميت تركه أهله للحساب : بل تنظر يا عمري إليها .. راقب آخر لحظات الحياة وهي تنساب من عينيها .. تماماً كما فعلت وأنا أراقب رحيلك عني .. فلتتألم كما تألمت !

نظرت إلى بركة وأنا أزوم في صراخ حتى أثقب لعابي وجه ليلى . رأيت بركة وهي تقف بجسمها الضئيل وحدها ، رأيت هالة من الضوء تلتف حول جسدها وهي تضم ذراعيها المفرودتين أمام رجليها في انكسار . نظرت إليّ في دموع هادئة وكأنها تقبلت المصير . جحظت عيناي وتكسرت

أسناني وأنا أرفس تحت قبضات القدر . ذلك القدر الذي أجبرني على رؤية من أحب ذليل انتظار ملك الموت .

نظرت إليّ في ابتسامة وتوهجت هالة الضوء الأبيض حولها وهمست : خدمة رجليْ ك كانت بعمري كله يا سيدي .. ادع لي عند الحسين ..

انتفخ وجهي حتى غطت وجنته عينيّ ، صرخت في هيستيرية وانتفضت في عنف حتى اهتزت أجساد الملاعين فوق ظهري ووجهي . ولكن .. فجأة توقف الزمن .. ولم أعد أرى من ليلى ورجالها إلا أجسادً ا تتحرك بنصف سرعتها . وأضاءت الغرفة بوجه بركة وتطايرت خصلات شعرها في بطء كأجنحة هادئة لملاك قرر الرحيل . ابتسمت لي .. فبهت وجهي وجرحت الدموع عيني بمجرى مؤلم . هدأت ثورتي وأبدلتها الحسرة بسكينة جمدتني . انقطعت أنفاسي وقد رأيت ذراع الفحل ترتفع بالسلاح ببطء أمام رأسها .

وهكذا .. لم أر الطلقة ولا النار .. فقط رأس بركة يرتد إلى الخلف ، مرت الثواني التي سقطت فيها أمام عيني كسنوات ، رأيت سقوطها لحظة بلحظة .. وكأن القدر أراد إطالة الأمر حتى أحصل على نصيبي كاملً ا من الحسرة . فمات قلبي معها .

تلك هي أحزاني يا فيروز.. ولولا أن عدت إلى طريقك مرة أخرى.. لفعلت كما فعلت جلنار..

كنت أبكي كالطفلة . أنتحب في حمّ ى دون تحكم مني . لم أكن أشفق عليه فقط ، وإنما على تلك المسكينة التي ماتت فقط لأنها أحبت . لم أعلم ما الرد المناسب على ما قال . فهو لم يدمع لمرة واحدة طوال سرده لقصته . بل كان غائبً ا في عالم آخر . كان مسكونً ا بذكريات لم أكن لأتحمل كسرة خبز منها .

ء ء ء ء

حاولت أن أجد الكلمات، لولا أن أكمل في شرود:

« وبعدها .. كتبت ليلى ابني على اسمها واسمي .. واقتادني عشيقها .. إلى المعتقل .. اتهام حقير بأني عدو للثورة .. وهناك قابلت فرج الورداني .. مَ ن رسم جلنار .. باعه أبوه هو الآخر ليأمن شر التأميم .. فصادقته .. وعلمت منه ما دار بينه وبين جلنار .. وعندها علمت أن مقابلتي به لم تكن صدفة .. وإنما قدر آخر .. يدفعني للعودة إلى طريقك يا فيروز »..

ترددت قبل أن أسأله: وإلى أين آلت تلك المرأة السافلة؟

ابتسمت في شفقة عليها . نعم شفقة ، فما كانت إلا مريضة قتلت كل من حولها قبل أن تودي بنفسها إلى الهاوية : ماتت بتليف الكبد من كثرة خمرها .. كانت مسكينة ..

آه يا عزيز .. بعدما قصصت ما قصصت ، أتساءل كيف ظنت الأقدار أن لقاءك بي قد يشفي ما بصدرك من جرح لا أظن أنه سيندمل أبدً ا . تركته في أحزانه وشردت أنا الأخرى في أحزاني .. كنت أشكو مقدرات حياتي وكأنه لم يخلق بالدنيا من هو أشقى مني ، ولكن .. كيف ظننت ذلك .. وعزيز وحده رأى ما لم يره جيلي بأكمله .

شعرت طوال حكايته بخيط خفي يمتد بيني وبينه ، وكأن رابطً ا حقً ا كان يربطنا ولم نره من قبل . لطالما أحسست أني غريبة عن العالم الذي جئت إليه . أحببت أمي ولم أسارع لإنقاذها بل راقبت موتها في سكون وكأن قلبي لم يكن ينتمي إلى ما حولها . قاطعت أبي واعتبرته ميتً ا لذنب ارتكبته كثيرً ا . إنه فقط أحب زوجته رغم خيانتها . اعتبرت استمرار حبه لها بل بكاءه عليها بعد موتها خيانة أخرى بحقي . غلب الغل على عواطفي فعاقبت الجميع وأولهم نفسي على لا شيء . أحببت أمي وأخطأت .. أحب أبي وسامح .. حتى عمرو .. أحب إيمان وهي تكبره بعمر كامل .. أحبها وهي مريضة .. وهي قبيحة صلعاء . وهي أحبته رغم مآسيها . وعاصم .. الذي

أحبني حتى الموت .. ولم أنظر إليه بعين الشفقة . الجميع كان يحب .. وأنا فقط من كانت تكره .. ولم أعد أعلم .. من منهم كرهت وعلام كرهتهم .

أهذا هو الأمر إذا؟ أني لا أنتمي لهذا العالم؟ بجلسة عزيز وجدت السكينة التي بحثت عنها طويلاً . هل كان هو دواء الطاعون الذي غزا قلبي وعقلي؟ ربما ..

لم أعد ساخطة عليكِ أيتها الأقدار بعد الآن .. فما كانت خطتك إلا لترسلي فيروز إلى سكينتها . كنت أنتظر الموت في استسلام . أما الآن .. فأنا أشفق منه .. لا أريد أن أفارق ذلك الرجل .. ولكن كيف لي أن أطاله وهو في عالم آخر؟

رأيت بعينيها شفقة لطالما تجنبت رؤيتها في أعين الجميع ، ولكني هذه المرة لم أفعل ، وكأنني كنت أحتاج إلى ضمة من عين أرتاح إليها . غمرتني بدموعها فارتحت دون بكاء . تذكرت بركة أمامها فابتسمت رغم المآسي . ولاحت صورة ليلى أمام رأسي في وجودها ، فسامحت رغم الألم . كنت أعلم أنها خيال لن يدوم . ولكن .. بدا الأمر وكأن الأقدار كانت تتعمد طوال تلك الفترة أن تسوقني إليها فقط لأرتاح .

لم تكن روحاً أكملتني كبركة . ولا روحاً أقبرتني كليلى . بل كانت روحاً تشبهني ، وكأني أنظر إلى صوت عزيز الذي كان يهمس إليّ من بين أمواج ظلام نفسي . ربما هي تلك الحقيقة إذاً . فيروز جزءٌ مني . حتى وإن كانت في عالم آخر .. ربما ضلت عني يوم خلقت . ولكن ها هي الأقدار .. تصنع المكائد وتسوق بالطرق تحت أقدامنا حتى يعود كل شيء إلى ما كان يجب أن يكون عليه .

ربما ستسكن الآن يا عزيز وقد وجدت ما كان جزءاً منك وانفلت . ولكن .. كيف أصل إليك أيتها الروح الضائعة في ذلك الافق الخيالى؟ كيف؟

هل يعلم حنيني إليه؟ وهل سيراه على حقيقته؟ أم سيظنه حباً تافهاً بين رجل وامرأة؟ أريد أن أبقى معه إلى الابد ولكن .. ليس كحبيبة ولا شريكة فراش . بل فقط إلى جواره . هل

أخبره بذلك؟

«فيروز.. لن أقاوم البوح لك بما في نفسي أكثر من ذلك»..

«بل اصمت يا عزيز.. فما في نفسك.. في نفسي»..

«ليس الأمر كما تفهمين».

«لا أحبك يا عزيز.. وأنت كذلك لا تحبني.. فقط كل من...».

«فقط كل منا يحتاج إلى الآخر».

«صدقت.. ربما لم يكن الأمر جنونًا بعد كل ذلك.. ولكن كيف سنفعل الآن؟»..

لم يُجب. بل استمر في تحديقه الباسم إليّ. فابتسمت له رغمًا عني وعدت عليه الأمر: كيف سنفعل يا عزيز؟

غريب . لم يجب مرة أخرى ، بل ظلت ابتسامته كما هي ، فعدت إلى بعض من فيروز القديمة وتمكن الحنق مني : توقف عن تلك الابتسامة وأجبني ..

ما الذي يحدث! لم يتعمد إغضابي بتلك الطريقة؟! عزيز!

لا.. لم يكن يحدق بي، بل عاد رسمًا أصم مرة أخرى: عزيز! عزيز!

قبضت على اللوحة في غلٍ فتوقف قلبي عن نبضاته بمجرد أنٍ فعلت..

فما أن لمستها.. حتى انهالت رمادًا مفتتًا بين يدى!

تحجرت عيني وماتت وجنتي . دبلت جفوني وضمرت شفتاي . خرجت الكلمات من بينهما همسً ا ثقيلً ا وهي تحمل روحى معها إلى الرحيل .. تردد صوتي أصداءً داخل جدران نفسي الخاوية ...

«عـ...عـــ.. عزيز..».

-١٣-

فيـــروز الصيرفي

٢٠١٧

«ثلاث طرقات أخيرة»..

وكأنها استئذان ساحر من أقدار قاسية ، تداعب بها أبواب الروح قبل أن تقبض ثناياها إلى غير رجعة . وثلاث طرقات أخيرة ، كانت هي كل ما تطلبه الأمر لإسقاط ذلك الجدار الحجري الذي كان يفصل بيني وبين نهار جديد ، لم آمل في بعثه ، وعجزت عن رده .

كان الجدار يهتز وتترنح أحشاؤه بطرقات الرجال الأشداء الذين استأجرهم منقذي . كانت رقعة وجهه تتسع ظهورً ا شيئً ا فشيئً ا كلما سقطت كومة من الأحجار المتراصة بيني وبينه . نظرت إليه فلم ير إلا عينً ا كانت نصف مغلقة ، لم أتجنب رؤياه هذه المرة ، بل استغرقت في نومتي أرضً ا أمامه دون حراك . كنت مستسلمة دون شروط . فلم أصد مشاعره كما اعتدت من قسوة ، ولم أبادل عينيه اللهفة أيضً ا . فقط كنت ممددة كجثة غابت عنها أمارات الحياة .

انهال الجدار واستحال جبالً ا من التراب ، اندفع عاصم كحجر آخر قذفت به أحزانه إلى الداخل ، وتجاوز أجساد الرجال في عنف حتى أوشك أن يُ سقط بعضهم أرضً ا . راقبته من نومتي دون أن يهتز لي طرف وهو يسقط من اللهفة ويزحف بيدٍ ورجلٍ حتى يصل إلى جسدي

الممدد . لم يهتم لاتساخ الأرضية وبما ستشين به سترته الرسمية من أتربة ورماد محترق ، بل سقط على ركبتيه أمام عيني ، وأحاط بكفيه رأسي ورفعه إليه وهو يلهث من الجزع والإرهاق ..

«ف.. فيروز! افيقي يا حبيبتي.. أأنتِ بخير؟ حبيبتي!»..

كنت أسمعه وأراه ، ولكن بدوت بجسدي المتراخي بين ذراعيه ، وجفنيّ المتهدجين حول استدارة مقلتيّ الخائرتين ، كمن فارقت روحها مسام الجسد منذ عصور . وكيف لها ألا تفعل؟ فقد غاب عزيز ولم يعد له من رجوع . استحالت اللوحة رماداً ا كالذي أحاط بجثة فرج بعد رحيله . أفسد القدر جسره الوحيد الذي بناه بنفسه ، بين عزيز العزيز وفيروز الضائعة .

بعد طول انتظار ، بعد عقود من انفلاق جفنيّ على نور الدنيا ونارها ، وقد كنت منذ حينها تائهة بعالم بائس لم أشعر قط أني ولدت من رحمه الشرعي ، بعد سنوات من التخبط والترنح بين حبٍ لضعف وكراهيةٍ لانتقام ، أخيراً ا التقيت بانتمائي الوحيد إلى ذلك الكون العبثي ، وما أن اعترفً كل منا للآخر بأننا قوسان بدائرة واحدة ، حتى انهارت تلك الدائرة واُ بتِ لِ عَ ت أطرافها داخل نقطة سوداء . فأصبحت بالكاد قوسً ا تائهً ا ، ضِ لعً ا أعوج بفراغ غير مأهول بالآمال .

صرخ عاصم بالمساعدة وهو يرج رأسي في عنف محاولً ا إفاقتي ، فاندفعت المساعدة من فتحة الجدار وأفرخت جيشً ا من رجال الإسعاف وطاولتهم البيضاء المحمولة استعداداً ا لإلقاء جسدي عليها . رفض عاصم أذرعهم الممتدة إلى متعرجات جسمي ، وحملني بنفسه إلى محفّ تي ، واستمر في مضاجعة كفيه لوجنتي ، تارةً في إفاقة ، وتارةً في حنين إلى دفء الحياة بهما .

عبرنا أنياب قصر أفندار من بين فكيه المنفلقين ، وخرجنا إلى الطريق المكتظ ببعض من حضور الحفل وغيرهم من فضوليي المارة ، حتى وصلنا إلى سيارة الإسعاف . ظن الجميع أن جثة تلك الفتاة لن تنتفض لحياة إلا بعد ساعات بالمستشفى ، لكن ، وبمجرد أن أراح رجال الإسعاف

المحفّة بأعتاب فجوة السيارة الخلفية ، حتى اعتدلت من نومتي في إرهاق ، فمالت المحفّة بين أيديهم وكدنا أن نسقط جميعًا .

ارتميت على كتف عاصم فأسندني بصدره وضمني كطفل اشتاق للبن أمه وصاح : فيروز ! كيف تشعرين؟ حسنًا .. اهدأي يا حبيبتي .. تمددي ولسوف ...

قاطعته وهو يحاول إجبار قامتي على الاستلقاء مرة أخرى ، وهمست بأذنه في ألم أصاب قلبي قبل عظامي : بل غرفتي يا عاصم .. أعود إلى البيت أرجوك ..

بدا أن أحد رجال الإسعاف قد طالت أذنه عبارتي ، فاعترض على اقتراحي وحدّث عاصم بصيغة آمرة على استحياء بأني أحتاج إلى الذهاب الآن إلى المستشفى . همّ أن يوافقه ، فدفنت وجهي بصدر عاصم وأغلقت عيني عن ضوء النهار في سترته ، ورفعت كفّي بالرغم من التعب إلى وجهه وقد تعلقت به . فسمعت دقات قلبه تتسارع ، وشعرت باستدارة رأسه وكأنه ينظر إليّ. وساد الصمت للحظات أصبحت دقات قلبه خلالها كطرقات القدر الثلاث لولا أنها كانت متلاحقة في سرعة أكبر ، فعلمت أنه يتخذ قرارًا ، أيطيع رغبتي رغم عبثها ، أم يرضخ لأمر المُسعف رغم توقه لإرضائى؟ !

«من فضلك يا حبيبي»..

قلتها لأزاحم بها منطق المُسعف داخل رأسه ، فتميل كفّة عقله إلى كلماتي ، كما اعتاد أن يميل قلبه تجاه من لم تنطق بكلمة « حبيبي » من قبل . أحسست به وأشفقت عليه ، وقد شعر للمرة الأولى باستسلامي إليه دون غيره ، وربما أشعلته لمسة أصابعي لقسمات وجهه ، ليس في شهوة ، وإنما في حنين إلى التجائي إليه ، فتنفّس شهيق القرار وقد أصبت قلبه بما تمنى دومًا . ونطق في حزم ..

«بل تعود معي كما أرادت!»..

مرت ثلاثة أيام لازمت فيها فراشي البارد دون حراك . لم أنطق بكلمة واحدة منذ أن تعانقت منحنيات جسدي وخيوط ملاءته رغم محاولات عاصم المستميتة في إخراج حرف وإن كان ساكنً ا من بين شفتيّ الميتتين .

أخبرني بعد يأس بأنه تعارك في عمله من أجلي وقد طلب إجازة غير قابلة للنقاش لخدمة قدميّ . لم أراجعه في قراره ، وإن علمت حجم الخطر الذي سيحيط بمستقبله إن أصر على ذلك ، ولم أومئ له حتى بإيماءة امتنان ، بل ظللت كما كنت ، في صمت ونصف رقود ، كجلسة الأموات في قبور البرزخ ، أنظر للفراغ دون طرف ، وأستمع لكلماته دون رد .

اعتاد عاصم خلال تلك الأيام الثلاثة على صدى صوته وحيدً ا بأرجاء غرفتنا دون أن أجيبه ولو بنظرة ، فاتخذ من جلستي وطنً ا له ، يفيض عليّ بكلمات العشق والحنين إلى فيروز السابقة ، حتى وإن كانت تلك السابقة ، سليطة اللسان متبلدة المشاعر ، ولكن كان ذلك أهون عليه من رؤيته لي جسدً ا بلا روح .

تحوّ ل المسكين إلى خادمٍ بلا أجر مُ نتظر سوى وعود سيده ، ولم تكن وعوده إلا نظرة هادئة يضيء لها وجهه . فاستأجر طباخً ا احترف طبخ أشهى ما تمنيت من مأكولات ، وأصر على أن يُ طعمني بنفسه . فيربت بإصبعيه على شفتيّ ويوارب إغلاقهما بانفراج هيّ ن رويدً ا بحنان ، ويُ سقط الحساء الدافئ ببئر جوفية بعد أن ينفث هواءً باردً ا بسطح الملعقة ليُ هدئ من غليان مائها . بل يجفف رقبتي وعظام صدري مما سقط عليها في أدب ، دون أن يسمح لظفرٍ أن يمتد إلى نهديّ. فكان فقط كمن يحنو على طفل أيتمته الأقدار ولم يرجو منه كلمة شكر أو ثناء .

مرت الأيام الثلاثة ، واعتدت كما اعتاد على جلساته الهادئة جواري وهو يقصّ عليّ مختلجات نفسه كما لم يفعل من قبل ، فتارة يصف مقدار عشقه واستعماره لقلبه فيدمع ، وتارة يقص عليّ

بعضً ا من ذكريات طفولته فيضحك ، وتارةً يُ مطرني بالأسئلة عما حدث حقً ا بين جدران أفندار حتى أصير إلى تلك الحالة فييأس من إسراري للحقيقة ويشرد ، وتارةً يصرخ بشوقه إلى عودتي فيريح رأسه على فخذيّ بعد بكاء أرهقه .

استمعت له لأول مرة طوال سنوات زواجنا ، وكأنه كان يتوق إلى جلسات بيننا يُ فيض فيها كل منا إلى الآخر بما يجول في نفسه ، فيبتسم له الآخر متنهدً ا بابتسامة ، بل يربت على كتفه في حب وكأن العالم قد تطايرت أطرافه وما بقيَ منه سوانا . ولكن .. لم أسمح له ولو لمرة واحدة أن يفعل ، فصارت بضع دقائق بيننا حلمً ا أسجنه وراء قضبان صدره ، ولم يهمس قط بآمال إخراجه .

حينها شعرت وكأنه يصارع نفسه بين ثناءٍ على أقدار أتاحت له تحقيق حُ لمه مع زوجته فأجلستها رغمً ا عنها تتلقى كلماته دون استنكار لها ، ولعنٍ لمجريات الدنيا وما آلت إليه ، وقد أعتمت شمس حبيبته عن الوجود فأحالتها تمثالً ا حجريً ا لا ينطق لشوق مستعر ، ولا يندى جبين جليسه لثورة غضب ..

استمعت إليه أخيرًا، بل شعرت للمرة الأولى بمقدار حبه، ولكن.. كان عليّ أن أصبح جثة هامدة لأدرك ذلك..

وقرب نهاية اليوم الثالث ، كان عاصم قد استطال دهور غيبوبتي ، فاضطر إلى أحد كبار الأطباء النفسيين ، وأدخله عليّ في حزن أدبل وجهه ، وقد نحف جسده في أيام قليلة من فرط حسرته على ما آلت إليه حالتي ، وما أن كشف الطبيب على زوجة المفجوع الراحلة ، حتى أخبر المسكين أنها تعاني من صدمة نفسية لكبت عاطفي جسيم ، فتحجر وجه عاصم وكأنه علم السبب الحقيقي وراء تلك الصدمة .

انتصف الليل ، وغاب القمر كما اعتاد أن يفعل بليالي أحزاني . كنت نائمة على جنب بتلك النظرة الفارغة إلى العدم . شعرت بأقدام عاصم وهي تقترب من خلف نومتي ، جلس في بطء ولم يتوقع أن أستدير له إلا إذا أجبر جسدي الميت على ذلك بدفعة هادئة منه ، ولكنه لم يفعل ، وكأنه آثر ألا يواجهني وهو يلقي إليّ بكلماته هذه المرة .

زفر هواءً متقطعًا أحرق الغرفة من حولنا وقال : أ .. أعلم .. أني .. أني أخطأت حينما ظننت أنه يمكنني إجبارك على عشقي .. فلا يُجبر الخالي على عشقٍ حتى وإن اجتمعت عليه قلوب الخلق أجمعين .. ولكن .. ولكني .. ولكني أحببتك يا فيروز .. منذ أن رأيتُكِ ، ربما لا تذكرين ذلك اليوم .. كـ .. كنتِ .. اااااه .. يدق قلبي كلما تذكرت .. كـ .. كنتِ تقفين في غضب وجرأة بمنتصف طريق الوزارة .. تعثر كعب حذائك الرفيع بفراغات غطاء المجاري .. (ضحك عاليًا).. عبث .. والله انه لعبث .. كـ .. كنتِ مسجونة بثقب صغير .. تهتزين بمحاولات تحرير حذائك من ذلك الثقب .. ولم تفلحي .. فصرخت بوجه أمن الوزارة بسخطك على سياستها .. سياسة يا فيروز؟ غطاء بلاعة أصبح من السياسة؟ صِحتِ بهم .. كيف لكم أن تُهملوا صيانة شيء كهذا؟ تجمع المارة حولك وقد ظنوا أنها مظاهرة لأمر لم يعلموه .. ولم يهتموا ، كـ .. كنت حينها بين زملائى نراقب تلك المجنونة التي تتظاهر لثقب بغطاء أرضي تافه .. ولكن أيا منهم لم ير ما رأيت .. كنتِ أكثر من رأيت فتنة .. فتاة شقراء رفيعة الجسد للغاية حتى يظن الجاهل أنها طفلة بصوت امرأة رغم طول قامتها .. كنتِ ترتدين رداءً واسعًا قصيرًا .. تمايل أطرافه في نعومة مع نسيم الهواء بسحر خلب لبّي .. كنتِ كعصفور تمرّد على سكون الجِنانِ .. واستقر بنعومته بين أجساد غليظة متعرقة تزاحمت فقط لكى تراكِ ، حاول رجال الامن القبض عليكِ وقد أثرتِ جلبة عظيمة .. فمن منعهم؟ ! ألا تذكرين؟ كنت دومًا بجانبك ، لم أصدق نفسي وأنا أمد يدي إلى ذراعك البضة رغم نحافتك ، أجذبك منها لتهدئتك بالداخل .. أذكر أني ارتعشت لأول مرة تلك الرعشة التي يتشدق بها شعراء الأغانى ، كنت أشعر لسنوات قبل لقائك بتلك الحالة الغريبة التي تغزو سرائر العاشقين كلما رأى أي منهم حبيبه للمرة الأولى ، ولكني لم أدركها .. كنت أعلم أنها بمكان ما .. حتى أني أوشكت أن أراها وهي تطوف بينهم بألوان زاهية كأحزمة قوس قزحي .. ولكني لم أدركها .. وعندها فقط .. بمجرد

أن لمست أصابعي ذراعك .. شعرت بتلك الموجة الناعمة وهي تعبر حواف جسدي إلى الداخل حتى استقرت بين جدرانه .. كان شعوراً غريباً .. ربما كان دفئاً بعد برد الشتاء .. أو صقيعاً بعد حر القيظ .. لم أفهم تحديداً .. ولكنه كان شعوراً غمرني فأدمنته حتى الليلة .. وبالرغم من ذلك يا حبيبتي .. لم يهتز قلبي بعد .. ولكنه سقط بمجرد أن فعلتِ ما لم أتوقعه . نظرتِ إليّ في عزة وغضب وتلاقت عينانا .. وأقسم لك أني عشقت هذين الحاجبين المتعانقين من عبوسك ، وحررتِ قدمك الأولى من الحذاء المحبوس .. وخلعتِ الفردة الأخرى وأجلستها تحت إبطك .. ونهرتني بالابتعاد عن طريقك حتى تمرّي إلى الداخل .. فعلت وأنا أكاد أموت من ضحكات الحنين إلى جنونك .. وتبعتك وانتِ تتحركين عارية القدمين .. ومن يومها .. لم تجرؤ فيروز على مفارقة قلبي .. ولو لغضب تجاهها ..

أحببتك يا فيروز .. وتمنيت أن تحبيني .. أحببتك حتى وانا أعلم أنك لا تفعلين .. أحببتك حتى بعدما علمت حقيقة مشاعرك تجاهي ، كانت الكراهية ولم تكن يوماً حبا .. أحببتك حتى عندما كنتِ تتعمدين جرح مشاعري .. أحببتك وأنا أخطط للانتقام منكِ .. وأحببتك وأنا أتراجع عن ذلك المخطط .. حتى عندما قسوت عليكِ بذلك الحفل .. تمنيت فقط أن أرى الخوف بعينيك .. مجرد انكسار مؤقت .. والذي يشبه بالعينين المنكسرين .. ضعف المحبين .. تخيّلى ! كنت أحتال على وجهك في يأس مثير للشفقة .. حتى يبدو فقط وكأنه وجه ينظر إليّ في حب وليس خوفاً .. أترين إلام أوصلني جفاؤك؟ و ... و .. ولكن .. ولكني أدركت اليوم ما أوصلك إليه عنادي .. ربما كان حبّي صادقاً .. ولكن لم يكن كافياً .. فأجبرتك على ما لا تتحملين .. فأقبرتك .. نعم يا فيروز .. أعلم أني السبب الوحيد فيما أصابك .. ذلك الكبت العاطفي احتل قلبك بسببي .. و .. و .. ولكن .. لا تقلقي .. فربما أكون وحشاً أخرق .. ولكني .. (سمعت تهدج أنفاسه لبكاء مكتوم).. ولكني لازلت وحشاً أحب .. لازلت وحشاً بقلبٍ أكثر ضعفاً من وريقة شجر خريفية أهشمها بمخالبي ..

سكت لثوان امتدت إلى دقيقة ، ثم انفجر في بكاء أفزعني : سأرحل عنك يا فيروز للأبد ! لن أردّك إلى عصمتي .. فربما إن فعلت .. تعودين إلى ما كنتِ عليه .. و .. والله .. هناؤك

بدوني .. لهو أكرم عندي من شقائك وأنا إلى جوارك .. سأرحل يا فيروز وأميت قلبي ليحيا قلبك .. وربما لن تري وجهي مرة أخرى .. ولكن لا تحرميني من النظر إليك ولو من وراء جدار لا تدركينه .. فإن كنت لا تحبينني فلا بأس .. فقط دعيني أحبك !

رجّ ت كلماته قلبي ، ولم يهتز جسدي لرعشة واحدة منها ، لم أشفق عليه كعادتي ، ولكن أشفقت على نفسي . فأين سأجد من يحبني لتلك الدرجة؟ الحقيقة كانت جلية ولم يعد هناك من مهرب لتجاهلها . صرفت عني كل من أحبّ ني حتى مات قلبي . كنت مخطئً ا يا عاصم ، لست من أماتني ، ولكن فيروز المسكينة هي من فعلت .

هدأ بكاؤه تدريجيً ا حتى سمعته وهو يتنفس في أنفاس هادئة وقد استسلم لحتمية الفراق ، خصوصً ا بعدما أعلن عنه والتزم به بوعد لا نكوث له ، فنهض في بطء ، وسمعت صوت صرير الباب وهو يغطي على آهات رحيله الأبدي ، فنطقت رغمً ا عني ولم أجرؤ أن أنظر إليه وأنا أفعل :

«تمنيت أن أحبّك يا عاصم»..

احتبست أنفاسه لثوان فساد الصمت ، أحسست وكأنه تفرّ ق بين سعادة من شفائي وقد عاد لساني إلى مهارة النطق مرة أخرى ، وبين حزنه على ما أفصحت عنه تلك المهارة لتوها . وبالرغم من ذلك ، لم يعد مرة أخرى ليضمني بذراعيه في فرح ، ولم يعاتبني على ما قلت في ألم .. فقط رحل بجملة أخيرة :

«وأنا أيضًا».

وهكذا اختفى عاصم من حياتي إلى غير عودة ، وكذلك اختفى معه جزء آخر من فيروز التي اعتدت عليها . تساءلت وأنا في عزلتي الفراشية « من هي فيروز حقاً .. وكيف أصبحت؟ ». كنت كشيطان رفض السجود لضعف قلبه ، فانتصب شامخاً أمامه ، يلعن بسخطٍ الأقدار التي تحاول إجباره على الانبطاح أسفل مشاعره . فلطالما وسوست لنفسي بوعود الخلود إن استمر إصراري على ذلك العهد بالجحود . بجحود الصمت أمام أحزان أمي حتى قتلت نفسها ، وبجحود الخصام عن محبة أبي حتى شابت ربائعه ، وبجحود الاعتزال عن مشاعر عاصم حتى ضاقت دنياه وانقبضت .

جاء اليوم الرابع محملاً بغياب عاصم ، فتركت عزلتي وصرت أتجول في طرقات القاهرة في غير هدى ، كقط استأنس بصاحب مؤقت رحل عنه فجأة وصار يجول في أماكن لقائهم القريب بحثاً عن رائحته . كنت كذلك مع عزيز ، فبدت تلك الساعات التي تحادثنا فيها كسنوات احتضن فيها كل منا الآخر ، حتى لم يعد الرحيل عنها احتمالاً يمكن احتماله . اختزل عزيز كل معزة كانت في قلبي في كلماته فصار شوقي إليه أمراً حتمياً للنجاة ليوم آخر . وأثار ذلك الشوق مشاعر أخرى كنت أُخفي ثناياها أسفل خطوات حذائي الفاخر ، مشاعر الشوق لأبي رغم محاولات الجحود ، ومشاعر العفو عن إيمان رغم ما كذبت من غضب .

كانت كلمات عزيز تدفع قدمي بين طرقات القاهرة ، ونظراته كانت تصم أذني عن ضجيج روّادها ، فاختفى زحام السيارات المعتاد بميادين وسط البلد ، وتباطأت حركة زائريها من أحباء تلاقوا ، وآخرين اختاروا مروري إلى جانبهم ليتعهدوا بالفراق ، وغيرهم من أصدقاء صار كل منهم مؤنساً للآخر ، يواسي أحزاني ، ويربت بإصبع التفاؤل على أحلامه . حتى وصلت إلى أسفل تمثال طلعت حرب . وقفت تحته كما اعتدت أن أجلس بعد منتصف الليل بمجرد أن تتحطم قدمي من سير لا هدف له . وقفت اليوم وصرت قِبلة لتداخل سيارات ذلك الميدان الدائري ، تنطلق السيارات حولي من كل مكان وإلى كل مكان ، وربما ترتفع أبواق بعضهم استنكاراً لاعتراضي سيرهم بتلك النظرة البلهاء الصامتة ، فتنجذب أعين زوار الميدان من على الارصفة إلى تلك الشابة الغريبة التي تنظر إلى تمثال حجري لا حياة فيه ، ولم يعلموا سبب انجذابها إليه بعد .

كنت حجرا مثله.. أقلعت عن عادة الانجذاب إلى الأحياء.. فتكومت إلى كل صنم لا حياة فيه مثلي.

مرت الدقائق وربما الساعات ، حتى غطت سحابة مألوفة ضوء الشمس في اللحظة التي أوقفت فيها إحدى السيدات سيارة أجرة وخاطبتها بصوت مرتفع خطفت حلمة أذني بخطّ اف مؤلم : مسرح معاشات يا أسطى؟

كانت امرأة طعنت العقد السابع أو الثامن ببقايا عمرها ، ترتدي بلوزة فاتحة وجونلة شبه قصيرة ، ولم تمنعها تلك العقود الطاعنة من تصفيف شعرها الابيض بكوافير فاخر ربما اعتادت عليه في شبابها ، فعلمت من سؤالها وهيئتها أنها من هؤلاء النساء ، مسنّ ات الطبقة الراقية التي اعتزلت الوحدة وصارت تتردد على كل مكان يُ ذكّ رها بأيام خصلات رأسها السوداء .

لم يكن الأمر صدفة ، فتلك السحابة صارت دليلً ا تذره الأقدار فتاتً ا أمام عيني كلما أرادت مني اتباع إنجيلها الجديد ، وتلك الوجهة التي قصدتها السيدة المتصابية كانت ربما إصحاحه الجديد .

تحركت بلا تردد أو وعي بمجرد أن أشار لها السائق بالرفض ، فذلك المسرح مختبئ داخل عدة طرقات قديمة ملتوية بالجزء المنسي من حي وسط البلد ، فاغتصبت بأصابعي باب المقعد المجاور للسائق ونطقت بعبارة واحدة وأنا أشير إلى السيدة : كل ما أملك هو ثلاثمائة جنيه .. فلتأخذها وتذهب ..

تعجّ ب الرجل من عبارتي فآثر الصمت بسكوت الرضا ، بينما قفزت السبعينية في رشاقة وسعادة إلى المقعد الخلفي وهي تربت على كتفي في اقتضاب : ميرسي ..

تحرّ كت سيارة الأجرة في بطء السلحفاة بين الإشارات المرورية المزدحمة ، فهبطت على رأسي أسئلة العجوز الرضيعة بشغف مرضى الوحدة الذين يتشبثون بأي فرصة للتحدث مع الغرباء ،

فسألتني إن كنت معتادة على الذهاب إلى ذلك المسرح ، فلم أجبها . لم تهتم .. بل أكملت أسئلتها وجاورتها بعبارات إجابها بقرار شابة مثلي بارتياد مكان غاب عنه زوّ اره ، وبدا عليها أنها ارتاحت لعدم ردّ ي عليها ، فلم تتمن المسكينة بعد وحدتها القريبة سوى أذن تستمع لمخزون حديثها المكتوم لسنوات دون أن تطلب ردًّ ا ، وكنت لها خير معين في ذلك .

دلفنا إلى أولى الطرقات الضيقة ، واهتز جسم السيارة للعديد من مطبات الأرض الطبيعية ، فانتفضت أجسادنا تتراقص وكأننا أطفال بأتوبيس رحلة مدرسية ، لم تكن متعتها قط في وجهة الذهاب ، وإنما في اجتماعنا داخل أتوبيس واحد نتراقص ونغني في ألفة ، غير أن غنائي والعجوز والسائق كان صمتً ا ، وسعادتنا كانت انفصال نظرات كل منا عن الآخر. كل منا يشرد بحياته قبل أن نجتمع بتلك الغرفة المعدنية .

عبرنا المنحنيات ، وطفنا حول كعبة المباني القديمة ، نتجول من رأس حارة إلى ذيل عطفة ، حتى وصلنا أخيرً ا إلى الباب الخشبي القديم . ربتت العجوز على كتف السائق في شغف الرضّ ع بأن يتوقف ، فتوقف ولكن لم تنته انتفاضاتها بل استمر تراقصها حماسً ا لاقتراب لقائها بما تحب . أعطيت السائق كل ما أملك ، وظننت أنه سيقبض عليه فريسة تغنيه عن استكمال العمل لبقية النهار ، ولكن سكت للحظات وهو يقلب عينه بيني وبين أوراق البنكنوت المهترئة ، ثم ابتسمت عينه وجذب ورقة مائة واحدة وهو يتحدث في خجل :

«بل ذلك أكثر بكثير من حقي.. ولولا الحاجة لـ...».

قاطعته وقد تركت المبلغ بأكمله على المقعد وانصرفت دون رد . نخرج ملهوفً ا خلفي في محاولة لإرجاعي عما فعلت ، إلا أن استمرار سيري أعاق سيره فتوقف وناداني : حسنً ا .. « مسامحة » يا ست؟

ء ً ـــ

همست لنفسي وقد أصابت كلمته موضعا آخر في نفسي: أتمنى أن أفعل..

اقتحمت الباب الخشبي ، ومررت بالحوش الواسع للمبنى القديم . تجاهلت كومة القمامة التي استقرت أحشاءها بأركان المكان حتى غزت رائحتها أنفي دون هدنة ، وصعدت السُ لّ م الخشبي المستند في عجز على جدار اسودت واجهته من شحوم تعرّ ق زوّ اره ، ووصلت إلى الباب الآخر ، وما أن دخلته حتى رأيت العجوز من أعلى وهي تركض تجاه مقعدها قبل أن ينفلق الستار لعرض اعتدت على مشاهدته حتى حفظت أخطاءه .

جلست على مقعدي الذي كاد أن تُ نقش حوافه باسمي ، وانتظرت العرض المعتاد . ففتحت الستارة في ارتباك وظهر عجائز المعاش بملابس شخصياتهم الأنيقة ، والتي لا تتناسب مع رداءة أدائهم . وكالعادة بدأوا في نسيان كلمات العرض فيضحكون ، ويضحك الحضور القليل ، ويتعثرون في خطواتهم العشوائية فيزدادون سحرً ا آخر إلى جمال عرضهم البسيط .

اعتدت على ارتياد ذلك العرض منذ سنوات ، واعتدت على الرحيل منه بمجرد ظهور ذلك المسن خلف الستارة المغلقة ، وهو يستند عليها بضربات بروز متكرر على سطحها حتى يصل إلى منتصف المسرح . كنت أعرف هويته في كل مرة ، وكنت أهرع للخروج قبل أن يظهر .. في كل مرة أيضً ا .

ولكن تلك السحابة أمرتني اليوم بألا أفعل . فانتظرت انتهاء العرض ، وأُ غلقت الستارة ، وعاد المسن إلى حركة جسده خلفها وضرباته على بطنها فبرزت كالعادة ، فتسارعت أنفاسي وقد تصلّ بت بمقعدي قبل أن يظهر أمام عيني .

ارتعشت الستارة لثقب ببطنها انفتح وظهر هو من خلفها . كان بعض الحضور يستعد للرحيل غير أن البعض الآخر لم يفعل وكأنهم كانوا ينتظرون ظهوره ، فتعجبت .

كان كما عهدته ، لولا أن طال الشيب رأسه فأشعلها بالكامل بياضً ا ، وتعرجت خطواته لعجز باغته قبل موعده ، ربما حزنً ا على فراق من يحب . خلع نظارته الصغيرة التي تكاد تتسع لثلث مقلتيه ، ووقف مناجيً ا الفراغ وفغر فاه لخطبة خلعت قلبي .

خرج صوته ممتدً ا بعذوبة وهو يغني كلمات تشاركناها سويً ا منذ سنوات . اعتدل من تبقى من الحضور في استمتاع ، وأجلس بعضهم كفه أسفل ذقنه وكأنه يستعد للرحيل إلى عالم آخر من الحنين إلى شباب لن يعود .

بدأ الأغنية من منتصفها كما لم يفعل أحد من قبل وكأنه كان يقصد إمطاري بكلماتها..

«دي نظرة شوق وحنية...».

كان يشدو بها بصوت جميل اقشعر بدني له ، وما أن تنتهي حتى يعيدها ، ثم يعيدها ، ومرة أخرى يعيدها دون أن يصل إلى جوابها .. ظن الحضور أنه يحاكي سلطنة الست في تكرار العبارات أملً ا في إمتاع مستمعيها أو حتى استعراض قدرتها الفذة في القفز بنفس العبارة بين عدد من الاحاسيس المختلفة . إلا أنني كنت أعلم سبب تكرارها الحقيقي والذي لم يعلمه الجميع .

كان يخشى من ضعفه إن نطق بالجواب ، فيتهدّ م جسده بكاءً . وعندها ارتفعت بقامتي في بطء من آخر مقعد بالقاعة . كانت ذراعي تحملني بالكاد وقد اقتربت من مجال رؤيته . كان الحنين يعتصر أربطة قلبي ، والحزن يعصف بأعقاب قدمي فيهزّ ها هزً ا .

لمح بروز قامتي التي تنضج تدريجيً ا في ارتفاع ، فتلعثم في كلماته وارتعشت يده رعشة رأيتها من تلك المسافة لِ عظِ م انتفاضها ، وأمسك بنظارته المتدلية على صدره بحبلها القديم . ورفعها إلى

عينه في ارتباك كعضو عامل في رابطة باركينسون وأجلسها على أنفه . وعندها وضحت الرؤية . فلمعت عينه بدمع عبر مقلتيه دون استئذان أو ترفّ ق بحاله ونطق في ضعف بالجواب أخيرً ا ..

«ودى دمعة بداريها»..

فصفّ ق الحضور المسن بأكثر ما استطاعت مفاصلهم الكهلة ، وكأن روح الست بُ عثِ ت إليهم من جديد ، غير أنه لم يلتفت لضجيج تحيّ اتهم ، بل راقبني مشدوهً ا وأنهار الدمع تندفع فتنحت وجهه وتثير بركة ناعمة من قطراتها أسفل قدمه . لم يطرف ولم يغلق فاه ، ولم ترحم الرعشة جسده الضعيف فتتوقف ، بل ظل ينتفض دون وعي منه ، يميل بجسده ميلً ا غير ملحوظ للأمام وكأنه يشتهي عناقً ا أفرغ غيابه حفرة منهارة الحواف داخل جسده .

فتحرّ كت في بطء وعبرت بسير جانبيّ المقاعد المجاورة وعيني معلّ قة بعينه . خرجت من الصف واتجهت بخطوات شابهت في تعرجها ارتعاشة وقفته إلى السلم نزولً ا . وفي كل مرة كنت أقترب منه وتعظم صورتي حجمً ا أمام ناظريه ، كانت عضلات جفنيه تزداد اتساعً ا حتى أوشك فكّ ها العلوي أن يطرق جبهته .

خطوات بسيطة أوصلتني إليه . وخطوات قليلة كانت تفصل بيني وبينه . وقفنا متواجهين في صمت ، أخاطبه بدمع الندم ، ويجيبني بانتفاضة الشوق الصامت . ومرت لحظات طوال مرت كشهور تسع استغرقتها برحم أمي حتى الفراق ، واستغرقها بعزلته لعودتي إلى أحضانه رحمً ا غير أنثوي .

وفى لحظة ، انقطع التجمد ، وهرع بقذيفة من شوق تجاهي فسقط جسده الضعيف من فرط الاندفاع ، واستقر منبطحً ا أمام قدمي ، فتعلّ ق برجلي في هيستيرية باكية . لم أتحمل ذلّ ه ،

فارتميت عليه في فزع ! وأحطت ظهره المقوّس بذراعي وصدري واستسلمت لبكاءٍ أنهض الجميع من مقاعدهم .

كان البكاء هو اللغة الأم لألسنتنا . ومرور أصابعنا بهيسترية على تعرجات جسدينا كان محفزًا أكثر للنحيب . فأصابعه لا تصدّق أنها تضم جسد ابنته . وأصابعي لا تصدق ضمّها لشعر رأسه ، وعندها نطقت ..

«أبي».

لم يجبني ، بل أغمض عينه بأحضاني واستقر جسده من البكاء ، وكأنه استراح أخيرًا إلى اكتمال نقصه . فتجمع حولنا ممثلو العرض المسنون وهم يستندون على عصاهم الخشبية ، يراقبون مشهدًا لم يتسن لهم أن يجسدوه قبلًا .

أنهض بعض الممثلين جسد أبي فاستسلمت لهم ونهضت معه ، وجسدانا متلاحمان في فوبيا الفراق ولو حتى لثوان ، وتحركنا معهم كشخص واحد إلى خلف الستار . كان يتحرك معهم مندفعًا دون مقاومة إلى الممر الضيق بالكواليس ، حتى وصلنا إلى غرفة الألوان .

كانت غرفة ضيقة مكتظة بملابس معلقة باصطفاف على جانبيها ، تتوسطها ماكينة خياطة قديمة بمقعد حديدي ، فعلمت أنها غرفة ملابس المسرح ، وعلمت من إجلاس الممثلين لأبي على ذلك المقعد أن ذلك كان عمله طوال السنوات السابقة . خيّاط بمسرح معاشات .

نظر إليّ أحد الشيوخ وهو يراقب تعلّق أبي الصامت والنائم بحضني ، فأومأت له في بطء ودموعي تشوه وجنتي وهمست له « أنا ابنته »، فتهللت أساريره بينما ضربت إحدى السيدات فمها في فجعة ونظرت إليه ثم ابتسمت وقد فاضت عينها بدمعة شفقة ، وكأنها كانت على علم بأحزانه ، ولم تصدّق هي الأخرى أن اللحظة التي انتظرها لسنوات قد جاءت .

فتحرّ ك الشيخ وفرد ذراعيه في الهواء أمام زملائه تجاه الخروج ، ففعلوا وأغلقوا الباب في هدوء ، فصرنا وحيدين برحمٍ تلالٍ من الألوان الزاهية .

تسيّ د الصمت جلستنا فلم نسمع سوى أصوات لحنين بأنفاس هادئة ، وهمس أبي دون أن يخرج من أحضاني : كنت أغني كل ليلة من أجلك ..

همست له : كنت أتمنى أن أراك .. لم أترك عرضً ا واحدً ا لتلك الفرقة التافهة إلا وحضرته من أجل رؤيتك .. ولكن .. في كل مرة .. كان يغلبني الحزن فأهرع قبل إشراقك ..

مسح دمعه: هُنت عليكِ؟

غاب الرد عن لساني فأكمل: بل هُنت عليّ يا ابنتي.. يوم غلّبت حبي لها على اا..

قاطعته بكلمة خرجت بالكاد: لا ذنب في حب يا أبي..

اعتدل وقد بلّت دموعه لحيته البيضاء، ونظر إليّ في ضعف: أغفرتِ لها؟

تاهت عيني في أرجاء الغرفة الزاهية : لا .. بـ .. اا .. لـ .. لم أكن غاضبة عليها قط .. بل كنت أنت مهبط لعناتي .. كنت كل شيء لي يا أبي .. كنت الأرض وما عليها إلهً ا .. وما تمنيت أن يكون أسفلها بالقبر عندما أموت مؤنسً ا بنعيم لا نهاية له ، أحببتك حتى الجنون .. فظننت أنك

ملكي .. ظننت أنك فيروز .. وأن من يطعنك بخيانة .. ربما يتعمد إزهاق روحي .. كنت غاضبة منك انت يا أبي ..

ابتسم في هدوء: بل كنتِ غاضبة من أجلي..

- بل كان غضبي لسبب آخر علمته مؤخرً ا .. وهو أني لم أفهم حقً ا .. كيف؟ كيف تخونك زوجتك .. وتنحر قلبك بدم بارد .. وتسامحها .. كنت كالطفل الذي يثور من أحاديث الناضجين التي لا يفهمها ويصرخ .. ماذا تقصدون بذلك؟ ما الذي ترونه جميعً ا ولا أراه .. كيف تسامح؟

- قادك السؤال الخطأ إلى الكراهية يا ابنتي .. فلم يكن يومً ا « كيف تخونك زوجتك؟ » بل كان « كيف تخونك حبيبتك؟ »،

-إن كانت تحبك ما خانتك و...

-يكفي أني أحببتها.. ولا خيانة خُلقت من إنس.. أو دبرت من شيطان.. قد تذهِب ذلك الحب..

راقبته وكأني أراه لأول مرة: كيف ذلك؟

تنهد في حنين وشرد بعينه بعيدً ا : إن قلبي لينفطر عليكِ يا ابنتي .. فما جواب سؤالك إلا مأساة لم أتمناها لك يوما ، لا يعني الأمر غير أنك لم تقابلي في حياتك من تحبين .. لم يخفق قلبك لمن هو أعز عليكِ من نفسك ، نعم يا ابنتي .. لو وجدتِ ذلك الحبيب لرأى ذلك الطفل الغاضب ما

يراه الآخرون واحتجب عن عينيه ، فالحب دونً ا عن كل الرؤى لا يرى بالعين .. بل بالقلب . لم تكن أمك زوجة اعتدت على بقائها بحكم العشرة .. كما يصف الخرفون حبهم لزوجاتهم خطأً ، بل كانت روحً ا خلقت من أجلي وخلقت من أجلها .. أتعلمين تلك النفخة التي يبثها الله من روحه في جسد خلقه من بني آدم؟ كنت أنا وهي نفخة واحدة انقسمت على جسدينا .. عاش كل منا بنصفه وحيدً ا متشوقً ا إلى نصفه الآخر .. وما أن التقينا ، وما أن التحم جسدانا حتى التأم الجُ رح .. وصار النصفان روحً ا واحدة .. وصل كل منا إلى الكمال .. كمال الروح والجسد فتعلّ قت بها دون غيرها .. وأملت أن تتعلق بي دون غيري ، ولكن .. تلك هي الدنيا يا حبيبتي .. دار شقاء ناقصة لا هناء لكمال فيها .. تهت في سُ كر الدنيا .. ونسيت خمر حبيبتي .. فأفرغت قلبها .. وما كانت خيانتها إلا نزيفً ا لجرح تسببت فيه بحمقي ، لقد خنت روحها يا فيروز .. قبل أن تخنّ ي بجسدها ..

تهاوت مقاومتي لكلماته ، بل شعرت بالصغر أمام ذلك الفيض من المشاعر ، وحزنت على ما قال فلقد كان محقً ا ، فلم أقابل بعد كمالة روحي ، فصرت ناقصة الأطراف ، ظننت حكاك شوقها إلى النصف الآخر ليربت عليه نارً ا لم تخمدها إلا كراهيتي لمن حولي . ولكن ذلك الشعور الذي حدّ ثني به أبي لم يكن جديدً ا ، بل أصاب ما شعرت به مع عزيز . شعرت في تلك الساعات التي خالطت وجوده فيها بأنه يكمل شيئً ا ناقصً ا بفيروز ، هل أحببت عزيز؟ هل يصح الأمر حقا؟ هل استقر حبّ ه بقلبي فقط خلال تلك الساعات القليلة؟ كيف؟ وهل هذا هو الحب حقً ا؟ ما هو الحب أيتها الأقدار؟ أطلعينا على أسرارك .. فربما حرّ فت أبيات الشعراء مسامعنا عن مقصده ، واختزلته في شوق تافه وولع ناري ، وشهوة لجسد سيبلى بعد سنوات ، وكان معناه شيئً ا آخر ، لم نعلمه ، فما أن جاءنا .. أنكرنا دينه ، وسعينا بجهل وراء ما ألفينا عليه آباءنا .

التفت إليه بحيرتي بما أشعر تجاه عزيز : وربما نجد ذلك التوأم الروحي .. ولكن .. هل يعني ذلك أنه هو الحبيب؟

ربت على كتفي : لا يُ سأل الحبيب عما يشعر .. فقط ينساق يا ابنتي .. بل ينجرف من أعلى ذلك التل ويتهاوى باستسلام .. فيهوى حبيبه .. ولا يرجو إنقاذً ا ، هكذا كان الأمر مع أمك .. هويتها .. فـ ...

قاطعته: فسامحتها..

أومأ في نفي هادئ ناسب كبر سنه وربما عمق حنينه: كلا.. بل رأيت قبحها جمالا..

تمنيت أن أصدّ قه : حتى الخيانة؟ ! لا معنى لما تقول غير أنك مريض يا أبي .. تبالغ في مسامحتك حتى أحببت خيانتها؟ !

أغلق عينه في ألم : اتهام قاسٍ يا ابنتي .. لست ملعونا ولا ديوثً ا لأقبل بذلك كما ظننتِ طوال تلك السنوات ، ولكن .. بل أقسم لكِ أني تألمت حقً ا .. يبدو أنك لا تفهمين حتى الآن .. طعنتني خيانتها يا فيروز بخنجر تَ لِ م .. حتى أزهقت روحي .. ولكن .. و .. ولكن .. (تنهد في يأس) لا أعرف كيف أصف لك الأمر ، مهما كان جرمها .. مهما كان ما فعلته مشينً ا .. عجزت عن كراهيتها .. فقط أحببتها .. فلا أمل لخيانة أن تحول بجدارها الأسود المقزز بيني وبينها ..

هدأ قلبي واستجاب لما يقول ، تخليت عن عنادي الذي رافقني كجني مسّ جوارحي طوال حياتي . وكيف أتعجب مما قال أبي وقد خالطت عاصم لسنوات كان يتألم فيها لعشق غير مشروط كما فعل ذلك العجوز البائس ، وكنت أخون حبه لأيام في الساعة الواحدة حتى وإن لم تكن خيانة بفراش ، بل كانت أكثر قسوة ، ومع ذلك كان يبكي لفراقي .

تساءلت حتى آدمى السؤال بحوافره صدري «ترى يا فيروز.. متى ستعانين تلك المعاناة الشريفة؟!».

كنت قد شردت للحظات ، فانتبه أبي وابتسم : كنت أشتاق إلى طيف لخيالك يا ابنتي .. وها قد عدتِ إليّ بشحم ولحم .. والله .. لقد بعثت من جديد بعد موت ..

نظرت له في تعب أفتك بجسدي حتى أوشك أن يذرف لي الدمع : بل لا تتوسم فيّ الخير يا أبي .. فأنا لم أعد أعلم إلام صرت حقً ا .. لم أعد أعلم إن سامحتك .. أم استسلمت لشوقي إليك؟ هل كنت امرأة بالغة القوة في السابق لأكبح حنيني إليك؟ أم شيطانً ا تلذذ في عذابك؟ هل عدت إليك حقً ا الآن؟ أم أنها مجرد نوبة مؤقتة من الضعف سأندم عليها لاحقً ا .. وأول ما سيطال قسوة ندمي .. سيكون أنت ! أنا تائهة يا أبي .. تائهة حقً ا .. وأخشى أن أجرح قلبك مرة أخرى دون أن أشعر .. بل أخشى على نفسي من نفسي .. من أنا حقً ا يا أبي؟ من أنا؟ !

أراح كفيه على وجنتيّ وابتسم في حنان : أنتِ مجرد نصف روح يا حبيبتي .. لم يجد بعد نصفه الآخر .. ابحثي عنه .. فربما ....

قاطعته بصمت وقد ملت برقبتي بين كفيه ، وناشدت نومً ا غائبً ا بين أحضانه وتلك الفكرة تعصف برأسي حتى أطاحت بما تبقى به من إدراك .. « توأم روحي الذي ساقته الأقدار إليّ بأكثر الطرق غرابة ربما يكون ميتً ا الآن يا أبي »..

لا أذكر كيف رحلت عن المسرح ، ولا كيف فعلت ذلك . فقط فتحت عيني فوجدتني وقد عدت إلى سيري البطيء في طرقات القاهرة على غير هدى . عمّ اذا أبحث؟ وإلى أين ستقودني قدماي؟ وهل سامحت أبي حقً ا؟ هل طويت صفحته الأخيرة؟ وإن فعلت .. هل طويتها على بداية حكاية جديدة بيني وبينه؟ أم أغلقت صفحاتي بالكامل إلى الأبد .. ووصلت إلى ذلك الغلاف الجلدي من قصتي البائسة؟

ء ء ء ء

هل أنتظر الموت؟ أم أهرب من الحياة؟ أم ينشد شيطاني العذاب بينهما؟

تعثر تيار أفكاري بصوت محمولي فتوقف . رأيت اسم عمرو على الشاشة . زفرت في تعب . لم أكن مستعدة لصفحة أخرى لأطويها . بل توقفي أيتها الأقدار عن ذلك .. فلا معنى لما تفعلين سوى إعلامي بأن نهايتي قد اقتربت ، وعليّ أن أصفّ ي حساباتي مع الجميع قبل رحيلي القريب .

كيف لي أن أقاوم رغبتها؟ فأجبت على عمرو دون اهتمام وقد تقطع صوتي من الإرهاق : ماذا تريد أنت أيضً ا يا عمرو؟

قفز إلى أذني في لهفة: فيروز! أين أنت؟ بحثت وإيمان عنك منذ الصباح في كل مكان ولا ردَ لك على محمولك..

تنهدت وقد تعرجت في خطوتي كمخمور سقاه الدهر ما لا يتحمل من خمره : ماذا تريد؟ فقط عبارة سماح؟ حسنً ا .. سامحتكما .. أهذا ما يريده الجميع مني؟ أن أتحول إلى ملاكٍ يربت على ذنوب أنفسكم بسماح غير مشروط؟ حسنً ا .. ها قد سامحت .. اتركوني وشأني .. أرجوكم ! أرجوكم !

قاطعني في قوة: بل استمعي إليّ بعيدًا عن تلك الهراءات.. فرغلي مات يا فيروز!

ء ء

ضرب الخبر رأسي وهبط بجسده الثقيل على رأسي، فتهدجت جبهتي حتى أغلقت عيني: ماذا؟

أكمل في لهفة: وصدر أمر من النيابة بالقبض عليكِ.. عليكِ أن تختبئي.. سوف توفر إيمان مكانًا لـ...

أغلق إصبعى الخط في وجهه دون إرادة مني . شعرت بثقل جسدي وهو يتهاوى أرضً ا فسقط في صدمة . قتلتك يا فرغلي؟ قتلتك؟ زاد حمل رأسي فانعقد حاجباي في تعجب مما يحدث . أهذا هو الأمر إذً ا؟ خُ لقت لأقتل؟ ومن؟ كل من أحببت؟ لماذا؟ لماذا؟ فليجبني أحد !

فُ جِ عت أمي لغضبي منها فماتت . وأنا أذوق ضعف ما ذاقت أطنانً ا . لماذا يتأخر الموت؟ أيظن أنه راحة لا أستحقها؟ فرغلي؟ أنا قتلت فرغلي؟

تجمع المارة حول سقوطي وأنا أنظر للفراغ في بلاهة ، ورجلاي معوجّ تان كل منهما في اتجاه عكس ركبتها ، وكأني سقطت من السماء فدقت ضربة الأرض عظامي وأتلفتها . مالت عليّ امرأة وسألتني « أأنتِ بخير؟ ». اقترب مني شاب ملائكي « انهضي معي !». لم أجب أيًّ ا منهما ولم أرد نظرات القلق إلى غيرهما من المحيطين باطمئنان . بل غبت في عالم آخر . وتوافدت الذكريات تطحن رأسي إلى مسحوقٍ أحال غباره بين عيني وبين وقفتهم .

نهضت دون مقدمات ، وترنحت في سير بطيء رفضت إسناد المارة له . مشيت ومشيت والذكريات تصفع وجهي . « ضحكاتي وفرغلي ، وكوبه الصغير الذي كنا نتشاركه . ضربتي له ودماؤه على يديّ . ضمّ ة أمي وضجيج ضحكاتها ، وضمة القبر وصمت رحيلها . حب عاصم وبكاؤه ، عجزي عن حبّ ه وأنين ضميري في الليل . ربتة على كتفي من كف إيمان . وصورة ضاحكة شاركني فيها عمرو . حتى أبي وغيابه ، وحضنه وعودته ».

توقف سيل الذكريات وقتما توقفت قدماي أمام تلك الفجوة من الحائط . ساقتني خطواتي إلى أفندار . كيف وصلت إليه؟ لا أعلم ، ولم أعد أهتم . فقط كان يقف أمامي وكأنه يشير إليّ بذكرى أخرى . ذكرى ربما خ ُ لقت لترحم أغصان قلبي من عصف الألم البغيض . إنها ذكرى عزيز .

أكان يقصد أفندار شيئً ا بتلك النظرة التي ارتسمت على جدرانه؟ أيطلب مني الانتحار كما فعلت جلنار؟ أم يعيّ رني بغياب عزيز ويصرخ في وجهي بأنه إن مات فلا حياة لي بعده؟ أكان يقصد ذلك؟

أجل . أوحى لي أفندار ، فما يطاق رد وحيه . رأيت نفسي أنبش قبر عزيز وأستلقي إلى جواره . سيلتئم جرح روحينا يا عزيز . سأموت إلى جوارك لأغلق تلك الدائرة المفرغة .

أكان جنونً ا؟ ربما ، ولكن .. ألم يكن كل ما مررت به جنونً ا عانيت فقط لأني لم أستسلم له؟ حسنً ا .. قد انتهت المعاناة . سأستسلم يا أفندار لجنونك !

عادت بعض الحيوية إلى جسدي، فذهبت إلى آخر ما أراد مني عمرو أن أذهب إليه. وزارة الداخلية.

اخترقت البوابة فأوقفني رجل الأمن ولم يظن أني مطلوبة للسجن ، أو بالأحرى لم يتوقع أن تذهب إحدى المتهمات إلى عقر داره دون خوف ، فهمست له : أريد مقابلة سيادة اللواء حاتم عزيز ..

سألني: هل ينتظرك لميعاد؟

ء ء

آجبته دون تردد: لميعاد آخلفته منذ سنوات..

تعجب الرجل من عبارتي ، واتصل بمكتب حاتم ليتأكد . صمت قليلاً ثم أومأ للسماعة في طاعة : حسناً .. تفضلي معاليكِ !

علمت أن حاتم أخبره بحقيقتي السابقة بأني زوجة عاصم بك ، وربما لعنني في سرّه وهو يقول : ما الذي أعاد تلك الساقطة إلى مكتبه مرة أخرى بعد كل ما دار بيننا المرة السابقة؟

طرقت الباب ودخلت . فنهض في احترامه المصطنع وابتسامته الزائفة . وقبل أن يتحرّك من خلف مكتبه ، واجهته في بلاهة وعدم اهتمام :

«أخرج سلاحك يا سيادة اللواء!».

عقد حاجبيه في تعجب، وراقب هيئتي الرثة ونظراتي الضيقة من ثقل جبهتي على حاجبي: ماذا؟!

تقدمت منه وجلست في تعب واستسلام : أنا على وشك تهديدك بما خشيته المرة السابقة .. فأخرج سلاحك ولن أهتم ..

تحجر وجهه وارتعش بين ابتسامة جهل عما إذا كنت محقة أم لا وبين تجهم من خوفٍ إن كنت أقصد ما أقول حقا.

هم بمداهنتي وطرد الفكرة من رأسي، فقاطعته: لا يعلم أحد أنك ابن الساقطة بركة.. أليس كذلك؟

انفجر وجهه بالدم واندفع نحوي وجذب مجمع ملابسي في قوة وأنهضني أمام عينه . كنت كدمية بين يديه لا حياة فيها . فلم أقاوم ولم أطرف لفزع ، فصرخ بوجهي : ماذا تقولين أيتها الساقطة؟

أجبته وأنا بين يديه في زهد : لابد أن يكون أبوك قد أخبرك بالحقيقة كما أخبرني .. ولهذا اتهمته بالخرف وأخرجته من حياتك .. نعم يا سيادة اللواء .. أعلم أنه كان حيً ا لوقت قريب .. وأن موته السابق لم يكن إلا تزوير في أوراق رسمية ..

قذفني على المقعد في غضب: عشر ثوان وتختفين من أمام ناظريّ، وإلا أقسم لك أنك لن تخرجي حية!

لم أعتدل من سقوطي على المقعد بتكوّ مي عليه ، وكذبت عليه : أملك الدليل الذي يثبت أنك لم تكن ابنً ا لليلى الحداد .. وإنما ابن ساقطة امتهنت الدعارة ببيوت الفحش ..

صدّ قني ، فلم لا يفعل وقد كنت صادقة في كل شيء حتى الآن عدا ذلك الدليل ، فتحرك في ثورة كليث محبوس داخل قضبان مشتعلة . كان يتوق لدق عنقي ولا يستطيع ، فأكملت : سيلطخك عار إلى الأبد .. ولكن .. لن يحدث ذلك إن أطعتني !

هجم عليّ وحاصر جلستي بجسده واشتعل بوجهي : أتبتزينني أيتها العاهرة؟ ! لا والله .. بل تُ قتلين ولا أهتم لزوجك !

غالبت إغماءة التعب ونطقت في بطء: بل أرحل عن طريقك للأبد.. فقط إن أخبرتني بمكان قبر أبيك..

اعتدل في تعجب: ماذا؟

أومأت له في موافقة: أجل.. هذا هو الثمن.. فقط أريد مكان قبره..

زفر هواءً قصيرًا لضحكة ساخرة في غير تصديق رغم استمرار عبوس وجهه: أنتِ مجنونة!

نهضت بصعوبة واستندت على المكتب حتى كدت أسقط : بالفعل أنا كذلك ! فقط أرح تلك المجنونة .. وأقسم لك .. أنك لن تراها بعد الآن .. فقط أريد رؤيته حتى ولو كان تحت الأرض !

تجهم وقد هدأت ثورته . راقبني في ريبة . « هل تقصد حقً ا تلك المخبولة ما تقول؟ ! ألهذه الدرجة سيطرت تلك الأسطورة على رأسها؟ »،

خرجت أفكاره نطقً ا : ألا زلتِ تظنين حقً ا أنك فيروز التي ادعى رؤيتها؟ ! لم أظن أنكِ مسكينة إلى تلك الدرجة ..

أغلقت عيني في تعب: بل أنا كذلك.. أرجوك.. أنا أحتاج إليه..

اتجه إلى مقعده في بطء شاردً ا ، جلس وظهر على وجهه أنه أدرك شيئً ا كان غائبً ا عنه لسنوات : لم يكن خرفً ا إذً ا ..

اقتربت منه: ماذا تقصد؟

نظر إليّ متعجبً ا مما يقول وكأنه كان يسترجع ذكريات قديمة : لم يكن على لسانه سوى اسم فيروز .. حتى بعدما أصابه الـ ألزهايمر .. نسيني .. ونسي كل شيء .. عدا .. عدا .... ااا .. فيروز .. أخبرني أنها ستأتي للبحث عنه في يوم ما .. لا ! هذا جنون ..

علمت أن الأمر حقً ا قد اكتمل ، فها هو يوصي قبل وفاته بأن أعود إليه ، ربما فهم ما فهمته رغم جنونه وعدم منطقيته . « لن يكتمل الأمر إلا باجتماعنا حتى وإن كنا جثتين مهترئتين »..

انفجرت الرغبة بقلبي فانتفض جسدي وارتميت على المكتب وضربته في قوة صرعت حاتم..

«أين قبره؟!».

رفع رأسه إليّ في تعجب: ومن قال إنه مات؟!

***

تحرّ كت معه داخل تلك القاعة الواسعة . كانت خاوية من الحياة رغم امتلائها بالعديد من أراذل الكهولة . فمنهم من كان يسير كالأطفال بمشّ اءة ، وآخر يجلس وحيدً ا بأحد الأركان يرفض دواء ممرضة كانت تنهره في غلظة . وآخرون يجتمعون حول طاولة يلعب اثنان منهم الطاولة ومن حولهم يصيحون في حماس . وأخرى تجلس على مقعد متحرك تغزل بنطالً ا صغيرً ا من خيوط صوفية في شرود ويأس .

وبعيدً ا ، أسفل النافذة ، كانت الأريكة . كان هناك ذلك الكهل الذي يجلس وحيدً ا بأحد ركنيها وقد أعطى ظهره للجميع مواجهً ا الحائط . رأيته من خلف فدق قلبي . كانت قامته منحنية في استسلام ، وعنقه متدليً ا على كتفه . ارتعشت عيني وتعالت أنفاسي فلم أعد أسيطر عليها . مال عليّ حاتم هامسً ا : لا أعلم أين وضعوه .. سأبحث عنه ..

أوقفته بيدٍ وأنا أحدق بذلك الركن البعيد: بل هذا هو!

نظر إلى الجالس، وتأمل ظهره: من؟ هذا؟! الرجل لم يستدر حتى لتعلمي إن كان هـ...

قاطعته وقد أشرق وجهي بابتسامة أدفأتني: بل هو..

تركت يده وتقدمت في خطوات بطيئة تجاه ذلك الركن الذي تباعد عن خطواتي بُ عد أول الكون وآخره . سمعت كلمات الطبيب اللهثة وهو يحدّ ث حاتم ورائي ..

« سيادة اللواء .. حمداً لله أنك جئت .. اتصلت بك كثيراً .. أبوك لن ينجو لأيام أخرى .. لقد تعطلت كامل أجهزته .. فلتودّعه وداعاً أخيراً »..

لم أهتم بما قال الطبيب ، فقط التفتُّ في حالة من الانبهار البلهاء وخاطبته أخيراً : اتركني معه لساعة واحدة .. ثم اقبض عليّ!

تعجب وتقدم مني: أقبض عليكِ.. لمَ؟!

ابتسمت له في دموع وأنا أشتاق للركض إلى أبيه: فلتسأل زملاءك!

وتركته غريق الحيرة . وتقدمت بخطوات خفيفة تجاه حبيبي . كنت أشعر وكأن الأرض اختفت من تحت قدمي . كنت أُحمل في الهواء إليه . عبرت جلسات المسنين فتحولت رقابهم إلى خطواتي متعجبين . تسرّبت المشاعر الغليظة من جسدي رويداً .. فسقطت الكراهية .. وخطوت على الحقد .. وأزحت الخوف بباطن قدمي . وصلت إليه والمشاعر النقية تتدفق داخل شراييني في هدوء وانسياب . كان الدم بارداً لطيفاً كالحليب الأبيض . ونسمات الهواء تقبّل وجهي وذراعي كلما اخترقتها . كنت روحاً تحررت من جسد متعرق ، ورفرفت فوق سماء عزيز .

استدرت ووقفت أمامه . كان عجوزاً أطمس العجز ملامحه فلم يُبق منها سوى تجاعيد ناعمة ، وعين مغلقة وشفتين معوجتين . كان مستسلماً ، وقد غطى جسده بملاءة بيضاء كوجهه .

توقف الزمن ، واختفى كل من في الغرفة فصارت خاوية بيضاء الجدران . مددت يدي في هدوء ودمعي ينهمر ، وربت على طاقية رأسه الصغيرة وقد لمع بياض شعره ذهباً تحت ما

تبقى من ضوء الشمس خلف تلك السحابة التي اتبعتني .

فتح عينه في بطء. واهتزت أهدابه البيضاء في تعب. فهبطت على قدمي أمام جلسته باسمة.

تحجر وجهه بغير تصديق وبسط حاجبيه ولمعت عينه بدمع خالط دمعي: ف.. فيروز!

ابتسمت له: ع.. عزيز.

أغلق عينه فسقطت دموعه وتنفس في ارتياح بدا وكأنه تأخر كثيراً..

اقتربت منه في بطء ، وصعدت إلى الأريكة . خلعت حذائي وتركته فاصطدم بالأرض دون صوت . وجلست إلى جوار حبيبي في هدوء .

سحبت طرف ملاءته وتغطيت بها. أملت رأسي على كتفه. فأمال رأسه فوق رأسي.

تغطينا معًا بغطاء واحد وقد التحمت روحانا. وصرنا كما قبل الأزل.

نفخة إلهية بروح تعلقت بالهواء قبل أن تنقسم..

شكر وتقدير

إلى الأخ والصديق الكاتب/ مصطفى زايد، على دعمه الفني والإنساني طوال رحلة كتابة هذا العمل.

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب تراسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: -0235688678 0235611772

هاتف محمول: 01005248794 /01001872290 / 01000405450

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing
kayan_publishing
Kayanpublishing
kayanpublishing
+KayanPublishing
KayanPublishing